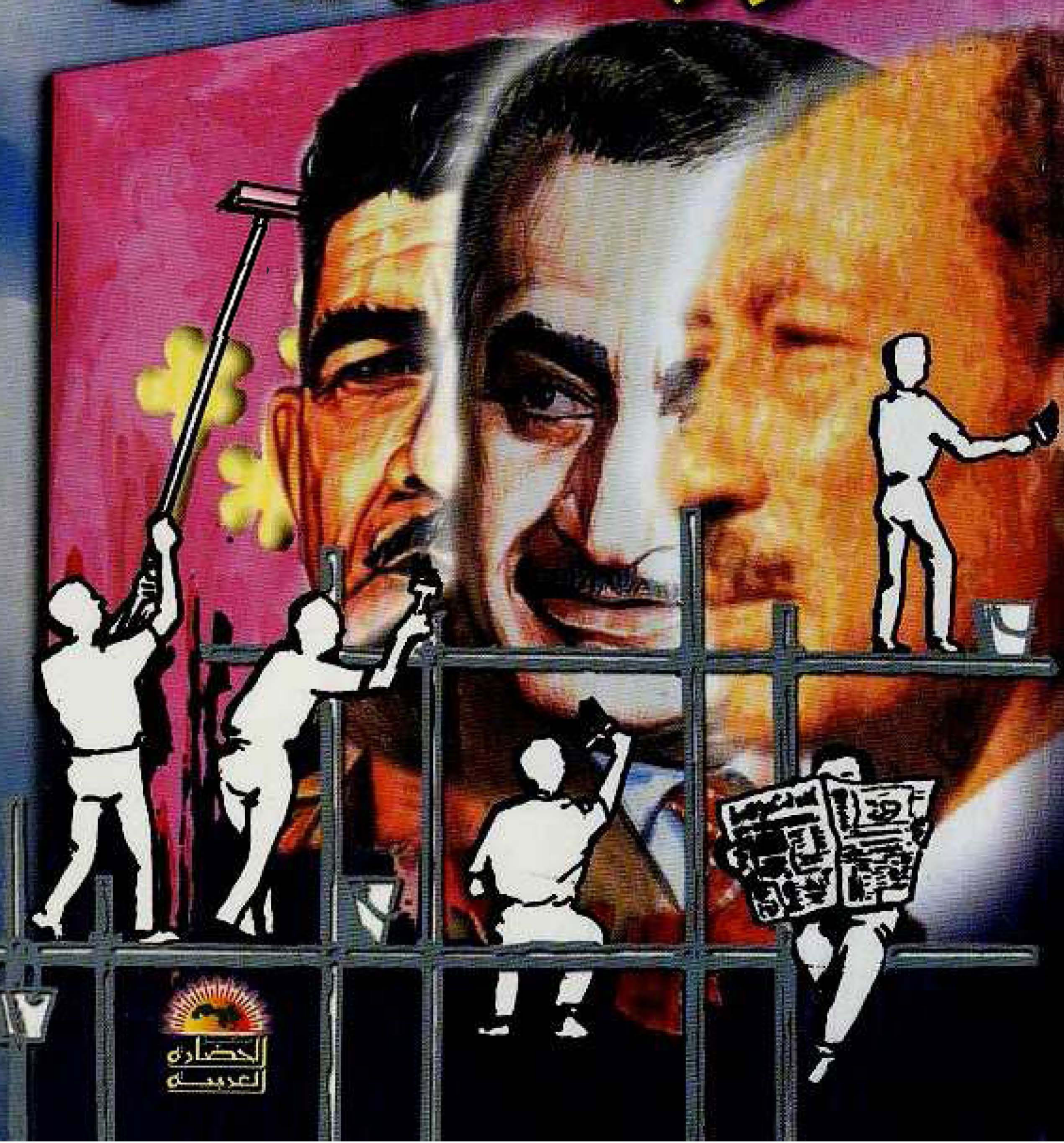
د. عزة عزت

صورة الرئيس



د. عـــزة عـــزت

صورة الرئيس



الكتاب : صورة الرئيس

الكاتب : د. عـــزة عـــزت
(مصر)

الناشـر : مـركز الحضارة العـربيـــة

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٥

رقـــم الإيــــداع ٢٠٠٤/١٤٨٥٠
الترقيم الدولى، I.S.B.N.977-291-587-1

الغلاف :
لوحة الغلاف: للفنان فكرى توفيق
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيـــذ : عـــاطـف فـــوزى
تصحيــح : أبـو بكـر محمـود



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

"المستبد إنسان، والإنسان أكثر ما يألف الغنم والكلاب، فالمستبد يود أن تكون رعيته كالغنم؛ دراً وطاعةً، و كالكلاب تذللا وتملقاً، وعلى الرعيةِ أن تكون كالخيل إن خُدِمت خَدَمت، وإن ضُرِبَت شرست.. بل عليها أن تعرف مقامها، هل خُلقت خادمة للمستبد؟ أم هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها؟ والرعية العاقلة تُقيِّد وحش الاستبداد؛ بزمام تستميت دون بقائه في يدها؛ لتأمن بطشه، فإن شمخ هزت به الزمام، وإن صال ربطته".

عبد الرحمن الكواكبي

المقدمة

لماذا هذا الكتاب؟

بدأت فكرة الإعداد لهذا الكتاب قبل أعوام، من منطلق التعريف بأساليب ترويج صور الرؤساء الغربيين - خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية -التي بدأت تروج أيضًا في عالمنا العربي، والتي أصبحت تدفع إلى سدة الحكم بأشخاص، نتأثر جميعنا بما يمارسون من سياسات، وتنعكس بالضرورة على حياتنا، المشاريع والمبادرات التي يطرحونها، والقرارات التي يتخذونها، مهما بعدت الشقة الجغرافية بيننا وبينهم، ولعل أبرز مثال على ذلك الرئاستان الأخيرتان في أمريكا، والآثار التي ترتبت على مستقبل منطقتنا العربية والإسلامية من جراء ما اتخذتا من قرارات.

ذلك على أن تكون الدراسة إعلامية خالصة بالأساس.. ولا بأس لو عرجنا على بعض الجوانب التاريخية، والسياسية المرتبطة بها.. لكنني وبعد مرور ثلاث سنوات، استنفدت في تجميع مادة هذا الكتاب وبداية صياغته، فوجئت بأن الأمر قد بات أخطر مما كنت أتصور؛ في ضوء ما هو مطروح حاليًا من مبادرات إصلاحية، تُفرض على دول المنطقة من خارجها، وعلى ضوء الرغبة الأمريكية في فرض نمط من الديمقراطية تتخيله الرئاسة الأمريكية وحدها، وعلى ضوء ما هو

مطروح الآن داخل الدول العربية حول الخلافة السياسية، وفكرة توريث الحكم في النظم الجمهورية، والذي كانت سوريا البادئة به، وتلوح في الأفق العربي بعض تطبيقات أخرى لهذا النموذج السوري، خاصة بعد مرور سنوات على استمرار هذه التجربة السورية في التوريث الجمهوري.

كل هذه الأمور تعطي لهذا الكتاب ولموضوعه الإعلامي الصرف أهمية بالغة.. لا أدعيها.. بل يفرضها توقيت طرحه في الأسواق؛ كي يُصبح ليس مجرد كتاب إعلامي عن صورة الرؤساء في الغرب والشرق.. لكنه كتاب يُنبه إلى خطورة ما يُمارس على الساحة الدولية، ويُنظر إليه على أنه لون من ألوان العلاقات العامة، تطور ليكون نوعًا من الدعاية السياسية، تقودنا في العالم العربي والإسلامي بالذات، وفي الدول النامية بوجه عام إلى حافة هاوية من الهيمنة، والسيطرة الاستعمارية ذات الطابع الجديد، وتجرنا إلى حروب لا مبرر لها، وليس لنا فيها ناقة ولا جمل.. ولن نجني من ورائها سوى تدمير بنيتنا التحتية، والإجهاز على كل ما أنجزناه عبر عقود التحرير، التي تخلصنا فيها.. أو خيل لنا أننا تخلصنا خلالها من كل أشكال الاستعمار القديم، لتخرج علينا القيادات الأمريكية بأساليب استعمارية مستحدثة، تروِّج لها وسائل إعلامهم الجهنمية، تحت مسميات جديدة مثل: العولمة، والشرق الأوسط الكبير... إلى آخر ما تفرزه لنا كل يوم.

هذا وقد اتضحت لي نقاط الأهمية السالفة الذكر بعد أن كان هدفي من هذا الكتاب، هو تقديم دراسة إعلامية، ترصد أساليب رسم صورة الرؤساء؛ إشفاقًا مني على رؤسائنا، وملوكنا، وأمرائنا، وشيوخنا المعاصرين لما يفعله بصورتهم من يتولون هذه المهمة الشاقة.. ألا وهي الترويج لصورة مرغوبة، تقدمهم بشكل أفضل إلى

شعوبهم، وإلى العالم، وبعد أن بدأتُ أرصد السمات التي يحرص على تأكيدها صناع الصورة الذهنية للحكام العرب، أيّا كان لقبهم الرسمي: رئيس جمهورية، أو ملك، أو أمير، أو سلطان، أو شيخ، أو عاهل، أو عقيد، أو المهيب، أو الركن..

وسواء أكان الحاكم صاحب عظمة، أو صاحب جلالة، أو صاحب سمو، أو فخامة.. فالمسميات ما أكثرها، والسمات كما وجدتها هي هي منذ العصور القديمة!! بل الموغلة في القدم، في مصر الفرعونية، أو في بلاد ما بين النهرين، في أقدم الحضارات العربية، أو في العصور الوسيطة، وحتى عصرنا الحالي، السمات التي يُروِّج لها واحدة لم تتغير!!

استوقفتني هذه الظاهرة الممتدة والتي لم تتبدل، رغم تطور أساليب التأثير في الرأي العام، في كل أنحاء العالم، وما نراه في الغرب من تقدُّم في صناعة صورة النجم أو الرئيس، التي باتت مهنة لها أصولها وقواعدها، وبرامجها، ومخططوها، ونحن مازلنا محلك سر لم تتغير أساليبنا في هذا المجال!! وكأننا في عصور ما قبل التاريخ!!

هذا وقد كانت نيتي معقودة على أن أقوم ببحث قصير عن صورة الرئيس (أو السلطة)، وكيف ترسمها الصحف، وكيف تحاول تثبيت سماتها لدى جماهير القراء، من خلال الكلمة المكتوبة، سواء أكانت مادة إخبارية، أو تعليقات وآراء.. أو من خلال الصور الفوتوغرافية، من حيث الحجم، والشكل، وزاوية التصوير، وما يصاحب الصورة من تعليق، وقد لاحظت بحكم تخصصي في الصحافة العربية والدولية بوجه عام، وفي الصورة الذهنية كتخصص دقيق: أن أسلوب صناعة الرؤساء في العالم العربي لم يتغير كثيرًا عبر العصور، فما كان يُقال في الألواح القديمة والبرديات عن سمات الفرعون الإله، أو الحاكم

البابلي، لم يختلف كثيرًا عما كان يُقال في وصف الحُكّام، في عصور الخلافة الأموية، فالعباسية، فالفاطمية، ثم في عهد المماليك، فمحمد على باشا الكبير، ثم في العصر الخديوي، فالملكي، فالجمهوري.. دون فروق تذكر!! ولذلك بدأت البحث بهذه الفرضية.. مع الأخذ في الاعتبار وجود بعض الفروق الطفيفة بين كل عصر وآخر، وبين كل حاكم وآخر.

هذا وقد لاحظت أن ما كان يُدبَّج في بدايات ظهور الصحف، كأول وسائل اتصال جماهيرية -منذ الوقائع المصرية- لم يختلف في مضمونه كثيرًا عمًا يُقال عن الحكّام والرؤساء الآن، اللهم إلا من حيث اختلاف الأسلوب، وليس المحتوى، أما التركيز على سمات بعينها، فلا اختلاف فيه عبر العصور وعلى امتدادها، في أساليب تقديم الحكام.. سواء أكان النظام ملكيًا، أو جمهوريًا!!

هذا وقد رحت أتساءل - كباحثة - هل تستند البرامج التي تهدف لتشكيل صورة الحكام العرب إلى دراسات علمية، كما هو الحال في معظم الدول الغربية؟ أم أنها تأتي عفوًا، ووفقًا للمصادفات، ومن وحي استغلال اللحظة التاريخية ؟ أم تراها تعتمد على بعض السمات الفعلية الجيدة في شخصية الرئيس لتأكيدها وإبرازها، والتركيز عليها، والترويج لها ؟ لكنني لا إراديًا ورغمًا عني بدأت أقارن بين واقع الحال قديمًا وحديثًا، وهو أن سمات صورة الرئيس أو السلطة في وسائل الإعلام المكتوبة هِيَ هِيَ، نفسها منذ مئات السنين.. إن لم يكن منذ آلاف السنين!! والدليل على ذلك ميراث من المسلات وجدران المعابد الموروثة عن المصريين القدماء، وميراث مسطر عليها يعكس تأليه الحاكم الفرعون الإله! لم يتغير إلى ما يجب أن تكون عليه أساليب صناعة صورة الرؤساء في عصر السماوات المفتوحة، وشبكة المعلومات العالمية المسماة بالإنترنت، دون استغلال حقيقي لكل

الوسائل والوسائط المطبوعة، والمسموعة، والمرئية مجتمعة في هذه الصناعة، وأيضًا دون استغلال لشتى العلوم الحديثة المتعلقة بدراسات الصورة، وهي: علم النفس الاجتماعي، وعلوم الاتصال، وعلم السياسة، وفنون العلاقات العامة كي يحدث التأثير المرجو.

هذا وقد هالني أن صُنّاع صورة الرؤساء العرب، وواضعي برامج تشكيلها أو تحسينها - إذا كان هناك ثمّة صنّاع محترفون لها - لا يهتمون كثيرًا بقياس اتجاهات الرأي العام المتقلّبة، أو المتذبذبة قبل أن يضعوا برامجهم وخططهم.. حتى يستطيعوا أن يحققوا الهدف مما يرسلون من رسائل إلى الجمهور المستهدف، وعجبت.. كيف لا يحرصون على أن يكون هذا القياس دوريًا ومستمرًا ؟! ليتم على أساسه تعديل البرامج؛ وفقًا لمتطلبات كل موقف، وكل ظرف سياسي أو مفاجئ.

كما أدهشني أنهم لا يكلفون خاطرهم متابعة الصورة المقدمة في وسائل الإعلام، ورصد ما فيها من أخطاء، كي يحاولوا تصحيحها أولا بأول؛ من خلال برامج آنية.. لكنهم وللأسف يوهمون الرؤساء بأنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، وأن صورتهم زاهية لدى الرعية - كل الرعية - وأن جماهيريتهم كاسحة (٩٩,٩٩٩٩٪)، وشعبيتهم في ازدهار دائم!! والغريب أنهم يصدقون هذه الكذبة المفضوحة التي أطلقوها بأنفسهم!!

هذا وبالطبع لا أقصد بالحديث هنا شخصية الرؤساء.. بقدر الحديث عن الصورة الذهنية المنطبعة لدى الناس عن هؤلاء الرؤساء بمعنى: "The Image" أي: " تكوُّن صورة لشيء أو شخص، في ذهن إنسان ما، أو فكرته التي كونها عن الشخص، وصورته التي رسمها له في ذهنه، أي انطباعه عنه"[1]، أو في تعريف آخر للصورة يقول:

(١) د. كرم شلبي -معجم المصطلحات الإعلامية - إنجليزي / عربي - دارالشروق - الطبعة الأولى ١٩٨٩ - ص ٢٨٥ .

"Mental Image means the Mind'eye sees the world, and from the look of it, this mind needs glasses. "[١]، وهو بالتحديد ما تُروِّج له الصحف ووسائل الإعلام، من سمات هذه الصورة، مع الأخذ في الاعتبار أن صُنّاع الصورة كانوا دائمًا موجودين بشكل أو بآخر، فهم من كانوا سلفًا يشكلون حاشية أي سلطان أو حاكم، ومَن حوله من الشعراء، الذين كانوا يدبجون القصائد العصماء في مدحه، والترويج لسمات قد لا تكون فيه أصلا؛ طمعًا في عطاياه لهم.. على شاكلة القول: "ومثلك لم تلد النساء"!! بكل ما يحمله المعنى من مبالغة ممجوجة!

هذا وقد هالني قدرة الشعوب العربية على تحمل مثل هذه المبالغات الفجة، التي لا يتسع الكتاب لاستعراض نماذج لها، من التراث الشعري العربي.. لكنها على أية حال مبالغات لفظية كلامية، تتخذ من الشعر وهو ديوان العرب، وكل فنونه القائمة على الفخر وسيلة لتمجيد الحاكم، ويقابلها في الحضارات الأخرى، أو في المجتمعات البدائية الأخرى مثل: أفريقيا، وآسيا، وجزر المحيطات، والإسكيمو، مبالغات شكلية، من نوعية ارتداء الحاكم رداء من الريش، أو أقنعة مرعبة، أو عمل تماثيل له مبالغ في حجمها، ناهيك عن استعارة صفات من الحيوانات الأكثر قوة.

أما عن السمات العامة التي كان العرب يُروِّجون لها في وصف حكامهم.. مع الأخذ في الاعتبار وجود قدر من التباين بين هذه المجتمعات، وتفاوت مستوياتها الحضرية والبدوية، في مصر، وبلاد الرافدين، وفي الصحاري العربية، فكانت ومازالت: الشجاعة، والجود والكرم، والأريحية، ورحابة الصدر، والحكمة، والذكاء، وأصالة المحتد، والتفاني في خدمة الرعية، والتواضع... إلى آخر هذه المنظومة التي

---

(١) Yahoo web site search.

تُمثل قيمًا سامية، يفخر بها العرب بوجه عام.

أما عن الألقاب التي يخلعونها على الحكام فكانت تزيد الهوة بين الحُكام والمحكومين، بما تضفيه على الحاكم من سِمات، يتصور مبتكروها أنها تُجمِّل الصورة، وتُقرِّب الحاكم إلى قلوب الرعية، والتي كان يقابلها في الغرب، إضفاء ملامح من العظمة على الحكام، تتمثل فيما يرتديه زعيم القبيلة من الهنود الحمر من ريش، أو في العباءة القرمزية التي كان يلبسها البابا في الفاتيكان، أو التاج المرصع بالجواهر، أو العمامة المبالغ في حجمها، وكلها توحي بأن الحاكم أكبر من الكل، وأقوى وأثرى من الجميع،أي أنه مميز عنهم، كما كان أيضًا يُشاع أنه لا ينطق إلا حِكمًا، ولا يعمل إلا خيرًا؛ حتى يكتسب حكمه شرعية إلهية - لم يكن لأية شرعية غيرها أي أساس - فلا يخضع أو تخضع أعماله للمراجعة، أو إعادة التقييم كل حين.. كما يحدث الآن في ظل ما استقر من أسس ديمقراطية، تسمح بتداول السلطة.

وقد كانت تروى عن الحكام العرب أحاديث بليغة، أقرب إلى المأثورات التي تقطر حكمة، ونسبت إليهم.. دون أن تتفوه بها ألسنتهم، كما تُحكى عنهم قصص أقرب إلى الخيال من شأنها أن تصبغ على الحاكم ملامح من البطولة الأسطورية الخارقة التي لم يمارسها!! ومن المؤسف أن هذه القصص مازالت تعيش بيننا ونرددها وكأنها حقيقة تاريخية مؤكدة.. لا بل وننسج على منوالها في وصف رؤساء هذا الزمان وحكامه.

المهم أن هذه الأبواق الدعائية ظلت على عهدها في العالم العربي تقوم بدورها.. مع اختلاف في طبيعة الوسيلة أو الوسائل والأساليب فقط، ما بين اتصال شخصي، أو اتصال جمعي مباشر يتمثل في الندوة، أو المجلس، أو الديوان، تبث من خلالها رسائل اتصالية، تطوَّرت فقط طريقة إرسالها إلى أن أصبحت تُرسل عن طريق وسائل

الإعلام المعاصرة: المقروءة، والمسموعة، والمرئية.. ولكن دونما فرق في محتوى ومضمون هذه الرسائل، فقط قد يكون الأسلوب قد تغيَّر وانتقل من الشعر إلى النثر، ومن الخطبة إلى الحديث أو الحوار الصحفي، أو الإذاعي، أو التليفزيوني، و لكن لم تختلف ملامح الصورة المرغوبة، التي يحاول أن يطرحها من يقومون بالمهمة.. سواء أسميناهم: مريدين، أو حواريين، أو حاشية، أو أتباعًا ومطارزية[1]، أو أسميناهم رجال الإعلام والدعاية، أو خبراء صناعة الصورة، أو أخصائيِّ العلاقات العامة.

هذا وبما أن حكامنا العرب يهبطون علينا فجأة ودون سابق تمهيد؛ بمعنى أنه لا يتم التمهيد لتوليهم بالأساليب الديمقراطية المعروفة، أي يُرشَّحون للرئاسة، ويقدمون أنفسهم من خلال حملات دعائية منظمة، ومناظرات عامة بين المرشحين، ويتم انتخابهم بالاقتراع الحر، لكنهم يتولون الحكم غالبًا على حين غرة؛ بعد وفاة الحاكم، أو بالانقلاب عليه دون تمهيد مسبق للشعوب، فيجد المحيطون بهم وقد فوجئوا أن المطلوب منهم رسم صورة لهؤلاء الرؤساء على وجه السرعة، فإذا كان الشخص معروفًا سلفًا كشخص قريب من السلطة، أو ولي عهد أو وزير سابق... أو أيًا من كان من الشخصيات العامة، فالأمر يكون أسهل على فريق الترويج له بعد الإعلان الشهير: " مات الملك عاش الملك "، إذ تكون هناك صورة ما ولو باهته، أو انطباع أوَّلي عن الشخص الذي تولى الحكم، أما إذا كان الشخص غير معروف فإن الانطباع الأول عنه يلعب دوره في تشكيل الصورة، فإذا ما توافر لمن يتولى الرئاسة صورة جماهيرية طيبة كانطباع أوَّلي يمكن أن يبني عليه خبراء الصورة، فيؤكدون بعض السمات، ويُنحّون السمات

(١) المطارزية: فئة من الأتباع الذين يحيطون بالشيوخ في الخليج العربي بالذات، ممن تربوا في قصورهم ، والموالين لهم.. وقد تكون لهم وظائف دنيا، أو مجرد مرافقين لهم في الحل والترحال، وقد يكون للفظ أصل لغوي فارسي.

الأخرى غير المرغوبة.. فخير من الله، أما إذا كان الانطباع الأولي أو المبدئي سيئًا، فهنا يصعب تحسين الصورة المنطبعة؛ إذ يتطلب الأمر جهدًا مكثفًا، وتخطيطًا محكمًا، وتصميم برامج صعبة التنفيذ.. لكن الأمر برمته غير مستحيل على أي حال؛ بدليل نجاح صُنَّاع الصورة في الغرب وفي الشرق في تجميل صور الحكام، التي قد تكون كاذبة هنا أو هناك.

المهم هنا التأكيد على أننا لن نتناول الشخوص، ولكن سنتناول الصور، ولن نتناول القضايا التي تعرضها وسائل الإعلام، إلا في إطار ما يخدم الصورة، كما سنتعرَّض لتسخير وسائل الإعلام لخدمة السلطة، أو كما يُقال: قيامها " صباح كل يوم بإعداد ماكياج جميل لوجه السلطة البشع، والهدف من ذلك هو تغطية أخطاء السلطة، وستر عيوبها، وتبرير فسادها، وتصوير فشلها في حل مشاكل المواطنين نجاحًا باهرًا"[1]، وكأنهم كالفراعنة الذين كانوا يخفون وجوه مومياوات ملوكهم بقناع ذهبي، ويا ليتهم يفعلون ذلك وفقًا لخطط مدروسة، ووفقًا لقواعد اللعبة كما هي معروفة، أو كما تُمارس في العالم الغربي!!

ففي الغرب تحظى برامج رسم صورة الرؤساء باهتمام بالغ.. حيث تقوم هناك مؤسسات كبرى على هذه المهمة، بما يتوافق وقيم هذه المجتمعات الغربية، وما يمكن أن يلقى قبولا من هذه الشعوب مستخدمين شتى الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية، خاصة قبل الانتخابات الرئاسية في شكل حملات مكثفة، تستمر طوال فترة حكم أي رئيس تمهيدًا لفترة رئاسة ثانية معتمدين على ما تسفر عنه استطلاعات الرأي العام المستمرة؛ لإزالة أية محاولة لتشويه الصورة، خاصة وأن هناك مؤسسات رصد واستطلاع رأي مضادة، أو معارضة

(١) البحوث الإعلامية في الوطن العربي - إعداد الزبير سيف الإسلام - ص ٤٦.

تتصيد الهفوات والأخطاء، وتكشف عن الخفي منها، وتقوم بتضخيم الأمور في محاولة لإسقاط الرؤساء، وقد تنجح في ذلك أو تفشل، المهم أن بها متخصصين يعكفون على هذه المهمة، خاصة في أمريكا، التي أسقِط فيها نيكسون كمثال بسبب فضيحة ووتر جيت، في حين لم تفلح فضيحة مونيكا لوينيسكي كمثال آخر في الإطاحة بالرئيس بيل كلينتون، ولو تصورنا أن مثل هذه الأمور تحدث في شرقنا العربي!! لاتُّهم من كشفوها في أهون الأحوال بإثارة البلبلة، والفتن، والشغب، إن لم يُتهموا في أسوئها بالتجسس وبالخيانة العظمى، وبمحاولة قلب نظام الحكم، ولحوكموا وأعدموا على كل ما كشفوا من فضائح، أيًا كان نوعها سياسية أو جنسية، ولتم التعتيم على كل الفضائح، من منطلق تأليهنا للحكام، وتنزيهًا لهم عن كل خطأ!

هذا وقد يتساءل البعض: لماذا لا يمكن كشف أي مستور متعلق بالرئاسات العربية ؟ ولماذا لا يحدث ذلك في مجتمعاتنا العربية والإسلامية ؟ والرد المباشر والبسيط هو: أن أمر تداول السلطة وفقًا لإرادة الشعوب غير واردٍ لدينا أصلا، والديمقراطيات العربية في مجملها مزعومة وصورية، ذلك على مستوى الحكم والسياسة، أما على مستوى الإعلام فالسبب هو أن القائمين على رسم صورة الرئيس هم غالبًا من غير المتخصصين، وهم مجرد أتباع له، لهم مصالحهم الشخصية في استمراره في سدة الحكم؛ كي يستمروا في مواقعهم، ويستمروا في تحصيل المكاسب التي يحققها لهم اقترابهم من الحكام.. ليس بالتعتيم على الأمور السيئة فقط.. ولكن أيضًا بمحاربة أي شخص من خارج " الكومبينة " من الاقتراب أكثر من اللازم، وعدم إتاحة الفرصة لأحد لمعرفة ما لا يجب أن يعرف، ومن قد تسول له نفسه أن يتفوه بكلمة فمن السهل الإطاحة به قبل أن ينطق، وتلقينه درس عمره كي يكون عبرة لغيره.

هذا ولا يمكن الادعاء بأن كل صور الزعماء في الغرب رسمها خبراء الصورة الذهنية، ومؤسسات العلاقات العامة؛ لأن هناك بعض الزعماء الغربيين قد رسمت صورتهم الظروف السياسية، أو المعارك العسكرية الحاسمة التي خاضوها.. وليس بالضرورة أن تكون الصورة حقيقية، ففي الحروب أو نتيجة لها تكون سمات " البطولة " والقيادة والزعامة من نصيب المنتصر في الحرب، مثلما حدث بعد الحرب العالمية الثانية؛ بالنسبة لجوزيف بروز تيتو في يوغسلافيا، وأيزنهاور في أمريكا، وشارل ديجول في فرنسا، وونستون تشرشل في بريطانيا، فهؤلاء لم ترسم صورهم مؤسسات، في حين تكون سمة " الدكتاتور " من نصيب المهزوم، كما كان الأمر بالنسبة لهتلر الذي صنعت له الدعاية النازية ووزير دعايته جوبلز صورة مهيبة كقائد ينتظره النصر، ثم هزم فلحقت به كل السمات الذميمة، وكذلك الحال بالنسبة لموسوليني الزعيم الإيطالي الفاشستي.

أما ستالين فيعد من أبرز الأمثلة على خطورة تأثير أجهزة الإعلام.. الأمر الذي يجعلنا نتساءل: إلى أي حد يمكن أن تكون الصورة الكاذبة أكثر إقناعًا، وأطول تأثيرًا من الصورة الحقيقية؟! ما لم يأت حدث جلل كالانتصارات العظيمة، أو الهزائم الساحقة؛ لتقلب الصورة بشكل تام.. حينما يُظهر التاريخ بعض الحقائق الخفيَّة، ويقول كلمته النزيهة، التي قد تنصف صاحب الصورة المشوهة، أو تظهر ما كان خفيًا من ملابسات من شأنها أن تعيد إلى الصور بوجه عام، جانبًا من السمات الحقيقية التي كان مسكوتًا عنها.

أما بالنسبة لبعض الزعماء الشرقيين، الذين قادوا حركات التحرر في بلادهم، وبرزوا في إطار ظرف تاريخي معين، من مد ثوري، أو حركة تحرر من الاستعمار القديم، فقد صنعت الظروف التاريخية صورهم، ونذكر منهم الزعماء: جواهر لال نهرو في الهند، وأحمد

سوكارنو في أندونيسيا، وجمال عبدالناصر في مصر، ومحمد على جناح مؤسس دولة باكستان الإسلامية، وهم من صنعت صورتهم الظروف التاريخية، واستكمل حواريوهم ملامح الصورة فيما بعد ذلك؛ وخدمتهم الأحداث الإقليمية والدولية في هذه الحقبة التاريخية: كتحسين مستمر، أو الترويج لاستمرار شعبيتهم التي صارت كاسحة وتأكيدها فيما بعد.. وإن كنت أستثني منهم الرئيس الهندي جواهر لال نهرو، الذي استندت زعامته ومن ثم صورته - أكثر من رفاقه - على شرعية حقيقية: نظرًا لما تتمتع به الهند من نظام ديمقراطي حقيقي، يُضارع الديمقراطيات الغربية، ولم يكن له مثيل في الشرق آنذاك.

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن عمليات الترويج للصورة ليست جديدة تمامًا، فهي موجودة منذ القدم في الحكم، وفي السياسة، منذ بدء رسم صورة البطل في الأسطورة الشعبية، بإسباغ هالات من القدسية، والسمات الخارقة على بطل الأسطورة.. سواء في اليونان (في الإلياذة والأوديسة)، أو في الملاحم الشعبية العربية التي تصوُّر البطل الشعبي العربي وكأنه لا يأتيه الباطل من أمامه أو من خلفه، وتسبغ عليه سمات خارقة، منذ أبي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن عربيًا، إلى أسطورة البطولة الحديثة، التي تمثلناها في فترة الستينيات في " تشي جيفارا " بطل التحرير في أمريكا اللاتينية، والذي يتمثلها الشباب حتى الآن، بدليل رفع صورته كرمز في المظاهرات التي اجتاحت دول العالم - شرقه وغربه - احتجاجًا على ضرب العراق من قبل التحالف الأنجلو- أمريكي في مارس ٢٠٠٣م.

و لعل فهم الناس - كل الناس - لأساليب رسم الصور الذهنية للرؤساء والمرشحين للرئاسة، أمر أراه غاية في الأهمية؛ لأن تمرير أية شخصية لتجلس على سدة الحكم في بلد ما أصبح في غاية الأهمية

والتـأثيـر على كل شـعـوب الدنيـا، بعـد أن أصبح العـالم كـالأواني المستطرقة، تُسمَع فيه كل حـركة أو همسـة، وبعد أن أصبح رئيس الولايات المتحـدة الأمـريكيـة بالذات رئيسًـا للعـالم، وبعـد أن سـاد الأسلوب الأمـريكي في رسم صور الرؤسـاء، وبدأ يُتبع في تمرير بعض الشخوص المَرْضيّ عنهم بالطريقة الأمريكاني؛ ليحكموا ويتحكموا في الشعوب العربية، ويتم تمرير صـورتهم وفقًا للقيم الغربية، وبتسلل قد يشعـر به بعض الصفوة المثقفة، ويدركونه بوعي.. دون أن يستطيعوا التصدي له.

وهنا لا بد من القول بأن علم صياغة الصورة الذهنية كعلم جديد نسبيًا (ظهر في مطلع الخمسـينيات من القرن الماضي) قـد تناولته كتابات كثيرة في الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، تعرضت لأساليب الاستحواذ على الجماهيـر عن طريق صياغة الشخصية القادرة على النفـاذ إلى القلوب، لكن علم الصـورة الذي تكرس في أمـريكا، ليس اختراعًا أمريكيًا محضًا، لكن أمريكا هـي التي وضعت قواعده كعلم، يجمع بين عدد من العلوم السياسية والاتصالية والنفسية، في حين أن التاريخ يحدثنا بأن " نابليون أنشأ لنفسه مكتب إعلام، يختص بكل ما يتعلق بالجانب الإعلامي في سياسته، وقد أسماه مكتب الرأي العام.. رغم أن مـهمتـه لم تكن اسـتطلاع اتجاهات الرأي العام لدى الشـعب الفـرنسـي، وإنما كـيفـيـة التـأثيـر على الشـعب باسـتـخـدام الوسـائل الإعلامية. كما أن الداهية الإيطالي ماكيافلي من قبله بقرون كانت له إسـهامـاته الخـاصـة في هذا الشـأن"[1]، لكن تسـويق الرؤسـاء بأسلوب علمي ومـدروس قـد أصبح يشـبـه فن الإعـلان التجـاري، كمـا وصفته جـريدة نيـويورك " وورلد تلجـرام " الأمـريكيـة عـام ١٩٥٠ قـائلة: "إن السياسيين بدءوا يطبقون جميع الوسـائل والأساليب المستخدمة في

(١) محمد سلماوي - الصورة الجماهيرية لجمال عبد الناصر - قضايا قومية ٤ - دار الموقف العربي - ص ٦ .

الإعلان عن السلع الاستهلاكية، من السيارات إلى صابون الحمام"[1].

كما أوضح عالم الاجتماع المعروف ديفيد وايزمان، في كتابه المعنون "الجماعة الوحيدة": أن الأمريكيين في ولعهم بالسلع الاستهلاكية قد أصبحوا مستهلكين للسياسة أيضًا.... وأنه مثلما يكون لطريقة تغليف الهدايا أثر بالغ في إقبال المستهلك على شرائها، فنفس الحال بالنسبة للسياسة، حيث البريق الشخصي لرجل السياسة قد أصبح من أهم عوامل الإقبال عليه من الناخبين"[2].

وقد كتبت مجلة تجارة الأمة التي تصدرها الغرفة التجارية الأمريكية في بداية عام ١٩٥٦، تعلن عن بداية عهد سياسي جديد، يتسم باتباع السياسة لأساليب التجارة في ترويج سلعها، و" أن كلا الحزبين أصبح الآن يعمل على تسويق مرشحيه؛ باتباع نفس الأساليب التي تتبعها التجارة في تسويق بضائعها، وفي مقدمتها الاختيار العلمي للعناصر الجاذبة للجمهور والتكرار المخطط"[3].

ولا بد من الاعتراف بأن أمريكا بالذات قد نجحت في مجال تشكيل الصورة أيَّما نجاح، وبشكل جعل الكذب يبدو وكأنه الحقيقة المحضة، حتى أن البسطاء من شعبنا العربي.. والمصري بالذات يصف أية كذبة محبوكة، أو حيلة متقنة، أو صورة مركبة، أو ملفقة ومفبركة بحرفية ودقة، أو صورة فوتوغرافية يلمع فيها برق الفلاش.. دون التقاط لصورة حقيقية، بأنها صورة أو حركة " أمريكاني "، وقد نجحت أمريكا بالفعل في تسويق صور رؤسائها لشعبها ولنا أيضًا حتى بتنا نتابع المعارك الانتخابية الأمريكية وكأنها تدخل في صميم حياتنا، وقد أثبتت الأيام صدق ذلك بالفعل، فنحن نتأثر بأية رئاسة تُختار هنا أو هناك، في كل أنحاء العالم، ولا بد أن ينتبه سواد الناس

(١) نقلا عن المرجع السابق - ص ٧ .

(٢) نقلا عن المرجع نفسه - ص ٩.

(٣) نقلا عن المرجع السابق - ص ١٠.

إلى خطورة أن يصل إلى منصب الرئيس في أية دولة من هو ليس أهلا له؛ لأن ذلك سينعكس بالضرورة علينا جميعًا.

و قبل أن ننتهي من هذه المقدمة، التي أرجو أن تكون وافية، من حيث التعريف بمضمون فكرة هذا الكتاب، تجدر الإشارة إلى أنه سينقسم إلى فصلين، يضمَّان عددًا من المباحث التي تتناول شتى القضايا المتعلقة بصورة الرؤساء في الغرب وفي بلاد الشرق العربي، يسبقهما فصل تمهيدي يُعرِّف بما نقصده من الرئاسة أو السلطة، لغويًا ومصطلحيًا، بشكل يُمهِّد لكل ما سنتناوله في الفصلين الرئيسيين من الكتاب.

فصل التمهيد

كلمـة "السلطـة" كلمـة كـريهـة على كل مـسـتـوى.. حـتى لو كـانـت السلـطة تعني "السلطة الأبوية" فـرغم ضـرورتهـا الملحـة لاسـتـقـامـة الحـياة الأسـرية، فهي أيضًا تصبح كريهة إذا كانت أوامرها ونـواهيها مـتحكمـة ومتسلطة، أو مـهيمنة عـلى مقدرات كل أفـراد الأسـرة بوجـه عام.

هذا ويدخـل في إطار مـفـهـوم السلـطة سلطة الرئيس في الـعـمل، وتتـدرج لتصل إلى السلطة العليـا الحـاكـمـة، أو القـائمـة على رأس الحكم، والممثلة في رئيس أية دولة.. لكننـا وللعجب رغم كراهيتنا لكل السلطـات معروفـون كـشـعـوب شـرقـيـة، وإسـلامـيـة.. لا بل وعـربيـة - والمصـريين خـاصـة - بأننا سلطويون؛ أي من عـبـدة ومؤلهي السلطة، ليس حبًا فيها، ولكن خضوعًا لها، وهذا الكلام غيـر مرسل، دون سند علمي، لا بل أثبتته معظم الدراسـات الأكـاديمية التي تنـاولت سمـات الشخصية العـربية، وملامـح الصورة الذهنية المنطبعة عنها في العالم الغربي[1].

هذا وإن كـان من الضـروري الإشـارة إلى وجـود فـروق بين عـبـادة السلطة، واحترام الأستاذ أو المعلم أو الرئيس في العمل، فهـذا النسق من العـلاقـات في العـالم العـربي يجب أن يُحـتـرم؛ كـجـزء مـن القـيم

(١) راجع د. نادية سـالـم - صـورة العـرب والإسـرائيليين في الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة - منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم١٩٧٨م - ص ١٢٣ .

الاجتماعية للمجتمعات على اختلافها في الشرق كله، ولعل نموذج اليابان مثلا يظهر فيه ذلك بوضوح أشد من المجتمعات العربية، التي بدأت تتشبَّه بالغرب، في تحلله من بعض القيم الاجتماعية، الحاكمة للعلاقة بين الرئيس والمرءوس، وبين الطالب والأستاذ، وبين الأب والأبناء، والتي لم يعد لها قدسيتها السابقة، كما كانت ظاهرة للعيان حتى منتصف القرن الماضي.

ومن عجب أيضًا أن الدراسات الشعبية التي تناولت شخصية المصريين بالذات، والعوامل الحاكمة فيها، قد أكدت المعنى نفسه، وهو أن الشعب المصري خاضع بشكل أو بآخر للسلطة، وأنه كان يعبد الفرعون الإله ويقدِّسه، ويبذل كل غال ورخيص في سبيل إرضائه، لا بل وكان يرى فيه ظل الله على الأرض، كما تؤكد بعض أحداث التاريخ أنه عبر حقب متباينة كان المصريون ينفخون في صور زعاماتهم، حتى تتضخم ذواتهم -ذوات الحكام بالطبع - إلى الحد الذي يفقدون فيه التوازن، والقدرة على الحكم على الأمور، ويركبهم الغرور والصلف، فيسومون هذا الشعب الطيب سوء العذاب بحكم تسلطي جائر أسمته الأدبيات السياسية فيما بعد بالدكتاتورية.

و قد يتساءل الحس الشعبي سؤالا صاغه في مثل شعبي مصري مؤداه: "قال يا فرعون مين فرعنك ؟ قال ما لقيتش حد يردني، أو يرجعني! ".. لكن الحقيقة أن هناك سببًا آخر غير أنه لم يجد من يراجعه أو يرده، وهو أنه وجد من ينفخ فيه ويؤلهه من الكهنة والمحيطين به: متوهمين أنه سيصير حاكمًا (مريونيتيًا) [1] يسهل عليهم توجيهه وتحريكه، لكنه ما يلبث أن يصدِّقهم ويصدِّق نفسه، ويتصوَّر أنه فعلا مُنزَّه عن الخطأ، وأنه ملهم إلى آخر منظومة السمات التي يحاول المحيطون بمعظم الحكام العرب حتى الآن أن

(١) المقصود أنه أقرب إلى عرائس التحريك بالخيوط المعروفة باسم عرائس الماريونيت.

يصفوهم بها، ويوهمونهم بها، ثم يوحون بها إلى وسائل أو أبواق الإعلام الرسمي لترددها على مسامع الرعية صباح مساء، والحقيقة أنها خيوط عنكبوتية تُنسج حول كل حاكم، حتى يتحوَّل دون أن يدري إلى طاغية، وما أكثر الطغاة في تاريخنا العربي والإسلامي، وهذا ليس رأيي وحدي، بل مصداقًا له ما قاله أستاذ الفلسفة الجليل الدكتور إمام عبد الفتاح إمام في مرجع هام له: " تعطينا كتب التاريخ العظيمة انطباعًا بأن عدد الطغاة والمستبدين يفوق بشكل هائل عدد الحكام الخيرين أو الصالحين، وأن هؤلاء الطغاة كانوا دائمًا موضوعًا للكراهية والخوف، ولم يكونوا أبدًا موضوعًا للحب والإعجاب "[1]، وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من أن الحكام كانوا دائمًا موضع كراهية وخوف في كل الدنيا، وأيضًا موضع سخرية وتندر؛ كتنفيس عن هذه الكراهية وهذا الخوف، ويمكننا أن نلاحظ ذلك بوضوح في مصر بالذات؛ نظرًا لما يتمتع به شعبها من حب للسخرية والتفكه، ولما عاناه عبر تاريخها الطويل من قهر.

هذا وتختلف بالطبع علاقة الحاكم بالمحكومين من مجتمع عربي لآخر؛ نظرًا للطبيعة الجغرافية لكل إقليم، ما بين طبيعة نهرية زراعية كمصر والعراق، اللتين كان يحتاج الناس فيهما دائمًا إلى كبير أو رئيس؛ ينظم أمور الري والصرف، أي إلى حاكم قوي، يتولى تنظيم شتى الأمور المتعلقة بالعمل والحياة، بشكل دقيق ومستقر، وبقدر من الهيمنة من قبله، والطاعة من قبل الرعية، في حين قد يختلف الحال إلى حد ما، إذا ما كان المجتمع ذا طبيعة صحراوية بدوية، يسودها نظام قبلي، لا يستلزم بالضرورة وجود هذا الحاكم المهيمن على الدولة.. بل نجد أن لكل عشيرة كبيرًا، ولكل قبيلة زعيمًا، وينظم العلاقات فيما بين هذه القبائل عُرف سائد يخضع له الجميع، وذلك

(١) الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي – عالم المعرفة –العدد١٨٣ ص٤٢-٤٤.

فيما قبل تجمع القبائل الصحراوية في إطار دول حديثة.

هذا وقبل أن نلج إلى الموضوع الرئيسي لكتابنا هذا، والمقارنة بين صورة رأس السلطة، أو الرئيس في الغرب، وفي العالم العربي، لا بد وأن نقف على معنى السلطة بكل أشكالها سواء أكان لغويًا أو مصطلحيًا، ولنرصد أيضًا اختلاف مفهوم السلطة في كلا العالمين، وملامح التباين الشاسع بين كليهما، الذي لابد وأن اللغة قد أثرت فيه، وأكسبته اختصاصات وامتيازات، جعلت له مفهومًا مصطلحيًا مختلفًا هنا عن هناك، وسيتضح لنا ذلك مما سنسوقه من تفسيرات لمعنى السلطة والرئاسة؛ وفقًا لعدة قواميس لغوية عربية وإنجليزية.

ففي باب (س ل ط) يقول مختار الصحاح: " (السَّلاطة) القهر، وقد (سَلَّطه) الله عليهم (تسليطًا فتسلط) عليهم. و(السلطان) الوالي،...... و(السلطان) أيضًا الحُجَّة والبُرهان، ولا تجمع؛ لأن مجراه مجرى المصدر. وامرأة (سليطة) أي صَخَّابة. ورجُل سليط أي فصيح حديد اللسان بين السلاطة و(السُّلطة) يقال هو (أسلطهم) لسانًا"[1].

ومن المعنى اللغوي أو القاموسي نستطيع أن نجمع سمات السلطة والسلطنة، وهي: القهر والتسلط والولاية، مع اجتماع الحُجة والبرهان، والفصاحة وحدة اللسان أو سلاطته.. كما يتفق مع نفس المعنى قاموس المصباح المنير، في أن " السليط - الصخَّاب بذيء اللسان "، ويُضيف نفس القاموس بعد استعراض نفس المعنى تقريبًا: "ويقال: لا يُؤَم الرجل في (سُلطانِه) أي في بيته ومَحَلِّه؛ لأنه موضع (سلطنته)، و(سَلَّطتُهُ) على الشيء (تسليطًا) مكنتُه منه (فتسلط) تمكن وتحكم"[2].. وبذلك يمكننا القول أن المعنى يتضمن: التمكن والتحكم

(١) محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي - مختار الصحاح - دار الكتب العربية - بيروت - ص ٣٠٩ .

(٢) أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومي - المصباح المنير - تحقيق عبد العظيم الشناوي- دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٧م - ص ٢٨٥.

وسلاطة اللسان، والهيمنة التامة؛ إذ لا يُؤم الرجل في بيته أو محله: بوصفه سلطان المكان، أو رب البيت الذي لا يعلوه فيه أيًا من كان.

هذا ويقول قاموس ثالث عن السلطة: " سَلّطهُ عليه: غلّبه عليه، بالقدرة والقهر... و(السلطة): المُلك والقدرة... التسلط والقدرة، والمُلك سُمي بذلك لأنه به تقام الحُجة والحقوق"[1].

كما يضيف قاموس عربي رابع لملامح السلطة والسلطان معاني أوسع، منها القول: "سلّطهُ: أطلق له السلطان والقدرة، وعليه مكّنه منه وحكّمه فيه، و(تسلط عليه): تحكم فيه، وتمكن وسيطر. (السلطة) التسلط والسيطرة والتحكم... ، و(السلطان): الملك أو الوالي... وهي (سلطنة): القوة والقهر"[2]، وبهذا المنطق لمعنى السلطة يصبح في يد صاحب السلطة أو السلطان العربي: القدرة، والتحكم، والتمكن، والقوة، والقهر، والسيطرة، والولاية، والتسلط، والملك، والحكم.. فماذا بعد ؟! سلاطيننا ورؤساؤنا إذن يمارسون السلطة حرفيًا كما حددتها اللغة!! وحاشا لله أن نقول غير ذلك.. فهم بعد لم يتجاوزوها إلى ممارسة السلطات السياسية.. فماذا لو اجتمعت لهم كل السلطات، في مواجهة من يحكمونهم، أو من يقعون تحت سلطانهم وإمرتهم؟!

أما عن كلمة الرئيس فنجدها في باب: "ر أ س - جمع (الرّأس)... (ورَأس) فلان القوم يرأسهم بالفتح (رياسة) فهو (رئيسهم)، ويقال أيضًا (رَيِّسُ) بوزن قيِّم"[3]. والاشتقاق هنا من الرأس أو القمة، التي لا يعلو عليها شيء، يعكس وضع الرئيس ومكانته العُليا، التي لا تطاولها الرءوس الأخرى، بالإضافة إلى القوامة، وهي سُلطة مضافة،

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام - دار المشرق - بيروت - الطبعة ٢٩ - ص٢٤٤.

(٢) المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية - طبعة وزارة التربية والتعليم - القاهرة - ١٩٩٩م - ص ٣١٨ .

(٣) مختار الصحاح - ص ٢٢٦.

لها أبعادها الدينية المكتسبة؛ بوصف السلطان ولي الأمر والقوَّام، وأولو الأمر كما هو معروف لهم علينا الطاعة والولاء فيما يأمرون به من معروف ونهي عن المنكر، لكنهم يمارسون هذا الحق علينا، وكأننا رعية من القصَّر، لا نملك من أمر أنفسنا شيئًا، وولي الأمر عليه أن يكفلهم بولايته وأمره، أو كأننا فتيات أبكار للأب عليهن حق الولاية، فلا يتزوجن إلا بولي.

أما " المعجم الوجيز " فيضيف إلى معنى الرئاسة معاني أخرى، تمنح الرؤساء قدرًا يعلو على من يحكمونهم؛ إذ يقول: " رأس فلان - رآسة ورياسة، ورئاسة: شَرُف قدرُه على القوم، وعليهم: صار رئيسهم، و(الرائِسُ) رأس الوادي وكل مشرف"[1].

أما " المنجد " فيضيف أيضًا ما يُفيد معنى السيادة والتقدُّم، والاستعلاء.. لا بل والولاية أو الاستيلاء، إذ يقول: " (الرأس): سيد القوم، و(الرائس) جمع رُؤَّاس: الوالي في مقابلة المرءوس للمستولى عليه، والرئيس جمع رؤساء: سيد القوم ومقدَّمهم، وهي رتبة عسكرية تعادل رتبة نقيب، (الرئيس) شديد الترؤُّس، أما المرءوس: من كان تحت سلطة الرئيس"[2].

و لعلنا بذلك المعنى اللغوي للسلطة والرئاسة ندرك لماذا نجد رؤساءنا غالبًا من شديدي الترؤس!! ومن يريد المزيد فليرجع إلى "لسان العرب المحيط"[3] في باب رأس ليرى العجب، مما يحتاج إلى مجلدات! وليحاول معنا الوقوف على إجابة سؤال مؤداه: ترى هل اقتبس رؤساؤنا معاني سلطاتهم من اللغة، أم أن اللغة قد اقتبست هذه المعاني من تصرفات الرؤساء عبر العصور.

---

(١) المعجم الوجيز - ص. ٢٤٩.

(٢) المنجد في اللغة والأعلام - ص. ٢٣٣ .

(٣) لسان العرب المحيط للعلامة ابن منظور - المجلد ١ - دار لسان العرب - بيروت - ص١٠٩٨

وهذا ما لا نجده في اشتقاق كلمة الرئيس في اللغة الإنجليزية - على سبيل المثال - وغيرها من اللغات المنحدرة من اللاتينية، فكلمة رئيس الإنجليزية بكل معانيها المتباينة، سواء كان رئيس عمل، أو رئيس دولة، أو رئيس طهاة.. أو حتى رئيس عصابة! لا علاقة لها على الإطلاق بالرأس Head.. إلا إذا كان المقصود بالفعل أنه على رأس مجلس أو شركة، كالقول: "Head of a company, council, or state, etc". كما يمكن أن تُقال للقبطان، أو رئيس المركب بوصفه يقودها أو يوجهها[١].

أما الكلمات التي تعني الرئيس بوجه عام فهي كثيرة، ومختلفة المدلول والاشتقاق في اللغة الإنجليزية، ومنها نذكر: President, Chief, " Ruler, Boss, Director, Leader, Manager, Governor and Administrator ". ومن الواضح أن كل كلمة من هذه الكلمات لها مصدر اشتقاق مختلف عن الأخرى، فجِذرُها اللغوي يختلف عن غيرها من هذه الكلمات، حتى ولو كان كل منها يعني الرئيس أو الرئاسة أو السلطة بشكل أو بآخر، كمصطلح يُستخدم للدلالة على نوعية معينة من الرئاسة، وبتدرُّج وتسلسُل يُعتد به، ولا يصلح استخدامه إلا في موضعِه بالذات، كما سنرى في المصطلحات التالية:

* Leader: تعنى زعيمًا أو قائدًا، وهي مشتقة من الفعل to lead أي يقود أو يرشد إلى طريق، أويوجه حركة ما: حركة سجن.. حركة رقص. أو أوركسترا الكمان، أو يكون في المقدمة كمرشد أو قائد لمجلس أو حكومة مع موظفين رسميين، أو قائد للحركة أو الرأي[٢].

* President: يُقصد بها رئيس الدولة بالذات، كسلطة عُليا حاكمة، وتطلق أحيانًا في الشركات على الرئيس التنفيذي.

* Governor: تعني محافظًا أو حاكم إقليم أو ولاية، وأيضًا تقال

(١) The New Oxford Illustrated Dictionary, Volume. 1. P. 776.
(٢) Oxford, Vol. 1, P. 958 .

لوصف محافظ البنك المركزي كمثال، ومحافظ المنطقة الروتارية.

* Ruler : وتعني حاكمًا، ومشتقة من اللفظ to rule أي يحكم، واشتقاقها من قانون أو قاعدة أو عهد.. وليس بمعنى يتحكم أو يسيطر أي: "dominate, or control".

* Chief : تعني أيضًا قائدًا لمجموعة من الناس، أو ضابطًا عظيمًا، أو رئيس إدارة، وهو الأول في الأهمية والتأثير، بمعنى أنه فوق الجميع[1]، وتقال عن زعيم القبيلة، كما تعني رئيس الطهاة!! وهي مهنة لها مكانتها في كثير من الدول الغربية، ومن يحصل على لقب رئيس طهاة يحظى باحترام كبير، ولذلك فهذا اللفظ ليس له علاقة بتدني موقع الرئيس، إذ يُطلق على رئيس الدولة لفظ: " Chief d, Etat "؛ ولذلك فليس غريبًا أن يُطلق على رئيس القبيلة هذا اللقب.. بما لا يعنى الاستهانة بالنظام القبلي.

* Boss : تعني رئيس عمل.. أي عمل باللهجة العامية، وبمعنى أن له نظرة جيدة، وتعني أيضًا أنه يُصوِّب نحو هدف خاطئ، أو محاولة فاشلة[2]، ولعل ذلك هو ما جعلها متداولة أكثر بالنسبة لرؤساء العصابات.

* Director : مدير في العمل أو رئيس الإدارة، أو عضو مجلس الإدارة، في شركة تجارية إذا قيل: " Board of Directors"، ويمكن أن يكون الشخص الذي يقوم بالنصح الروحي لأشخاص أو جماعات، ويليه في الرئاسة مسميات أخرى لرؤساء أقل منه في الاختصاصات، وتقال أيضًا عن الشخص المسئول عن إدارة العمل في الفيلم أو المخرج[3].

* Manager : هو الشخص الذي يدير عملا ما في إدارة أو ولاية أو

---

(٢) Oxford, Vol. 1, P. 284.
(٣) Oxford, Vol. 1, P. 173.
(١) Oxford, Vol. 1, p. 472.

معهد، ويقوم بتمثيلها[١]، وتطلق على مديري الإدارات الصغيرة، أو مديري الفنادق مثلا وهي مشتقة من الفعل to manage أي ينظم أو يرتب.

* Administrator: هو من ينظم أو يرتب مهام عامة، أو أمور ولاية، أو إدارة قانونية[٢]، وهو الأقل من Manager، وتقال على مدير مكتب بريد صغير كمثال.. رغم أن أمريكا تسمي السلطة الحاكمة فيها بالـ Administration، كما أن كلمة وزير أو Minister هي الأقرب إليها كاشتقاق.

هذا ومن المعروف أن منصب الوزير منصب رئاسي.. وليس من مناصب الإدارة الدنيا.. إلا إذا كان المقصود هو نسبة منصب الوزير إلى الأعمال الخدمية كالبريد، والتأكيد على أنه تكليف.. وليس منصبًا شرفيًا يُكسب صاحبه امتيازات، واختصاصات وهيلمان، كما هو الحال في عالمنا العربي، و لعلهم لذلك يسمون الرئيس في بعض الدول الغربية المستشار كما في ألمانيا، ويسمون الوزير أحيانًا السكرتير، ورئيس الوزراء السكرتير العام.

ومما سبق يتضح لنا مدى اختلاف معاني الكلمات الدالة على السلطة والرئاسة، وفقًا لما جاء في عدد من القواميس الإنجليزية والعربية، التي تشرح المعنى والاستخدام لكل كلمة تعني الرئاسة، أو ممارسة السلطة بشكل أو بآخر، وهنا لا يفوتنا التنويه إلى خصوصية كل لغة، وأسلوب الاشتقاق اللغوي، أو جذور الكلمات، ففي العربية نجده متسلسلا ومتسقًا مع الجذر اللغوي، بينما نجده في اللغات المشتقة عن اللاتينية مختلفًا تمامًا، بدليل أننا في العربية نشتق من الفعل كتب كمثال، كلمات مثل: كتابة، وكتاب، ومكتبة، في حين أن نفس هذه الكلمات في الإنجليزية مثلا ليست مشتقة من الفعل كتب، كجذر واحد للكلمات المرتبطة معنى ببعضها البعض، فنجد أن: كتب

(٢) Oxford, Vol. 2, P. 1032.
(٢) Oxford, Vol. 1. P. 17.

تعني Write، وكتاب تعني: Book، وكلمة مكتبة تعنيLibrary، وهكذا.

هذا وبعيدًا عن اللغة والاشتقاق، نجد أن مفهوم الرئاسة السياسي يختلف من حيث الممارسة، فيتراوح بين الرئيس العادل الرحيم، ويصل إلى حد الرئيس المستبد أو الطاغية الذي طالما عانى العالم العربي - أكثر من غيره - من أمثاله.

و من كل ما سبق يمكننا فهم مقولة ابن خلدون الشهيرة: " آفة العرب الرئاسة "، ومعرفة مغزى ما قاله الكاتب الساخر محمود السعدني من أن حقيقة الخلاف العربي كانت دائمًا تدور حول: لمن تكون القيادة اليوم؟ للمهيب أو العقيد أو للأمير أو للملك أو للرئيس أو للسلطان أو للشيخ؟[1] وأضيف إليها من عندي العاهل، وهو بذلك يكاد أن يكون قد جمع معظم الألفاظ، التي تعني السلطة أو السلطان في العالم العربي، كما لفت النظر إلى حقيقة الصراع بين العرب حول السلطة، الذي هو في الحقيقة صراع على مكتسبات، وملامح في الصورة الذهنية أكثر منه حقيقة واقعة.. لكن للسعدني رأيًا آخر يبرر رفضه لاعتبار السلطة آفة كما قال ابن خلدون، فهو يبرر التكالب على السلطة والصراع عليها في العالم العربي تبريرًا واقعيًا مفاده الرغبة في الحصول على كل الامتيازات التي تُمنح للرئيس، ويستمتع بها في عالمنا العربي، ناهيك عن الاختصاصات التي توفرها له لغويًا لفظة الرئاسة، من إمكانية التحكم في البلاد والعباد.. وهو يشرح خلاصة رأيه قائلا: " الرئاسة هي الأساس، وما عداها باطل، وقبض الريح، وحصاد الهشيم.. كارثة كبرى لاحظها بجدارة عمنا ابن خلدون فقال: آفة العرب الرئاسة.. برافو عمنا ابن خلدون لقد وضع يده على الجرح.. ولكن الخطأ الوحيد الذي وقع فيه أنه اعتبرها آفة.. مع أنها ضرورة وروشتة لا تقبل المراجعة لمن يريد أن يتذوق رحيق الحياة،

(١) عودة الحمار - كتاب اليوم - دار أخبار اليوم - ص. ١٤ .

فعندما تكون رئيسًا فأنت المُغنى، وأنت القاضي، وأنت الشاعر، وأنت الذوّاق، وأنت الفنان، وأنت القائد، وأنت الاستراتيجي والتكتيكي، وأنت الشاعر الوحيد، والمفكر الوحيد، وكل التوجيهات تصدر عنك، وكل النصائح هي من فيض عبقريتك، وأخبار تنقلاتك وتحركاتك هي نشرات الأخبار، وتصريحاتك رد فعلها سلسلة من الهزات في الداخل والخارج، ومرض سيادتك يصبح سرًا حربيًا، وأيًا كان رأيك فهو الخط القومي والوطني للدولة، تستطيع أن تتجه يمينًا أو يسارًا شرقًا أو غربًا، اذهب حيث تشاء وسيتبعك الجميع أينما تسير"[1].

هذا ومن المعروف بالطبع غرام العرب بالفخر بالعز والنفوذ، وبأن يكون لهم أتباع ومريدون، وأن ينفخ الآخرون في صورهم.. وهو تمامًا ما يفعله المحيطون بأي رئيس أو ملك عربي من تمجيد، وإيهام بالأهمية العالمية، الأمر الذي يوحي للعامة من الناس أن رئيسهم أهم شخصية في العالم، وهؤلاء يكتبون ذلك في الصحف، ويذيعونه في الإذاعة والتليفزيون.. دون كلل أو ملل، ويكررونه ليل نهار دون خجل، على مسامع الشعوب؛ كجزء من ملامح الصورة التي يرسمونها للرئيس؛ وذلك بإيهام الناس أن له هيبته، واحترامه، ومكانته في العالم الخارجي، وبالتالي علينا أيضًا في الداخل أن نعتز به ونفخر، ونصدق أن كل خطبة يُلقيها يمكن وصفها بـ " الخطاب التاريخي "، وكل تنقلاته " رحلات تاريخية "، وأن ما تفوه به رج أركان الأرض، وعلى حد قولهم أو زعمهم: " حظي باهتمام عالمي واسع النطاق ".... إلى آخر منظومة ما تروّج به كل وسائل الإعلام العربية لصورة الرؤساء العرب محليًا.. غير واعية أن كل ذلك ما عاد ينطلي على أحد من العامة، فما بالكم بالخاصة والصفوة الواعية لما يدور حولها، من ألاعيب السياسة والإعلام الرسمي!!

---
(١) المرجع السابق - ص: ١٥ .

الفصل الأول

صورة الرئيس في الغرب

لسنا هنا بصدد الحديث عن شخصيات الحكام -كما سبق القول - بقدر ما نحن بصدد الحديث عن صورتهم المنطبعة في أذهان الناس، أو التي تُرسم لهم.. سواء أرسموها هم بأنفسهم، أو رسمها لهم المحيطون بهم وأبواقهم، أو هيَّأتها لهم الظروف التاريخية التي وجدوا فيها، أو صنعتها لهم جهات متخصصة في رسم الصور؛ كنشاط من أنشطة العلاقات العامة والدعاية السياسية، وهذا الأسلوب الأخير بالذات متعارف عليه في الغرب، ويُطلق على ممارسيه اسم " صانعي النجوم "، أو "خبراء الصورة " الذين يقومون بصناعة صورة المرشحين السياسيين، والرؤساء.

والمقصود بالصورة الذهنية هنا، أو ما يُسمى بـ" Mental Image"، هو كيف ترى عيون العقل العالم، وكيف من خلال هذه النظرة يحتاج العقل لمنظار يُصحح له هذه الرؤية، فهي غالبًا ما تكون انطباعًا ناقصًا أو مبالغًا فيه، لا يُطابق الحقيقة بحال، إذ يلعب صناع الصورة الذهنية لعبتهم في صياغة هذا التصوُّر، الذي يكاد يشبه رؤية رسام الكاريكاتير للعالم من وجهة نظره فيما ترى من ملامح تبالغ فيها.

وتكمن خطورة ما يمارسه صناع الصورة الذهنية، في الدول النامية بالذات، في أن عقل العامة من الناس لا يملك الأدوات التي تمكنه من كشف ألاعيب خبراء الصورة، وما تروج له وسائل الإعلام، وحملات الدعاية السياسية من أكاذيب، تجعل الصورة المروج لها لا تطابق الحقيقة بحال.

وقبل الولوج للحديث عن صورة الرئيس في عالمنا العربي - الذي سيكون موضوع الفصل الثاني من هذا الكتاب - لا بد من التطرق إلى نماذج مما يُنشر عن الزعماء والرؤساء في العالم الغربي، وكيف

يُخطط صنّاع الصورة لهم، وكيف يحددون كل خطوة، وكل لفتة أو إيماءة يقوم بها الرئيس، أو حتى المقربون منه، خاصة أفراد أسرته، وتحديدًا زوجته؛ لما للمرأة من دور أساسي في هذا الأمر.

ولا بد هنا من الإشارة إلى البون الشاسع بين ما يُخطط له في الغرب، وبين الصورة الذهنية للرؤساء العرب، التي تتحدد ملامحها بأساليب تقليدية، وأحيانًا تتحدد عفوًا وبتلقائية أو مصادفة، وفي أحسن الأحوال بتخطيط ساذج ومباشر، أقرب إلى الدعاية الفجة المكشوفة لأبسط الناس، والمرفوضة من معظمهم.. ولنأخذ نماذج لما يُنشر عن الرئيس.. أي رئيس في أوروبا بدولها ذات التقاليد السياسية العتيدة، ثم كيف ترسم صورة الرئيس في أمريكا؛ وفقًا لتخطيط واستراتيجية محكمة.

دور المرأة في الصورة

استعرضت بعض المراجع المهتمة بصناعة صور الرؤساء، مقارنة بين تصرفات الرؤساء الأمريكيين بالذات، مُركّزة على دور المرأة الزوجة في صناعة صورة زوجها الرئيس؛ وذلك لبيان أهمية هذا الدور في كل ناحية من نواحي الحياة العامة، الاجتماعية والسياسية، وكان من أبرز ما قيل في هذا الصدد، ما تناول دورها كمستشار سياسي للرئيس وهو الدور الذي اضطلعت به زوجة الرئيس جيمي كارتر بالذات، إذ أشار مرجع أمريكي إلى أن إدارة كارتر أحدثت تغييرًا جديرًا بالملاحظة، في العلاقة بين رؤساء الولايات المتحدة وقريناتهم في مجال السياسة، ففي الماضي كانت السيدة الأولى لا تتدخل صراحة إلا في قليل جدًا من القضايا السياسية، مثلما كانت بتي فورد، التي كان لديها بالكاد مشروع اجتماعي خيري، وكذلك فعلت كل من إليانور روزفلت، أو ليدي بيرد جونسون.. أو حتى جاكلين

كنيدي، أما ما دون ذلك فقليل جدًا ويُعد نادرًا، فقرينات الرؤساء عمليًا لم يكن لهن دور سياسي مؤثر، بل إن دورهن أو وجودهن الحقيقي لم يكن له تأثير أو وقع سياسي، إذ كان دورهن يدعم أو يساند الرئيس بشكل باهت.. دون الانخراط في السياسة، فقد كنّ مجرد زينة أو زخرف.. دون أن يكون دورهن بأية حال قادرًا أو مؤهلا ليكون دورًا فعالا.. وحتى عندما كان الرئيس هاري ترومان دائم الحديث عن أنه كان يستأذن من الرئيس - ويقصد بذلك زوجته بث ترومان -في فعل أي شيء، فقد كان في الحقيقة يهزل أو يتفكّه، إذ كان نمط السيدة الأولى أن تكون سيدة مبتسمة، مثل بات نيكسون، أو نانسي ريجان، أو تستطيع تسيير البيت الأبيض والحفاظ عليه، كما فعلت السيدة وودرو ويلسن؛ كي يتفرغ زوجها لاستعادة حماسه واتقاده.. وحتى السيدات الأول السابقات لم يكن لهن دور سياسي في الرئاسة، وذلك ما لم يحدث في حالة روزالين كارتر التي كانت حقًا مستشارًا سياسيًا لزوجها(١).

يعد هذا الرأي رصدًا لتطور دور المرأة، أو السيدة الأولى في أمريكا في منتصف القرن الماضي، فماذا عنه الآن؟ وكيف تطور اعتبارًا من الدور الذي بدأته روزالين كارتر، إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن في كل من أمريكا وأوروبا، وفي الغرب بوجه عام، حيث أصبح دور المرأة في رسم صورة الرئيس أو حتى المرشح للرئاسة دورًا أساسيًا وفاعلا بشكل معلن في كل وسائل الإعلام.

ولنبدأ مثلا من ألمانيا، حيث ظهر المستشار الألماني السابق هيلموت كول في التليفزيون؛ بصورة لم يألفها المجتمع الألماني الصارم، وتناولت صحف الصباح موضوع ظهوره؛ ليحكي عن حياته الشخصية بكثير من التفاصيل، وطيرت وكالة الأنباء الألمانية د.ب.أ.

(١) John Orman _ Comparing Presidential Behavior _ p. 34.

من همبورج الخبر؛ لتتناقله الصحف في شتى أنحاء العالم تحت عنوان: " كول في بيته يُروِّض الأرانب ويتأمل الأسماك! جاء فيه تفصيلا ما يلي:

"بكل صراحة تحدث المستشار الألماني هيلموت كول عن مشوار حياته الشخصية، الذي بدأ بالعمل كصبي لتوصيل الطلبات في مغسلة!!!! وبلا رتوش ظهرت هانيلور - زوجته - أمام مشاهدي التليفزيون الألماني، داخل مطبخها، وقد غطى الدقيق ذراعيها حتى المرفقين!!

وانشغل الرأي العام الألماني بنجاح مذيع تليفزيوني ألماني في اختراق الحياة الشخصية للمستشار هيلموت كول، بكل غموضها، وإقناعه بالظهور مع زوجته على مدى حلقتين؛ ليتحدثا عن حياتهما الخاصة، ونجح لدرجة أن من شاهدوه تجاوزوا عدد متابعي مباريات كرة القدم، فبلغوا ٢,٥٢ مليون متفرج، فوجئوا بالمستشار الألماني وزوجته بعيدًا عن الزي والمناسبات الرسمية لأول مرة.

وكشف كول خلال البرنامج عن أنه نجح في تعليم أرنبه المفضل الجلوس والنهوض، وأضاف أنه يستثمر كل فرصة للاسترخاء هذه الأيام، حتى ولو بالتحديق في حوض الأسماك الموجود فوق مكتبه، خلال إجرائه للمكالمات الهاتفية.

وبالرغم من القلق الذي أبدته بعض الأوساط من مغامرة الظهور في البرنامج، فإن معظم المعلقين أكدوا أن إيجابياتها كانت أكثر من سلبياتها، خاصة أن البرنامج يعرض المساحة الإنسانية الصادقة، وتجلى ذلك بعرض ما قالته هيلوجارد - شقيقة كول - لمجلة "شتيرن" عن تربية كول بأنها " كانت تربية صارمة، كجميع إخوته.. لكن ذلك لم يمنعه من التميُّز والنجاح في جعل الناس يلتفون حوله".

وهنا نلاحظ القول بأن ظهور الرئيس الألماني بهذا الشكل: " كان

مفاجأة للمجتمع الألماني الصارم "، ولنقارن بين هذا القول، وبين ما يتاح من مساحة للنشر عن الحياة الخاصة، لبعض الرؤساء العرب، في المجتمعات الأكثر صرامة، وهل أفاد الصورة أم شوهها، فالكشف عن الجوانب الشخصية والإنسانية من حياة الرؤساء لا بد أن يكون محسوبًا بدقة.. حتى لا ينقلب الأمر؛ ليكون ضده وعليه.. وليس له.

ولنأتِ على ذكر نموذج آخر من النماذج الغربية، التي تضيف فيها زوجات الرؤساء إلى صورة أزواجهن، وهي سيدة فرنسا الأولى زوجة الرئيس شيراك، إبَّان انتخابات الرئاسة الفرنسية الأخيرة، والتي تناولتها الصحف العالمية، وتناقلتها الصحف العربية أيضًا تحت عنوان: " برناديت شيراك واستراتيجية الصمت الفصيح " جاء فيه:

"إذا كان نجاح الرئيس شيراك في اقتراع الدور الأول لانتخابات الرئاسة الفرنسية وهو النجاح الذي يصفه بأنه انتصار مُر قد أصبح مؤكدًا، وأصبح شيراك من جديد وريث عرش لويس الرابع عشر، ووريث مكتب الزعيم الراحل شارل ديجول فإن معارضي الرئيس ومنتقديه يضربون اليوم أخماسًا في أسداس، وهم يجدون أنفسهم مضطرين للتصويت لمصلحته سدًا للطريق على جان ماري لوبان زعيم الجبهة الوطنية المتطرفة.

"والسؤال الذي يُحير هؤلاء كيف استطاع الرئيس تجاوز كل هذه الأنواء والرياح، التي هبت في وجهه، إلى حد استدعاء أحد القضاة له للشهادة في قضية.. كان من الواضح أن هناك من يريد تشويه صورة الرئيس لدى الرأي العام من خلالها.. قد تكون هناك تحليلات مختلفة وآراء متباينة حول شخصية الرئيس وسياسته، وحول مواقفه الداخلية والخارجية، خاصة الصراع العربي الإسرائيلي.. إلا أن هناك إجماعًا من المراقبين على أن انتصار الرئيس هو انتصار صنعته بيديها السيدة زوجته مدام برناديت شيراك.

ذلك أن العواصف التي هبت على الرئيس مست السيدة زوجته، وابنته كلود، ومست الأسرة كلها، وكادت تطيح بها.. لولا رباطة جأش برناديت شيراك، وهدوء أعصابها، والتزامها بالصمت في وقت أصبحت فيه عرائس وأراجوزات الماريونات السياسية بالتليفزيون الفرنسي تتخذ من سيدة فرنسا الأولى مادة للسخرية: من طريقتها في حمل حقيبتها، وطريقتها في الكلام، وذوقها في ارتداء الملابس، وكان ردها الوحيد هو: " دعهم يضحكون، وسيأتي اليوم الذي يعرفون فيه أنهم يسيئون استخدام الديمقراطية "، والسيدة شيراك التي يُطلق عليها المراقبون " ليدي دي فرانس " تنتمي إلى أسرة أرستقراطية عريقة، وكانت - كما روت بنفسها في كتابها الأخير - تؤمن بأن واجب الزوجة ليس فقط مساعدة زوجها.. بل الحفاظ عليه، وعلى الأسرة ضد الأهواء والنزاعات، هذا عدا الضربات السياسية التي تلقاها زوجها على مدى ٤٠ عامًا.

وكان عليها أن تشد من أزره وقت الهزائم السياسية وتنبِّهه دائمًا - في أوقات النصر - إلى أن فرنسا والفرنسيين منحوه حبهم وثقتهم ويجب عليه أن يُثبت لهم أنه على مستوى هذا الحب والمسئولية.

وبعد مرور نحو أسبوع على الانتصار الأول لجاك شيراك، وقبل أسبوع من انتصاره الثاني المتوقع، يبدو أن النصر الحقيقي لجاك شيراك ولفرنسا، هو في وجود هذه السيدة العظيمة ليدي دي فرانس"[1].

ويذكرنا هذا " الصمت الفصيح " لسيدة فرنسا الأولى برباطة الجأش التي ظهرت بها سيدة أمريكا الأولى، زوجة الرئيس الأمريكي السابق بل كلينتون، إبَّان انكشاف أو افتضاح علاقة مونيكا لوينسكي بزوجها!! ويا لها من صورة لرئيس دولة عظمى!! رغم أن رباطة جأش

(١) أحمد يوسف من باريس - الأهرام القاهرية - ٢٩ / ٤ / ٢٠٠٢م.

هذه الزوجة لم تكن موضع إعجاب.. بل كانت موضع تعجُّب العالم أجمع، أكثر من تعجبهم من صورة الرئيس نفسه بعد افتضاح أمره، وراح العالم يتساءل: هل هو اتزان زائد من زوجة الرئيس؟! أم مصالح متبادلة؟! أو خيانات متبادلة على طريقة تشارلز وديانا!! ووصل الأمر إلى حد السخرية من موقفها الغريب -من قبل جمهور النساء على الأقل- في كل أنحاء العالم.. حتى في عالمنا العربي.

هذا وتأكيدًا لدور المرأة في رسم وتحسين صورة الرئيس.. ليس في أوروبا وحسب.. ولكن في أمريكا أيضًا، التي يبرُز فيها دور المرأة أكثر في معركة الفوز بالرئاسة، وفي استمرارية الرئيس في الحكم، أو في فوزه بفترة رئاسة ثانية، نجد أن هيلاري كلينتون كانت السلاح السري لزوجها، في معركته من أجل البقاء في البيت الأبيض بعد فضيحة مونيكا لوينسكي، إذ أشار تحليل لوكالة الأنباء الفرنسية من واشنطن أنه: " يُحتمل أن تكون هيلاري السلاح السري في استراتيجية إثارة المشاعر، التي اختارها الرئيس الأمريكي كلينتون، المهدد بتقرير المدعي العام المستقل كينيث ستار "؛ إذ لزمت هيلاري - التي أهينت علانية - الصمت في بادئ الأمر، عندما اعترف كلينتون على شاشة التليفزيون بإقامة علاقة غير لائقة مع المتدربة السابقة في البيت الأبيض، وإمعانًا في التمويه صدر بيان يؤكد أن السيدة الأولى في أمريكا تحب زوجها، وتتمسك بزواجها.. ولكن دون أن يذكر البيان أي شيء عن خيانته الزوجية.

وفي ظل أجواء هذه الكارثة السياسية الوخيمة على البيت الأبيض وساكنيه، بدأ عدد من المستشارين والمقربين من الرئيس ممارسة ضغوط على هيلاري؛ كي تتبنى بشكل أكثر وضوحًا قضية زوجها، واعترف بعض هؤلاء المستشارين بشكل خفي بأن صفحًا علنيًا من هيلاري هو وحده القادر على مساعدة كلينتون.. وتعويضًا عن عدم

اتخاذها موقفًا علنيًا، يجب أن ترافق هيلاري زوجها أينما كان في الاحتفالات الرسمية. مصممة أكثر من أي وقت مضى على إظهار أنها تسامت على الفضيحة التي هزت البيت الأبيض، كما هزت بيتها الخاص، أو حياتها الزوجية قبل أن يهتز البيت الرسمي، الذي يجب الحفاظ عليه: بوصفه رمزًا للسلطة، والسيادة، والرئاسة.

ولم تغيِّر هيلاري - المحامية البالغة من العمر آنذاك ٥٠ عامًا - شيئًا من برنامجها المكثف، فراحت تتجول ما بين افتتاح مدرسة، وحفل عشاء، وزيارات رسمية للخارج، فهي قد سبق لها أن صفحت عن الكثير من زلات زوجها، وتجاوزت الكثير من المحن في حياتها العلنية والخاصة طوال حياتها الزوجية، التي بدأت منذ ٢٥ عامًا، لكن إعلان صفحها وغفرانها هذه المرة له وزن مهم.. بل خطير.

وتوجه كلينتون بشكل غير مباشر إلى زوجته -التي لم تبخل بمساعدته أبدًا- معلنًا عزمه على إعادة ثقة كل الذين وقفوا إلى جانبه عام ١٩٩١م، إذ أعلن صراحة أنها ساندته عندما قال: "عندما لم يعتقد أحد سوى والدتي وزوجتي بأن أمامي فرصة للنجاح في انتخابات الرئاسة"[١]، ومن جهتها قدمت زوجة الرئيس كلينتون دعمًا علنيًا عدة مرات لزوجها، مشيرة إلى استمرارها في العمل يوميًا لأداء مهمتها.. ولكن دون أن تشير إلى المشاكل الشخصية بينهما، وقالت فقط إنها فخورة بالطريقة التي يقود بها زوجها البلاد.

وأظهرت الاستطلاعات آنذاك أن الرأي العام يدعمها في أشد اللحظات حرجًا، وقالت مجلة نيوزويك إن شعبية زوجة الرئيس أو السيدة الأولى ترتفع، إذ إن ٥٩٪ ممن سُئلوا عن رأيهم هذا الشهر أعطوا ردًا إيجابيًا عنها، مقابل ٥٢٪ في الشهر السابق له.. إلا أن قلة فقط هم من غامروا بتخمين الشعور الحقيقي لهيلاري، المغطى

(١) جريدة الأهرام - في ٢٢/ ٩ / ١٩٩٨م - ص ٧ .

بواجهة من الشجاعة، ونقلت الصحافة الأمريكية عن مقربين من السيدة الأولى انهيارها عندما اعترف زوجها بعلاقته مع مونيكا، وأنها لزمت غرفتها أيامًا عدة، لم تكلم خلالها أحدًا.. سوى والدتها وابنتها.. ورغم ذلك اعتقد البعض أن هيلاري لم تقدم خدمة للنساء باستمرار تأييدها المطلق لزوج معروف بخيانته المزمنة.. لكنه دور تقوم به زوجات الرؤساء في الغرب؛ استكمالا لصورة الرئيس المحببة، أو التي يجب أن تظل محببة لدى الجماهير.

وحتى بعد هدوء العاصفة، وانتهاء دور كلينتون كرئيس، وبقاء هيلاري كسيناتور، استمرت على موقفها في تأييد زوجها، وقد كان الجميع يتوقعون انفصالهما بعد خروجهما من البيت الأبيض.. لكنها ظلت على عهدها في الدفاع عنه، ووضح ذلك في الكتاب الذي ضم مذكراتها وأدق أسرار حياتها، والذي أصدرته بعنوان: "عشت التاريخ"، أو " قصة حياة "، أو " التاريخ الحي"[1]، وفيه تحدثت عن حياتهما معًا، وعن غرامها به، بوصفه حبها الأول والأخير، وبررت علاقته بمونيكا بأنها تدخل في باب المؤامرة عليه، إذ قالت بوجود: "مؤامرة على زوجها.. مؤامرة من اليمين الأمريكي المتطرف لإسقاطه في الوحل قبل أن تنتهي فترته الرئاسية الثانية!"[2].. وإن كانت قد ذكرت تفصيلا ما يتعلق بلحظة اعتراف كلينتون بأن ما تردد عن علاقته بمونيكا لم يكن افتراء كما كانت تتصور في البداية، إذ قالت إنها: "كانت تعتقد أن ما حدث مجرد فضيحة من الفضائح السياسية التي يفجرها أعداؤها السياسيون؛ للنيل من الرئيس ومن شعبيته أمام الناس.. إلا أن كلينتون - الذي ظل حتى آخر لحظة قبل سماع أقواله أمام لجنة مجلس الشيوخ - اعترف لها وبالتحديد في الخامس عشر

(١) العنوان الأصلي للكتاب Living History و يبلغ عدد صفحاته ٥٦٢ صفحة طبع منه مليون نسخة مبدئيا و تقاضت عنه ٨ مليون دولار . و تم توزيعه في ١٦ دولة .

(٢) أنيس منصور - الأهرام في ٢٩ / ٦ / ٢٠٠٣ - ص ٣٢ .

من أغسطس ١٩٩٨، بحقيقة العلاقة التي جمعته بمونيكا. وهو ما أصابها بالإحباط الشديد. وأنها ظلت على مدى أيام طويلة ترفض الحديث معه هي وابنتهما، ولم يبق له من جميع أفراد الأسرة من يقبل التعامل سوى كلبه المدلل " بدي ". كما اعترفت هيلاري أيضًا أنها رغم الإحباط الشديد، ورغبتها في كسر رقبة زوجها الرئيس.. إلا أن قرارها كان بعدم طلب الطلاق، وهو طبعًا قرار يسهل تفسيره في ظل الظروف والمزايا التي كانت تتمتع بها؛ باعتبارها سيدة أمريكا الأولى. فمن ذا يستطيع التنازل بسهولة عن مثل هذا اللقب.. الا من كان قد أصيب بالجنون!!"[1].

وإذا كان هذا هو التفسير السائد لتصرف السيناتور المثقفة والمرموقة هيلاري كلينتون. وتقبلها لهذا الوضع المهين أثناء وجودها في البيت الأبيض، فلا بد من التساؤل: ما الذي يجعلها تستمر في قبول هذا الوضع بعد الخروج من البيت الأبيض؟ في تصوري أن ذلك جزء من حملتها الانتخابية القادمة، حينما ترشح نفسها لتكون أول سيدة تحكم الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي تحكم العالم. فحنكة. ورباطة جأش هذه السيدة الحديدية، في موقف الزوجة التي خانها وأهانها زوجها علنًا على مرأى ومسمع من العالم، موقف تتصرف فيه بطيش أي زوجة مهما كانت عاقلة ومتزنة أو حتى صاحبة مصلحة، وذلك وفقًا لأي سيناريو واقعي أو درامي.. لكنه الطموح الذي يدعوها للتصرف على هذا النحو باتزان يثير الدهشة؛ ولهذا أراه جزءًا من ألاعيب خبراء رسم الصورة الذهنية للمرشحين للرئاسة، الذين نصحوها أن تبدأ حملتها الانتخابية مبكرًا جدًا: كي تضمن أن تصبح بحق أولى بالمنصب من غيرها من الرجال والنساء!! وستسفر السنوات القادمة عن مدى صدق هذا التفسير من عدمه.

---

(١) الأهرام - تحقيقات وتقارير خارجية - السبت ٧ / ٦ / ٢٠٠٣ - ص ٦

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن نظرة الغرب لوجود المرأة كزوجة داخل إطار صورة الرئيس يُعد أمرًا ضروريًا، أما وجودها كمشيقة أو خليلة فهو أمر آخر، تتناوله الكثير من الأقلام في كتابات صحفية عابرة، بأسلوب رافض، وهذا ما سنرصد نماذج له فيما بعد.

هذا ويمكننا أن نقول دون مواربة أن الأمر جد مختلف في العالمين العربي والغربي في النظرة إلى صورة الرئيس، ودور المرأة في تشكيلها، ولا نكون مبالغين إذا استشهدنا برأي يقول: " لا يستطيع رئيس أمريكي أن يتقدم ويطلب من الجماهير انتخابه إلا إذا كانت معه امرأة متعلقة بذراعه، وهو عليه أن يربت على خدها، ويمسح على شعرها أمام الجماهير، وهي عليها أن تفتح فمها عن ابتسامة متفائلة"[1]؛ ذلك أن القِيم التي يعتنقها المواطن الغربي، ويبني تصوراته الذهنية وتقييمه للبشر من خلالها، تختلف عن تلك التي يعتنقها العرب، فالمواطن الغربي يرى في الرجل الذي يحترم المرأة ما يوجب احترامه وتقديره؛ ولذلك يحرص خبراء الصورة على التعويل التام على زوجات المرشحين للرئاسة، في مدى نجاح أزواجهن في الانتخابات، ومن ثم طوال فترة رئاستهم.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن القيم التي تبني عليها الصورة المرغوبة للرئيس في الغرب تختلف تمامًا عما يقابلها في العالم العربي.. رغم أننا بدأنا في التأثر بالأسلوب الأمريكي بالذات في الاختيار، وبدأت تدخل حياتنا ملامح وقيم لم تكن من قبل في نظرتنا لرؤسائنا، ويقول الكاتب الجزائري د. محيي الدين عميمور عن ذلك وجهة نظر مؤيدة لما أذهب إليه في هذا الصدد، وما سأتناوله تفصيلا فيما بعد، وخلاصة رأيه الذي أطلقه إبان الانتخابات الأمريكية التي تصارع فيها بوش الابن وآل جور، تقول: إن " الشعب الأمريكي هو

(١) محمود السعدني - أمريكا يا ويكا - كتاب الهلال - العدد ٤٧٣- مايو ١٩٩٠م - ص٧٥ .

الذي سيختار رئيسه بناء على معطيات داخلية، من بينها بحثه عن رئيس يرتاح لمظهره التليفزيوني خلال السنوات الأربع المقبلة، وتستطيع قرينته أن تملأ فراغ هيلاري كلينتون وتذكّر بإليانور روزفلت، وربما أيضًا بجاكي كينيدي"[1].

هذا ويلاحظ إدراك زوجات الرؤساء الغربيين للدور المرسوم لهن بدقة؛ إذ يُدركن بحاسة خفية أهمية ما تعكسه كاميرات التصوير الصحفي أو التليفزيوني، ويتصرفن أمام العدسات بإدراك ووعي، ففي الحملات الانتخابية أو أثناء الخطب السياسية أو حتى في المؤتمرات الصحفية التي يحضرنها، لا ترفع زوجة الرئيس أو المرشح للرئاسة عينها عنه، وتوليه اهتمامًا ملحوظًا؛ لأنها تعرف مسبقًا أنها مُعرَّضة في كل لحظة أن تسلط عدسات الكاميرات على وجهها؛ لتعكس مدى تأييدها لزوجها؛ لذا لا بد أن تبدي اهتمامًا بالغًا بكل حرف ينطق به.. ناهيك عن الحميمية والالتصاق أثناء التقاط الصور التذكارية، أو التي يُحيِّ فيها المرشح ناخبيه، بالإضافة إلى رفع الكف بالتحية للجماهير، أو بعلامة النصر، أو التأييد برفع الإبهام إلى أعلى، والقبض بحرارة على كف الرئيس، بما يعكس التماسك الأسري.. رغم أن أمريكا بالذات من أكثر الدول معاناة من التفكك الأسري.. لكنها برامج صناعة الصورة التي يجب أن تنفَّذ بكل دقة، ويقوم فيها كلٌّ بدوره المرسوم له، وغالبًا ما يكون أهم هذه الأدوار هو دور الزوجة.

وكما تحسِّن الزوجة من صورة زوجها وتضيف إليها، نجدها تسحب منها أيضًا، فقد لفت الأنظار في بريطانيا مثلا أن: " أول صورة نشرت لرئيس وزراء بريطانيا توني بلير وزوجته شيري، وأولاده الثلاثة، كانت كئيبة؛ فهي لا تضحك، وهو لا يكف عن الضحك، أما

(١) الأهرام - زاوية كل اثنين (انطباعات عابرة) ١٤ أغسطس ٢٠٠٠ - ص٩ .

الأبناء فملابسهم تدل على أن الأم المحامية ليس عندها وقت لشراء ملابس مناسبة للجميع!

وعكف خبراء تجميل صورة رئيس الوزراء، وأسرته ابتداء بالزوجة فجعلوها ترتدي أشيك الفساتين وتذهب إلى عروض الأزياء، وتضع ساقًا على ساق؛ لنرى الساق من خلال فتحة طويلة - أي أنها سيدة أنيقة مودرن"[1].

هذا ولا يقتصر الأمر على الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا فحسب.. بل نجد في أمريكا الجنوبية أيضًا دورًا هامًا للمرأة في صناعة صورة الرئيس، وأبرز مثال على ذلك أن الرئيس الأرجنتيني كارلوس منعم عاد وهو في الثانية والسبعين إلى الأضواء مرة أخرى ليرشح نفسه في الانتخابات الرئاسية للمرة الثالثة، ويظهر منعم هذه المرة في صورة جديدة، وإلى جواره زوجته الحامل سيسيليا ملكة جمال شيلي السابقة، التي تبلغ من العمر ٣٧ عامًا، حيث استعاد جزءًا من شعبيته، التي فقدها في نهاية فترة حكمه بسبب فضيحة التورط في بيع أسلحة غير مشروعة لكرواتيا، " ويعزو المحللون عودة شعبية منعم، التي فقدها لفترة طويلة، إلى برنامجه الانتخابي الذي ركز فيه على الإصلاحات الاقتصادية، وكذلك بسبب وجود الجميلة سيسيليا إلى جانبه، وهي مذيعة سابقة بقناة " سي إن إن " باللغة الأسبانية، وكانت تتمتع بشعبية كبيرة في أمريكا اللاتينية، وهي لا تنوي على الإطلاق أن تبقى في ظل زوجها، فهي لها طموحاتها السياسية الخاصة، والجميع يشبهونها بمعبودة الأرجنتين إيفيتا بيرون ... وكل المقربين من منعم يؤكدون أن سر عودته القوية يكمن في سيسيليا؛ فهي ليست مجرد صورة جميلة.. ولكنها سيدة قوية تقف بجانبه وتسانده، وتحملت كل ما قيل عن زوجها وعنها"[2] حيث كانت قد

(١) أنيس منصور عمود مواقف في الأهرام - في ١ / ٩ / ١٩٩٩م - الصفحة الأخيرة .
(٢) غادة الشرقاوي - تحقيقات و تقارير خارجية - الأهرام - ١٢ / ٥ / ٢٠٠٣ - ص٧ .

تزوجته قبل الحكم عليه بتحديد إقامته بأيام، وهي في غير حاجة لاستغلاله لأنها تنتمي لأسرة ثرية، وتحملت معه الأزمة إلى أن أسقطت المحكمة الدستورية الحكم عنه؛ ولذلك فنظرة الشعب لها أكسبته احترامًا.. وقد تساهم في نجاحه بفترة رئاسة ثالثة.. إلى جانب المظهر الشاب الذي عاد به.. وإن كان للسبب الأخير حديث آخر سيأتي في حينه.

أما في إيطاليا فإن فيرونيكا برلسكوني زوجة الرئيس الإيطالي التي ظلت تمارس دور الزوجة دون ظهور حقيقي ومؤثر في صورته، حيث كانت تعيش في عزلة منذ عشرين عامًا.. لكنها خرجت مؤخرًا إلى النور بكتاب ألفته الصحفية ماريا لاتلا، بناء على أحاديث واعترافات مطولة من صديقتها فرونيكا، هز الأوساط السياسية والاجتماعية في إيطاليا؛ " لما احتوى عليه من تفاصيل كثيرة، حول حياة رئيس الوزراء الشخصية، ولكشفه عما يمكن وصفه " بالشيزوفرانيا الأسرية " بين بيرلسكوني وزوجته.. فما جاء في الكتاب - أو مذكرات فيرونيكا - يتعارض تمامًا مع ما نشره برلسكوني في سيرته الذاتية "قصة إيطالية" قبل ثلاثة أعوام، فالسيرة التي وزعت على أكثر من ١٢ مليون منزل قبل إجراء الانتخابات العامة في عام ٢٠٠١، والتي فاز فيها برلسكوني ركزت على عكس صورة الرجل الأسري، فحفلت بصور لبرلسكوني يتوسط زوجته وأولاده الثلاثة والابتسامة العريضة تملأ وجهه، وبين الصفحات يتحدث برلسكوني عن شعوره الغامر بالسعادة لدى عودته للمنزل ليستمتع بمشاركة عائلته الطعام والحديث في جو عائلي دافئ، والآن تأتي مذكرات فيرونيكا لتعكس صورة مختلفة تمامًا عن تلك اللوحة المثالية"[1].

ولا شك أن هذا التناقض قد جاء نتيجة لألاعيب صناع الصورة

(١) هناء دكروري - الأهرام - وجه في الأنباء - ٧/ ٧ / ٢٠٠٤ - ص٦ .

الإيطاليين، فبرلسكوني أغنى رجل في إيطاليا، ويمتلك عدة أبواق دعائية، تتمثل في امتلاكه لأكبر الصحف الإيطالية وأكبر محطات التليفزيون، الأمر الذي أوصله بسهولة إلى منصبه السياسي.. لكن خروج زوجته فيرونيكا من مكمنها لفضحه وتكذيب كل ما قال، والإشارة إلى تعاستها الأسرية معه، وانشغاله الدائم عنها، وضعفه نحو النساء الجميلات الذي جعله يترك زوجته الأولى وأولاده ويتزوجها؛ لمجرد أنه رآها نصف عارية في عرض مسرحي كانت تشارك فيه، بالإضافة إلى تأكيدها أنها تختلف معه في تأييده للغزو الأمريكي للعراق، وأنها أبدًا لم تصوِّت لحزبه يومًا، كل ذلك لا بد وأن يهز صورته لدى الناس، خاصة وأنه انبرى بدوره ليكيل لها الاتهام بأنها عشيقة لفيلسوف يساري يدعى ماسيمو كاشياري، ورغم نفيها لهذه التهمة فإن مجمل هذه الأمور تعطينا ملمحًا هامًا لأثر المرأة الزوجة في حياة الرؤساء الغربيين بشكل لا نتصور حدوثه في عالمنا العربي.

هذا وطالما أن الحديث عن المرأة ومكانتها أو دورها في صناعة صورة الرئيس فلا بد من الإتيان على ذكر دور المرأة الأخرى في رسم هذه الصورة، وكيف يمكنها أيضًا أن تهز صورة الرئيس، وتقلل من شعبيته، أو تؤدي إلى اختلاف الرأي حوله، وتفاوت النظرة إليه بين مؤيد ومعارض، ولنأخذ على ذلك أمثلة غربية بالطبع، لعل أكثرها وضوحًا وفجاجة ما أحدثه ظهور مونيكا لوينسكي في الصورة الذهنية المنطبعة عن الرئيس بل كلينتون من تشويه، رغم أنه لم يسقط بسببها، واستمر على مقعد الرئاسة حتى أكمل فترته الثانية في الحكم.. لكن الأمر استلزم مناقشات حادة حول موقفه، في كل صحف العالم، استنادًا إلى الملف الفضائحي المسمى: " تقرير ستار " نسبة إلى المحقق كنيث ستار، الذي بلغ آلاف الصفحات المليئة بما

يُشبه أفلام الجنس الفاضح، من وصف أقل ما يُقال عنه أنه بذيء، ولا يليق أن يوصف به سلوك رئيس دولة.. ومع ذلك وجد كلينتون من الرجال من يكتب محللا - ولا أقول مدافعًا عنه - محللا لموقفه ومبررًا لخطيئته البشرية التي يقع فيها الكثير من الرجال والمسئولين منهم دون أن يُكشف أمرهم، أو يلاموا، أو يُطلب منهم الاعتذار علنًا، كما حدث لكلينتون.

ولعل أبرز النماذج في الكتابات العربية التي حللت موقف كلينتون بدقة لا تخلو من شجاعة، وفي نفس الوقت لا تخلوا من تبرير يعكس تحيزًا ذكوريًا، ما كتبه عادل حمودة تحت عنوان: " النوم مع العدو "، والذي جاء فيه: "من كان منكم بلا خطيئة فليرجم الرئيس الأمريكي ويليام جفرسون كلينتون، الشهير ببيل كلينتون بمليون حجر.. إن كلينتون ليس هو الرجل الوحيد الذي أكله الذئب.. أو أكله الجنس.. ليس هو الرجل الوحيد المصاب بالسيكسومونيا.. أو هوس الجنس.. أو سرعة الخضوع لسلطان الجنس الآخر...... وتزداد حدة السيكسومونيا كلما امتلك الرجل القوة.. قوة السلطة أو الثروة أو الشهوة.. فالمرأة ضعيفة أمامها..... ولو حاكمنا بعض الرؤساء والوزراء والجنرالات والنواب مثلما نحاكم كلينتون لوجدنا مليون مونيكا لوينسكي"[1]، والمقال طويل، ويحتوي على الكثير من المعلومات، التي تشير إلى دور المرأة الأخرى في حياة الساسة والرؤساء.. لكن ما يهمني هنا هو التأكيد على أهمية دور المرأة، بكل أشكاله، في تظليل وتشويه، أو تحسين صورة الرؤساء، وهو أمر يمكن رصده في دول الغرب بوضوح، في حين أنه موجود في العالم العربي.. لكنه يدخل في إطار الشائعات، التي لا يمكن الاعتماد عليها، والتي تثار كهمس طوال وجود الرئيس في سدة الحكم.. إلى أن يموت، أو

(١) الأهرام - مقال صباح السبت - ٢٦ / ٨ / ١٩٩٨م - ص ٢٨ .

يُنقلب عليه، فيقال فيه ما قال مالك في الخمر.

ونعود إلى دور مونيكا لوينسكي في فضح بيل كلينتون.. رغم أنه ليس أول من خان زوجته، فمن قبله كان جون كنيدي الذي خان جاكلين.. برغم نجوميتها وقبولها لدى الناس، أو صورتها الحقيقية والذهنية المحببة المنطبعة لديهم.. لكنهم عذروه عندما عرفوا أنه خانها مع نجمة الإغراء الهوليودية الشهيرة مارلين مونرو، التي يقال إن المخابرات الأمريكية أجبرتها على الانتحار.. بعد أن عرف الناس علاقتها الخاصة بكنيدي؛ حفاظًا على صورة الرئيس وهيبة الدولة.. فمما لا شك فيه أن ظهور المرأة الأخرى في حياة الرؤساء، ومعرفة الناس بخيانتهم لزوجاتهم.. خاصة في فترة الستينيات كما هو الحال بالنسبة لكنيدي كان لا بد من أخذها في الاعتبار؛ حتى لا تشوه الصورة المراد تثبيتها في الأذهان.. لكن الأمر قد اختلف إلى حد ما في نهاية التسعينيات، فبالنسبة لبيل كلينتون؛ فإن الفضيحة الجنسية قد تجاوزت كل الاعتبارات السياسية، وأدت إلى تجاهل كل ما أنجزه كلينتون، على المستوى السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي. بعد أن نشرت تفاصيلها في كل وسائل الإعلام. خاصة حينما اختير توقيت إذاعة استجواب كلينتون، في التليفزيون "في نفس الوقت الذي كان يُلقي فيه كلمة الولايات المتحدة في هيئة الأمم المتحدة.. وهي الكلمة التي ترسم خريطة السياسة الخارجية، والأجندة التي تحدد أولويات العالم.. لكن كانت الفضيحة أهم.. رغم أن كل كلمة كان يقولها كلينتون كانت تؤثر مباشرة على البورصات والعملات بالانخفاض المضطرب.. والمطّرد.. وبدا كلينتون ضعيفًا.. مهزومًا.. مهزوزًا عاجزًا"[1]، والمعنى أن المرأة الأخرى تؤثر بالسلب في صورة الرؤساء.. حتى في الغرب الأمريكي المتحرر من كل القيود الأخلاقية الشرقية..

(١) المصدر السابق نفسه.

أو حتى من التقاليد الأوروبية التي مازالت بقايا منها تحكم الأسر الحاكمة، ومجتمع الصفوة فيها، بدرجات متفاوتة، فالأمر نسبي، وحكاية ظهور ابنة غير شرعية للرئيس الفرنسي، فرنسوا ميتران تشهد على ذلك، ففي فرنسا ومنذ عهد لويس الرابع عشر يسمح للملوك والرؤساء والساسة، بكثير من العلاقات النسائية خارج الإطار الرسمي.. دون أن يسيء ذلك أو يؤثر بحدة في وضعهم الرئاسي.

هذا ولعل أبرز مثال على مساوئ ظهور المرأة الأخرى في حياة الشخصيات العامة، سواء أكانوا رؤساء أو حتى مرشحين للرئاسة في نظم برلمانية -يملك فيها الحاكم دون أن يحكم - مثلما الحال في بريطانيا، فحتى بعد سنوات من موت أميرة القلوب ديانا، كثف الأمير تشارلز جهوده لتحسين صورة عشيقته كاميلا باركر باولز. " التي يكرهها الشعب الإنجليزي، باعتبارها من وجهة نظرهم مسئولة عن تدمير زواج أميرتهم المحبوبة؛ ولذا استعان ولي عهد بريطانيا بطاقم جديد من المستشارين وعلى رأسهم مارك بولاند"[1]؛ لتحقيق صورة طيبة له ولها.

هفوات الرؤساء

ولنأتِ إلى ملمح آخر من ملامح صورة الرئيس التي يرسمها هو بنفسه لنفسه.. إما عفوًا، أو عمدًا، وتسيء إلى صورته، وكمثال لما يُنشر عن الرؤساء الغربيين، والانتقادات التي توجه للقائمين على رسم صورهم الذهنية لدى شعوبهم؛ لنقارن ذلك بما يُقابله من تقصير من جهة المحيطين بالرؤساء العرب؛ حينما لا يكلفون أنفسهم عناء حذف أو عمل " مونتاج " لبعض العبارات التي يجب ألا تُنشر على الملأ.. حتى لو كان الرئيس قد قالها عفوًا في لقاء حضره عدد محدود: لأنها

(١) الصانداي تليجراف البريطانية - في ٢٩ / ٨ / ١٩٩٩م.

في النهاية عبارات يمكن تحميلها مضامين مختلفة ومتعددة قد يُساء فهمها، ويمكن أن تضيف ملمحًا غير مرغوب إلى صورته.

ولنر كمثال ما كتبته الصحف البريطانية عن صورة رئيس وزراء بريطانيا - وهو رئيس يحكم في النظام الملكي البريطاني - واللوم الذي وجهته الصحافة البريطانية للمحيطين به، والمسئولين عن رسم صورته، تحت عنوان: "صحفي بريطاني يتهم بلير بالنازية"، وجاء فيه نصًا: "انتقدت صحيفة ديلي ميل اليمينية البريطانية بشدة رئيس الوزراء توني بلير؛ بسبب مقاله الذي نُشر في الصحف العربية، فقد اتهم أفريم هارد كاسل - أحد كتاب الصحيفة البارزين - بلير باستخدام نفس تعبيرات الزعيم النازي "حل نهائي"، في إشارة إلى الأزمة في الشرق الأوسط، وقال هارد كاسل: إن هذه العبارة مرادفة لكلمة الهولوكوست (المحرقة)، الذي هو حل هتلر النهائي لمشكلة اليهود.

وادعى الكاتب اليهودي أن استخدام بلير لهذه العبارة يعكس مدى سوء أداء العاملين في مقر الحكومة، خاصة وحدة الاتصالات الاستراتيجية، التي وصفها بأنها سخيفة، وحمَّلها مسئولية ما وصفه بالخطأ الأبله الذي مر دون "تمحيص".

هذا وقد كان بلير يجب أن يستخدم في مقاله عبارة "تسوية نهائية" التي تعني بالإنجليزية "Final Settlement".. وليس عبارة "Final Solution" التي تعني "الحل النهائي" كما زعم هارد كاسل"[1].

ويذكّرنا هذا بالهفوة التي جاءت على لسان الرئيس الأمريكي بوش الابن، في وصفه لحملته لمكافحة الإرهاب، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، بأنها "حملة صليبية"، وما تركته هذه العبارة، أو هذا الوصف من أثر سيئ لدى المسلمين في العالم كله،

---

(١) الأهرام القاهرية في ١١ / ٤ / ٢٠٠٢م

وانتباه فريق العلاقات العامة المسئول عن صورته في العالم، إلى فداحة هذا الخطأ، الذي اعتبر مجرد زلة لسان لا يمكن تمريرها.. دون أن يعتذر عنها الرئيس شخصيًا، الأمر الذي جعله يصحح هذا الخطأ، ويعتذر للمسلمين في العالم، وينفي عن نفسه تهمة العنصرية، أو معاداة دين بعينه، وصياغة خطبة عصماء ألقاها في المركز الإسلامي.. أغلب الظن أن من صاغها بهذا الإحكام، هم خبراء الصورة المحيطون بالرئيس الأمريكي.. وليس هو، فالرئيس جورج دبليو بوش بالذات قد اشتهر عنه أنه " غبي " أو أنه أغبى من تولى الرئاسة الأمريكية، وهذا ليس كلامًا مرسلا أو وجهة نظر خاصة، لكنه مستقى من صفحات شبكة المعلومات العالمية، المعروفة بالإنترنت، التي يتبادل المتعاملون معها بحرية تصوراتهم الذهنية عن الرؤساء بكل صراحة، متندرين بأسلوب ساخر على الرئيس بوش بالذات، ووصفهم له بـ "Bosh the Stupid".. ناهيك عن وصف الأمريكيين له بالغباء، وبأنه " رأس فارغ يسكن البيت الأبيض " في لافتات الاعتراض على ضربه للعراق، التي جاب بها المتظاهرون أنحاء الولايات المتحدة.

هذا ويبدو أن بوش الابن قد بدأ سلسلة هفواته اللغوية منذ بدأ حملته الانتخابية، إذ أشارت بعض وسائل الإعلام هناك إلى أنه يرتكب "مذبحة لغوية"! وضربوا مثلا عليها بأنه.. رغم الأداء القوي المفعم بالحيوية له؛ كمرشح في انتخابات الرئاسة الأمريكية، فإن أخطاءه اللغوية تتحول في بعض الأحيان إلى " مذبحة للغة الإنجليزية"، وأشاروا كدليل على تلك المفارقات إلى ما حدث في خطاب انتخابي أمام الآلاف في تكساس في ١١ أغسطس ٢٠٠٠. استخدم فيه - على حد تعبيرهم " عبارات غير مفهومة لوصف سياسته الأمنية، أربكت الحاضرين.. خاصة حين تحدث عن الدول "المنبوذة"، وكان يقصد الدول الراعية للإرهاب.

المهم.. أو ما يجب تأكيده - قبل الانتقال إلى مناقشة نقطة أخرى لها أهميتها في رسم الصورة - هو خطورة ما يصدر عن الرؤساء من هفوات أو زلات لسان، وتأثيرها على الصورة المرغوبة، وهو ما يؤكده اثنان من أشهر صُنَّاع نجوم السياسة في الولايات المتحدة، هما الزوجان كليم ويتاكر، وليوني باكستر (Clem Witaker & Leune Bax-ter)، من كاليفورنيا اللذان توليا الحملات الانتخابية لسبعين مرشحًا جمهوريًا تحقق لهم النجاح جميعًا بفضل أسلوبهم الدعائي، إذ يقول ويتاكر: " إن الدعاية للمرشحين السياسيين أصعب بكثير من الدعاية لبيع سيارة مثلا؛ لأن السيارة هي سلعة خرساء.. أما المرشح السياسي فكثيرًا ما يقول ما يعود بالضرر على صورته لدى الجماهير، ومن ثم يُفسد كل ما أعددناه من خطط"[1]؛ ولذلك فإن خبراء الصورة يصرون عادة على الإشراف على جميع التفاصيل الخاصة بالصورة الجماهيرية للمرشح، ويحتفظون بحقهم في الاعتراض على كل لفظ وكل حركة يرون أنها قد تؤثر على صورة المرشح لدى الجماهير، وكلنا يعرف أثر خطب الرؤساء في تشكيل صورهم لدى الجماهير من حيث البلاغة في الصياغة أو حسن الإلقاء والقدرة على التأثير.

قياس شعبية الرؤساء

أما عن عمليات قياس الرأي العام حول شعبية أي رئيس، فتتم في الغرب بشكل مستمر، شهريًا.. إن لم يكن أسبوعيًا، ناهيك عن قياسه كلما جد جديد من الأحداث، التي يمكن أن تؤثر في تشكيل صورته، أو في مدى هذه الشعبية، ولنأخذ مثالا على ذلك ما قيل عن ارتفاع شعبية الرئيس الفرنسي، التي ظلت الصحف تنشر نتائج استطلاعات الرأي حولها إبان التحالف الأنجلو- أمريكي لضرب العراق عام

(١) محمد سلماوي - الصورة الجماهيرية لجمال عبد الناصر - قضايا معاصرة ٤ - دار الموقف العربي - ص١٢.

٢٠٠٣م، بشكل يعكس تصاعدها أسبوعيًا، وكمثال ما نشرته الصحف قائلة:

"تقفز شعبية الرئيس شيراك إلى ٧٤٪ لأول مرة منذ ١٩٩٨؛ بسبب موقفه الحاسم المعارض للحرب ضد العراق دون تفويض دولي، إذ كشف الاستطلاع - الذي أجراه معهد هاريس لاستطلاعات الرأي، ونشرته صحيفة " ليبراسيون " أمس، أن ٢٢٪ فقط من الفرنسيين لديهم وجهة نظر سلبية بشأن موقف شيراك من الأزمة العراقية.

وكان آخر استطلاع للرأي نشر في الأسبوع الماضي، ذكر أن شعبية شيراك قفزت خلال شهر مارس إلى ٦٧٪، مقابل ٥٧٪ خلال فبراير، وكانت شعبية الرئيس الفرنسي قد وصلت إلى ٧٤٪ عام ١٩٩٨، بعد فوز فرنسا بكأس العالم"(١).

هذا وللحقيقة فإن عملية قياس الرأي العام حول صورة الرؤساء.. أو حتى الملوك فيها قدر كبير من الذكاء والإيهام الذي يدعم الصورة المرغوبة.. ولا يسيء إليها أو يشوهها، فإعلان أرقام ونسب تشير إلى ارتفاع شعبية أي رئيس، تتضمن قدرًا من التأثير في الرأي العام، في الاتجاه المطلوب؛ لتحسين صورته الذهنية لدى الشعب، وهذا الأسلوب لا يُتّبع فقط في النظم الجمهورية في الغرب.. ولكن في النظم الملكية أيضًا؛ كمظهر من مظاهر الديمقراطية، وحرية التعبير والرأي، وكأسلوب ذكي من أساليب التأثير في الرأي العام.

ولنأخذ مثالا على ذلك بالملكية البريطانية التي نشرت الصحف اللندنية خبرًا مؤداه أنها ستستطلع رأي الشعب فيها، مع إشارة إلى أن هذا يأتي كخطوة نحو تحديث الملكية، إذ دعا القصر الملكي خبراء في مجال التسويق؛ لإجراء أبحاث حول رأي الشعب البريطاني في العائلة المالكة، وماذا يريد منها، وكذلك للتأكد من أن أنشطة أفراد العائلة

(١) الأهرام - من باريس نقلا عن فرانس برس - في الأربعاء ١٩ مارس ٢٠٠٣م - ص٥.

متماشية مع مصالح واهتمامات الناس؛ ولذلك طلب السير "روبرت فيلوز" - السكرتير الخاص للملكة إليزابيث ملكة بريطانيا - من مؤسسة " موري " لأبحاث الرأي العام، أن تقوم بإجراء بحث مسحي كبير حول هذا الموضوع، كما ذكرت مصادر بريطانية، أن البحث ليس مجرد استطلاع عادي للرأي.. بل هو محاولة لاستكشاف مواقف البريطانيين من الملكية بشكل عميق، حيث ستقدم النتائج إلى القصر، كما أشارت إلى أن هذا التكليف حظي بموافقة الملكة، عقب اجتماع حضره عدد من أعضاء الأسرة المالكة، وكبار المساعدين.

هذا ولعلها ليست المرة الأولى.. كما أنها لن تكون الأخيرة، التي تسعى فيها الأسرة المالكة البريطانية إلى تحسين صورتها في أذهان البريطانيين.. كلما زادت الأخبار التي تنشرها صحف الأحد الشعبية، أو صحف النفاية (Rubbish) كما يسميها البريطانيون أنفسهم، التي تتناول تصرفات مشينة لأفراد الأسرة المالكة، تسيء إلى النظام الملكي ككل، وتشوه صورته التي ظلت محاطة عبر عقود بكل مظاهر الالتزام بالتقاليد الملكية العتيدة، إذ لوحظ أن هذه الصحف تستغل مساحة الحرية الصحفية المتاحة في بريطانيا؛ لتتناول كل شباب الأسرة المالكة على التوالي، بدءًا بمغامرات وغراميات الأميرة الراحلة "مرجريت"، شقيقة الملكة إليزابيث، خلال عقد الستينيات، ثم الأميرة " آن " ابنتها، وانتهاءً بنشر وقائع الخيانات المتبادلة، بين ولي العهد البريطاني الأمير " تشارلز " وزوجته الراحلة، أميرة القلوب "الليدي ديانا سبنسر".

هذا وقد تم قياس شعبية رئيس الوزراء البريطاني توني بلير عدة مرات، إبان وبعد مشاركته لبوش الابن في غزو العراق، وكان آخرها عند اكتشاف مقتل العالم البريطاني كيلي، والتحقيق الذي دار لمعرفة هل كان هناك قدر من المبالغة في تقدير القوة النووية للرئيس صدام

حسين بما يستوجب دخول الحرب؟ الأمر الذي أدى إلى استقالة مستشار بلير الإعلامي، والذي تقوم زوجته أو صديقته بدور استشاري لزوجة بلير، في مجال تحسين صورتها، وأسفرت الاستطلاعات عن انخفاض شعبية بلير بشكل واضح.

كذلك الحال في إسرائيل، التي يتم فيها بشكل دوري قياس شعبية رؤساء الوزارات، وآخرهم رئيس وزرائها إيريل شارون، التي أثبتت الاستطلاعات أنها في انخفاض مستمر من ٦٠٪ إلى ٤٣٪، بعد ثبات فشل القضاء على المقاومة الفلسطينية بالقوة العسكرية، والفشل في تطبيق خريطة الطريق.

هذا وتجدر الإشارة قبل الانتقال إلى موضوع آخر - له تأثيره في صناعة الصورة - إلى أن استطلاعات الرأي يمكن أيضًا التلاعب في نتائجها؛ خدمة لخلق صورة أكثر شعبية، أو التهوين من شعبية أي شخص مرشح للرئاسة.. لكن مدى تأثير ذلك التلاعب يعد محدودًا في مجتمعات تتمتع بقدر كبير من الشفافية، وحرية الصحافة وكل وسائل الإعلام، وفي ظل قدر أكبر من المنافسة الطاحنة بين مراكز قياس الرأي العام، التي يمكن لكل منها أن تهدم أو تشكك في نتائج المراكز المثيلة المنافسة لها.

مراكز صناعة الصورة

إذا كان حول أي رئيس أوروبي بعض الخبراء والمستشارين المتخصصين في الصورة الذهنية، فإن الأمر أكبر بكثير في الولايات المتحدة الأمريكية، التي تعد صناعة النجوم والرؤساء فيها مهنة لها أصولها، وقواعدها، ومحترفوها، وهواتها أو عشاقها أيضًا، إذ يقوم فيها بهذه المهمة مكاتب متخصصة، تتقاضى مبالغ خيالية وأرقامًا فلكية، للترويج أو لتحسين صورة أي شيء، وأيًا من كان، بدءًا بالسلع

التجارية، ومرورًا بنجوم السينما في هوليود، وانتهاءً برؤساء أمريكا أنفسهم.. ويتدرب فيها الشباب على كيفية تسويق أنفسهم، أو صورهم بحثًا عن عمل، فأمريكا بحق هي بلد العلاقات العامة ومؤسستها كعلم أكاديمي، وكفن عملي وتطبيقي.

هذا وكلنا يعرف أن في أمريكا العديد من المراكز التي تعج بالكثير من مستشاري العلاقات العامة يساهمون في رسم صورة الرئيس - أيّ رئيس للولايات المتحدة الأمريكية - يخططون للحملات، ويرسمون ملامح صورة المرشح للرئاسة؛ بدءًا من طريقة تلويحه لناخبيه، إلى ظهور زوجته إلى جواره، وحنوه البادي عليها - حتى لو خانها بعد ذلك خيانة فجة وجارحة؛ كما فعل الرئيس بيل كلينتون - وانتهاءً بما سيقوله الرئيس في مناظراته مع منافسيه على الرئاسة، وهذا ما فعلته هذه المراكز مع رئيس أمريكا الحالي جورج دبليو بوش.. لكن المقدمات التي سبقت توليه كانت كلها تنبئ بما شهدته الساحة العالمية بعد توليه الرئاسة، مما استنكره الشعب الأمريكي الذي اختاره بنفسه ليجلس في البيت الأبيض، وما رفضوه من تصرفاته التي جعلتهم يصفونه كما سبق القول بـ" "Boosh the stupid

هذا ولعل البعض منًا فقط يعلمون أن كاتب خطب أي رئيس أمريكي يحتل درجة في الكادر الوظيفي، لا بد وأن يتوفر فيه الإلمام بأسرار الكتابة السياسية، وهؤلاء الكتّاب هم في الأغلب الأعم من الصحفيين، الذين يتم نقلهم من بلاط صاحبة الجلالة، إلى البلاط الرئاسي في البيت الأبيض، أو ما يُسمى بهيئة مكتب الرئيس، وذلك بعد أن يكونوا قد أدوا دورهم ضمن مستشاري حملته الانتخابية، وهم يتناوبون على كتابة خطب الرئيس، التي يلقيها في المحافل والمناسبات العامة، وصياغة الأفكار السياسية التي يتبناها الرئيس، ويرسمها مع مستشاريه السياسيين والعسكريين؛ وهم في الأصل - كما سبق القول

- كتّاب خطبه في حملته الانتخابية، والفارق أنهم كانوا أثناء الحملة هم الذين يضعون الأفكار، التي تساهم في رسم صورة محببة للرئيس المرشح لدى الناخبين، ثم يصوغون هذه الأفكار بأسلوب جذاب وعبارات محكمة، وهم بعد نجاحه يكتبون خطبه؛ محاولين بها إيهام منتخبيه بأنه ما زال يسير على نفس البرنامج؛ لتنفيذ الوعود التي وعدهم بها كي ينتخبوه.. لكنهم غير مسئولين عن الأفكار السياسية التي تُطرح في هذه الخطب، وإنما يقتصر دورهم فقط على تجميل محتواها، وتبرير ما في هذه الأفكار والسياسات من أخطاء.

وذلك لا يحدث في أمريكا وحدها.. بل في إنجلترا أيضًا، إذ إن توني بلير رئيس وزراء بريطانيا اختار عددًا ممن يسمونهم " أطباء التجميل "، أو " skin doctors "، وهم بالطبع ليسوا أطباء.. ولكن كالأطباء، يُجمّلون صورة رئيس الوزراء والوزراء؛ ليجعلوها أفضل، أو أكثر قبولا لدى الناس، كما يُجمّلون مشاريع رئيس الوزراء عند الشعب، ويقترحون عليه أن يفعل كذا، ولا يفعل كذا؛ وكي تكون الصورة واضحة لديهم فهم يحضرون جلسات البرلمان، واللجان الحزبية.. حتى أن الكثيرين قد ضاقوا بهم.. لكنهم كما يقول أنيس منصور: " هؤلاء الأطباء لهم مهمة خطيرة، هي مهمة المحامي، الذي يملك أساليب أقوى وأجمل في الدفاع عن الحق؛ حتى يؤمن الناس ... بل إن توني بلير قد عين للملكة طبيب تجميل يقول لها: كيف تظهر.. كيف تبتسم.. كيف تضحك.. كيف تقترب أكثر من الشعب.. إن توني بلير بعد مقتل ديانا هو الذي أطال عمر الأسرة المالكة، فقد جعل للأسرة المالكة مظهرًا إنسانيًا، متجاوبًا مع مشاعر الناس"[1]، والأكثر من ذلك أنهم قد نجحوا في صياغة الملكة وأولادها فعلا، " فنزلوا إلى الشارع، تضحك ويضحكون تصوَّر! وتصافح الناس.. تصوَّر!! وتبكي

---

(١) الأهرام - عمود مواقف - ٢٨ / ٩ / ١٩٩٨ - ص٣٦ .

على ديانا، وهذا ما لم يكن يتصوره أحدا!! أما توني بلير نفسه فقد استعان في وزارته بأكثر من سبعين طبيبًا للتجميل، من بينهم ٢٢ طبيبًا يعملون في مكتبه، ولكل وزير ثلاثة أو أربعة.. أما وزير التعليم - لأنه أعمى - فله ستة.. حتى زعيم حزب المحافظين هيج قد اختار له طبيبًا لتجميل صورته ملابسه، وحلاقة شعره، وفساتين زوجته المشخلعة، والنواب في مجلس العموم يحتجون على إنفاق أربعة ملايين جنيه سنويًا على هؤلاء الأطباء في تحسين الصورة، وإقناع الملايين بشكل وأداء وأفكار رئيس الوزراء، والوزراء"[1].

هذا ويبدو أن بلير في هذا الأمر قد تأثر بشدة بالنمط الأمريكي في العلاقات العامة، فيما يتعلق بأهمية عدم ترك شيء للصدفة في مجال صناعة الصورة بالذات، وقد بدأ هذا التأثر أو هذه التبعية مبكرًا، وسار على هذا النحو، إلى أن صار تابعًا حقيقيًا للسياسة وللعسكرية الأمريكية بعد سنوات، حينما خاض حرب العراق مع الرئيس بوش الابن، الأمر الذي جعل شعبه نفسه يصوره ككلب تابع لسيده بوش في أغنية شهيرة تذاع هناك.

وإذا كان هذا ما يحدث في بريطانيا التابعة لأمريكا، فماذا عن خبراء الصورة في أمريكا نفسها؟ بالطبع يتكرر ما حدث في رسم صورة الرؤساء السابقين، ليحدث مع الرئيس الأمريكي الحالي، وبحِرفيَّة أشد، إذ كان خبراء رسم الصورة الذهنية للرئيس الأمريكي بوش الابن يضعون محددات لرسم صورته، ترتكز على إبراز سمات وملامح معينة، أهمها: أنه ينحدر من أصول ملكية ورئاسية، وأنه سيفوز بالرئاسة؛ لمجرد أن الدماء الملكية تجري في عروقه، وقد تم إبان حملته الانتخابية تمرير أخبار تفيد هذا المعنى، على لسان خبير في السلالات قال: " إنه منذ عهد جورج واشنطون أول رئيس للولايات

(١) أنيس منصور - الأهرام - عمود " مواقف " ٢٠ / ٧ / ١٩٩٩ - الصفحة الأخيرة.

المتحدة، كان الفائز في السباق إلى البيت الأبيض دائمًا، هو المرشح الذي تربطه علاقة أوثق بالدماء الملكية؛ ولذلك فإن بوش الابن هو الأقرب للفوز؛ لأنه ينحدر مباشرة من سلالة ملوك أوروبيين، مثل هنري الثالث، وهنري الرابع، وشارل الثاني، فهو من عائلة نبيلة من ولاية نيو إنجلند في شمال شرق الولايات المتحدة، استقر والده في تكساس جنوب البلاد في الخمسينيات وحقق ثراءً واسعًا من عمله في تجارة البترول، قبل أن يخوض غمار العمل السياسي، ويصبح رئيسًا للبلاد في الفترة من ١٩٨٨ - ١٩٩٢، وبهذا المعنى فلا عجب أن يكون الرئيس ابن رئيس، وكأنها وراثة ملكية!! وتذكرنا هذه الدعاية التي تؤصل للعراقة وأصالة المحتد، بما يحدث في الشرق من محاولات تنسيب الحكام إلى النبي ﷺ!

هذا وغير خفي - كما سبقت الإشارة - أن تمرير الأخبار والإحصاءات الموحية، والنتائج المبدئية لقياس الرأي العام، تعتبر توجيهًا للرأي العام الشعبي إلى وجهة معينة، أكثر منها عملية قياس مجرد عن الهوى، أو إعلام هدفه الإعلام في حد ذاته، ذلك أن نشرها من شأنه أن يوحي للناخبين بما يجب أن ينساقوا خلفه كالقطيع.

هذا ويبدأ الخبراء رسم ملامح صورة المرشح للرئاسة، ويشرعون في تنفيذ برنامجهم.. لكنهم بالطبع قد يواجهون بحملات مضادة، من منافسي هذا المرشح، ويدركون بالضرورة أنهم لا بد وأن يكونوا مستعدين للرد على هذه الحملات ردًا مقنعًا؛ حتى لا يتأثر الناخبون بما يرد في هذه الحملات المعادية، وحتى يستطيعوا أن يستمروا في تقديم باقي ملامح الصورة التي رسموها، خاصة إذا كان المرشح - من المبتدئين نسبيًا في العمل السياسي - كجورج دبليو بوش مرشح الحزب الجمهوري، فالمعروف أنه لم يبدأ خطواته في طريق السياسة

إلا عام ١٩٩٤، دون تاريخ سابق لذلك.. عدا اعتماده على إرشادات ونصائح والده الرئيس الأسبق جورج بوش، ودون أن تكون لديه مواهب سياسية حقيقية، فهو لم يكن يحلم يومًا ما بأن يكون رئيسًا للولايات المتحدة، وليس لديه أي من المواهب التي تؤهله لذلك، فحتى أمه نفسها لم تكن تؤمن بأنه سيتمكن من النجاح في عالم السياسة.. بل على العكس كانت تتوقع لابنها الثاني " جيب بوش " حاكم ولاية فلوريدا أن ينجح في هذا المجال، خاصة وأن بوش الابن الأكبر لها كان طفلا مرفهًا، نجح بدعم من والده في أن يصبح قائدًا للمقاتلات الجوية من طراز (إف - ١٠٢).. ورغم أنه درس في جامعتي " ييل وهارفارد " للحصول على درجة الجدارة في إدارة الأعمال.. إلا أنه لم يحقق نجاحًا كبيرًا في مجال الأعمال؛ لأنه كان يعشق الحياة الصاخبة، وهو بنفسه اعترف بأنه كان حتى سن الأربعين ميالا إلى شرب الكحوليات (أي كان سكيرًا سابقًا!).. ورغم ذلك حظي بأصوات الناخبين في طول الولايات المتحدة وعرضها!! رغم كل هذه المثالب الشخصية..كيف؟! بفضل خبراء الصورة، وبعد صراع مرير مع منافسيه، وإعادة أشبه بملاحق الراسبين في الثانوية العامة بخمسين في المائة، الذين يريدون تحسين المجموع، وهو النجاح الذي وصف بأنه كان مفاجأة للجميع، وأنه كان " نجاحًا منقوصًا ومشكوكًا فيه "، وأتصور أن تعاطي الكحوليات، والحادثة الشهيرة عن تدخينه الماريجوانا، وهو طالب في جامعة ييل، قد أثرت ولا شك على تقديره للأمور.. إن لم نقل أنها أتلفت بعض الخلايا في مراكز التفكير لديه؛ بدليل ما بدر منه من مواقف متشددة، ورغبة جامحة في التدمير، أبعد ما تكون عن السياسة والدبلوماسية، إبان حرب الخليج الثالثة؛ ضاربًا عرض الحائط بكل ما يوجه إليه من نداءات من الرأي العام الأمريكي، والرأي العام العالمي بشأن ضرب العراق، وإصراره على

الاستمرار في هذا المنزلق.. رغم مؤشرات عدة تؤكد أنها حرب خاسرة على المستوى السياسي والدبلوماسي.. حتى لو تحقق فيها نصر على المستوى العسكري؛ إذ سيكون هذا النصر مكلفًا جدًا، في مجال الخسائر البشرية بالذات.. وهو أمر له اعتباره لدى الرأي العام في الشارع الأمريكي.

ويؤكد ما أذهب إليه في هذا الصدد بالنسبة لإدمان جورج دبليو بوش، ومدى تأثره ذهنيًا بهذه العادة المذمومة، ما ذهب إليه الأستاذ محمد حسنين هيكل بشأن هذا الموضوع، ووصفه لبوش الابن بـ "الرئيس المدمن"، وإشارته إلى أن تعاطيه للكحوليات لم يكن أمرًا عارضًا.. بل إن بوش نفسه قد روى في اعترافاته: أنه ظل حتى تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره شابًا لاهيًا عابثًا، كسولا، عازفًا عن العلم، يفتقد إلى الاستقرار العائلي، ويعاني من فراغ؛ ولذلك عاش حياة غير مسئولة، " وصلت به إلى حد الإدمان الشديد لشرب الخمر نهارًا وليلا، وكان ذلك يضايق زوجته لورا، ويسبب لها حرجًا شديدًا، فلم يكن يمر أسبوع إلا ودورية بوليس تستوقفه، وتسحب رخصة قيادته؛ لأنه يقود سيارته مسرعًا ومخمورًا، ووصل الحال ببعض نوادي تكساس إلى حد منعه من دخولها؛ لأنه في كل مرة يدخلها يثير خناقة لا داعي لها "[1].

ويقتبس هيكل من اعترافات جورج بوش الابن وصفه لوقائع اليوم الذي ولد فيه من جديد، متحولا من شاب عابث سكير، إلى مؤمن شديد الإيمان، وشديد الولاء لكنيسته، ونادم على الذنب.. حريص على التوبة، إذ قال بوش نصًا في اعترافاته: " ليلتها شربت كما لم أشرب من قبل، وفقدت وعيي، وحملوني إلى غرفة نومي، واستيقظت على صداع مروع، وذهبت إلى الحمام مترنحًا، واكتشفت أمام المرآة

(١) جريدة صوت الأمة – العدد ١٢٧ – ٥ / ٥ / ٢٠٠٣م – الصفحة الأخيرة .

أنني عندما حملوني إلى غرفة نومي، ارتميت على سريري بملابسي التي كنت أرتديها، وكانت شديدة القذارة؛ لأنني أفرغت كل ما في جوفي على سريري وملابسي.. قبل أن أغيب عن الوعي، وتحسست وجهي بيدي أمام المرآة، فإذا بها متسخة ببقايا القيء التي لطخت وجهي، وجفت عليه أثناء النوم، وأصابني منظرها في المرآة بقشعريرة هزت كياني، ووجدتني أسأل المرآة قائلا: " ماذا فعلت بنفسك؟!"، ورحت أصرخ أمام المرآة، أعاهد الله على أن ذلك لن يتكرر بعد الآن"[1]، وبالطبع تختلف هذه الملامح الشخصية كثيرًا عن سمات الصورة الذهنية، التي رسمها وروجها خبراء الصورة الذهنية المشاركون في حملة بوش الانتخابية، وبشكل بيِّن!! والفضل هنا يرجع لهم بالطبع!!

هذا ورغم عدم توقع النجاح السياسي لبوش الابن من البداية؛ بعد أن حاول بمساعدة أبيه دخول الكونجرس عام ١٩٧٨ وفشل.. إلا أن شعبية فريق البيسبول بولاية تكساس - الذي كان يرأسه ثم اشتراه - ساعدته على القفز فجأة إلى صدارة الحياة السياسية، والوصول إلى منصب حاكم هذه الولاية عام ١٩٩٤، ومنها انطلق ليحتل المنصب الأرفع في الولايات المتحدة، وتوقع بعض المحللين أنه لن يكمل فترته الرئاسية بعد إصراره على ضرب العراق؛ إذ كانوا يقدرون أنه ليس بكاف أن يكون عقابه الوحيد عدم الفوز بفترة رئاسة قادمة فقط، كأمر بات مفروغًا منه.. لكنهم توقعوا أن يكون خروجه من البيت الأبيض - على أية حال - له دوي، يذكرنا بفضيحة واتر جيت. التي أخرجت الرئيس نكسون، ومونيكا جيت التي كادت تخرج الرئيس بيل كلينتون، أو باغتيال دراماتيكي في موكب عام، كما كان مصير الرئيس جون كنيدي.. الذي لم يكن يستحقه مقارنة ببوش الابن.

(١) النسخة الإلكترونية من مجلة " وجهات نظر " على شبكة الإنترنت - عدد مايو ٢٠٠٢ م.

هذا وقد ظل بوش الابن يحظى بتأييد والده، ووالدته التي لم تكن تتوقع له نجاحًا يُذكر في المجال السياسي، وإن ظلت الصحف تنشر صورته الفوتوغرافية بين والديه، وأمه تحتضن وجهه بين كفيها المعروقتين؛ تشجيعًا له أثناء حملته الانتخابية، وذلك رغم نصيحة مستشاريه له بعدم الاستمرار في الظهور مع والديه؛ حتى لا يبدو كمن ورث السياسة، خاصة وأن والده يصر على مناداته بـ " هذا الولد "؛ ولذلك حرص - بعد تلقيه هذه النصيحة - على عدم الظهور كثيرًا مع والديه، وتكثيف الظهور مع زوجته وهو يحتضنها، ويلوحان بعلامة النصر.. رغم أن المؤشرات كانت تشير إلى أنه لا يتمتع بشخصية ذات قبول.. فقد مني بهزائم ساحقة ومدوية في كثير من جولاته الانتخابية في بعض الولايات، مثل ولاية نيو هامبشير.. إلا أنه كان يتمكن دائمًا من إعادة الحيوية إلى حملته الانتخابية بعد كل هزيمة، ويشعل سباق الرئاسة الأمريكية مرة أخرى؛ بفضل فريق دعايته وخبراء الصورة المحيطين به، والغريب أن منافسيه وكان أحدهم السيناتور جون ماكين قال صراحة في خطاب له بولاية ساوث كارولينا: " إنه لن يسمح بخداع الأمة بالسماح للطموح بأن يتغلب على المبدأ "، وإنه واثق من الفوز رغم أنه على حد قوله: " لن يسلك الطريق الرخيص إلى أعلى منصب في العالم" مشيرًا إلى أنه يريد الرئاسة "بأفضل طريقة وليس بأسوأ طريق "، مشيرًا إلى أسلوب بوش منافسه على الرئاسة.

وقد كان فوز بوش على منافسيه ليس بسبب تمكنه السياسي بالطبع.. ولكن لأن منافسه النهائي " آل جور" وفريق عمله تعثروا في موجة هجوم متواصلة على جورج بوش استغرقت شهورًا، في بداية الحملة، والمعروف أن حملات الهجوم هذه غالبًا ما تأتي بنتائج عكسية؛ لأنها تفتقد التركيز على موضوع واحد، إلى جانب أن الشكل

الكرنفالي الأسطوري الذي تم به إخراج مؤتمر الحزب الجمهوري في فيلادلفيا - الذي تكلف ٥٠ مليون دولار - وأطلق عليه المحللون آنذاك "يوم الثلاثاء الكبير"؛ نظرًا للبذخ في إخراجه، قد نجح في اجتذاب الناخبين والتأثير عليهم.

كما نجح بوش وحزبه في إيهام الناخبين بأنهم بصدد إعادة صياغة للحزب، وإظهاره بمظهر الوسطية، بعد أن كانت صورة الحزب لدى الرأي العام ولدي الناخب الأمريكي أنه حزب يميني، ينحو نحو اليمينية أكثر فأكثر، بدليل تحالف بوش الابن مع اليمين الديني المسيحي، وزعيم ومؤسس " جماعة الأغلبية الأخلاقية " في المراحل الأولية من الانتخابات التمهيدية، وقد نجح فعلا في الإيهام بتغير صورته، وصورة حزبه الذي طالما عرف عنه أنه يتبنى مواقف يمينية عنصرية، غير متسامحة، لا تنظر إلى مصالح الفقراء، ولا تهتم بالبيئة، أو برفع مستوى التعليم، وقد كشفت الأيام بعد ذلك مدى عنصريته وتعصُّبه، عندما صدرت منه زلة لسان تعبر عن ذاته عشية أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، حين قال إنه سيعلنها حربًا صليبية.. ثم عاد واعتذر عما قاله باعتباره زلة، أو هفوة من هفوات اللسان، كما سلف ذكره.

وقد نجح بوش بالفعل هو وفريق حملته الانتخابية، وسط مظاهر احتفالية، وكرنفال سياسي كبير ملأت سماءه البالونات الزرقاء، والأعلام الأمريكية في رسم صورة أو " بورتريه " جديد، يُظهره وكأنه محل ثقة الناس جميعًا، وأنه قادر على قيادة أمريكا، كمرشح قومي للأمة الأمريكية كلها، عابرًا فوق الأحزاب.. أو بغض النظر عن الانتماءات الحزبية، وفي هذا الاحتفال الكبير قدم بطاقة تعارف جديدة له، تعد عملية تحويلية كبرى، أو إعادة صياغة كاملة لحزبه، من خلال خطابه المُعد بعناية، مستشهدًا بدعم كل التيارات له، حتى

أنه كان يتصرف وكأنه قد كسب الانتخابات قبل أن يكسبها، وأوهم الجماهير أنه " الجمهوري الرحيم صاحب المصداقية "، وأنه بالفعل رئيس الولايات المتحدة.. وليس مجرد مرشح للرئاسة!! وهو نفس الأسلوب الدعائي الذي استخدمه بوش وفريقه الدعائي العسكري؛ كحرب نفسية أثناء ضرب العراق في مارس ٢٠٠٣م، إذ كانوا يعلنون عن الانتصارات.. حتى قبل أن يحققوها.

هذا وقد استخدم بوش تكتيكًا معينًا في رسم صورته كمتسامح وسطي، أبعد ما يكون عن التعصب؛ إذ سلك ما يسميه دكتور عمرو عبد السميع: "بالطريق الدائري في مخاطبته لقواعد وكوادر حزبه، أو في حديثه إلى الأمة جمعاء، وهو الطريق الذي ينحني متجنبًا مناقشة القضايا الكبرى، أو القضايا الخلافية، أو المسائل التي أعطت حزبه هذه الصورة النمطية لوجه قاس طوال العقود الماضية، وعبر جورج بوش الذي كان يرتدي ربطة عنق حمراء جميلة، ويعلق ناظريه في سماء قاعة المؤتمر ببراءة وتأثر، وهي وسائل يقوم أخصائيو الحملة بتدريب المرشحين عليها"(١) و هكذا عَبَرَ بوش الابن فوق القضايا الخلافية مثل: الإجهاض والشذوذ والاقتصاد؛ متجنبًا أن يدخل في صِدام مع منافسه، وكان كثيرًا ما يردد مقولات من نوعية: "ليس لدي أعداء لأحاريبهم، وليس عندي رغبة في التوقف أمام المحاولات المرة، التي ثارت في السنوات الماضية "، ناهيك عن العبارات التي من شأنها التأثير في اتجاهات الرأي العام، وكانت تلعب على متغير واحد، وتثبيت جميع المتغيرات الأخرى، فكان حديثه دائمًا في العموميات كالقول: "أريد تغيير نغمة وصوت واشنطن؛ ليصبح أكثر تحضرًا واحترامًا"(٢).. ورغم ذلك أظهر بوش وجهه الحقيقي، بعد أن أصبح

(١) الأهرام - رسالة واشنطن " إعادة صياغة حزب " - ٩ / ٨ / ٢٠٠٠م.
(٢) المرجع السابق نفسه.

رئيسًا، ونسي كل هذا الحديث عن المثاليات، وجر على واشنطن كراهية العالم كله، الذي اعتبرها - بسبب ضرب العراق - الأقل تحضرًا واحترامًا بين دول العالم.. بعد أن ظهر وجهها الحقيقي بكل قبحه، ومعه وجه بوش القبيح أيضًا.

ويجرنا هذا للحديث عن خطورة دور خبراء الصورة الذهنية، في إنجاح من يتولون تقديمه للرأي العام، والتنافس بين كل الفرق للنجاح في الوصول بمرشحهم إلى سدة الحكم، ومكمن الخطورة هنا في أن وصول مرشح ما إلى رئاسة الدولة في أمريكا لا يعني أنه الأفضل بين المرشحين؛ ذلك أن التوازنات الحاكمة في هذا الأمر كثيرة، وتأثير الجماعات والأقليَّات له حساباته، كما أن الأسلحة القذرة، والخدع الانتخابية التي يخترعها ويتفنن فيها منظمو الحملات الانتخابية المحترفون في أمريكا، بإمكانها أن تصنع المعجزات؛ بدليل أن المنافسة على الرئاسة في هذه الدورة بالذات قد أسفرت في النهاية عن المنافسة بين الاثنين اللذين لم يكونا أفضل المرشحين الأربعة على المستوى الداخلي، من حيث التاريخ السياسي أو الكفاءة السياسة.. إذ لم يكن ثمة تاريخ سياسي لبوش الابن على سبيل المثال، ناهيك عن افتقاره هو والمرشح الآخر للذكاء السياسي والجاذبية الشخصية.. ولكنهما على الصعيد الخارجي من مؤيدي المصالح الإسرائيلية المخلصين بدرجات غير متفاوتة.

وهنا لا يفوتني أن أشير إلى خطورة الدور الذي تلعبه جماعات الضغط، وأصحاب المصالح في رسم صورة الرئيس.. حتى بعد أن يتولى الرئاسة، وأبرز مثال على ذلك الرئيس الأمريكي الأسبق جيرالد فورد الذي تولى الرئاسة بعد فضيحة ووتر جيت، التي خرج على أثرها الرئيس نيكسون من البيت الأبيض، إذ ظل لفترة طويلة من الرؤساء المختلف عليهم، والذين يُنظر إليهم بوصفهم من الشخصيات

السياسية الباهتة غير المبهرة، والتي لا تثير الإعجاب؛ بسبب قراراته الحاسمة التي لم تكن ترضي أصحاب المصالح الاقتصادية، أو جماعات الضغط الصهيونية، وظل الإعلام والصحافة يسيئون إليه، ويروجون لصورة سلبية عنه، ويرسمونها في عيون الأمريكيين؛ بالكاريكاتير الساخر، والمقالات التحليلية، وعزز الساسة أيضًا هذه الصورة السلبية لفترة طويلة، إلى أن رد له بيل كلينتون اعتباره؛ بتكريمه بعد ٢٥ سنة من حكمه، الذي دام من ٩ أغسطس ١٩٧٤ ولمدة ٨٩٥ يومًا، إذ قال عنه كلينتون في تكريمه: " إنه كان يحكم بطريقة تتسم بالثبات والهدوء والثقة فيما يفعل"[1]، وأكد ذلك أيضًا هنري كيسنجر في مؤلفه " سنوات التجديد "، إذ أكد بالوقائع أن فورد كان يتخذ القرار الذي يؤمن بأنه لصالح بلاده.. حتى ولو أغضب جماعات المصالح والضغط، واللوبي اليهودي.

ونعود مرة أخرى لصورة بوش الابن، فرغم أن الصورة التي رسمها خبراء العلاقات العامة له كانت تظهره بوصفه حكيم عصره وأوانه، وأنه يميل إلى النكتة والسخرية وخفة الروح؛ كطريق ممهد إلى قلوب وعقول الأمريكيين، الذين يحبون الدعابة.. ما لبث أن أثبتت الأيام والسنوات القليلة التي مرت على توليه الرئاسة – أنه بعكس ذلك تمامًا – متهور، مندفع، مهاجم، متعنت في التمسك برأيه، ولعل ضربه للعراق أكبر مثال على ذلك.. ولكن ماذا عسانا فاعلين أمام رجل لم تحركه السياسة.. لا بل وأتى لينفذ سياسات وضعت له سلفًا، لم يستطع الرئيس السابق له الإقدام على تنفيذها، وأقدم هو بتهوره عليها؛ معتمدًا على مستشاريه، فهو كما يُقال عنه : لا يميل إلى قراءة التقارير التي تُعرض عليه.. بل يكتفي بالاستماع إلى الخبراء والمستشارين، وهو في ذلك متوائم تمامًا مع عصره، ومع نفسه،

(١) إبراهيم نافع – الأهرام – عمود " حقائق " – ١٨ / ٨ / ١٩٩٩م – ص ٣٦.

فنحن في عصر الرؤية والسمَع.. وليس عصر القراءة المتأنية، أو قراءة ما بين السطور، ولا عجب في ذلك أيضًا؛ فهو تلميذ متعثر دراسيًا، ضغط عليه والداه؛ كي يكمل دراساته العليا وفشل؛ لأنه يكره الدراسة الأكاديمية أصلا.

ويشير " بيل مينو تاجليو " مؤلف كتاب " الابن الأول وسلالة أسرة بوش " إلى أن بوش كبقية أفراد أسرته ماهر في إخفاء مشاعره.. ولعل ذلك قد بدا واضحًا في كل المؤتمرات الصحفية، التي كان يعقدها يوميًا طوال أيام الحرب في العراق.. رغم ما كان يصيب جنوده في البداية من هول على أيدي العراقيين، وما يصيب خططه العسكرية من فشل، اضطره إلى طلب الدعم المالي لحرب طويلة، كان قد وعد شعبه أنها لن تطول، وكذب ما ادعاه عن الأسلحة الأمريكية الذكية، التي تتخير أهدافها بدقة ربة بيت ماهرة، وهي تنقي أو تنقب الأرز، وتخرج الحصوات منه بعين ثاقبة ومدربة، أو على حد تعبيره هو : " تعرف مقاس وماركة فنلة صدام حسين "!!

كما يشير الكاتب نفسه إلى أن هذا الطفل المدلل لم يكن ليصل إلى السلطة لولا أسرته، وأصدقاؤها من أصحاب النفوذ؛ إذ ذللوا له كل العقبات، وسانده الحظ أيضًا، حينما تساوى في الأصوات مع " آل جور" فحسمت المحكمة العليا الأمر لصالحة، وهو الذي لم ينجح بتفوق في أية اختبارات، أو انتخابات طوال عمره؛ إذ لم يزد مجموعه في أي منها عن ٥٣٪ بحال من الأحوال، ولعله قد أدرك افتقاره لعناصر القدرة السياسية، وما تتطلبه من حنكة على الصعيد الدولي، الأمر الذي جعله يحيط نفسه بعدد ممن عملوا مع والده بوش، وهم معروفون، وقد أصبحوا نجوم الحقبة العسكرية في حرب الخليج الثالثة : " دونالد رامسفيلد "، و" كولن باول "، و" ديك تشيني "، وهم عناصر قوية ومؤثرة، وقد شبه المحللون آنذاك هذه المجموعة

"بمجلس الوصاية على العرش التي تحيط بالصغير بوش".. الذي صدق نداء أبيه له، ووصفه له بـ : "هذا الولد"!!

ويقول الأستاذ محمد حسنين هيكل واصفًا ما حدث قبل وبعد انتخاب بوش الابن : " عندما تخلى دعاة الإمبراطورية عن فكرة ترشيح والده خطر لهم أن يرشحوا بوش الابن، وسألوا أنفسهم سؤالا واحدًا : " ولم لا؟ " وكان هذا السؤال هو المفتاح الذي فتح باب الجحيم أمام العالم.. لكن بوش كان الشخص المناسب؛ لتنفيذ مخطط تعزيز الإمبراطورية، وهو ما ثبت - بعد ذلك - عندما فاز بالرئاسة فوزًا منقوصًا ومشكوكًا فيه، زاد ضعف شخصيته ضعفًا، وجعله مجرد دمية يلهو بها أصدقاء والده، الذين لم يكونوا في حاجة إلى رئيس قادر على التفكير، بقدر حاجتهم إلى رئيس يسهل إيهامه بأنه مُخلِّص العالم، ويمكن إقناعه بتنفيذ أي شيء.. والدُمية تتحرك الآن، وتنطق وتهدد، وتتوعد.. لكنها - كذلك - تحرك العالم كله في الطريق إلى مصير مجهول"(١)، وذلك كله نتيجة اللعب بالإعلان والإخفاء لبعض المعلومات في تقديم المرشحين للرئاسة، خاصة في أمريكا التي يُعد رئيسها عمدة الكرة الأرضية، وليس مجرد رئيس دولة تنسحب قراراته على دولته فحسب، وذلك يبدو أوضح في ظل هيمنتها على العالم، وجرها للكثير من الدول خلفها، في تنفيذ قرارات تهدد دولا لا حول لها ولا قوة.

ويقودنا هذا الرأي إلى التأكيد على خطورة ما يمارسه صُنَّاع صورة الرؤساء، وما يجرونه من ويلات على العالم من جراء برامجهم، حينما يتولى السلطة والرئاسة من هو ليس أهلا لها.. والأخطر من ذلك أن صناع الصورة تساندهم مراكز لدراسة طبيعة كل حاكم وشخصيته، تضم تتبعًا لتاريخهم منذ كانوا أطفالا، وهذه المراكز

---

(١) صوت الأمة - مرجع سابق.

ليست في أمريكا وحدها.. بل وفي إسرائيل أيضًا، التي تُجري دراسات مستقبلية للحكام في العالم، وخاصة العرب منهم.. وخطورة هذه الأمور تكمن في أنهم يزجون إلى سدة الحكم، بمن هم ليسوا أهلا له تمامًا، فبوش مثلا كان مدمنًا، والمدمن بشهادة علماء النفس، لا يمكن أن يتعافى تمامًا[1]، ويظل هناك خلل ما في توجهاته؛ لذا نجده قد توجه إلى التطرف في التديُّن، بعد إقلاعه عن الإدمان، توجه ويعنف للكنيسة وللرئاسة.. رغم أنه غير مبدع ولديه نوبات صرعية يختفي فيها وعيه لثوان، مما يدل على وجود اضطراب ما في وظيفة المخ لديه، تجعله يسير مثل المنوم، وتجعله دمية في يدي من حوله، ممن يوجهونه لتنفيذ خطط أحجم الرئيس السابق له على تنفيذها طوال فترتي رئاسته.. لكن بوش باندفاعه وتطرفه أقدم على تنفيذها برعونة.

هذا ولا تقتصر عملية الاستعانة بخبراء في الصورة الذهنية على أمريكا وحدها.. بل يلجأ الجميع في الغرب إلى صُنَّاع الصورة بشكل أو بآخر، فعلى سبيل المثال لا الحصر، استعان ولي عهد بريطانيا "بطاقم جديد من المستشارين على رأسهم مارك بولاند، الذي يلقبونه في قصر بكنجهام (بالشفاه اللامعة)؛ لطريقته في تقديم أفراد الأسرة المالكة للشعب، وقد التحق بولاند بالعمل؛ كمستشار في مكتب تشارلز، منذ ثلاث سنوات، وأقنعه بالتخلص من كل مستشاريه، الذين ورَّطوه في الاعتراف بخيانة زواجه من ديانا، ثم بدأ بولاند في وضع خطة طويلة المدى؛ لتحسين صورة كاميلا؛ بناء على طلب تشارلز، وذلك بعملية إصدار طبعة جديدة أو صورة جديدة؛ لتحل محل الصورة القديمة، وتزيحها من الذاكرة، وكانت أولى خطوات رسم هذه الصورة عام ١٩٩٧، عندما وقع

(١) رأي أدلى به الدكتور خليل فاضل استشاري الطب النفسي و المتخصص في طب النفس السياسي - في برنامج على القهوة - قناة دريم - أذيع يوم ٢٠٠٣/٩/٤.

حادث مروري لسيارة كاميلا، وتسابق الصحفيون للحصول على معلومات عنها، فقدم بولند لهم قصصًا سابقة التجهيز، وادعى أن كاميلا رغم إصابتها بالدوار من جراء الحادث، أصرَّت على الخروج من سيارتها، والذهاب لمساعدة كارولين ميلفيلي، صاحبة السيارة التي اصطدمت بها، وطلبت لها الإسعاف.. لكن كارولين قالت : إن هذا لم يحدث، وإن كاميلا كانت مفزوعة، وقادت سيارتها إلى حيث تمكنت من طلب العون لنفسها، من تليفونها المحمول، وعلى الفور قال بولاند إن السيدة باركر اعتقدت أنها ضحية لحادث إرهابي؛ فتصرفت على هذا النحو، واستمر بولاند في نشر أخبار كاميلا وتشارلز عن طريق علاقاته بالصحفيين، كما عمل على تقديم كاميلا لكبار رجال الدولة بطريقة لائقة؛ لكسب تعاطفهم.. لكن حملته توقفت بموت ديانا في الحادث المروع الذي وقع في فرنسا، فلم يكن من الملائم الاستمرار في هذه الحملة الدعائية في ذلك الوقت.. لكنه عاد واستأنفها مرة أخرى.. ولكن هذه المرة بإشراك ولدي الأميرة الراحلة ويليام وهاري، وإظهار مدى إعجابهما بصديقة والدهما، ومدى حبها ورعايتها لهما؛ لدرجة أن الأمير ويليام هو الذي أصر على اصطحاب والده لكاميلا في الإجازة التي قاموا بها إلى اليونان، ونشرت الصحف صور الأميرين السعيدين مع عشيقة والدهما، التي ترعاهما وتحنو عليهما لتعوضهما حنان الأم[1].

هذا ولنا -بعد هذا المثال الصارخ لألاعيب خبراء الصورة الذهنية- أن نتخيل ما يمارسه هؤلاء الخبراء من تلفيق، ولعب بعواطف الناس والبسطاء منهم بالذات؛ كي يحققوا أهدافهم المرجوة؛ لتحسين صورة القيادات والشخصيات العامة، وليست الحاكمة

(١) موقع الصانداي تليجراف البريطانية على شبكة الإنترنت - ١٩٩٩/٨/٢٩م.

فحسب.. بل الشخصيات القريبة من الحكام والرؤساء، في إطار تحسينهم لصورة هؤلاء الرؤساء أو المرشحين لتولى السلطة، فالمعروف أن الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا، من المتوقع أن يتولى العرش بعد وفاة أمه الملكة إليزابيث، أو بتنازلها له عن العرش، وأن تشوُّه صورة ولي العهد قد أجل قرار الملكة بهذا التنازل له، خاصة وأنه إذا ما تزوج كاميلا باركر، فسيسبب له هذا الزواج مشاكل مع الكنيسة، التي من المفترض أن يرأسها عند توليه العرش البريطاني.

ونظرًا لما يتمتع به الجمهور البريطاني من وعي، وليقظة الصحف البريطانية - والشعبية منها بالذات التي تعنى بالفضائح - ووعيها بألاعيب رجال صناعة الصورة، ولجوء هذه الصحف لتفنيدها وكشفها، فقد علق "ستيوارت هيجنز" - رئيس تحرير جريدة " الصن " الواسعة الانتشار - على مجهودات ولي العهد؛ لتحسين صورة عشيقته قائلا : " إن تشارلز يحاول بيع كاميلا للشعب الإنجليزي؛ اعتمادًا على ذاكرته الضعيفة، التي سرعان ما نسيت الأميرة الراحلة ديانا، وأصبح البعض يعتقد فعلا أن كاميلا شخص مقبول ومظلوم"[1]، ومثل هذه الأمثلة قد تعطي انطباعًا للبعض، بأن الصور الذهنية دائمًا أو غالبًا مغلوطة أو كاذبة.. لكن الحقيقة أن البعض يعتبر ما يصدر عن خبراء الصورة ليس كذبًا.. بل تجميل للصورة، ويتوقف تقييم الأمر عند قياس درجة أو مدى النجاح، في وضع هذه الرتوش، ولمسات التجميل، أو درجة تصديق الناس للكذب والادعاء.

ويعيدنا هذا المثال إلي الفرق بين دور المرأة الزوجة في صناعة الصورة كملمح إيجابي، وبين ما تضيفه المرأة الأخرى من ظلال سلبية في الصورة الذهنية المنطبعة عن الرئاسات.. مهما بُذِل من جهد في

(١) موقع الصن اللندنية على شبكة الإنترنت - ٢٧ / ٨ / ١٩٩٩م.

تحسينها، وإضفاء ملامح وسمات إنسانية إليها، فهي تُكشف بسرعة؛ من قِبل وسائل الإعلام في الغرب، التي تتمتع بقدر وافر من الحرية، في تناول الأمور الشخصية للساسة والحكام، وأفراد الأسر المالكة، الأمر الذي يجعل دور خبراء الصورة أكثر صعوبة، ويضطرهم أن يكونوا جاهزين دائمًا بالكثير من الردود المُفحِمة للخصوم، ولِما تنشره الصحف.. مما يجعلهم دائمي الكذب واختلاق القصص الخيالية، خدمة لبرامجهم وأهدافهم.. رغم أن هذه المهنة - صناعة صورة الرؤساء - كأي مهنة يُفترض أن يكون لها أخلاقياتها، وأصولها التي يجب ألا تحيد عنها أو تتعداها، كنشاط من أنشطة العلاقات العامة والإعلام السياسي.. لكن خبراء الصورة الغربيين حولوا الأمر إلى دعاية سياسية، يمكن أن تستخدم كل أساليب الحرب النفسية ضد فريق الخصم المرشح للرئاسة، بكل أدواتها غير الأخلاقية، وفي مقدمتها الكذب والتلفيق، والادعاء والتضليل، في سبيل تحقيق الغرض الدعائي، ودون حسابات لما يمكن أن ينجم عن وصول بعض الأشخاص غير المسئولين إلى سدة الحكم.

وهكذا نرى أن الأمر في المجتمعات الغربية جد مختلف عنه في العالم العربي، فالمرشح للرئاسة في الغرب ينطبق عليه تعبير الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية توماس جيفرسون، حينما قال أن الإنسان : " عندما يتولى منصبًا عامًا عليه أن يعتبر نفسه ملكية عامة " وهذه القاعدة تسير عليها معظم المجتمعات الغربية، التي تتمتع بقدر من حرية الرأي، وتوجد بها معارضة سياسية واعية، ورأي عام مستنير، بدليل ما أثير قبل عقود عن فضيحة وزير الحرب البريطاني بروفيمو، وعشيقته الشهيرة "كريستين كيلر".

هذا وقد سارت على نفس المنوال الحياة السياسية الأمريكية، إلى أن وصلت إلى حد من الشفافية، جعل الصحافة ووسائل الإعلام

تعتبر أن من حقوقها المكتسبة.. بل من واجباتها ملاحقة الشخصيات العامة والوزراء، والرؤساء أو المرشحين للرئاسة.. حتى في حياتهم الشخصية والخاصة، داخل بيوتهم.. وإلا لما جرُأت الصحف على نشر اعترافات بوش الابن عن فترة إدمانه، ولما تجرأت الصحف على بيل كلينتون، وهو في سدة الحكم؛ لتفضحه بذلك الأسلوب المدوي؛ الذي أضر بصورته الذهنية لدى الشعب الأمريكي، وشعوب العالم، وهزت شعبيته الكاسحة، بوصفه السيد الرئيس ساكن البيت البيض.. حتى أصبح الأمريكيون يعتبرون البيت الأبيض " بيتًا من زجاج " .

وهنا يجب أن أكرر أن وصول شخصيات غير مسئولة إلى سدة الحكم في الغرب؛ بفضل الاعيب صناع الصورة، له خطره على العالم أجمع، خاصة بالنسبة لأمريكا، التي تتفرد الآن بالهيمنة على مقدرات العالم أجمع، فكما يقول الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه : "ما يعنينا ويهمنا ويخصنا هو ألا تبقى قضايانا الحيوية، ومصائر شعوبنا ومقدرات أوطاننا معلقة بتكة سروال السيد بيل كلينتون .... فقد قرأنا جميعًا عن الجمود الذي أصاب مسيرة السلام في الشرق الأوسط، وفشل الزيارة التي قام بها السيد ياسر عرفات لواشنطن؛ نتيجة للفضيحة التي همَّت البيت الأبيض، وجعلت الرئيس الأمريكي ضعيفًا هزيلا في مواجهة تصلب وتطرُّف رئيس الوزراء الإسرائيلي، وقرأنا كيف أن الاستعدادات الهائلة التي تقوم بها أمريكا، وحالة الاستنفار في جيشها وأساطيلها، وجيوش وأساطيل حلفائها؛ لتوجيه ضربة ساحقة ماحقة للعراق لم تحدث.. إلا بهدف أن ينقل كلينتون المعركة من غرفة نومه إلى بغداد، ويلهي الرأي العام الأمريكي عن ملاهيه وألعابه مع النساء"[1].

هذا ورغم أن الأيام والسنين قد أثبتت أن مسألة ضرب العراق لم

(١) الأهرام – زاوية " كل خميس " – ١٩٩٨/٢/٥م ص ٩ .

تكن مجرد إلهاء للرأي العام الأمريكي، أو محاولة لتحويل انتباهه لأمر آخر.. بل كانت مسألة مخططًا لها سلفًا، وتحديدًا منذ ولاية بوش الأب لينفذها بعد انتصاره في حرب الخليج الثانية، في فترة ولايته الثانية، التي لم تحدث، وجاء كلينتون ولم ينفذها.. لكن الأمر كان يبدو في ذلك الحين تحالفًا بين الإعلام والسياسة؛ لتحويل اهتمامات الناس عن فضيحة الرئيس غير المسئول، وبالفعل فإن القضايا العربية غالبًا ما تتأثر بالتأجيل والتسويف، وتضارب المواقف وفقًا لمِزاج ووضعية، وظروف ساكني البيت الأبيض، فإذا انخدع الشعب الأمريكي بأساليب تسويق المرشحين، واختار الشخص غير المناسب للمنصب الكبير كزعيم للعولمة.. فالحقيقة تقول أنه ليس رئيسهم وحدهم.. لكنه رئيس القطب الأوحد في العالم، وبالتالي يعتبر رئيس العالم، ومحرك مقدَّرات ومصائر كثير من الشعوب، بشكل أو بآخر.. كل ذلك يحدث بفضل نجاح رجال العلاقات العامة، وصناع الصورة في تنفيذ برامجهم البهلوانية!!

هذا ولا يلجأ الرؤساء في الغرب فقط إلى مستشارين خبراء في صناعة الصورة.. ولكن يلجئون حينما تعوزهم الحاجة إلى مستشارين روحانيين، تمامًا مثلما يلجأ البسطاء في شرقنا العربي والإسلامي لأولياء الله الصالحين، وللمنجمين والعرَّافين، وكمثال لذلك ما فعله بيل كلينتون، إثر أزمته الشهيرة، مع شعوره بأن صورته قد اهتزت، إذ " حاول أن يُحسِّن صورته، فبدأ بالاستعانة بفريق من المستشارين الروحانيين، الذين يلتقون به أسبوعيًا ويصلون معه؛ لمساعدته على ما وصفه أحد القساوسة " بالإغواءات " التي استحوذت عليه في الماضي، وأوردته ما نعرف من مزالق وانحرافات، وحسب مصادر البيت الأبيض، فإن كلينتون هو الذي اتصل بمجموعة القساوسة، وطلب منهم مساعدته، ومنهم اثنان من الوعاظ

البروتستانت الكبار، هما : توني كامبولو راعي إصلاحيات المنحرفين، والمعمداني الليبرالي من ولاية بنسلفانيا، المعروف بخدمته الكهنوتية لشبان المدن، وبكتبه المثيرة للجدل، والقس غوردون ماكدونالد راعي أبرشية كنيسة النعمة التابعة للكنيسة المسيحية اللاطائفية، في ولاية ماساتشوسيتس، وكانت للأخير فضيحة جنسية قبل ١٢ عامًا، حينما كان رئيسًا لوكالة بعثة تبشيرية"[1]، ويعكس ذلك الإعلان عن الندم والتوبة، والعودة إلى الله، وهو أمر يشبه عندنا تصوير الرؤساء وهم يصلون في جماعة، أو يمارسون أي طقس ديني.

هذا كما أعلنت وسائل الإعلام الأمريكية أن كلينتون كان يعاني مرضًا نفسيًا عميقًا، وأنه استعان بهذه الطائفة الغريبة؛ علها تساعد مع زوجته على استرداد توازنه الداخلي المفقود.. وليس غريبًا أن يُقال أي شيء في سبيل إثارة التعاطف، وتحسين الصورة.. حتى لو اقتضى الأمر إذاعة تقرير ستار، وبثه للكافة بكل ما فيه من مباذل.. لا بل والأدهى والأمر أن يخصص موقع على شبكة الإنترنت بعنوان " ستار للأطفال "، تقدم فيه خدمة خاصة للأطفال؛ تشرح الفضيحة بتلخيص واختصار مبسط، أعدته متخصصة تُدعَى سينثيا ليكك؛ فطالما أن الفضيحة أصبحت على كل لسان، وصار الموضوع يتحدث فيه الجميع حتى الأطفال.. فلماذا لا يُعرض الأمر عليهم، حفاظًا على صورة الرئيس.. حتى يُكمل فترة رئاسته بسلام!! إنها أمريكا!! وأسلوبها الخاص في تقديم رؤسائها، وتحسين صورتهم!!

هذا وفي سبيل تقديم المرشحين للرئاسة بشكل يُرضي الجميع، ويلعب على جميع الأوتار، يلجأ خبراء صناعة الصورة، إلى وضع برامج تقدم المرشحين بكل ما يمكن أن يؤثر في جماهير الناخبين بكل مشاربهم، واختلاف رؤاهم، ولا بأس من أن تكشف صحف الصفوة..

(١) فهمي هويدي - " في زمن السكسوقراطية " - الأهرام ٢٩ /٩ /١٩٩٩ص.١١.

حتى خارج أمريكا هذه الألاعيب للجماهير، مثلما قام به فريق المرشح الديمقراطي للرئاسة آل جور إبان حملته الانتخابية، إذ أظهره في كل جولة من جولاته متقمصًا لشخصية مختلفة عن الأخرى، فهو تارة المثقف الذي يهتم بقراءة الكتب، وتارة الاقتصادي الذي سيؤثر في رفع قيمة الدولار، بما يوحي بأنه مفكر اقتصادي من الطراز الأول، وتارة رمز للشخصية الأمريكية (الكاو بوي) مما حدا بمجلة " الإيكونومست" [1] البريطانية أن تخصص غلافها لرسم كاريكاتيري يسخر من هذه الحملة، ويوضح أنها ستُوقع الناخبين في حيرة، يصعب معها معرفة الشخصية الحقيقية لآل جور، ويطالبه الكاريكاتير المرسوم على غلاف المجلة بالوقوف لمعرفة من هو بالتحديد؟!؛ ذلك أن خبراء صناعة صورته قدموه كصحفي سابق، وخبير في الإنترنت وتكنولوجيا الاتصالات، والبيئة، وأنه من المدافعين بشدة عن القيم الأسرية، وأنه متمسك بشدة بأبنائه الأربعة، وبزوجته تيبر مؤلفة كتاب " تربية الأطفال في مجتمع إباحي"، وتأكيدًا لذلك تصدرت الصفحات الأولى للصحف والمجلات الأمريكية صورته، وهو يُقبِّل زوجته بقوة طوال حملته الانتخابية.

والحقيقة أن حملة ألبرت أرنولد جور، الشهير بآل جور كانت تعكس طموحه، ورغبته في الوصول إلى كرسي الرئاسة بأي شكل.. حتى أنه قد أعلن بالفعل أنه " مصمم على الفوز بأصوات الناخبين بأي ثمن؛ وأنه مستعد للرقص من أجل ذلك، ومستعد لتغيير طريقته المعتادة "، التي اتضح أنها لم تكن تعجب الجماهير، طوال فترة توليه منصب نائب الرئيس كلينتون، الأمر الذي جعل مجلة "التايم"[2] الأمريكية ترصد التحول الذي طرأ على سلوكه في عدة

---

(١) عدد ١٤ /٨/ ٢٠٠٠م.

(٢) عدد ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٠م.

مـواقف، وتـظهـره في صـورة تجـمـيـعـيـة تضم عـدداً من صـوره الصـحـفـيـة، كـمن يرقص فـعـلا في تناسق رائع، من أجل الفـوز بالمنصب الرئاسي الحلم! وأيضـاً كل شيء جـائز في أمـريكا، وكل الألاعيب جائزة من أجل عيون المنصب!!

هذا المطب في صناعة الصورة، قد وقع فيه -من عالمنا العربي- الرئيس أنور السادات، الذي ظهر بصور متعددة، لها أحياناً سمات متضاربة، بعضها أشار به خبراء أمريكيون؛ وفقاً للقيم الغربية في صناعـة الصـورة، فـخضع لهم، بالإضـافـة إلى بعض السـمـات التي أضفاها هو بنفسه لملامح صورته المرغوبة؛ كي يكتسب شعبيـة.. فلم يتحقق لما خطط له النجاح؛ لأن الاستعانة بخبراء في صناعة الصورة يقتضي الخضوع التام لرؤيتهم، التـي يُفتـرض أنها مبنية على أسس علمـيـة، وعلى دراسـة للشخـصيـة التي يرسـمـون صـورتهـا، والظروف المحيطة بها، ورغبات المجتمع الذي سيتقدم له، وهو أمـر سنستفيض في شرحه في حينه.

ونعـود إلى مـا يمكن أن يشيـر به خبـراء الصورة على الرؤسـاء أو المرشحين للرئاسـة في الغرب، ويخضعون لتنفيذه بدقة، مهما كلفهم الأمـر، ومصداق ذلك موقف بليـر رئيس وزراء بريطانيـا، الذي قبل أن يرضخ للخبراء، حينما قيل له : إن صورته تحتاج إلى تعديل : فالشعر يجب أن يكون أكثـر تهـذيبـاً، وأن عليه أن يرتدي البـدل القـاتمة؛ كي يبـدو وجهـه أكثر وضوحـاً، وابتسـامتـه أكثـر وضـاءة، أو كـمـا فـعلت "مـارجريت تاتشـر" حينما أراد لها خـبـراء الصـورة أن تكون نموذجـاً للمرأة القوية، التي تحرص على أن تكتسب الاحترام؛ بمظهرها القوي الجاد، إذ أريد لها أن تكون بحق "المرأة الحديدية" قولا وفعلا ومظهراً، فـغـيـرت أسلوب مـلابسـهـا ولم تكن ترتدي إلا التـاييـرات من الألوان السـادة فـقط، كـمـا ذهبـت إلى طبـيب أسنان لإعـادة تقـويم أسنانهـا،

وأطاعت الخبراء حينما نصحوها بأن تتحدث بشكل أبطأ؛ حتى لا تبدو كالأمريكيات، أما ما حدث مع "جون ميجور" فكان خضوعًا لافتًا للنظر حقًا، إذ جعله خبراء الصورة يرتدي الصديري ذا الصفين من الأزرار، والكرافتة الرفيعة، ثم البابيون.. رغم أن صورته هذه قريبته من أن يكون جرسونًا في فندق.. أكثر منه رئيس وزراء!

هذا ولعل أبرز أنواع الألاعيب الخاصة بصناع الصورة، هو اللعب بالكلمات، في خطب الرؤساء.. خاصة في أمريكا، سواء قبل أو بعد توليهم السلطة، فمن يستمع إلى الخطب السياسية التي يلقونها في المناسبات العالمية، أو ذات الطابع المتصل بالسياسة الخارجية، وكيف ينتهزون مثل هذه الفرص للحديث عن تحقيق العدل المطلق للجميع، والالتزام بالمُثل والقيم الإنسانية، وأحلام الحياة الجميلة الرغدة لكل شعوب العالم، ناهيك عن الحديث عن المساواة وحقوق الإنسان، وتحقيق الديمقراطية والحرية .... إلى آخر منظومة القيم السامية، التي يُحسن صُنَّاع الصورة الأمريكيون صياغتها، في خطب عصماء كثيرًا ما تصبح من الأدبيات السياسية البليغة، المصاغة بعذوبة فنية بديعة، والمتضمنة لأنبل الأفكار، والمفعمة بحرارة المشاعر، وهذا الاستخدام للبلاغة في مجال صناعة الصورة، وصياغة مجموعة من الأفكار النبيلة والقيم العامة التي لا خلاف عليها، ولا يمكن معارضتها بحال، يساعد على تقبُّل كل ما يصدر عن القائل، ويعطي انطباعًا بأنه رجل مبادئ، فتختفي من الصورة مآربه الحقيقية، التي قد تكون مناقضة تمامًا لما يذكر من مبادئ سامية، خاصة إذا ما صاحب ذلك حسن إلقاء، يتم التدريب عليه بالطبع.

والمتأمل لاستخدام اللغة كأفضل أداة لقلب الحقائق، ليعجب.. إذ يلاحظ بسهولة كيف تتناقض تمامًا مع واقع السياسة الأمريكية النفعية الظالمة! التي تكيل بإجحاف ليس بمكيالين.. لا بل

بآلاف المكاييل؛ لحساب مصالحها، ومصالح حليفتها المدللة إسرائيل.

كما أن المراقب لهذا التناقض بين الأصل وملامح الصورة المرسومة.. ليس للرؤساء فحسب.. بل لأمريكا نفسها كحلم، ولسياستها، لا شك سيهوله ما يقوم به هؤلاء المستشارون من أكروبات إعلامية ودعائية متقنة!! ولعل أبرز وآخر الأمثلة على ذلك، الخطاب الذي ألقاه جورج دبليو بوش في لقاء شرم الشيخ، الذي عقد بينه وبين عدد محدود من الرؤساء العرب[1]، وقبل أن يغسل يديه من دماء العراقيين، وهو يتحدث عن السلام، والعدل، والديمقراطية التي ستسود الشرق الأوسط، والحياة الوردية التي تنتظر شعوب المنطقة، حتى ليكاد المرء أن يصدق فعلا.. وليس قولا أن " الحياة بقى لونها بمبي"!!

أما عن توقيت بدء العمل على تشكيل الصورة أو تحسينها، فيفضل أن يبدأ مبكرًا.. لا بل مبكرًا جدًا، وقبل بدء أية انتخابات، أو استطلاعات رأي بمدة كافية قد تكون سنوات؛ حتى يبدو العمل تلقائيًا وعفويًا، فالناس غالبًا لا تحب الدعاية المباشرة، ولا تلقي إليها بالا، وغالبًا ما تحللها وتفهمها، وقد ترفض الانصياع وراء ما تدعو له، خاصة في الدول المتقدمة التي تتمتع شعوبها بالوعي، والتي اعتادت شعوبها على مثل هذه الأساليب المتكررة من خبراء الصورة وصناع الدعاية، كما أن الصفوة منهم يرفضون التلقين المتعمد، كأسلوب مباشر في الدعاية - خاصة السياسية- و لعل ذلك ما حدا بالرئيس بوش الابن إلى المشاركة في مؤتمرات قمة متعددة في أوروبا، وفي الشرق الأوسط فور انتهاء المعارك العسكرية في العراق، والتي رصدها بعض المحللين بوصفها : " سلسلة متصلة الحلقات، أشبه

(١) لقاء بين بوش و مبارك، و ملوك الأردن و البحرين، وولي عهد السعودية في ٦/٣ /٢٠٠٣ .

بمحاولة تستهدف إعادة المياه إلى مجاريها بين واشنطن وبقية دول العالم.. بعد مرحلة ساخنة محفوفة بالمخاطر.. كان من الضروري أن تعيد فيها واشنطن بناء الجسور، وتحقق قدرًا من التهدئة قبل الانغماس في معركة انتخابات الرياسة"[1].. وإن كنت أرصدها كبداية للحملة الانتخابية لفترة رئاسة ثانية، يحلم بها الرئيس دبليو بوش - أتمنى ألا تتحقق كما لم تتحقق لوالده بعد انتصاره في حرب تحرير الكويت - ويرى أنه لابد من السعي فيها مبكرًا لتحسين صورته، كرئيس:

- كذب على شعبه بادعاء وجود أسلحة دمار شامل في العراق.
- وكذب على جيشه بإيهامه أن هذه المعركة ستكون أقرب إلى النزهة القصيرة.
- كما كذب في وعده، أو إيهامه لهم بأن العراقيين سيرحبون بهم، وسيقابلونهم بالورود.
- وكذب على المؤسسات الرسمية بتقديرات غير دقيقة لتكلفة الحرب.. ما لبث أن طالبهم بزيادتها.

ولكل ذلك مردود سيئ على صورة الرئيس، لدى المؤسسات، ولدى الناخب الأمريكي، تستلزم محاولات مبكرة، وعمليات تجميل سريعة لتحسين صورته.. حتى لو كان منتصرًا عسكريًا.. فهو خاسر دبلوماسيًا وإعلاميًا، بشكل واضح للجميع؛ ذلك أن الناخب الأمريكي يهمه كثيرًا صدق المرشح للرئاسة كقيمة لها اعتبارها في اختيار الرؤساء، سيأتي الحديث عن أهميتها في حينه.

هذا وليس دبليو بوش وحده هو الذي بدأ حملته الانتخابية مبكرًا جدًا.. لا بل السيدة هيلاري كلينتون أيضًا قد بدأت تسعى لتحقيق

(١) سلامة أحمد سلامة - الأهرام - عمود " من قريب - نتائج متواضعة" ٧ / ٦ / ٢٠٠٣ - ص ١٠.

حلمها بتولي الرئاسة الأمريكية منذ حبست أنفاسها، وكبتت مشاعرها، ولم تعلن عن غضبها لما حدث من زوجها.. رغم أنها أعلنت فيما بعد مرارًا وتكرارًا عن عدم رغبتها في ترشيح نفسها للرئاسة، كذلك بدأ الممثل والرياضي الشهير أرنولد شوارزينجر حملته الانتخابية للرئاسة مبكرًا جدًا، وبشكل ملحوظ للجميع، منذ بدأ دعايته للفوز بولاية كاليفورنيا؛ تمهيدًا للتأهل لرئاسة الولايات المتحدة كلها!!

هذا وكي تنجح برامج الصورة الذهنية، لا بد وأن يتوافر على وضعها وصياغتها، وترتيب خطواتها عناصر على مستوى عالٍ من الكفاءة.. ليس كخبراء في الإعلام والعلاقات العامة فحسب.. بل خبراء في السياسة، والاقتصاد، وعلم النفس الاجتماعي والسياسي، وحقوق الإنسان، والدين، وكل ما يتعلق بحياة الناس وحركتهم؛ كي يستطيعوا أن يتعرفوا على طبائع الشعوب، وأحلام الناس؛ ليتحقق لهم النجاح المرجو للمرشح الذي يعملون لحسابه.

وبالطبع على الراغب في تحسين صورته أن يخضع لكل ما يشير به خبراء صناعة الصورة، ويبدو أنه يخضع بالفعل في الغرب لتدريب طويل، على كل شيء يمكن أن يصادفه.. خاصة بالنسبة للأشخاص الذين يواجهون مواقف صعبة عصفت بسمعتهم، وشوهت صورتهم الجماهيرية.. حتى لو لم يكونوا من الرؤساء، أو المرشحين للرئاسة، كنجوم الفن والرياضة مثلا، ويؤكد ذلك ما أشار إليه الإعلامي الكبير الأستاذ أحمد فراج، من أن " المراقب لمحاكمة لاعب الكرة الأمريكي أو. جي. سيمسون، وكيف كان يتصرف أثناء المحاكمة، من حيث كل ما يصدر عنه من قول، أو فعل، أو إشارة، أو إيماءة، أو انفعال.. المراقب لكل ذلك يدرك أن وراءه فريقًا من المتخصصين في الصورة الذهنية، وضعوا له خطة مدروسة، كان من أبرز ملامحها عدم الانفعال بأي

حال من الأحوال.. سواء تجاه الهجوم أو التأييد، فقد كان وهو المتهم لا يُبدي أدنى انفعال، أو تأثر على قسمات وجهه، وكأنه شخص محايد تمامًا، أو كأن ما يدور حوله لا يخصُّه نهائيًا، وبالطبع كان لذلك أثره البالغ في النتيجة النهائية[1]، وتؤكد هذه الملاحظة الدقيقة ما ذهبت إليه من خطورة مراكز صناعة الصورة، وخبرائها، وضرورة أن يستسلم صاحب الصورة المرغوبة لهم تمامًا، وينجح في تمثيل الدور المطلوب منه بإتقان؛ حتى يحقق بغيته.

هذا وتكمن عبقرية خبراء الصورة في جعل المرشح للرئاسة قادرًا على تمثيل دور غير حقيقي يخدع به الناخبين، ويؤهله لتمثيل دور أكبر، ويجعله فيما بعد يستطيع وبمقدرة فائقة تمثيل دور أمير الدهاء المطلوب منه، خاصة إذا ما كان رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، يُفترض فيه أن يبدو كملاك، وهو يمارس القتل والنسف، ويبدو ديمقراطيًا ورسولا للحرية.. وهو يمارس القهر والبطش على شعوب مستضعفة، ويبدو مناصرًا لحقوق الإنسان.. في حين هو عنصري، ويبدوا محبًا للسلام ونبذ الحروب، وهو أكبر تاجر سلاح في العالم، ويحارب الإرهاب وهو يرهب الجميع حكامًا وشعوبًا، ويحتج في ذلك بإزالة أسلحة الدمار الشامل، وهو صاحب أكبر ترسانة نووية.. بل هو رئيس أول وآخر دولة - حتى الآن -استخدمت أسلحة الدمار الشامل في إبادة المدنيين، وتشويه البشر لعقود وقرون، وأن يبدو عادلا، وهو من يكيل بمئات المكاييل، ويُحسن إيراد الحجج المقنعة؛ لتبرير كل الخطايا في زمن تحكمه القوى الغاشمة، ويحكمه عتاة الممثلين، الذين بدءوا برونالد ريجان، الممثل الذي بدا بصورة عاطفية، إلى "المدمر" القادم مفتول العضلات شوارزينجر، القادم بالفتوة، والعضلات ليحكم العالم.

---

(١) محاضرة عامة في إطار الموسم الثقافي لجامعة المنيا - في الاثنين ٢٦/ ١٢ /١٩٩٥.

القيم الغربية في الصورة

من كل ما سبق يمكننا أن نستخلص ماهية القيم الغربية التي يبني خبراء صناعة الصورة الذهنية برامجهم عليها؛ كي يحققوا الصورة المرغوبة، التي يجب أن تنطبع في الأذهان عن الرؤساء، أو المرشحين للرئاسة، وهي مجموعة من القيم تُشتق أو تُستمد مما تعتنقه الجماهير الشعبية هناك من أفكار ومعتقدات، وما يحبون أن يرونه في رئيسهم، أو فيمن يُتوقع أن يُنصَّب رئيسًا عليهم باختيارهم الحر.. وفي مقدمة هذه القيم :

الشباب :

يحبون في الغرب أن تكون لرئيسهم إطلالة تليفزيونية ذات قبول، وأن يبدو شابًا وقويًا.. حتى لو كان ذلك مخالفًا للواقع، ويريدونه متمتعًا بحيوية وتألق.. حتى لو كانت هذه الحيوية مصنوعة بالمكياج والرتوش، وصبغة الشعر، والممارسة الدائمة للرياضة المحققة للياقة البدنية المطلوبة؛ كي يظل العجوز رافعًا رأسه شامخًا كأي شاب يافع، فهو كما يرون رمزًا للدولة، وقوته ومظهره الشاب دليل على أن هذه الدولة قوية وفتية، ولذلك رصد أحد المواقع على شبكة الإنترنت أن كل رؤساء أمريكا يرتدون النظارات الطبية.. لكنهم لا يحبون أن يراهم أحد في مكان عام وهم يضعونها على أعينهم؛ لما تمنحه لهم من سنوات عمر أكبر؛ فالمطلوب أن يبدو أكثر شبابًا.

وقد لاحظت.. كما لاحظ الكثير من المتابعين للانتخابات الرئاسية في دول الغرب، أن الجماهير العريضة الآن تختار من هو أقرب للشباب.. مهما كان لمنافسه من تاريخ سياسي عريض، ولعل أبرز مثال على ذلك عدم فوز المستشار الألماني السابق هيلموت كول، الذي حكم

ألمانيا ست عشرة سنة، حقق لها وحدتها السياسية- بعد انهيار سور برلين – وحقق لها نهضة اقتصادية أدت إلى ارتفاع قيمة المارك الألماني، ومع ذلك ورغم تاريخه السياسي والاقتصادي.. قياسًا بمنافسه "جيرهارد شرودر"، فاز شرودر، الذي لا يتميز عنه في شيء.. سوى صغر السن، وقد رصد هذه الظاهرة أيضًا الكاتب الصحفي أحمد بهجت في عموده اليومي "صندوق الدنيا"، إذ قال : " لاحظت تكرار هذه الظاهرة في أوروبا وأمريكا، إن الشباب -نسبيًا - هو الذي يكسب الانتخابات المهمة.. سواء كانت انتخابات لرئاسة الدولة أو انتخابات لرئاسة الحكومة، ففي أمريكا كان جورج بوش يقترب من السبعين، وانهزم أمام كلينتون، وكان في الثانية والأربعين، وفي إنجلترا انهزم جون ميجور وهو في الستين، أمام توني بلير وكان في الأربعين، وها هو المستشار هيلموت كول ينهزم.. رغم شيخوخته أمام شاب أصغر منه.. صحيح أن هذا الصراع هو في الأصل صراع بين أحزاب لها مبادئها.. وإن كانت هذه المبادئ متقاربة للغاية، وصحيح أن هناك عوامل أخرى تدخلت في فوز البعض في الانتخابات وسقوط البعض.. إلا أن هذا لا ينفي أن الجماهير العريضة تختار من هو أقرب للشباب في النهاية؛ حرصًا على تجدد الأفكار ورغبة في التغيير، وأملا في استمرار الحياة بصورة أفضل، ويسيطر على الحياة الغربية عمومًا عُرف غير مكتوب.. يقول : إن رجال الأمس لا يستطيعون حكم الغد؛ ولهذا يُغيِّر الناخب رأيه أحيانًا لمجرد التغيير"[1].

أما عن النماذج الغربية التي تؤكد التمسك بالشباب كقيمة لها أهميتها في صورة الرئيس.. حتى لو لم تتمثل في شخصه بالفعل فكثيرة، نستطيع أن نأخذ مثالا عليها ما أعلنته الصحف البريطانية

(١) الأهرام – الخميس ١٠ / ١٠ / ١٩٩٨ – ص ٢.

من أن " هناك سيدة اسمها كابلين، تقوم باختيار فساتين زوجة رئيس الوزراء توني بلير، وملابس رئيس الوزراء : قمصانه، وبدله، وكرافتاته مقابل أربعة آلاف جنيه شهريًا، والسيدة كارول كابلين (٤١ سنة) كانت عارضة أزياء سابقة ..... وهي الوحيدة التي تستطيع أن تدخل مسكن رئيس الوزراء في أي وقت.. حتى في غياب الزوجة، فلها عمل محدد، وهي التي قررت أن يُغيِّر رئيس الوزراء لون شعره، فصار ذهبيًا، وهي التي رسمت له ابتسامته العريضة، ونظرته يمينًا وشمالا، وألا ينحني إلى الأمام كما يفعل أمام منصة مجلس العموم فليست كل المنصات في مجلس العموم، وليس كل المستمعين أعضاء في البرلمان البريطاني، وهي التي طلبت إليه أن يفرد طوله، وأن يشد ساقية، وأن يؤكد شبابه، فهو يصعد سلم الطائرة قفزًا، ونشرت الصحف البريطانية كل ذلك للعلم، ودون استنكار لذلك كله"[1].

فإذا ما قارنا ذلك بما يمكن أن يحدث في بعض البلدان العربية، التي يدور فيها الهمس حول أناقة الرئيس المرسومة من قِبل خبراء، يتقاضون آلاف الجنيهات؛ كي يبدو الرئيس شابًا عفيًا ووسيمًا!! فبالطبع يُتوقع أن تقوم الدنيا ولا تقعد؛ تحسرًا على أموال الشعب التي تُهدر هباءً!! إذا تجرأ أحد وأعلن مثل هذا الخبر أصلا.. خاصة إذا ما حدث هذا في بلد من البلدان العربية الفقيرة نسبيًا، إذ لا يمكن بالطبع تعميم هذا على كل الدول العربية.. ولكن يمكن القول فقط بأن الشعوب العربية بوجه عام ترى في كبر السن قمة الحكمة، وفي الشعر الأشيب وقارًا ومهابة، ولا ترى في تقافز الرؤساء على سلالم الطائرات إلا تصابيًا ممجوجًا، لا يتناسب ومكانة الرؤساء وهيبتهم.

كما أن فكرة أن يتأنق الرئيس، أو كما يقولون بالعامية المصرية :

(١) أنيس منصور - عمود مواقف - الأهرام - ٢٩ / ٤ / ٢٠٠٢م - الصفحة الأخيرة.

"يأخذ باله من نفسه" أكثر من المعهود، فأمر يعتبرونه بالمنطق الشعبي " شايف له شوفة "، فالرجل العربي في العادة لا يهتم بمظهره كثيرًا، ولا يخصص وقتًا للاعتناء بصبغ شعره، أو اختيار ملابسه، أو ممارسة الرياضة.. إلا إذا كان الأمر واحدًا من اثنين : إما أنه خالي البال وغير مهموم.. أو بالفعل " شايف له شوفة "! وقد يُقبل التصابي من النجوم، الذين يُفترض أن التصابي يزيد في عمر تواجدهم أمام العدسات، وعلى الشاشات.. لكن من الرؤساء فكلا الأمرين مرفوض، فغالبية الشعوب العربية، ترتبط أكثر بالرئيس المهموم بها، وبشئونها طول الوقت، فهم لا يريدون من رؤسائهم أن يرفعوا رئوسهم أو أعينهم عن مصالح الشعب ومشاكله.. وبالتالي لا يُفترض أن الرئيس لديه متسع من الوقت، كي "يشوف نفسه"، وإذا حدث ذلك فما أكثر الشائعات التي تتهمه، بأنه في أبسط الأحوال تزوج مرة أخرى، أو في طريقه لذلك، وتبدأ الشائعات التي لا تنتهي التنويعات عليها، والتكهنات بمن تكون هذه الزوجة الجديدة، وكأن أمر زواجه قد بات مؤكدًا، ويبقى فقط تحديد اسم الزوجة.. هل هي شقيقة أحد الوزراء؟ أم أرملة صديق سابق له؟ أم ... أم ...؟؟ ونجد قائمة من العرائس لا نهاية لها!!

ولا يقف الأمر في الغرب عند حد الظهور بمظهر الشباب فقط، ولكن طقوس الرئاسة في الغرب وفي أمريكا تحديدًا تقتضي مثلا - كملمح من ملامح الشباب- أن يرقص الرئيس في حفل تنصيبه، فالرقص ملمح شبابي مطلوب بالضرورة في شخصية الرئيس.. أو حتى صورته المرسومة أمام الناخبين، ويحاول خبراء الصورة الذهنية أن يؤكدوها بمختلف صور النشر؛ ولذلك طيرت وكالة أنباء الأسوشيتدبرس خبرًا من واشنطن، مؤداه أن الرئيس المنتخب جورج بوش الابن قد كشف قبل يومين من تنصيبه رئيسًا للولايات المتحدة

عن سـر قلقـه : " فـقـبل توليـه منصب حـاكم ولاية تـكسـاس في عـام ١٩٩٥ كان يخشى الرقص مع زوجته، في أثناء حفلة التنصيب.. ولكنه لم يعد يخشى هذا الآن! وقال بوش إنه كان يشعر بالخجل من الرقص مع زوجته، خلال حفل تنصيبه حاكمًا لولاية تكساس؛ خشية أن يتعثر على المسرح؛ لأنه لم يكن قد رقص مطلقًا منذ حفل زواجه في عام ١٩٧٧.. ولكنه اضطر للرقص عدة مرات مع زوجته، وزوجة حاكم تكساس السابق بوب بولوك، وأوضح بوش أنه عاد للرقص مرة أخرى في بداية حملته الانتخابية لمنصب الرئيس في عام ١٩٩٩، حيث رقص مع شقيقتيه التوأم، ومع زوجته لورا، وزوجة ريك بيرى الذي خلفه في منصب حاكم تكساس"(١).

ومن ملامح الشباب أيضًا التي يحاول المرشحون للرئاسة، وفريق دعايتهم تثبيتها في أذهان الناخبين، إظهار العواطف المتأججة، أو ادعاء الرومانسية كملمح شبابي يعد جواز مرور سريع إلى قلوب ونفوس الناس، ففي واشنطن أثارت قبلة حارة من أل جور لزوجته، مصحوبة بعناق على مرأى من الحاضرين، في المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي بلوس أنجلوس، يوم الخميس الموافق ١٧ أغسطس ٢٠٠٠، عندما دعته لإلقاء خطاب الترشيح، أثارت هذه القبلة تساؤلات كثيرة طرحتها وسائل الإعلام الأمريكية، ونشرت ١٠٧ مقالات تعليقًا عليها، بالإضافة إلى برامج في شبكتين تليفزيونيتين، الأمر الذي دعا أل جور أن يؤكد لشبكة آي بي سي إن " أن الأمر حدث بطريقة عفوية، وأن القبلة كانت بادرة منه ليعبر عن حبه لزوجته، كما سأله صحفي: "هل تريد أن تقول للشعب الأمريكي أنك شاب يتدفق عاطفة؟!"، وهذا بالطبع يكشف محاولات المرشحين لتلبُّس روح الشباب بكل طريقة ممكنة، كما يكشف أن الصحافة

(١) الأهرام - الجمعة - ١٩ / ١ / ٢٠٠١ - الصفحة الأولى.

ووسائل الإعلام في الغرب بدأت تكشف هذه الألاعيب، وتتناولها بالنقد والتعليق.

حدث هذا أيضًا بالنسبة للبطل الرياضي، والممثل الأشهر "أرنولد شوارزينجر "، الذي سخرت الصحف الأمريكية من فكرة ترشيحه لرئاسة ولاية كاليفورنيا، فعوضًا عن اصطناع المظهر الشاب، أو الإيحاء به، كقرين للقوة الجسدية، نجد هذا الممثل، وبطل كمال الأجسام السابق، صاحب سلسلة أفلام "أرنولد القوى"، و"كونان البربري"، و"كونان المدمر" ثم "المدمر" الجزء الثالث، الذي ينقذ العالم من المخلوقات الآلية، رشح نفسه كحاكم لولاية، توطئة لترشيح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، ورغم كونه في أواخر الخمسينيات من عمره.. إلا أنه يتمتع بمظهر شاب قد يؤهله بالفعل للفوز بالمنصبين، خاصة مع دعم الرئيس بوش الابن له في انتخابات الولاية، ومع ثرائه الذي يؤهله للإنفاق على حملته الانتخابية دون مساعدة، مع انسحاب اثنين من منافسيه، وضعف المرشح المنافس له، وهو المليونير "لاري فلينت " صاحب مجلات "بلاي بوى".

هذا ورغم سخرية بعض رسامي الكاريكاتير، من ترشيح شوارزينجر لنفسه، واعتبار ذلك " نكتة العصر" كما قال "لاري جيلبرت" أشهر الكتّاب الساخرين في أمريكا؛ وذلك بوصف شوارزينجر ليس صاحب تاريخ سياسي، كما أنه لم يُصوِّت في ثماني انتخابات رئاسية سابقة، ولا يعرف عن اقتصاد أقوى دولة في العالم أي شيء!.. لكن المحللين يرون إمكانية فوزه لما يتمتع به من طموح، ومال، وذكاء، وقدرة على التخطيط، وكلها عوامل داعمة لفوزه، إلى جانب مظهره الرياضي الشاب.

هذا ويؤكد ما ذهبت إليه من أهمية المظهر الشاب وممارسة المرشح للرياضة، وما يوحي به مظهره من قوة ما بدأت الصحف

الأمـريكيـة تنشـره من تحليـلات وتوقـعـات لإمكانيـة فـوز المرشـحين لانتخابات عـام ٢٠٠٤، ومن منهم يمكن أن يفوز على بوش الابن، الذي يُروِّج لصـورته بوصـفه المنتصـر في الحـرب على الإرهاب، فـيـزكـون الجنرال المتقـاعد ويزلي كلارك الرئيس السابق لحزب الناتو، رغم قلة خبـرته السيـاسية، لكنهم يُرحِّبون به تقديرًا لانتقاداته المتكررة لبوش، من خلال ظهوره الدائم في القناة الإخبارية .C.N. N، بشكل جعله من الوجـوه المألوفـة للشـعب الأمـريكي، وكلنا يعـرف أثر أخـبـار المسـاء التليـفـزيونيـة على الناخبين الأمـريكيين، بالإضـافة إلى وجـود " نقطة أخرى قد يراها البعض غير ذات أهمية.. وإن كانت على العكس تمامًا بالنسبة للناخب الأمريكي، وهي أن الجنرال ويزلي يتمتع بلياقة بدنية، تضاهـي تلك التي يتمتع بها الرئيس بوش، حيث إنه يداوم على القيام بالتدريبات الرياضية القـاسيـة يوميًا، مثل الرئيس بوش، وهي إحدى الصفات التي ينظر إليها الأمـريكيون باعتبارها ميـزة، يجب أن يتمتع بها رئيسهم؛ باعتبـاره المثل الأعلى الذي يجب أن يُحتذى به فـي جـميع شئون الحـيـاة.. حتى لو كـانت تلك التي تتعلق بـالجـانب الرياضـي"[١]، كـمـا أنهم في الغـرب يؤمنون بـأن العـقل السليم فـي الجـسم السـليم، والرئاسـة في تصورهم مهمة شاقة وخطيـرة، تتطلب القـدرة على بذل جهد خارق، لا يستطيع القيام به سوى من يتمتعون باللياقة البدنية.

هذا ولعل الشبـاب كقيمـة - يحـرص الأمـريكيـون على توافـرها في رئيسـهم - لا ترتبـط فقط بالمظهر والسلوك اليومي، بقـدر ارتبـاطها بقدرة الشباب على التغيير، وهو الدافع الذي جعلهم يومًا ما في مطلع الستينيات، ينتخبون جون كنيدي الديمقراطي الليبرالي النزعة، ممثلا للقوى الجـديدة آنذاك ضد نيكسون الجمهوري المحافظ ابن المؤسـسة الحـاكمة التقليدية.. وإن لم يتم الحلم الذي أجهض باغتيال كنيدي في

(١) عزة سامي - الأهرام - تحقيقات خارجية - ٣٠ / ٨ / ٢٠٠٣ - ص ٦.

الثالث والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٦٣م.

ويشير لطفي الخولي في عمود له إلى أنه "منذ ذلك الوقت أعادت المؤسسة الحاكمة - التي يُطلق عليها اسم الاستبلشمنت - تنظيم صفوفها، ورصد كل قوى اليمين المدني الديني خلف الحزب الجمهوري؛ لمنع تكرار ظاهرة تسرب (الأولاد الليبراليين من نوعية كيندي) إلى البيت الأبيض مرة أخرى، ونجحت المؤسسة الاستبلشمنت في خططها، وأحكمت سيطرتها على البيت الأبيض، وذلك منذ أوائل الستينيات، حتى بدايات التسعينيات؛ من خلال إنجاح رموز قوية تمثلت في نيكسون، وريجان، وبوش.. وإن حدثت فترة انقطاع محدودة، تسلل فيها للبيت الأبيض الديمقراطي جيمي كارتر، الأقرب إلى رجل الدين الورع منه إلى الزعيم السياسي صاحب الرؤية والبرامج"[1].

كانت المفاجأة في مطلع التسعينيات حينما نجح الشاب الوسيم الطلعة بيل كلينتون، على جورج بوش الأب عام ١٩٩٢م.. رغم أن بوش كان آنذاك منتصرًا في حرب الخليج الثانية، وكان في نظر الجميع بطلا نجح في قيادة التحالف.. وكان كلينتون شابًا وليبراليًا، وكانت الصحف تصفه آنذاك بعبارة : "الولد الذي لا أصل له ".

هذا ويقول لطفي الخولي أيضًا في اجتهاداته :

"مرة أخرى أعادت المؤسسة الاستبلشمنت، وحزبها الجمهوري حساباتهما، وانتهيا معًا إلى أن رجال المؤسسة قد شاخوا، وشاخت معهم صياغاتهم الفكرية والسياسية في عالم يتغير، في حين أن القوى الحديثة، والطبقة الوسطى، والأقليات المهمَّشة شرعت تتوحد، وتدفع إلى واجهة العمل السياسي خلال الحزب الديمقراطي وجوهًا شابة، مثل الولد كلينتون.. مفعمة بالحيوية والفكر الجديد، الذي لم

(١) الأهرام - عمود "اجتهادات" - ٢٢ / ٩ / ١٩٩٨م - صفحة قضايا و آراء ١٠

يعد يُخفي إرادته في تغيير أمريكا سياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، في إطار تجديد الاستبلشمنت، والحزب الجمهوري لكوادرهما السياسية؛ دفعًا - في المقابل - بقيادة شابة جديدة"[1].

ويقودنا ذلك إلى أن المظهر الشاب ليس هو الهدف في حد ذاته، بقدر كونه منحى للتغيير المطلوب في الحياة الأمريكية، الذي راح يتبارى فيه كل المرشحين من الشباب؛ بطرح برامج تسعى للتجديد بدأها نيوت جنجريتش برفع برنامج باسم : " عقد جديد في أمريكا"، في مواجهة برنامج كلينتون المسمى : "رؤية لتغيير أمريكا"، والذي طرحه هو ونائبه آل جور رافعًا شعار : " الاهتمام بالناس أولا "[2].

وحتى بعد أن فاز كلينتون بفترة رئاسته الأولى، وجاءت انتخابات عام ١٩٩٦م، ورشح الجمهوريون بوب دول، الذي كان يحظى شخصيًا باحترام ملحوظ لدى الرأي العام ضد كلينتون؛ وكان ذلك تمهيدًا لأن يكون بوب دول مقدمة لزحف الزعيم الشاب جينجريتش نحو الرئاسة، وانتصر كلينتون الشاب الواعد بالتغيير، والأكثر شبابًا ووسامة.. رغم تسريب بعض الأخبار والصور الصحفية التي توحي بمدى شباب المرشح الجمهوري للرئاسة، ففي المعركة الانتخابية التي دارت نهاية عام ١٩٩٦ بين " بيل كلينتون " والسناتور العجوز " بوب دول "، كانت صور " دول " والتعليقات المصاحبة لها توحي بأنه شاب، وكنموذج لذلك ظهوره وهو يضع قلمًا في فمه كطلاب المدارس؛ لأن يديه مشغولتان بتحية الناخبين في ولاية فلوريدا أثناء الانتخابات الأولية في الولاية، و" الطريف أن دول راح يتباهى بصحته وقوته؛ ردًا على التلميحات بكبر سنه، فقد قال دول - ٧٢ سنة - أن ضغط الدم عنده، وأيضًا نسبة الكوليسترول أقل مما لدى كلينتون!!"[3] وطيرت

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) كتاب بهذا العنوان نشره مركز الأهرام للترجمة و النشر - ١٩٩٢م.

(٣) الأخبار - الثلاثاء ٢٦ / ٣ / ١٩٩٦ - ص ٢.

وكالة أنباء الأسوشيتدبرس صورة دول، والخبر الذي نشرته معظم الصحف في العالمين العربي والغربي.

أما آخر الأخبار المتعلقة بالمظهر الشاب للرؤساء الأوروبيين، فهو ما نشر عن " سر اختفاء بيرلسكوني " الذي استمر لعشرين يومًا، والذي أثار التساؤل داخل إيطاليا وخارجها، في مطلع عام ٢٠٠٤، وما شاع من أقاويل عن إجرائه عملية تجميل؛ لشد الوجه وإزالة التجاعيد والجيوب من تحت عينيه؛ استعدادًا للاحتفال بالذكرى العاشرة لاقتحامه المسرح السياسي، وتأسيس حزبه المسمى "فورسا إيطاليا"، واستعداده لخوض معارك الانتخابات المحلية والأوروبية، في منتصف العام نفسه ٢٠٠٤، إذ كشف بيرلسكوني لزعماء الأغلبية التي يتزعمها، عن نتائج الرجيم القاسي الذي أجراه، وقال وهو يربت على بطنه : "لقد انخفض وزني سبعة كيلو جرامات، واضطررت إلى ارتداء ملابس كنت أرتديها قبل عشر سنوات، وعلق أحد الوزراء : إن بيرلسكوني أصبح أكثر نضارة وشبابًا"[1]، وقد ذكرت بعض الصحف، أن رئيس الوزراء الإيطالي قد خضع لعملية تجميل، أجراها جراح إيطالي في العاصمة باريس، في حين أن هناك من لا يقتنع، ويتشكك في أن مسألة التجميل والتخسيس، والبهجة والحماس الذي عاد به رئيس الوزراء من ساردينيا ربما تكون للتضليل فقط؛ ولإخفاء شيء ما أكثر خطورة، إذ كان بيرلسكوني قد اختفى قبل عدة أشهر لأسباب صحية غير معروفة"، وهذا التشكيك يؤكد أهمية الشباب والصحة الحيوية بالنسبة للرؤساء.. ليس في الغرب وحده.. ولكن في العالم العربي أيضًا؛ إذ غالبًا ما يحاولون إخفاء أخبار مرضهم عن الناس؛ ولذلك قال رئيس الحكومة الإيطالية لوزرائه

---

(١) مصطفى محمود عبد الله - خواطر مراسل من روما - الأهرام - تحقيقات و تقارير خارجية - في ٢٤ / ١ / ٢٠٠٤ - ص ٦ .

مبررًا ما شاع عن مرضه، ومؤكدًا على أهمية تجمل الرئاسات : "إن الزعيم السياسي يحتاج إلى تجديد صورته، ومن واجبه أن يتجمل، ويصبح أكثر نضارة؛ ليظهر في التليفزيون، لا سيما إذا كانت بانتظاره لقاءات مهمة، مثل الاحتفال بالذكرى العاشرة لحزب فورسا إيطاليا، وهو بمثابة افتتاح للحملة الانتخابية المقبلة"[1].

هذا وقد أثار موضوع تجمُّل بيرلسكوني جدلا كبيرًا، حول صورة الرؤساء والساسة، إذ قال أخصائي التجميل الذي أجرى العملية لبيرلسكوني : " لا شك أن وجه الرجل السياسي متاع ثمين "، كما أضاف طبيب آخر لعائلة بيرلسكوني : " إن عملية شد الوجه مسألة جوهرية في السياسة، في ظل مجتمع الإعلام المرئي، مؤكدًا أهميته في المجتمع الحديث، إذ يضفي مزيدًا من المصداقية ".

كما أصبحت عملية شد وجه بيرلسكوني موضوعًا للكثير من المقالات، التي تناولت فيها الصحف سياسته، واتخذت بعضها من العملية مادة للتهكم، ومنها صحيفة "نيويورك تايمز"[2] الأمريكية التي أشارت إلى أن لون بشرة بيرلسكوني كان دائمًا برونزيًا، حتى بدون شمس، كما أن قامته التي كانت تقل عن الطول المعتاد وهو ١٦٨ سم، كانت تبدو أطول؛ بفضل استخدامه الكعوب العالية للأحذية، وجلوسه خلال المؤتمرات على كراسي عالية، خلافًا للآخرين، وأضافت الصحيفة : أنه في الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٢ ظهر بيرلسكوني في اللوحات الإعلانية كرجل أكثر شبابًا، وبشعر أكثر غزارة مما هو عليه في الواقع، وترى الصحيفة أن الإعلان عن إجراء عملية التجميل ليس من قبيل التباهي والغرور.. وإنما يريد بيرلسكوني من هذا الإعلان، طمأنة الناخبين بعد إجرائه أخيرًا عملية ناجحة لاستئصال ورم

---

(١) مصطفى عبد الله – المرجع السابق.

(٢) موقع الصحيفة على شبكة الإنترنت – في ٢٣ / ١ / ٢٠٠٤.

خبيث بالبروستاتا، كما تشير الصحيفة في نهاية المقال إلى أنه سواء أجرى بيرلسكوني عملية تجميل.. أم لا فينبغي أن يضع نصب عينيه التحديات التي تنتظره، ومن بينها انتخابات البرلمان الأوروبي، في يونيو ٢٠٠٤، التي ستكون بمثابة اختبار لقدرته وقدرة حزبه على الإغراء، ومن الغريب حقًا أن ترد مثل هذه الآراء في صحيفة أمريكية!! وأمريكا هي من هي في عالم صناعة صور الرؤساء، وتجميل صورهم صدقًا.. أو كذبًا!!

أما صحيفة الجارديان فقد شنت على رئيس الوزراء الإيطالي هجومًا عنيفًا، ونشرت تحت عنوان كبير " إيطاليا في حالة فوضى أين بيرلسكوني؟ "، وكتبت تحته أنه توقف عن العمل بسبب إجرائه عملية تجميل، مما يُلقي الضوء على أولويات بيرلسكوني وعلى قيم الدولة التي يحكمها، كما تساءل بعض زعماء المعارضة الإيطالية : " أليس من الأفضل أن يشغل وقته في الوزارة؟!.. بدلا من قضائه في عمليات التجميل؟! وأشارت إلى أنه كان قد وعد المواطنين خلال حملته الانتخابية السابقة بتغيير إيطاليا؛ من خلال العقد الانتخابي الذي وقعه معهم خلال أحد البرامج التليفزيونية على الهواء مباشرة.. وربما بدأ بنفسه!!

هذا ولعل الاهتمام بأن يظهر المرشح للرئاسة بمظهر الشباب -كما سبق القول - لا يعد قيمة أساسية في الصورة في أوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية وحسب، ولكن في الأرجنتين أيضًا كان للمظهر الجديد الذي عاد به الرئيس كارلوس منعم أثره في عودة شعبيته، إذ بدا " في صورة أصغر بكثير من سِنه، وذلك بفضل عمليات التجميل والرياضة التي يواظب عليها، وهو يريد من خلال ذلك أن يثبت أن سنه لن تعوقه عن أداء مهام الرئاسة، وذلك ما أثبته فعلا من خلال جولاته المستمرة في أنحاء البلاد، خلال الستة أشهر الماضية،

واشتراكه في العديد من مباريات كرة القدم والسلة، وأخيرًا بحمل زوجته"[1].

هذا ولعل الشباب كقيمة في ملامح الصورة الذهنية للرؤساء تعد نمطًاغربيًا سائدًا في صناعة الصورة؛ إذ نجد أن الشعوب في الغرب تريد أن يكون للرئيس شخصية "مودرن"، أو عصرية، وحديثة.. ليس من حيث المظهر فحسب، بمعنى أن يرتدي أحدث الأزياء، أو أن يكون كما يقول الشباب في تعبيراتهم المستحدثة "استايل" أو "Stylish".. ولكن بمعنى أنه يُحسن التعامل مع المخترعات الحديثة، ويعيش عصره بكل تفاصيله.

ولعل ذلك ما جعل خبراء الصورة المحيطين بالمستشار الألماني السابق هيلموت كول يُروِّجون لصورة فوتوغرافية له، نشرتها معظم الصحف العالمية، ومنها الهيرالد تريبيون في نسختها الدولية، وهو يرتدي نظارة تُظهر البعد الثالث للأشياء، خلال افتتاح معرض للأجهزة التكنولوجية المتقدمة وأجهزة الكمبيوتر، في هانوفر؛ وذلك كي يُظهروه، أو كي يُظهر كول نفسه في صورة الزعيم المتطور، والقادر على استخدام الأجهزة الحديثة في سهولة ويسر كالشباب، وذلك إبان استعداده لحملته الانتخابية لإعادة انتخابه كمستشار لألمانيا ضد شرودر.

هذا وترتبط القوة بسمات الشباب .. ليست القوة الجسمانية فحسب - وإن كانت مطلوبة وبإلحاح - ولكن القوة بوجه عام، والأمر يختلف في دول أوروبا الغربية عن الشرقية، وتحديدًا في روسيا، التي كانت رأس التكتل الشرقي، الذي مازالت قيمه تختلف عن القيم الغربية إلى حد كبير.. رغم الانفتاح البادي على الغرب، فعلى سبيل المثال نجد أن "يفيجيني بريماكوف" الرجل القوى في روسيا منذ نهاية

(١) غادة الشرقاوى - الأهرام - ١٢ / ٥ /٢٠٠٣ - ص ٧.

التسعينيات، يحاول أن يعطي روسيا ما تحتاج إليه فعليًا، وهي صورة رب العائلة الهادئ والمتواضع؛ ولذلك نشرت الصحف، وطيرت وكالات الأنباء صورة عائلية له مع زوجته، وابنته الوحيدة وزوجها، وابنة زوجته وحفيدتها، في صورة كلاسيكية، كالتي تتصدر صالونات أو غرف الجلوس في معظم البيوت الشرقية والعربية.. ذلك في حين نجد أن الرئيس الروسي الحالي بوتن قد جمع بين القيمتين أو الحسنيين؛ إذ أبرزت الصحف أنه يلعب الكاراتيه، ويمارس الفروسية ورفع الأثقال.. لكنه في نفس الوقت يتأمل ويقضي عطلاته مع أسرته، وذلك يعني أنه " يحرص على رسم صورته على أساس أن يبدو رجلا عائليًا، لا ينسى واجباته الأسرية وينتهز كل فرصة لقضاء أوقات فراغه مع زوجته وابنتيه، في منتجع على البحر الأسود، دون أن يتنكر لماضيه كرجل مخابرات يحتاج للياقة البدنية، فيداوم على الرياضة، خاصة رياضته المفضلة المصارعة اليابانية"[1].

هذا وارتباطًا بمظاهر الشباب، التي يحرص عليها الرئيس بوتن، يشير أحد المواقع على شبكة الإنترنت، إلى أن الرئيس الروسي بوتن قد بدأ يظهر وهو يمزح ويبتسم علنًا، ويُذكّر الموقع بأن الزعماء السوفيت مثل بريجنيف أو بولجانين لم يظهرا وابتسامة واحدة على وجه أي منهما.. أو على وجه أي زعيم سوفيتي منذ الثورة البلشفية، وأن الوحيد الذي ضحك ومزح وابتسم هو خروشوف، الذي لم يبق في الحكم طويلا، وما بين بوتن وخروشوف لم يُشاهَد أي زعيم سوفيتي يبتسم سوى غورباتشوف.. ولكنه ذهب هو الآخر بسرعة، وذهبت معه الإمبراطورية السوفيتية، فمع سقوط الشيوعية عادت الحياة إلى الضحك، أو عاد الضحك إلى الحياة في موسكو، فالرئيس يلتسين ضحك ورقص وترنح، ثم خرج من الكرملين قبل انتهاء فترة

(١) مجلة كلام الناس - العدد ٥٠٤ - ١٠/ ١ / ٢٠٠٣ - ص ٤٢، ٤٣ .

رئاسته.. وإن كان خروجه قد تم بإرادته، وعندما جاء بوتين إلى الكرملين ظل متحفظًا لفترة من الوقت، ثم شيئًا فشيئًا بدأ يمزح هو الآخر.. ولكن كيف؟!

يذكر الموقع تحت عنوان : " يحيا الضحك "، أنه " أثناء اجتماع لحلف شمال الأطلسي (ناتو) في روما ... نظر بوتن إلى قائمة تضم أسماء الوفد الألماني، فلاحظ أن أحدهم اسمه أنجلز، فقال بوتن إنه يحمد الله أن أنجلز لم يرافقه ماركس، والإشارة هنا إلى أن فريدريك أنجلز وكارل ماركس هما مؤسسا الفكر الشيوعي العالمي: ولأن حلف الناتو أنشأ مجلسًا للتنسيق مع روسيا، اقترح الرئيس بوتن أن يُطلق اسم (السوفييت) على مقر المجلس في بروكسيل؛ بالنظر إلى أن كلمة (سوفييت) في اللغة الروسية تعني (مجلس)، وهذه الدعابات أثارت ضحكات زعماء العالم، ففي مرة كان بوتن ضيفًا في برنامج لاري كينج على شبكة (سي إن إن)، وكانت الغواصة الروسية كورسك قد غرقت لتوها، ومات في الحادثة مئات البحارة الروس؛ بسبب انفجار غامض، وسأله لاري كينغ عما حدث للغواصة؟ فأجاب بوتن بخبث باسم : ما حدث للغواصة كورسك هو أنها غرقت، ومنذ كان بوتن يعمل في مكتب رئيس بلدية سانت بيترسبيرغ وهو يشتهر بروحه المرحة، ويقول علماء النفس الروس : إن بوتن طوَّر مقدرته على الدعابة، على مدى خمسة عشر عامًا كجاسوس في المخابرات السوفيتية (كي جي بي)، ويقول علماء نفس أمريكيون: إن روح الدعابة هي من أهم خواص الجواسيس، وإن الضحك والمرح يسهمان في نجاح التجسس.. لكن الضحك في موسكو كما رأينا عبر التاريخ ربما كان نذير شؤم! فهل يبقى بوتن في الكرملين.. رغم ضحكاته ودعاباته؟ لقد تغيرت روسيا وتغير العالم، وسوف يخوض بوتن انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٤ بمزيد من الضحك والمرح، وسوف

يفوز؛ لأن الناخب الروسي سئم الفقر المقترن بالوجوه العابسة، ولأن دعابات بوتن تدل على أنه إنسان عادي، والروس ومعهم بقية العالم منذ فترة طويلة يشتاقون إلى رجل عادي في الكرملين"[1].. ومما سبق نستنتج أن نمط الرئيس في دول الشرق الأوروبي قد تغير، وبدأ يتشبه بالقيم الغربية في صناعة الرئيس، وفي مقدمتها المظهر الرياضي الشاب، وأبرز سماته المرح والدعابة؛ كملمح شبابي مفضل.

وإمعانًا في التشبُّه الروسي بالغرب الأمريكي، خاصة في تصابي الرؤساء، تشير مصادر أخرى إلى أن بوتن قد رافق المطرب البريطاني ماكارتني وزوجته، وكأنه مرشد سياحي؛ ليروا عجائب قصر الكرملين "، وأهم ما في الصورة التي نشرت لهم: سعادة، وبهجة، وأناقة الرئيس الروسي، فهو في هذه اللحظة ليس رئيسًا.. ولكنه يمارس العزف أيضًا، وينظر إلى ماكارتني مبهورًا، وهذا هو الجانب الذي لا يعرفه الناس عن السياسي الكبير"[2]، كملمح من ملامح الترويج لصورته الجماهيرية، التي تعني أنه يعشق الموسيقى.. ليس كمستمع فقط.. ولكن كعازف أيضًا، كملمح شبابي يحقق شعبية للرؤساء، وكشكل من أشكال التشبُّه بالغرب والانفتاح عليه، باعتبار أن هذا الانفتاح يُعد تقدمًا وتطورًا، قياسًا بما كان يحدث سابقًا، إذ كانت الموسيقى الغربية - خاصة موسيقى الروك وأغاني فريق الخنافس البريطاني - ممنوعة في الاتحاد السوفيتي.

هذا وقد كان " رئيس الوزراء البريطاني إدوارد هيث، يعزف على البيانو ويقود الفرق الموسيقية، ولما قاد الفريق القومي للتجديف فشل في إحدى المرات، فلم يقولوا: إنه رئيس وزراء فاشل، وإنما هو رجل رياضي يكسب ويخسر! "، وكذلك فعل بيل كلينتون، وتوني بلير في

(١) agawad @aol.com , P. 1 of 1.

(٢) أنيس منصور -الأهرام - عمود مواقف - ١٧ / ٦ / ٢٠٠٢ - ص ٣٢.

إعلان حبهما للفن، والموسيقى، والرياضة.

هذا ولعل الملك العربي الحسن الثاني ملك المغرب كان أكثر تميزًا.. إذ كان عازفًا ومطربًا، وكان يحب العازفين والمطربين، وفي حفلاته في القصر الملكي كان يقود الفرق الموسيقية، كما كان عشقه لفن عبد الحليم حافظ، واحتفاؤه به بشكل شخصي مضرب الأمثال في العلاقة بين السلطة والفنانين، لكنه في ذلك لم يكن يتشبَّه بالغرب، وإنما كان كما يقول أنيس منصور: "مغربيًا صميمًا.. فالمغاربة يحبون الموسيقى والطرب، وأولاد نكتة، وربما كانت المغرب هي أكثر الشعوب المغاربية فرفشة وحبًا لكل أشكال الغناء والطرب والرقص"، فالصورة الذهنية إذن لا بد وأن تستمد القيم التي تُبنى على أساسها من واقع المجتمع نفسه.. مع الأخذ في الاعتبار أنه ما زال هناك فرق واضح في القيم التي تُبنى عليها الصورة في كل مجتمع؛ وفقًا لما يمكن أن يترك الأثر المرجو لدى الناس هناك.. في حين يتجاهل البعض في شرقنا العربي هذه الحقيقة، ويحاولون التشبه بالقيم الغربية في رسم صورة رؤسائنا.. متجاهلين ما يريده الناس هنا، وما يحبون أن يروه من رؤسائهم!!

هذا ويمكننا القول دون مواربة إن الشباب كقيمة غربية أساسية ومرغوبة.. ليس بالضرورة أن تلقى قبول الشعوب العربية كقيمة منفردة، فأسطورة كنيدي لن تتكرر في الشرق العربي، فالغرب يحبذ الشباب.. ولكن في إطار منظومة قيميَّة مكملة، فإذا كان كنيدي هو أصغر رئيس أمريكي مولود في القرن العشرين، وكان يحظى بالإعجاب للبساطة والشباب، ولأنه ثري وزوجته جاكي من أصل فرنسي أرستقراطي، وكان مفوَّهًا يُحسن الخطابة، ونجح في أن يصبح نجمًا من نجوم الصحافة، وأسطورة يتطلع لها العالم، فذلك لأنه قد جمع من حوله أذكى المستشارين؛ لتطوير أسلوب الحكم، وبدء

مـرحلة جـديدة، ووضع فـي برنامـجـه تخـصـيص أمـوال للخـدمـات الاجتـمـاعيـة للفقـراء، وإعانات للعـاطلين، وكـان السـود بدون حـقـوق مـدنيـة يحـتـجـون بـأسلوب العنف، فـأظهـر الرئيس كنيـدي أنه ضـد التفرقة العنصرية، وتم تنصيبه على صوت مغنية سوداء، وكان أسلوب كنيدي استخدام الأمم المتحدة كأداة لكسب الحـرب البـاردة، ولم يكتفِ في رسم صورته بحركته الشابة الدؤوب، وصوره وهو يقبل أبناءه، لكنه اتبع سياسة واضحة من المصارحة لشعبه وبث الأمل فيه، فقد اعترف بأن أمريكا متخلفة عن روسيا، بعد عودة الروسي يوري جاجارين أول رائد للفـضـاء.. لكنه وعد شـعـبه بأن يصـعـد أمـريكيًا للقـمـر ثم يعـود سـالمًا، ووعدهم بالحفـاظ على التفوق النووي[1].. إذن لم يكن شبـابه ووسـامتـه هـي سـلاحـه الوحـيـد.. بل كـان يدعم هذا المظهـر المحـبب للشعب الأمـريكي خبـرة سـيـاسـيـة، ووعي قـوي، ومسـتـشـارون يتـمـتـعون بذكـاء واضح، وأمل فـي حيـاة أفضل وأكـثـر تقـدمًـا.. فـأين ذلك مما يحدث الآن في أمريكا، أو في العالم العربي، فيما يتعلق بالتركيز على الشباب أو مجرد المظهر الشاب كقيمة في حد ذاتها؟!.

هذا ومهمـا قيل عن الشبـاب كقيمـة، تتـفـرع عنها مـعـان كثيـرة في صـورة الرؤسـاء.. خـاصـة في الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة، فإن هناك نمطًا أو طرازًا من الرئاسة يطلق عليه في أمريكا :

(The Macho Presidential Style)، ويقصد به باختصار، أن يقدم الرئيس كل ما هو جيد بالنسبة لنمط الحياة الأمريكية.. ولسوء الحظ فإنه في النظام السياسي الجنسي يعتبر الرئيس أيضًا زينة أو زخرفة في أسطورة أو خرافة الماتشو، إذ يجب أن يكون سهلا عليه أن يفرز العناصـر التي تعـد مفـتـاحًـا لنمط الماتشـو الرئـاسي، حيث كـان نمطًا

---

(١) للمـزيد حـول الرؤسـاء الأمـريكيين الفـيلم التسـجيلي " الملفـات السـرية لأحـداث الشـرق الأوسط " جزئيين - مقتنيات قصر السينما بالقاهرة.

مستقرًا وثابتًا للقيادة منذ عام ١٧٨٧. فالأشخاص التسعة والثلاثون الذين حكموا كرؤساء للولايات المتحدة، جميعهم كانوا من الرجال، وكان كل منهم يُجسِّد بقدر كبير أو قليل العناصر السبعة لنمط الماتشو الرئاسي، الذي يستلزم أن يكون الرئيس:

١- مناضلا أو مكافحًا في السياسة وفي الحياة.

٢- رياضيًا، وذا عقلية رياضية.

٣- حاسمًا، وغير متذبذب أو غير متيقن.

٤- غير عاطفي، ولا يكشف أبدًا عن المشاعر والأحاسيس الحقيقية.

٥- شديدًا، وحادًا.. وليس ضعيفًا أو سلبيًا.

٦- فعَّالا.

٧- رجلا حقيقيًا (ذكرًا فحلا) وليس أنثويًا بحال من الأحوال.

وبالطبع لم يحقق كل الرؤساء جميع مطالب أسطورة أو خرافة الماتشو.. ولكنهم يمكن أن يعملوا على استمرار كل العناصر السبعة لهذه الخرافة[١]، وأبرزها الذكورة أو القوة والشباب.

الصدق:

لعل الصدق من أهم محددات الصورة، ومن أبرز سماتها على المستوى النفسي في الغرب، فهم يرون أن من أهم الصفات التي يجب أن تبنى عليها صورة الرئيس أن يكون صادقًا، فقد يُقبل منه - ما لا نقبله نحن في العالم العربي - مثلا انفلات أخلاقي، يصل إلى حد وصف البعض للرئيس الأمريكي باستعلاء بأنه : "الرئيس الزاني"، كما حدث لبيل كلينتون، إبان أزمة مونيكا جيت، التي اعترف بعلاقته بها علنًا، ثم اعتذر أيضًا بشكل علني، وبأسلوب دراماتيكي، يُغلفه

(١) John Orman . Comparing Presidential Behavior P. 7. 8.

التضرع، والدموع تترقرق في عينيه، ففي الغرب يقبلون.. أو قبلوا بالفعل أن يستمر كلينتون على كرسي الرئاسة.. رغم اعترافه بممارسة الرذيلة.. و لكنهم لم يقبلوا أن يكون كاذبًا، أو أن يحلف كذبًا، فيما أسموه آنذاك "الحنث باليمين".

والحقيقة أني معهم تمامًا، في أن الكذب أبو الكبائر.. بل هو أساس كل كبيرة.. وإن كنت أعتبر أن الأخلاق كل لا يتجزأ.. مع الفارق في التقدير بالطبع؛ فأن يكون الرئيس له نزواته العاطفية في أوقات فراغه، أو لهوه بعيدًا عن سدة الحكم أمر مشين على المستوى العربي والإسلامي؛ لأنه من منظور شعبي في العالم العربي يسمى هذا النموذج " راجل فلاتي "، بمعنى أنه إنسان غير مسئول، ولا يُقدِّر عواقب أفعاله؛ وبما أنه لا يستطيع التحكم في مشاعره أو غرائزه، فكيف بالله يُعتمد عليه في إدارة شئون الدولة؟ أو إدارة دفة الحكم؟ وكيف يُمكنه اتخاذ قرارات حاسمة في مستقبل الأمة التي يحكمها؟ وهو من تتحكم فيه رغباته الدنيا؟! فالرئيس في عالمنا العربي يُعتبر قدوة لرجال الحكم الآخرين، ورمزًا أو مثالا لهم ولشعبه، وعنوانًا للدولة، والأمر كذلك في الغرب.. وربما أكثر، فكيف يكون القائد القدوة على هذه الشاكلة من التسيب؟! وماذا لو كان " رب البيت بالدف ضاربًا " بالطبع لن يُصبح أمام بقية الصبيان سوى الرقص؟!

هذا وفي مجال المفاضلة بين ممارسة الرؤساء لأمرين يعدان بكل المقاييس من الرذائل، أرى أن الكذب يعد أكثر خطورة من العلاقات النسائية، شريطة أن يكون ذلك من باب الترويح البريء.. و ليس من الوزن الثقيل كما فعل كلينتون!! لكن الكذب آفة الآفات التي لا حل لها إذا اتصف بها رئيس، أي رئيس!! فهو في هذه الحالة سيسمح لنفسه بأن يكذب على شعبه، ويعد ويخلف، ويغالط في الحقائق وفي أساليب طرحها ما بين تقديم وتأخير، أو إخفاء لجانب منها.. ممارسًا لما

يُسمى بالتدليس.. الذي يعد لونًا من ألوان الكذب الكثيرة والمتعددة، وهو أمر لو طُبِّق على غالبية أو معظم الرؤساء العرب لاستوجب عزل معظمهم.. إن لم نقل جميعهم دون استثناء، وتعليقهم في ميادين عامة، فأين الرئيس العربي الذي لم يُمارس يومًا لونًا ما من ألوان الكذب على شعبه؟!! سواء أكان ذلك الكذب في خُطبه العامة، أو في بيانات حكومته التي يتلوها رئيس وزرائه، أو في وعود وزرائه التي لا تصدق غالبًا، أو في التبريرات الكاذبة التي يطلقونها كما يتنفسون.. دون أن يطرف لهم جفن!! الأمر الذي يجعلنا نفرِّق بين الأثر الذي يمكن أن يترتب على كون الرئيس " زير نساء"، أو كونه " كاذبًا "، وهي مفاضلة بين أمرين أحلاهما مر.. أو لنقل مفاضلة بين رذيلتين! وحينها سنرى أن الانفلات الأخلاقي على المستوى الشخصي أهون من الكذب على الشعب، من حيث أثر كِلا الرذيلتين على مصالح الشعوب.. قياسًا بالمصلحة العامة.. وليس من حيث كون الانفلات يتناقض والقيم الأخلاقية أو الدينية.. فكلها يُحاسب فاعلها عند الله.. لكننا هنا بصدد محاسبة الشعوب لرؤسائهم على نوعية ما يمارسون من خطايا، تدخل جميعها عند الله في حيز اقتراف الكبائر.

ولعل ما يدفع بعض الرؤساء العرب إلى الكذب، ثم الكذب، ثم الكذب.. وباستمراء، ودون توقف، أنهم لا يملكون فضيلة الاعتراف بالحق؛ لأنهم لن يجدوا من يغفر لهم سوى الله في علاه.. لكن شعوبهم لن تغفر لهم.. مهما قدموا من تبريرات لهذا الكذب؛ لكننا في العالم العربي غالبًا ما لا نكتشف كذب رؤسائنا.. إلا بعد خلع الرئيس أو وفاته، أما أثناء حياته وفي فترة حكمة فلا يُسمح بحال من الأحوال أن يُكشف النقاب عن أي خطأ مارسه أي رئيس بدءًا بالكذب وانتهاء بتهريب أموال بلاده للخارج، والنعمة والترف الذي يعيش فيهما هو وأسرته، بينما شعبه يتضور جوعًا.. أو حتى مواقفه

الخيانية أو المتسمة بالتبعية السياسية.. كل هذا لا يُكشف عنه النقاب إلا بعد خراب مالطا!!و بعد أن يكون قد فات وقت الحساب، ويصبح الضرب في الميت حرام، واذكروا محاسن موتاكم، والميت لا تجوز عليه إلا الرحمة، فلا داعي لتصفية الحسابات على صفحات الصحف بعد فوات الأوان!!

هذا ويتناول الكاتب السوداني محمد إبراهيم الشوش مكرمة أو قيمة الصدق الغربية، أو اعتراف الرؤساء بالخطأ في الدول الغربية تحت عنوان : " لا أحد يعتذر" مشيرًا بأسلوبه الساخر إلى واقعة اعتذار بيل كلينتون بذِلة وانكسار، وكأن ثمة أمرًا خطيرًا قد حدث، أو أن داهية قد حاقت بالشعب الأمريكي، من جراء جرم مهول ارتكبه الرئيس..... أو كأنه خان أمانة الحكم، وانتهك حقوق المواطنين، وجلب إلى بلده الدمار والخراب.. إذ جاء في نص اعتذاره :

"إنني أود الإعلان أنني ارتكبت خطيئة، ومن المهم أن أقدم اعتذاري وأسفي إلى كل الذين ألحقت الضرر بهم، وإنني أعتذر من أعماق قلبي أولا لعائلتي وأصدقائي وفريق إدارتي، وأعضاء حكومتي، ولمونيكا لوينسكي وعائلتها، وللشعب الأمريكي، وإنني أسألهم الصفح والغفران"[(١)].

يتضح هنا أن كلينتون بهذا الترتيب كان يعتذر عن خطيئته الجنسية.. وليس عن كذبه أو حنثه باليمين، لأنه يعتذر أولا لعائلته، أي لزوجته؛ بوصفها المتضرر الأول من خيانته لها، ويسير في ترتيب من يوجه لهم الاعتذار إلى أن يصل إلى مونيكا التي فضحها بإعلان تفاصيل العلاقة المشينة وفنونها، ثم أخيرًا يعتذر للشعب الأمريكي: بوصفه آخر المتضررين من مثل هذه النوعية من الخطايا، لكنه أبدًا لم يستطع أن يخدع شعبه، أو يستمر في خداعه، أو يسمح بأن تثبت

(١) الأهرام - زاوية كل سبت - في ١٩ / ٩ / ١٩٩٨م - ص ٩.

عليه خطيئة الكذب والخداع.. بل اعترف بالخطيئة الجنسية بذكاء، واعتذر عنها.. لكنه نفى أن يكون قد كذب، وذلك بالتحايل على الألفاظ والصياغات والتعريفات، التي تصف نوعية ما مارسه مع مونيكا، وهل هو ممارسة كاملة أم مجرد تحرش.. إلى آخر ما شاع وقرأناه في تلك الآونة من تعبيرات وتعريفات، لم يكن بالإمكان أن تعرف طريقها إلى صحفنا العربية.. لكنه أبدًا لم يعترف بالكذب تحت القسم، أو ما سُمي الحنث باليمين.

هذا وأتفق مع إبراهيم الشوش في الذهاب إلى أن كلينتون " ببساطة ارتكب جرمًا ليس في قاموسنا السياسي، ولا مدلول له في حياتنا العامة، أنه في لحظة فزع كذب على شعبه - لم تكن الكذبة صريحة - كانت بين بين، تحمل بعض ملامح التنصُّل، ولم تكن تتعلق بأمن الدولة، أو نزاهة الحكم.. بل بزلة شخصية -قد لا تُغفر لرجل في مركزه - وتعتبر من الهنات المركبة في طبيعة البشر .... وقد أصبح الاعتذار ممارسة حضارية، تحتل مكانًا مهمًا في النشاط السياسي الدولي المتحضر"[1]. وهو أمر يتطلب من الرئيس ليس الصدق وحسب.. ولكن الصدق بكل معانيه من شفافية، وعدم تدليس أو إخفاء جوانب من الحقيقة، أو الحنث باليمين، أو الكذب تحت القسم.. أي بمعنى تحقيق الشفافية المطلقة، والبعد عن الكذب بكل ألوانه المعروفة، وبكل أطياف ألوانه المستحدثة، فحتى لو كانت هناك مؤامرة من اليمين المتطرف للإيقاع بالرئيس كلينتون كي يكذب، إذ بالفعل " كان الهدف من المحاكمة أن يكذب الرئيس - أي يستدرج حتى يقول إنه لم تكن له علاقة جنسية بالبنت.. فكانوا يسألونه هل كانت بينكما علاقة جنسية فيقول : نعم.. ولكن غير لائقة.. فهو لم يكذب.. ولكن العلاقة كانت غير لائقة - وهاتان الكلمتان هما اللتان

(١) إبراهيم الشوش، المصدر السابق نفسه.

أنقذتا عنق الرئيس وتاريخه"[1].

وكمثال آخر للشفافية المطلقة المطلوبة، والتي يُفترض توافرها في الرؤساء في أمريكا، والتي يُعتبر عدم توافرها من موجبات المساءلة واللوم، ومن التهم التي تشين الرؤساء، وتسيء إلى السمعة السياسية لهم ولأحزابهم، نذكر يوم فتَح الجمهوريون النار على كلينتون ونائبه أل جور، وطالبوا بالتحقيق في تمويل حملتهم الانتخابية الثانية عام ١٩٩٦م، بطريقة مخالفة للقانون، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه لمناقشة واسعة، تناولت نظام تمويل الحملات الانتخابية برمته، وبالتالي دخل الرأي العام الأمريكي كله طرفًا في المناقشة؛ بإجراء استطلاعات رأي أسفرت عن تأييد الأمريكيين بنسبة ٨٠٪ لإصلاح نظام تمويل الانتخابات، وإن تمسَّك الجمهوريون في مجلس الشيوخ الأمريكي بدراسة القوانين التي انتهكت، وكيف انتهكت، ومن الذي انتهكها؟ قبل إصدار قوانين جديدة، والمقصود بالطبع هو شخص الرئيس، وهو في أعلى قمة للحكم في العالم، منتخبًا للمرة الثانية ومنتصرًا، ومع ذلك لم يحمه ذلك من المُساءلة، وهذا يجرنا إلى التساؤل : من يجرؤ على مساءلة أي رئيس عربي وهو على كرسي الرئاسة عن أي شيء؟؟ بالطبع لا الشعب ولا مجلسه النيابي.. ولا حتى صحف المعارضة - إن وجدت - تملك مساءلة أي رئيس، وأقصى ما يحلمون به ويمارسونه على استحياء مساءلة الوزراء، وبالكاد رئيسهم.. ليس أكثر!!

هذا وحتى لا يقودنا الخيال إلى أن الشعب الأمريكي يعيش في بلهنية جنة الديمقراطية، لا بد من القول بأن " الانتخابات الأمريكية يفوز فيها الأكثر قدرة على الإنفاق على حملاتها الباهظة التكاليف، ثم إن الذين يمولون حملة الانتخابات ليسوا مجرد أفراد عاديين، بل

---

(١) أنيس منصور - الأهرام - مواقف - ٢٩ / ٦ / ٢٠٠٣ - ص ٣٢.

في الحقيقة قوى ضخمة توارثت النفوذ والمصالح، والقدرة على الضغط والتأثير على صناعة القرار[1]، ومن هنا يمكننا القول إنها ديمقراطية من يملكون.. ولكن الشعب ونوابه قد وضعوا لها قواعد وقوانين ملزمة؛ تنظم كل خطوة فيها، وتعتمد الشفافية عنصرًا أساسيًا؛ لتحقيق الاختيار الأمثل بين من يملكون دخول سباق الرئاسة بنزاهة وصدق.. ودون مخالفة لهذه الشروط والقواعد القانونية.. فالإنفاق على الحملات تحدده قواعد، ومصادر تمويله معروفة، من خلال التبرع للأحزاب في شكل أموال سهلة (Soft money)، لا يعرف المتبرعون بها في أي الأغراض سوف يستخدمها الحزب، ويُمنع تمامًا استخدامها في الحملات الانتخابية، والمشكلة أن المال السهل هو الأكثر، والذي تلجأ الأحزاب لاستخدامه في غير الأهداف المخصصة له، وهي في الأصل : النهوض بالحزب، ودعم أنشطته، وتقويته في الشارع الأمريكي، وهناك ما يُسمى بالأموال الصعبة (Hard money)، التي يقدمها المتبرع لبرنامج معين أو حملة بعينها، أو لشخص محدد في إطار حملته الانتخابية، وهي فقط التي يجب أن يُنفق منها على الحملة الانتخابية لمرشح بعينه، يحدده المتبرعون، والحزب حر تمام الحرية بعد ذلك في أساليب إنفاق هذه الأموال، على برامج صناعة صورة المرشح للرئاسة، بأي أسلوب يراه خبراء حملته ومستشاروه، في حرب ضارية بين المتنافسين، يصمد فيها من يملك أساليب الإقناع والتمويه، وخداع الجماهير، وتشويه صورة الخصم بكل الأساليب الأخلاقية وغير الأخلاقية، فهي حرب باردة، تغلي ويشتعل وطيسها، داخل مراكز صنع الصورة الذهنية لكل مرشح، ولا يرى منها الجمهور غير الدخان، وبقايا الرماد، الذي يُخفي نيران المنافسة الحامية من أجل الفوز بالرئاسة، وطريقه الوحيد هو نجاح

(١) إبراهيم نافع - الأهرام - عمود " حقائق " في ١٨ / ١٠ / ١٩٩٧م ص٢٨ .

خبراء برامج الصورة، في التنقيب في تاريخ المنافس عما يشينه، وفي المقابل رسم صورة مرشحهم على أكمل وجه.. لكن الحرية في الاختيار في النهاية لا تقررها صناديق الانتخاب وحدها.. بل تتقرر عن طريق دفاتر الشيكات التي تصدرها وتذيّلها بتوقيعها جماعات المصالح القوية، أو جماعات الضغط، واللوبي الصهيوني على رأسها، وبالطبع فإن مصالح اليهود المتمثلة في الشركات متعددة الجنسية التي تهيمن على الصناعات العملاقة ذات المصالح المتشعبة في كل أنحاء العالم، هي الفيصل الأخير، قياسًا بمن سيأتي؛ ليرعى مصالحها أولا قبل مصالح الناس أو الناخبين، ولعل ذلك ما حدا بالرئيسين جيمي كارتر وجيرالد فورد إلى كتابة مقال ذيَّلاه بتوقيعهما معًا، ونشرته صحيفة "واشنطن بوست"[1] منتقدين فيه أسلوب الضغط الذي يُمارس على صانعي القرار الأمريكي، خاصة في السياسة الخارجية، واصفين هذه الظاهرة بأنها من أكثر وسائل الإفساد في الانتخابات، وطالبا بتجريمها تمامًا؛ حتى تعود ثقة الناخبين في السياسة العامة.

ونعود لنعرف كيف تصرف بيل كلينتون؛ لتحسين صورته بعد أن ثبت أنه كاذب، فنجد أنه قد قام بزيارة للرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، الذي اتفق الذين أرَّخوا لسمات فترة حكمه، على أنه ظل متمسكًا بقاعدة أخلاقية، تقوم على أن قول الحقيقة هو أول التزامات الرئيس الأمريكي، والمغزى هو تكريم كارتر ومنحه نيشان الحرية - وهو أعلى نيشان مدني أمريكي، وقد فسر المقربون من كلينتون هذه الزيارة، " بأنها نوع من التكفير عن خطيئة الكذب، والحنث باليمين التي اتهم بها"[2]، وذلك مع عدم الكف عن إظهار كلينتون لتقديره

(١) موقع الواشنطن بوست على شبكة الإنترنت - الأحد ١٥ / ١٠ / ١٩٩٧م.
(٢) إبراهيم نافع - عمود " حقائق " - الأهرام - ٢٩ / ٨ / ١٩٩٩م - ص ٣٢.

لكارتر: بوصفه الرئيس الذي حاول ألا يفصل بين السياسة والقيم الأخلاقية، ويدخل هذا أيضًا في أساليب تحسين الصورة، وألاعيب صُنّاعها، المبنية على استغلال ما يُقدِّسه الشعب من قيم إنسانية سامية.

وعلى نفس المنوال نجد أن عدم الوفاء بالوعد أو الحنث بالوعد - كنوع من أنواع الكذب والمراوغة أو الخداع - أمر غير مقبول من الساسة والرؤساء في بريطانيا أيضًا، ويستوجب الاعتراض على ممارسته، كما حدث إبان التحالف الأنجلو - أمريكي لضرب العراق حينما استقالت وزيرة التنمية البريطانية كلير شورت من منصبها بسبب ما وصفته بحنث رئيس الوزراء توني بلير لوعوده السابقة لها بشأن اعتزامه إعطاء دور أكبر للأمم المتحدة في إدارة شئون العراق بعد انتهاء الحرب، وأعلنت صراحة أنها لا تستطيع الاستمرار في حكومة بلير لهذا السبب، كما اتهمت في خطاب الاستقالة وزير الخارجية جاك سترو بإجراء مفاوضات سرية تهدف إلى إبعاد المنظمة الدولية عن القيام بدور رئيسي في العراق، وهو عكس ما وعدها به بلير؛ بوصفها من المعارضين للحرب ضد العراق، وهددت بالاستقالة اعتراضًا على هذه الحرب.

وقد ظل كذب الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير على شعبيهما، بشأن وجود أسلحة دمار شامل في العراق كذريعة لضربه، هاجسًا يؤرق كلا الشعبين حتى بعد انتهاء الحرب بفترة طويلة، وتعرض كلا الرئيسين للنقد لمجرد الشك في أنهما كذبا؛ لأن ذلك يدخل في إطار عملية خداع للشعب، ويُعلق على ذلك الدكتور مصطفى محمود قائلا : "إن عملية تضليل الشعب الأمريكي عمدًا بترويج أكذوبة شراء العراق اليورانيوم من دولة أفريقية جاءت لتكون القاصمة التي قصمت ظهر بوش وحكومته..

وكل شيء كان يُغتفر لرئيس أمريكي إلا الكذب.. وقد غفر الشعب الأمريكي لكلينتون كل مهازله الجنسية مع مونيكا؛ لأنه لم يكذب، واعترف بكل ما جرى بصراحة.. فالكذب في العرف الأمريكي هو نهاية التعاقد بين الرئيس وشعبه.. ومما أسعف بوش في أكذوبة اليورانيوم أنها كانت شبهة كاذبة، هو الذي راح ضحيتها، وخبرًا ملفقًا من أطراف أخرى، ودولة النيجر والمخابرات الأمريكية هي التي كانت تحمل الجانب الكبير من الوزر، والكذبة هذه المرة كانت لها عدة مخارج[1].

فهل يرضى الشعب الأمريكي الذي يحب الصدق ويكره الكذب، ولا يعتبره بحال أسلوبًا من أساليب السياسة.. حتى لو كان من يكذب هو رئيسه المنتخب، هل يرضى بانتخابه مرة أخرى؟ هذا ما ستسفر عنه الأيام!.. لكني أكاد أجزم أن كذب بوش سيكون قاتله في انتخابات عام ٢٠٠٤، إلى جانب زجه بجيشه في حرب لا مبرر فعليًا لها.. سوى ما روَّج من أسباب ملفقة وكاذبة عن قدرات العراق النووية المستجلبة من النيجر، وذلك في خطابه في يناير ٢٠٠٣م، كذلك سيلحق به شريكه في الحرب والكذب توني بلير الذي كذب أيضًا على شعبه في عدة خطب مدعيًا أن العراق قادر على استخدام أسلحة الدمار الشامل خلال ٤٥ دقيقة فقط، مما يهدد أمن وسلامة الولايات المتحدة وبريطانيا، والعالم الحر.

وتكمن خطورة هذا الكذب في أنه كان أساسًا لاتخاذ قرار خطير، هو الدخول في حرب، الأمر الذي اضطرهما معًا - بوش وبلير - إلى التغطية على هذه الكذبة الكبرى بسلسلة من الأكاذيب الأخرى، مما دعا أصواتًا كثيرة في الكونجرس الأمريكي، ما بين جمهوريين وديمقراطيين إلى مطالبة بوش بقول الحقيقة، والاعتراف بالخطأ في

(١) د. مصطفى محمود - مقال بعنوان: "الورطة" - الأهرام في ٢ / ٨ / ٢٠٠٣ - ص ١٢.

شن الحرب على العراق، وبأنه فشل في خطوات كثيرة تتعلق بهذه الحرب، والأهم في نظرهم أنه " فشل في المحافظة أمام العالم على القيم الأخلاقية والإنسانية التي أرساها الآباء المؤسسون للولايات المتحدة؛ ولذلك فإن هذه الأصوات دعت الرئيس بوش إلى أن يعترف بالحقيقة المرة، وهي أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتحمل الاستنزاف الدموي، الذي تعانيه قواتها المحتلة في العراق (٢٥ عملية يوميًا) وفوق ذلك لا تستطيع أن تصبر أكثر على ما لحق بصورتها في العالم من تشويه وأذى، بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، إذ استطاعت إدارة بوش أن تصور للأمريكيين أن الانتقاص من هيبة الرئيس وإدارته يمنح الإرهابيين انتصارًا مجانيًا على طبق من فضة، واستطاعت أن تصور لهم أن الدفاع عن الوطن الأمريكي يمر بالضرورة عبر الدفاع عن الرئيس وإدارته، وبالتالي أصبح أي انتقاد له يعتبر بمثابة فعل خيانة"[1]، ومن الغريب أن إدارة بوش قد تبنت منطقًا عربيًا في هذا الصدد، إذ طالما حاولت المؤسسات الحاكمة في الوطن العربي - وفي مصر تحديدًا - إيهام الشعب بأن المساس برئيس الدولة، وتشويه صورته يسيء إلى الأمة كلها، ويسقط هيبتها.. لكنها أمريكا التي تتبنى كل منطق يمكن أن يفيد في تحقيق المصلحة.. حتى لو تناقض مع ما تدَّعيه من ديمقراطية وحرية!!

هذا ويرى السمَّاك ظهور وطنية أمريكية تعكس قلقًا صادقًا على سمعة الولايات المتحدة، وعلى مكانتها في ضمير الإنسانية، كما تعكس حرصًا على إنقاذ هذه السمعة، وعلى هذه المكانة مما آلت إليه، كما يعود بنا ليذكّر بأهمية الصدق، كسمة أساسية في الرئيس قائلا: "لقد أدان الرأي العام الأمريكي الرئيس السابق بيل كلينتون.. ليس لأنه مارس الجنس مع موظفة في البيت الأبيض.. ولكن لأنه أنكر أنه

(١) محمد السماك -زاوية كل أربعاء - الأهرام -في ١٦ / ٧ / ٢٠٠٢ - ص ٩.

ارتكب هذا العمل ثم ثبت العكس؛ لذلك فإنه من الطبيعي أن يدين الرأي العام الأمريكي الرئيس الحالي جورج بوش.. ليس لأنه أسقط صدام حسين ونظامه.. ولكن لأنه كذب على الشعب الأمريكي عندما قدم تبريرات غير صحيحة لشن الحرب، فالأمريكيون شعب طيب يحب الصدق؛ ولذلك فإنهم يرذلون الكاذب، حتى ولو كان رئيسًا"[1].

ويرى بعض الكتّاب الصحفيين ومن بينهم الكاتب الأمريكي بول كروجمان[2] أن الرئيس بوش لم يتوقف عن الكذب أبدًا، إذ اتهمه في كتاب صدر له مؤخرًا، بأنه لم يتوقف عن الكذب منذ بدء حملته الانتخابية، وأكد " أن التاريخ لم يشهد رئيسًا دائم الكذب مثل الرئيس الأمريكي جورج بوش، إذ كذب خلال حملته الانتخابية في عام ٢٠٠٠، كما كذب أيضًا بمجرد توليه الرئاسة، فالتاريخ الأمريكي لم يشهد رئيسًا يكذب إلى الدرجة التي وصل إليها بوش، بدءًا بقضية الضرائب، وحتى الحرب على العراق ".

وإذا عدنا بالزمان قليلا فسنجد أن الشعب الأمريكي لا يحتمل طويلا الرئيس الكذاب، وتأكيدًا لذلك نعود بالذاكرة إلى ما كان من مآل الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون بسبب الكذب، إذ أعلن في أمريكا آنذاك أنه لا شيء يبيع كالصراحة، بعد أن تم القبض على خمسة أشخاص كشفوا أوراق نيكسون، وأجبر مساعد الرئيس على الاستقالة بسبب الكذب، وكتبت الصحف صراحة أن الرئيس نيكسون كان كاذبًا لعينًا، وأشير في الحديث عن حياته أنه كان طفلا كذابًا منذ طفولته، وكان يدخن ولدي عائلته محل بقالة، وكان والده مفلسًا ومات وهو مفلس، وكان أصله المتواضع يُشعره بالدونية تجاه كنيدي.. لكن كانت لديه جرأة فعاد إلى كاليفورنيا عام ١٩٦٢، وخسر معركة

---

(١) محمد السماك - المرجع السابق نفسه.

كاتب عمود في صحيفة نيويورك تايمز. و مؤلف كتاب " حل اللغز الكبير "الصادر في سبتمبر ٢٠٠٣.

الرئاسة أمام كنيدي، وصار عنيفًا بعد أن خسر، الأمر الذي جعل زوجته تطلب منه الطلاق، وظل نيكسون الطفل الكاذب هو الرئيس الكاذب، الذي ترك موقعه كرئيس.. دون أن يكمل فترة رئاسته بسبب فضيحة ووتر جيت التي مورست فيها كل صنوف الكذب والتدليس، لكن الأمريكيين صبروا طويلا على بوش الابن.. وتقلصت كل الآمال العربية والعالمية في أن يقال دون أن يكمل فترة رئاسته، فهل يفوز مرة أخرى بفترة رئاسة جديدة.. رغم ممارسته للكذب كما يمارس التنفس؟! هذا هو الرهان على قيمة الصدق كسمة في صورة الرئيس.

الرأفة والعطف:

تعد الرأفة أو الرفق بالحيوان والعطف عليه أحد أهم الملامح، التي يحرص المخططون لصناعة صورة الرؤساء على تأكيدها: كقيمة أو سمة أساسية في شخصيتهم، إذ إنها من القيم الغربية الراسخة لديهم؛ ذلك أن اقتناء الحيوانات الأليفة له آثاره السياسية، ومصداق ذلك ما نشرته مجلة " النيوز ويك"[1] الأمريكية، عن الإحصائيات التي أجريت في الولايات المتحدة، والتي أظهرت أن ٣ من بين كل ٥ أمريكيين يملكون حيوانًا أليفًا في المنزل؛ لذلك حرص عدد من الرؤساء الأمريكيين على اقتناء حيوان أليف في البيت الأبيض (كلاب أو قطط على وجه الخصوص)؛ سعيًا وراء زيادة شعبيتهم، وجمع قدر أكبر من التأييد الشعبي لسياساتهم، فكان الرئيس " تيودور روزفلت "يمتلك دبًا، وخنزيرًا، وثعبانًا، ودجاجة وحيدة الساق، كما حرص "بوب دول" - أثناء حملته لانتخابات الرئاسة - على تخصيص مكان على الإنترنت: لكلب تقتنيه زوجته، اسمه "Leader" أي الزعيم أو القائد، ورفع شعارًا يقول: "ضعوا قائدًا في البيت الأبيض ".. حتى لا يفقد

(١) في ٢٩ / ١٢ / ١٩٩٧.

أصوات الناخبين: نتيجة شعبية " سوكس قط كلينتون الأليف: لذلك فسر البعض اقتناء كلينتون لكلب جديد: على أنه تحرُّك استراتيجي ذكي، حيث جمع بين تأييد هواة اقتناء القطط والكلاب في ذات الوقت، وقد استغل رسامو الكاريكاتير صورة نشرتها الصحف لكلينتون مع كلبه الجديد، إبان أزمته مع مونيكا، وكثرة عدد الشهود من المحيطين به، لتصوير كلينتون مع كلبه، وهو يقول: "جميل.. هذا هو الصديق الذي لا يستطيع أن يشهد "، وذلك تلميحًا لمشاكله القضائية.

وقد لجأ الرئيس المصري السابق أنور السادات.. رغم اللقب الذي أطلقه على نفسه: " الرئيس المؤمن " لجأ إلى الاستعانة بخبراء لرسم صورته من الأمريكيين، فنصحوه بمجموعة من النصائح، من بينها أن يربي كلبًا في بيته، وأن يظهر في صور صحفية وهو يداعبه ويحنو عليه، غير مدركين أن التراث التقليدي والديني الإسلامي يعتبر الكلب من الحيوانات النجسة، التي يجب ألا تربى داخل المنازل، وأنها تُقتنى فقط من أجل الحراسة، كما أن الطبقة الاجتماعية التي تشتهر بتربية الكلاب يُنظر لها نظرة غير محببة، بالنسبة للشعب المصري: بوصفها فئة Snob[1]، الأمر الذي أساء إلى صورة الرئيس السادات أكثر مما قربه إلى شعبه، فخبراء الصورة يجب أن يكونوا لصيقين بالمجتمع الذي يرسمون لرئيسه صورة مرغوبة.

وبالإضافة إلى الرأفة والرفق بالحيوان، يأتي التبسط والحنو على الأطفال في نفس المنزلة؛ إذ إن ذلك الحنو والتعاطف يمنح صاحب الصورة شعبية لدى الجماهير، ويُعد ملمحًا أو سمة لا بد من توافرها في الصورة المرغوبة للرؤساء في الغرب، ولعل ذلك ما جعل ولي عهد

---

(١) فئة مستفزة من المجتمع لتعاليها و تكبرها على من تتصور انهم أدنى منها، و لتشبهها بالغرب أكثر من اقترابها من طبيعة الشعب المصري المتواضع و البسيط بطبعه.

بريطانيا الأمير تشارلز - في إطار سعيه الدائم: لتغيير صورته أمام الجماهير البريطانية، واكتساب التعاطف الشعبي - يقوم بجولات مع ابنيه الأميرين " وليام " و" هاري " إلى أماكن جماهيرية كملاعب الكرة، والحفلات الترفيهية؛ ليثبت للجميع أنه قريب من ولديه، وتُنشر صور صحفية له وهو يضحك مع أبنائه.. أو وهو يتلقى ضربة ضاحكة من دمية كبيرة لحيوان أسطوري، تشارك في عروض فرقة الدكتور "دو ليتل" الموسيقية، ويصاحب هذه الصور تساؤل ساخر يقول على لسان تشارلز: "هل هناك أناس حقيقيون داخل الدمية؟ لقد كانوا يقولون عني: إنه يُكلّم النباتات.. والآن سيقولون إنه يخاطب الدمى!"[1].

ومن الغريب حقًا أن هذه الحملات لا تقتصر على وسائل الإعلام البريطانية فحسب.. بل إن وكالات الأنباء تُطيّر مثل هذه الأخبار والتعليقات والصور إلى كل أنحاء العالم، بما في ذلك العالم العربي، وتنشرها الصحف هنا دون تدقيق في الهدف من نشرها، أو إدراك لكونها صورًا مصنوعة من أجل تحسين صورة ولي العهد البريطاني.. لا بل ويخرج الأمير عن إطار النشاط المحلي هناك؛ ليحضر إلى المنطقة العربية، وتروّج صحفنا العربية لملامح صورته، وكأنها قد قبضت ثمن هذه الدعاية المجانية، وكنموذج لذلك ما نشرته الأهرام في مكان بارز من صفحتها الأخيرة - وهي صفحة لها قراؤها، وأهميتها صحفيًا - إذ نشرت صورة للأمير "تشارلز وهو يداعب الأطفال المرضى"، كما يقول كلام الصورة، وتحتها خبر على عمودين يقول: " في إطار جولاته الإنسانية التي يقوم بها في العديد من بلدان العالم، زار الأمير تشارلز، أمير ويلز مركز الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة في مدينة مسقط بسلطنة عمان، حيث يحرص بشكل دائم على دعم المشروعات الخيرية، التي ترعى الأطفال ذوي الاحتياجات

---

(١) الجمهورية - ملحق نهاية الأسبوع - الخميس ٣٠ / ٧ / ١٩٩٨ - ص ٧.

الخاصة"[1]، وذلك دون أن تشير الصحيفة العربية الكبرى لمغزى نشر مثل هذا الخبر، الذي لا يهم أحدًا من الشعب المصري!! وهل نشر مدفوع الأجر كدعاية للأمير (Press Release) مثلا؟! أم على سبيل التبادل الإعلامي؟! بمعنى أن تنشر كبرى الصحف البريطانية خبرًا مماثلا، يتعلق بأحد أفراد أسرة الرئيس المصري كأضعف الإيمان، أم هي دعاية مجانية تقوم بها صحيفة عربية للترويج لصورة ولي العهد البريطاني والدعاية له؛ باعتبار أن مصر كانت ضمن مستعمرات التاج البريطاني؟! إنه أمر مستغرب حقًا!! ونجد له نماذج كثيرة في الصحف المصرية والعربية.

هذا ولعل هذه السمة أو الملمح الإنساني ليس قاصرًا فقط على الغرب.. بل إن الحنو والتعاطف مع الأطفال والبسطاء من الناس، كمظهر من مظاهر التواضع والرحمة، قد روعي أيضًا في رسم صور معظم الرؤساء والملوك العرب.. حتى قبل أن تُطرح هذه السمة كقيمة غربية مهمة في رسم صورة الرؤساء، إذ يوجد حرص دائم على نشر صور القيادات العربية، وهم يربتون على ظهر إنسان بسيط، أو يقبِّلون طفلا أو مريضًا أو مصابًا، باعتبار أن الرحمة من السمات المحببة لدى العرب أيضًا، يحترمون من يتصف بها، ويعتبرونها نوعًا من التواضع والبساطة، أو التبسط، الذي من شأنه أن يُقرِّب الرئيس إلى قلوب شعبه، كما تعتبر الرحمة من التعاليم الدينية الإسلامية والمسيحية؛ باعتبار أن المنطقة العربية مهبط الديانات السماوية الثلاث، وسيتضح ذلك جليًا حينما نتناول صور الرؤساء العرب - خاصة في مصر - بالتفصيل، وكيف كان يتم تقديمهم للشعب بشكل يلقى صدى طيبًا، بوصفهم من الرحماء بالأطفال والمستضعفين بوجه عام.

---

(۱) الأهرام - ۹ / ۱۱ / ۲۰۰۳ - الصفحة الأخيرة.

التديُّن:

لم يكن التديُّن.. أو حتى التظاهر بالتديُّن يُعد من السمات الأساسية، التي لا بد من توافرها في الرؤساء المحدثين في الغرب - وتحديدًا في أمريكا - لا بل ولم يكن خبراء الصورة يركزون على تأكيد هذه السمة في برامجهم، كما أنهم لا يُروِّجون لسمات ترتبط بقيم مثل: الصدق، والرأفة أو الرحمة من منطلق ديني.. بل كان حرصهم على تأكيدها من منطلق أنها سمات إنسانية محببة، يمكن أن تحقق الصورة الذهنية المرغوبة لأي مرشح بغض النظر عن كونه مُتدينًا من عدمه، فالدين في الغرب ظل لعقود أشبه بالموروثات الشعبية الفولكلورية، وأماكن العبادة هناك أشبه بالمزارات السياحية، وما كان إعلاؤهم لقيمتي الصدق والرحمة إلا كمُثل وقيم اجتماعية مطلقة، كالخير، والجمال، والحق.. لا بل إنهم ينظرون إلينا في الشرق - والشرق العربي والعربي المسلم بالذات - بوصفنا أناسًا "خرافيين": أي أن تفكيرنا يميل إلى تصديق الغيبيات، والإيمان بها، وإعلاء قيمتها، والدليل على ذلك التفكير الديني، الذي يعتبرونه من أبرز عيوبنا نحن العرب؛ ولذلك يصفوننا بالعنصرية، والتطرف، والإرهاب، ويربطون بين هذا المنحى في التفكير الديني والعقل العربي وبين باقي منظومة السمات التي يرسمونها لنا، في صورتهم الذهنية عنا.. أما هم فلم يعُد التديُّن - منذ فصلوا بين الدين والدولة - معيارًا لاعتبار شخص ما إنسانًا جيدًا أو سيئًا، مواطنًا صالحًا أو طالحًا، وبالتالي لم يكن التديُّن مُسوِّغًا لاختيار مرشح، أو تفضيله على سواه من المرشحين للرئاسة في الدول الغربية حتى فترة وجيزة مضت.

هذا وقد كان معنى التدين لديهم قاصرًا على كون الإنسان يؤمن بوجود الله من عدمه! ولا يعني أية مواظبة على ممارسة طقوس العبادة، أو الإيمان بكل ما تأتي به الكتب السماوية، وما يدعو له

الأنبياء، لكن الكاتب عادل حمودة يشير في مقال له بعنوان " حزب الله الأمريكي "، إلى إحصائية تقول بأن " ٩٥٪ من الأمريكيين يعتقدون في وجود الله، وبين كل خمسة أفراد أربعة يعتقدون في المعجزات، وفي وجود حياة بعد الموت، ونحو ٨٢٪ منهم يعتبرون أنفسهم متدينين.. مقابل ٥٥٪ في فرنسا.. أما من يذهبون إلى الكنيسة أسبوعيًا في أمريكا فنسبتهم ٤٤٪، مقابل ١٨٪ في ألمانيا، و١٤٪ في بريطانيا، و١٠٪ في فرنسا"[1]، وهذه الأرقام لها وزنها ولا شك في تقدير مدى تديُّن الغربيين.. ليس بالمفهوم العربي.. ولكن وفقًا لمفهومهم في التديُّن الذي يؤثر في حياتهم وفي اختياراتهم.. وهو ما يهمنا.

هذا ونستطيع القول بأن التديُّن قد بدأ اعتباره قيمة أساسية، يُحسب لها ألف حساب في الانتخابات الرئاسية في أمريكا بالذات، خاصة مع تنامي المد الديني بوجه عام في كل العالم، وبين أصحاب شتى الديانات.. ومع ذلك نجد محاولات غربية كثيرة -و أمريكية على وجه الخصوص - تسعى للتهويل في تصوير خطر المد الإسلامي بالذات، ووصفه بالتطرف.. رغم وجود متطرفين بالملايين من شتى الملل والنِحَل.

ولعل مرد ذلك إلى تنامي التيارات الدينية اليهودية في أمريكا، ومحاولتها الربط بين اليهودية والمسيحية.. بل والقول بأن المسيحية هي اليهودية المتطورة، وأن المسيح والمسيحيين هم في الأصل يهود، وقد نجح هذا التيار في اختراق وجدان الأمريكيين، وهو بالمناسبة له جذور قديمة جدًا، ترجع إلى ما قبل اكتشاف كروستوفر كولومبس لأمريكا[2].

---

(١) الأهرام - مقال " صباح السبت " - ٣ / ١١ / ٢٠٠١ - ص ١٢.

(٢) رضا هلال - المسيح اليهودي ونهاية العالم - كتاب يتتبع نشأة هذا التيار و يؤرخ له بالتفصيل.

هذا وقد نجح هذا التيار في خلق انحياز ثقافي ولاهوتي لإسرائيل، ودعَّم دور اللوبي الصهيوني المؤثر في انتخابات الرئاسة، الأمر الذي قوَّى وأظهر تديُّن الأمريكيين على سطح الحياة العامة والسياسية، بما يوحي بأن الشعب الأمريكي قد بات شعبًا متدينًا في غالبيته.. بعكس ما كنا نعتقده من أن أمريكا دولة علمانية كما ينص على ذلك دستورها، لكن حركة الإحياء الديني في الولايات المتحدة قد تنامت، في الربع الأخير من القرن الماضي، إذ بدأ منذ عام ١٩٧٦ صعود المسيحية السياسية والأصولية، فيما يُسمى باليمين المسيحي، وذلك في عهد الرئيس جيمي كارتر.

وقد " توالى صعود اليمين المسيحي في الثمانينيات والتسعينيات، حتى أصبح قوة تصويتية مؤثرة في انتخابات الرئاسة والكونجرس، إذ أصبح يستحوذ على ربع عدد الأصوات على الأقل.. أي نحو ١٠ أضعاف الأصوات اليهودية"(١)، الأمر الذي بات لا بد وأن يحسب حسابه صُنَّاع صورة الرئيس.. بل وبدأ الرؤساء أنفسهم يحرصون على إبراز تدينهم، والإعلان عنه وتأكيده، فقال كارتر: " أنا مسيحي أعيد تنصيره أو أعيد تعميده "، كما حرص بوش الابن في حملة الترشيحات الأولية للحزب الجمهوري عام ١٩٩٩ على القول: " إن يسوع المسيح هو الفيلسوف السياسي المفضل لي "، وكان لليمين المسيحي بالفعل دور في فوزه بالرئاسة؛ ولذلك أعلن تبنِّيه لبرنامج اليمين المسيحي، وهو برنامج يلغي مبدأ الفصل بين الدولة والكنيسة.. ناهيك عما دأب على إعلانه من مظاهر تديُّنه تحسينًا لصورته، وتأكيدًا لتوبته؛ إذ كان معروفًا عنه أنه سكير مدمن، وراح يُعلن بعد أحداث ١١ سبتمبر أمام الكونجرس أنه: " باسم الله سيقود الأمة الأمريكية القلقة في حرب حاسمة ضد الإرهاب "، ناهيك عن الكثير

---

(١) عادل حمودة - المصدر السابق نفسه.

من التصريحات الصحفية والتليفزيونية التي تعكس سمة التديُّن بالذات، إلى جانب الطقوس والصلوات، التي يعلن عنها كسبًا لجمهور المتديِّنين.

هذا ولم يكن بوش الابن هو أول من تنبه إلى أهمية الربط بين الدين والسياسة في العصر الحديث، فقد سبقه إلى ذلك الرئيس رونالد ريجان الذي كان "الأكثر شهرة في استخدام عظات المسيحية في الخطب السياسية فقد أصر ريجان - على سبيل المثال - على أن يودع سنواته الطويلة في البيت الأبيض بخطاب تحدث فيه عن مدينة مضيئة باركها الله.. كانت منيعة وفخورة، وهي كلمات مقتبسة من عظة السيد المسيح الكبرى المعروفة في إنجيل متى بجملة " مدينة على جبل " وفي هذه العظة يقول المخلص: " أنتم نور العالم لا تخفى مدينة موضوعة على جبل ولا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال، بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت"[(١)].

واستكمالا لاستخدام الدين والتدين في لعبة السياسة يجيب الرئيس دبليو بوش الابن عن سؤال مؤداه: " هل تلجأ إلى جورج بوش (الأب) لتسمع منه النصيحة والمشورة؟.. أجاب باستنكار: إنه ليس هو (الأب) المناسب الذي استنجد به حين يتعلق الأمر بالقوة.. هناك (أب) أعلى أستنجد به"[(٢)]، وعلى هذا المنوال يلعب بوش الابن مستغلا الدين، ذلك أن خبراء الصورة المحيطين به قد رسموا له صورة الرئيس " القديس " منذ البداية، وحرص هو على تأكيدها في كل موقف. رغم أنه على حد تعبير عادل حمودة متهور ويلعب بمصير البيت الأبيض، ومع ذلك يحرص المحيطون به على تسريب مثل هذه المقولات أو الإشارة إلى أنه " يستيقظ مبكرًا ليقرأ تراتيل المبشرين

---

(١) عادل حمودة - صباح السبت - مدينة على جبل! - الأهرام ٨ مايو ٢٠٠٤ - ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق نفسه.

الأوائل.. ولا ينام إلا وعلى صدره الكتاب المقدس أو تفسير له.. وطوال يومه يخلط في تصريحاته بين الحرب والرب، وبين الترنيمة والقيمة، وبين الأسفار والأسعار "

هذا ويشير حمودة إلى بحث كتبه الباحث اللبناني طارق متري عن الدين والسياسة في أمريكا، يؤرخ فيه لبداية هذا الاستخدام للدين بظهور الكتلة "الأخلاقية"، التي أسسها القس جيرى فالويل التي تشبه جماعة التكفير والهجرة في مصر، والتي تحذر من الكارثة التي ستسقط فيها أمريكا لو لم تعد إلى الله، وهو شعار يرفعه بوش لتأكيد سطوة الإنجيليين الجدد كقوة لها تأثيرها في الانتخابات الأمريكية، فهم الذين أتوا به إلى السلطة في مجتمع يباح فيه الإلحاد، ويتم فيه الفصل بين الدين والدولة.

أما بالنسبة لأرنولد شوارزينجر الذي يمهد لنفسه من الآن ليكون حاكمًا للعالم، ليس بمظاهر القرة والشباب وحسب.. ولكن بالسعي أيضًا وراء كسب أصوات المتدينين؛ إذ كانت أولى خطواته في هذا الاتجاه تقديمه مساعدات مادية سخية لكنائس الكاثوليك؛ ليثبت أمام الجميع.. وخاصة الناخبين أنه ليس متحجر القلب كما ظهر في أفلامه الأخيرة، ولم يبدأ هذه التبرعات السخية الآن فقط.. بل إنه بدأها منذ عام ٢٠٠١م؛ بالتبرع بسدس دخله - ويقدًّر بـ ١,٢٦ مليون دولار - للأعمال الخيرية لكنيسة الروم الأورثوذكس، وكذلك بمنزل يُقدَّر بمليوني دولار لنفس الكنيسة بلوس أنجلوس، كما قام فريقه الانتخابي بتسريب معلومات عن الهدايا الكثيرة التي منحها لكنيسة سنتا مونيكا، ومشاركته وعائلته في العديد من نشاطات الكنيسة المحلية؛ وذلك لدعم صورته أمام الناخبين الكاثوليك من ذوي الأصول الأسبانية، الذين يمثلون ربع أصوات الناخبين.

ولا تقف التبرعات على الجانب الذي يعكس التدين فقط.. بل

يتعدى ذلك ليوحي بأنه ذو قلب رحيم وعطوف، وإنساني بوجه عام.. بعيدًا عن أي تعصب ديني أو مذهبي، وأنه يُشارك في أعمال الخير بوجه عام، إذ يُروج لصورته عن طريق النشر عن تبرعاته بالعديد من المساعدات المادية والمعنوية السخية لمنكوبي أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وذلك ردًا على الانتقادات التي وجُهت له من قبل الكنيسة الكاثوليكية، بأنه قام في العام الماضي بالتبرع بـ ٤ , ٢٪ فقط من دخله للأعمال الخيرية.

ويسعى شوارزينيجر كذلك لكسب أصوات الناخبين اليهود أيضًا؛ من خلال دعمه لأحد مراكز الأبحاث الخاصة بضحايا النازية.. ومع ذلك ورغم كل هذه التبرعات السخية، تنتقده الكنيسة الكاثوليكية، وتشكك في تديُّنه؛ لتأييده الدائم والمستمر لقضية حرية الإجهاض[١].

هذا ولعل استخدام الدين وادعاء التدين يعد أمرًا بالغ التعقيد في المجتمعات الغربية عامة والمجتمع الأمريكي على وجه الخصوص؛ نظرًا لأن هذه المجتمعات قد عاشت لعقود تمارس الكثير من الحريات التي أبعدتها كثيرًا عن تعاليم أي دين سماوي، وتفصل بين الدين والدولة، وتبيح العلاقات الجنسية خارج نطاق الأسرة، كما تبيح الإجهاض، والمقامرة والربا والخمر، وشتى الحريات التي تدرج مطالبات بشأنها ضم أولويات الناخبين في أمريكا، ومن غير المعقول أن تنقلب فجأة إلى التخلي عن كل هذه الحريات، وأن تمنح أصواتها الانتخابية لرؤساء يرفضون هذا كله ويعودون بها إلى عصور خلت، أو يقربونها من المجتمعات الإسلامية التي يرون أنها مجتمعات خرافية بشكل أو بآخر.

وبالفعل فإن الرؤساء الأمريكيين ترصد بعض الكتابات دخولهم عالم الغيبيات والخرافات بشكل أو بأخر، قد يفوق أقرانهم في العالم

(١) Sunday Telegraph _ 24/8/2003.

العربي أو الإسلامي، ولعل أشهرهم في هذا الصدد رونالد ريجان الذي يشير المنجم الفرنسي الشهير أندريه ياربو في كتاب له إلى أنه " كان الأكثر جنونًا بالخرافة والأكثر ثقة فيها، وقد ضم ثلاثة من المنجمين إلى طاقم مستشاريه الاستراتيجيين لا يأخذ أي قرار دون الرجوع إليهم .... ولو صدقنا أندريه ياربو فإن بوش الأب لم يقرأ كتابًا واحدًا في حياته طوال مدة رئاسته إلا عن الخرافة التي كان يصفها باللعبة المستحيلة عبر القرون، وكان يصفها أيضًا بالوحش الجميل الذي يخرج لسانه لكل من يفكر في اصطياده"[1].. وبعد كل هذا يقلقون من المد الديني الإسلامي!! ويتهمون المسلمين بأنهم قوم خرافيون! ويرفضون الربط بين الدين والدولة علنًا، ثم يعملون ألف حساب لأصوات الناخبين المتدينين ويجارونهم، ويرسمون صور الرؤساء لتتفق ورغبات هؤلاء المتدينين الجدد!! الأمر الذي يجعلنا نرصد التدين كقيمة بدأت ترسخ في برامج صناعة الرؤساء.

الوسائل والأساليب

لصناعة الصورة - كما سبق القول - قيم تتبنى على أساسها، وبرامج محددة ومرنة في نفس الوقت، وصنَّاع مهرة يستخدمون وسائل بعينها، يعتمدون عليها في الترويج لبضاعتهم أو صناعتهم، أو السلعة التي يُروِّجون لها، وهي المرشحرن للرئاسة؛ من خلال وسائل معينة، وبأساليب خاصة تناسب كل حملة، وتُبنى غالبًا على الاستفادة من الحملات السابقة التي يعكفون على دراستها بدقة متناهية، دراسة علمية تخضع لمناهج وأدوات ومقاييس بحثية غاية في الدقة لمعرفة أوجه النقص، وملامح النجاح وأسبابه في كل حملة سابقة؛ كي

(١) عادل حمودة - صباح السبت - حكام من برج النحس ! - الأهرام ٢٣ - أغسطس ٢٠٠٣م - ص ١٢ .

يترسَّموا هذه الخطى، ويكرروا ما يصلح منها في حملاتهم المتعاقبة، ويتجنبوا الأخطاء التي وقع فيها سابقوهم، وذلك ما يحدث كل أربعة أعوام في أمريكا، وعند انتخاب كل رئيس في باقي دول أوروبا الغربية.. وتحرص أمريكا بالذات على إصدار مثل هذه الدراسات في كتب، تتلقفها الأيدي للاستفادة مما جاء فيها من نتائج.

هذا وقد خلصت معظم هذه الدراسات التي قام بها الأمريكيون؛ لدراسة أفضل الوسائل الإعلامية التي تخدم في صنع صورة الرؤساء، إلى أن أخبار المساء في التليفزيون (Evening news)، من أهم هذه الوسائل، وأكثرها تأثيرًا على الناخبين.. رغم اعترافهم بما للصحافة من دور فريد لا يستطيع التليفزيون أن يحققه.. ألا وهو زيادة حصيلة المعلومات، ومصداق ذلك ما جاء في كتاب عن حملات الدعاية السياسية للمرشحين للرئاسة الأمريكية، من إحصاءات وأرقام تؤكد هذه الحقيقة، إذ قامت هذه الدراسة بعمل مسح عن طريق الاستبيان، أو الاستفتاء بين جمهور الناخبين من بين مشاهدي أخبار المساء في التليفزيون، وقراء الصحف، ومشاهدي برامج التليفزيون، ومستمعي الإذاعة، وقراء المجلات، ومستمعي البرامج السياسية الإذاعية، وقراء الصحف السياسية، والمشاركين بالمحادثة الشخصية، وقد عكست الدراسة مدى الثقة في الوسائل المختلفة ومصادرها.. ولكن بنسب متباينة[1].

هذا ويقول الكتاب نفسه: إنه لا الرجال ولا النساء ولا المتعلمون ولا غير المتعلمين، ولا الفقراء ولا الأغنياء، لا الصغار.. ولا الكبار قد تغيرت كمية معلوماتهم بشدة نتيجة لتعرضهم لأخبار التليفزيون.. في حين أنه بالمقارنة مع قراء الصحف أعلنت كل مجموعات الناخبين: أن معلوماتهم أصبحت أحسن بقراءتهم بصفة دائمة للأبواب السياسية

---

(١) Unseeing eye _ P. 169-173.

في الصحف[1]، ولنضع مائة خط، تحت عبارة بصفة دائمة؛ لأن المداومة على الاطلاع على الأحداث السياسية، يجعل جمهور الناخبين - باختصار - أمام كل هذه الأحداث غير قادرين على الهروب، أو الفكاك من أثر تواتر الأحاديث السياسية سواء في الصحافة.. أو حتى في البرامج السياسية الإذاعية والتليفزيونية.

ولنعد إلى الوضعية المميزة لأخبار التليفزيون؛ لنعرف السبب الكامن وراء اعتبارها في مقدمة الوسائل الناجحة في صناعة الصورة الذهنية للمرشحين للرئاسة، فنجد مرجعًا أمريكيًا آخر يقول عن أهمية تقديم شخصية المرشح للناخبين: " إن الحاجة إلى وسيلة التليفزيون.. ليست السبب الأول للإسراف في الاعتماد عليه لتقديم الشخصية؛ لأنه قبل عصر التليفزيون أيضًا كانت السمات الشخصية للمرشح هي الأوراق الرابحة للسياسي، عندما كان المرشحون يصافحون باليد، ويقبلون الأطفال، ويقدمون السجائر؛ فالغرض كان إقناع المصوتين أو الناخبين أن المرشحين أقوياء، وعطوفون، وكرماء، والتركيز على الجوانب الإنسانية يعتمد على حقيقة أن معظم الناس ميالون، أو نزّاعون لتقدير كون المرشح مقبولا وجذابًا بوجه عام، والحقيقة أنه من خلال التليفزيون يستطيع معظم الناس أن يشعروا بود ويقتربوا من المرشح للرئاسة، يراقبونه عن كثب"[2].

ويسترسل نفس الكتاب شارحًا أن معظم الصور الذهنية للشعب عن المرشح للرئاسة تكون مناسبة أو مقبولة؛ لكونها قريبة أو ذات علاقة بطبيعة المعلومات المقدمة بواسطة الصحف والتليفزيون ".. ومع ذلك قدَّرت دراسة لوسائل الإعلام أنها واحدة من وسائل التنبيه، أو التنشيط الرئيسية؛ لتشكيل الرأي العام عن المرشح للرئاسة، وأن

(١) The same source . p. 54

(٢) Kay Lehman _ Election in America _ P. 116.

التليفزيون هو أهم وسيلة؛ لأنه الأوسع استخدامًا؛ ولأنه يخلق حالات نموذجية أو مثالية؛ لتشكيل الصور عن شخصية ومؤهلات المرشح؛ لأن رؤية المرشحين هامة عندما يريد المرء أن يقيِّم دور التليفزيون في إعلام الناس عن شخصية المرشح، يحتاج المرء أن يعتبر الصورة مثل الكلمة والصوت المقدم، وذلك ما أكدته تقارير الأبحاث"[١].

كما يورد الكتاب رأيًا للرئيس نيكسون، عن أهمية التليفزيون في الانتخابات.. رغم أن نيكسون بالذات لم يكن من المرشحين أو الرؤساء الذين يتمتعون بصورة تليفزيونية جذابة كبيل كلينتون أو جون كنيدي على سبيل المثال، إلا أنه اعتمد في حملته الانتخابية على التليفزيون، وقال نصًا: " يجب أن يكون معلومًا أو معروفًا أن التليفزيون أصبحت له ضرورة، وأصبح الوسيط الذي تحصل من خلاله الغالبية العظمى من المصوتين أو الناخبين على أخبارهم"[٢]؛ ولذلك يقضي أو ينفق معظم المرشحين السياسيين المحدثين وقتًا، ومالا، وجهدًا في حملاتهم الانتخابية، في الظهور على ملايين شاشات التليفزيون الأمريكي؛ فلا شك أن منظمي الحملات يتفقون بشأن تعليق رجل الإعلام جامي وتين، أو مقولته إن: " جهازًا كاملا يُركز ويُصمم أو يؤسس الحملة بنسبة ٩٩,٩٪ من طاقات العاملين توجه تجاه نشرات الأخبار المذاعة مساءً"[٣]، والسبب في تركيز هذه الجهود من السهل فهمه أو إدراكه؛ فالمرشحون يريدون الفرصة لعرض شخصيتهم ومواهبهم أمام مشاهدي التليفزيون بأعدادهم الضخمة، ودائمًا يريدون أن يوضحوا مواقفهم من القضايا الآنية العابرة.. ولكن القصص الخبرية التليفزيونية ليست ممتدة، وأيضًا قصيرة ولا تكفي لشرح القضايا..

---

(١) Elections in America _ P. 117 -118

(٢) Unseeing eye, p. 47.

(٣) Publicans and Press _ 1984 _s uneasy partners. U. S. News .World Report, October 8, 1984, p. 82.

حتى أن التركيز فيها يكون على الأخبار المسائية.. وليس على القضايا.. ولكن للبرهنة على القدرة والاستيعاب الجيد.

هذا وقد ناقش كتاب" الانتخابات في أمريكا "، الذي صدر بعد نجاح الرئيس الأمريكي والممثل السابق رونالد ريجان، أمام منافسه والتر موندال، أسباب هذا النجاح، وهل كانت شخصية ريجان هي السبب؟ أم مهارة صُنّاع الصورة؟ إذ قارن الكتاب بين الصور الطيبة (Kind Pictures)، والكلمة القاسية (Harsh word)، وناقش كيف يقدم التليفزيون المرشح، وعرض ذلك من خلال جدول يقارن بين السمة المرئية أو الحية، وبين المهارة، متسائلا: هل كسب رونالد ريجان، وخسر والتر موندال بسبب سمات الشخصية الجيدة، أو ما أسماه الـ(Good character traits)؟ أو بسبب المهارات الجيدة للحملة Good (campaign skills)؟ أم بسبب المهارات السياسية الجيدة (-Good pol icy skills)؟ كما قارن أيضًا بين السمات السيئة، والمهارات السيئة، والدعاية السيئة[1].

هذا وقد أدرج الكتاب نفسه جدولا يُفرِّق فيه بين الإدارة من خلال التسلسل أو السياق، وتأثير التقارير، وهل كانت هذه التقارير طبيعية.. أم قوية.. أم ضعيفة أم مختلطة؟ وهل كانت بمثابة إضافة جيدة؟ أم إضافة سيئة؟ بالنسبة للمرشحين الأربعة: ريجان، وبوش، وموندال، وفيرارو[2]، وخلص إلى أن الرئيس المرشح في أمريكا يُقيِّم بما لديه من السمات القوية للقيادة، وظهوره في التليفزيون بصورة المنتصر، بمعنى ظهوره بمظهر الواثق، ومن لديه القدرة على الاتصال الجيد، واعتُبرت سمات القيادة في المقدمة أو في القمة، وهي التي منحت ريجان الفوز بأصوات الناخبين.. ولعل اللعب على وتر الظهور

---

(١) P. 127.

(٢) Same source, p. 128.

بمظهر الواثق هو ما جعل بوش الابن يفوز بعد عقدين من الزمان؛ أيضًا بالتركيز على أن نجاحه أمر بديهي ومحتوم.. إذ كان رجال حملته الانتخابية يركزون على هذه السمة؛ من خلال تقديمه بوصفه الرئيس القادم إلى البيت الأبيض، وليس مجرد مرشح لذلك!!

أما عن التغطية التي قدمتها شبكات التليفزيون الأمريكي، في استعراض مؤهلات المرشح للرئاسة عام ١٩٧٢م، فقد دُرست أيضًا في مرجع تناول الحملة الانتخابية، التي كان يخوضها نيكسون وجورج مكجوفيرن، إذ أشار هذا المرجع إلى أنه منذ بدأ التليفزيون يمد المشاهدين بأول نظرة، أو أول تناول للمرشح السياسي، قدمت الشبكات المرشحين للمشاهدين في الفترة بين ١٨ سبتمبر - ٦ نوفمبر ١٩٧٢؛ بنسب تم حسابها بدقة، معتمدًا على مسح شامل يدرس كل القصص الإخبارية المسائية في الشبكات التليفزيونية، كما يلي:

* المرشح بنفسه بنسبة ٧-٩٪.
* المرشح مع عدد قليل من الناس بنسبة ١٢- ١٣٪.
* المرشح يرأس اجتماعات أو... بنسبة ١٩-٢٣٪.
* المرشح يظهر أمام زحام شديد بنسبة ٥٨-٦٠٪ (١)

وهذا يعني أن مثل هذه الدراسات العلمية الدقيقة تقدم تحليلا كميًا، يمكن الاستفادة منه في الحملات اللاحقة؛ كي يتحقق النجاح المأمول للمرشح المرتقب، حيث إن للظهور المنفرد مدلولا معينًا، وللظهور في حشد كبير من الناس مدلولا أكبر، يقتضي من منسقي الحملة الانتخابية التركيز عليه أو الإكثار منه؛ لما يُعطيه من ملامح شعبية، يُفترض ترسيخها في أذهان جمهور الناخبين؛ كي يتحقق الانطباع المطلوب، والموحي بمدى شعبية المرشح للرئاسة.

---

(١) The unseeing eye. p. 30.

هذا بالإضافة إلى أهمية التوقيت الذي يُعرض فيه هذا الظهور للمرشح، وهو أمر مخطط له بدقة وحرص، قياسًا بأهم أوقات العرض، أو بذروة المشاهدة لدى جمهور التليفزيون، وكنموذج لذلك مراعاة تخصيص وقت معين لنشاطات الحملة الانتخابية[1]، تعرض فيه مظاهر الاحتشاد حول الرئيس وجولاته بالسيارة، واستعراض نتائج الاستفتاءات أو الاقتراع، وعرض الاستراتيجيات، والجهد الضخم الذي يبذله رجال المرشح في حملة الدعاية له، وهناك وقت معين يتم فيه تقديم مفاتيح شخصية المرشح ومؤهلاته القيادية، ووقت يخصص لشرح مواقف المرشح من مفاتيح القضايا الانتخابية. فلا شيء يُترك للصدفة والمقادير، كما نفعل نحن في عالمنا العربي حينما نخطط لأي شيء، فتفاجئنا الظروف بما يجعل نتائج تخطيطنا تأتي بعكس المأمول منها تمامًا، وتنقلب الآية على رأس المرشح والمخططين، وربما الناخبين أيضًا.. هذا إذا كان هناك ثمة تخطيط علمي لرسم صور الرؤساء أو المرشحين من الأساس!!

ويقودنا الحديث عن توقيت طرح موقف المرشح من القضايا العامة، التي تهم جمهور الناخبين الأمريكيين، وترتيب أولويات هذه القضايا لدى المرشح، بحيث تتواءم أو تتفق مع ترتيب أجندة هذه الأولويات لدى الجمهور، إلى الحديث عن ماهية هذه القضايا، ومفاتيح المرشح للحديث عنها، وعرض موقفه منها، فنأخذ مثلا على ذلك سياسة نيكسون حيال القضايا، قياسًا بمنافسه ماكجفيرن.. ولكن ليس قبل أن نقول: إن معظم هذه القضايا شبه ثابتة في غالبية الحملات الانتخابية، لأنها أولا وأخيرًا ترتبط بترتيب أولويات المواطن الأمريكي، يزيد عليها بعض القضايا الآنية، المتعلقة بالسياسة الخارجية، وبالظروف العسكرية، التي تعد مستجدات لكل حقبة،

(١) The unseeing eye, p. 41.

فعلى سبيل المثال كان ترتيب أولويات نيكسون كالتالي:

١- حرب فيتنام.

٢- الإنفاق الحكومي.

٣- الإنفاق العسكري.

٤- الفساد السياسي.

٥- الصين.

٦- روسيا.

٧- التعهدات الخارجية.

٨- الضرائب على الدخول المرتفعة.

٩- القانون والأوامر.

١٠- وظائف للمتعطلين.

١١- العفو العام.

١٢- المخدرات.

هذا في حين اقتصرت سياسة الحملة الخاصة بماكجفيرن على نقاط أقل، ويختلف ترتيبها عن منافسه، وهي كالتالي:

١- الإنفاق العسكري.

٢- الانسحاب من فيتنام.

٣- العفو العام.

٤- الفساد أو التعفن السياسي (كمثال الرشوة).

٥- الضرائب على الدخول المرتفعة.

٦- وظائف للمتعطلين[١].

وفي العادة ينجح المرشح، الذي يتفق ترتيب أولويات هذه القضايا الملحّة لديه، مع ترتيبها لدى جماهير الناخبين، والذي ينجح في عرض سياسته حيالها بشكل يرضيهم، ويتفق مع مدى إلحاحها لديهم،

(١) The unseeing eye, p. 50.

واتفاقها مع مصالحهم وأولوياتهم، ويتم في العادة قياس المتوسط بين كل هذه القضايا.. ولا يُعتد بالطبع بكثرة عدد المطروح من القضايا أو قلته.. لأن الناخب الأمريكي الواعي يُفرِّق بذكاء بين ما يمكن تحقيقه، وما يدخل في إطار الوعود الانتخابية، التي يقدمها المرشحون للجماهير، كدعاية انتخابية لن تتحقق.. لا بل ولن يسعى المرشح لتحقيقها من الأساس؛ ربما لأنها تتعارض مع مصالح جماعات الضغط، أو أصحاب المصالح الاقتصادية الضخمة، أو لأن تحقيقها يدخل في ضروب المستحيلات، التي يجب ألا ينزلق المرشح للوعد بها؛ طالما أن تحقيقها ليس في إمكانه، وبالطبع تقاس شعبية الرئيس أو المرشح للرئاسة بمدى تعاطيه مع بعض القضايا، التي تمثل أهمية قصوى لدى المواطن الأمريكي، وتنحصر في: البطالة، والاقتصاد، والسياسة الخارجية.

وهذا بالطبع يختلف أيضًا عما يحدث في العالم العربي.. حتى في انتخابات أعضاء المجالس النيابية -الوحيدين الذين يملك المواطن العربي الاختيار بينهم - رغم أن وعود هؤلاء بالذات، تمس مصالح الناخبين مسًا مباشرًا، يرتبط بحياتهم اليومية، ويجب ألا يُترك لهم العنان لإطلاق الوعود البراقة، التي غالبًا ما تكون كالكلام المرسل.. ليس عليها جُمرك، والتي تتبخر فور فوزهم بالمقعد في المجلس النيابي، الذي لا يمثلون فيه إلا مصالحهم الشخصية، ولا يسعون فيه إلا لتحقيق مكاسبهم الشخصية.. أما الرؤساء في العالم العربي فلا يُنتخبون أصلا من قِبل الجماهير!!.. ولكن يُستفتى المواطن بشأنهم؛ فقط ليقول: " نعم "، وغالبًا ما يقولها - كما يُعلن عن ذلك رسميًا - وبنسبة ٩٩,٩٩٩٩٩٩٪، ولا يقول " لا " في الاستفتاءات إلا بنسبة ٠,٠٠٠٠١٪؛ ذرًا للرماد في العيون، واستكمالا للواجهة الديمقراطية المزعومة!! ولعل هذا الأمر بالذات قد أصبح شبيهًا

بالنكتة، التي يتندّر بها العامة في الشوارع العربية، وتنشرها الصحف في شكل رسوم كاريكاتورية ساخرة، تشير إلى هذه النسبة المئوية ساخرة، وإلى نوعية الوعود المغالى فيها التي يطلقها المرشحون للمجالس النيابية خاصة في مصر إذ يتفكه عليها الشعب بعبارات من نوعية: " يخت، ومنتجع، ومول لكل مواطن! ".

هذا ويحيط خبراء صناعة الصورة في أمريكا المرشحين، بعدد من المؤثرات السمعية، والبصرية (Video & Audio)؛ لتكون مصاحبة لأحاديثهم التليفزيونية والإذاعية، وقد يتصور البعض أنها خلفيات غير مقصودة.. لكنها في حقيقة الأمر جزء من ملامح الحملة يُعتنى بها كجزء من إخراج المشهد، فلكل مشهد في الحملة الدعائية، مُخرجوه ومهندسو ديكورا ته، ومهندسو صوته، وعمال الإكسسوار، والإضاءة ... إلى آخر من تُدرج أسماؤهم على مقدمات (تيترات) وخاتمات الأعمال الدرامية، فمثلا: "وجود فرقة موسيقية خاصة بالمدارس الثانوية تعزف في الخلفية، أثناء حديث المرشح للرئاسة، أو المعلقين على حدث ما، أو تصايح الناس المتزاحمين أثناء سباق سيارات تعطي كلها دفئًا وحميمية"[1]، وكلها متعمدة ومقصودة، ومدروسة بعناية؛ بوصفها عنصرًا مساعدًا في إنجاح المشهد، وجعله مؤثرًا في الجماهير.

هذا وغالبًا ما يعمد مصممو الحملة الانتخابية إلى الاستشهاد ببعض الآراء لصالح المرشح للرئاسة، ويتخيرون أن يحدث ذلك في الأماكن المزدحمة، وأثناء عبور الشوارع المكتظة، ويتعمدون أن يتخيروا من يدلون بآرائهم في جو من المرح والتلقائية باختلاف متعمد أيضًا في الأعمار والمهن، ويركزون على ذلك بشدة، ويبرزون أهم ما جاء في حديثهم كالقول مثلا: " إن الناس حقيقة يقفون خلفه " رجل بريد

(١) Unseeing eye, p. 62-63.

متقاعد عمره ٦٦ عامًا، أو القول: "هو يبدو قادرًا، وأنا أعتقد أنه مقتدر جدًا " ربة بيت عمرها ٤٢ عامًا، أو: " أنه مخلص، وصديق جيد، وسوف يكون رئيسًا جيدًا " مدرس في الحادية والخمسين من عمره، أو: " إنه جيد ورجل شريف، ويمكنكم أن تروا ذلك " سكرتيرة في الخامسة والعشرين"[١]... إلى آخر هذه الأقوال والاستشهادات المؤثرة، التي تعكس ما يشبه الإجماع الشعبي على مؤهلات وشخصية المرشح للرئاسة الأمريكية.

أما عن تأثير الصورة الفوتوغرافية بالذات في جماهير الناخبين، فقد أعد "تشات هنتلي " و" دافيد برنكلي " وبعض العاملين في محطة "إن بي سي نيوز" كتابًا، عن صورة أو بورتريه المرشح في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٦٤[٢]، يتركز فيه الحديث على الصورة الفوتوغرافية، ودور اللقطات في صنع الصورة الذهنية للمرشح من حيث زوايا التصوير، والإضاءة، والحركة، والملامح، واللفتات، وحجم الصورة، والتفاف الجماهير حول المرشح، واستعلاؤه، وحركة يده، والتحامه بالجماهير، أو وجوده وسطهم، وتوقيعاته لهم، وإنصاته إليهم: ذلك أن صورة رجل الشارع مع المرشح.. إذا ما كانت صورًا نادرة تعكس بساطة المرشح، ومدى قربه من الناس، وتظهر بساطة ملابسه؛ ففي أمريكا يعتبر الخروج على المألوف بالنسبة للرؤساء مطلوبًا؛ إذ نجدهم مثلا يرتدون التي شيرت والكابات في المؤتمرات الجماهيرية وسط حشد من المستمعين، والمرشح أو الرئيس في مواجهتهم، كما تُظهر هذه الصور أيضًا دور المرأة في هذه الحملات، خاصة زوجة المرشح كواجهة مكملة ومهمة في أمريكا - كما سبق القول - إلى جانب التركيز على الوجوه الجميلة، والظهور مع النجمات، والربط بين

---

(١) Same source, p. 66.

(٢) Chat Huntley, David Brinki and the staff of N B C news, A candid portrait of the 1964 presidential election, somehow it works .

المرشح والرموز، سواء تمثلت في أعلام الدولة أو آثارها.. كذلك ظهوره في الصور مع مستشاريه، أو القائمين بالحملة، وإظهار مدى إرهاقهم، وتفانيهم من أجله.

كما تُظهر هذه الصور تعاطف الجمهور مع المرشح؛ متمثلا فيما يُطلقون من صفارات أو هتافات، أو ارتداء ملابس تحمل اسمه أو شارته أو صورته، على أن تعكس الصور مرح الناخبين، الذي يؤكد ثقتهم في مرشحهم، كما يتم رصد حركات الأيدي أثناء المناظرات كشريط سينمائي فوتوغرافي؛ يوضح انفعالات المرشح وحماسه، وحماس مؤيديه أيضًا.

أما عن الدعاية التي يتم توزيعها ضمن الحملة كالقبعات والكابات والقمصان والبالون الذي يحمل اسم المرشح، وكلها يُحوِّل الحملة إلى مهرجان تجاري أيضًا، ويؤدي دوره في لفت النظر المطلوب إلى ما يمارسه المؤيدون المشاركون في الحملة، ويدخل في إطاره ما تعكسه الصور الفوتوغرافية، من مظاهر لفت الانتباه: كارتداء قبعة عليها سلة فواكه كبيرة مثلا، أو عمل تماثيل للمرشح في المصايف، وتركيز الصور على مد الأيدي إلى المرشح، واندفاع الجماهير نحوه شخصيًا أو نحو سيارته، ومحاولاته لتهدئتهم، ومحاولات الشرطة لتحجيم تدافع الناخبين.. ناهيك عن استخدام الأطفال في الحملة، وصورهم وهم منبهرون به؛ ينظرون إليه مشدوهين، وحتى الرضع وأمهاتهم الذين يشاركون في الحملات، ناهيك عن تصوير تعاون رجال الأمن وحملهم للأطفال وسط تزاحم الناخبين، كما تركز الصور الفوتوغرافية على إظهار أنه حتى المسنين يشاركون في الحملات، وتبدو صورهم مؤثرة جدًا وسط الزحام، ناهيك عن استخدام السود في الصور؛ كمؤيدين يرفعون شعارات التأييد المتفرِّدة، بالإضافة إلى محاولات إثارة التعاطف الإنساني مع المرشح؛ بالتركيز على جرح في

يده مثلا أثناء الحملة.. وتصوير المرشح للرئاسة وهو يهبط من طائرة وكأنه قادم من السماء، وصور الفرق الموسيقية العسكرية، وكأنها تزف المرشح.. في شكل كرنفالي!!

ذلك عن الوسائل التي تؤثر في تشكيل الصورة، أما عن الأساليب التي تتبع؛ لتشكيلها أو التأثير فيها، فهي كثيرة أيضًا، نذكر منها: المراوغة، والتبرير، والتهرب، والإسقاط ... إلخ، ومنها أيضًا الأسلوب اللغوي، الذي يعتمد على علم الكلام السياسي، والتلاعب بالكلمات، وأبرز مثال على اللعب بالكلمات، وقول نصف الحقيقة، والنجاح في التهرب من الاتهامات، وتبرير الأخطاء، ما مارسه بيل كلينتون طوال فترة حكمه؛ لتثبيت أو للحفاظ على ملامح صورته التي تم انتخابه على أساسها، إلى أن كانت فضيحة مونيكا لوينيسكي، إذ إن كلينتون قد بدأ أسلوبه في درء كل ما من شأنه تشويه صورته، منذ اتهم رسميًا بإقامة علاقات جنسية مع عدة نساء، وحين اتهم بتناول مخدر الماريجوانا، والأسلوب الذي اتبعه في الدفاع عن نفسه في كل هذه الاتهامات، يُعد أسلوبًا جديرًا بالملاحظة والدراسة؛ كوسيلة أشبه بأساليب الدبلوماسيين، حينما يُغلّفون ما يقولون بعبارات مطاطة.. بل هلامية لا يستطيع أحد الإمساك بهم من خلالها؛ لتحديد موقف، أو معرفة حقيقة، فغالبًا ما يكونون قد قالوا.. ولم يقولوا في نفس الوقت!!

هذا ويُستخدم أسلوب اللعب بالكلمات، في رسم الصورة، وأيضًا في رد التشويه عنها، أو تحسينها؛ ولذلك نجد كلينتون حينما وجِّهت إليه أولى التهم عام ١٩٩٢، خلال حملته في الانتخابات الرئاسية، عن إقامته لعلاقة جنسية استمرت اثني عشر عامًا، مع "جنيفر فلورز"، نجده تهرَّب بالرد في التحقيق حول هذه الفضيحة بأن: " التهمة غير صحيحة ".. ولم يفسر المعنى المقصود بعبارة " غير صحيحة "! هل

المقصود أن العلاقة لم تستمر اثني عشر عامًا.. أم أنه لم يقم هذه العلاقة أصلا؟!

وعندما ادَّعت " بولا جونز " أنه تحرَّش بها جنسيًا، عندما كان حاكمًا لولاية أركنسو، نفى التهمة ليس بمعنى التحرش.. بل بمعنى الممارسة، واختلاف التعريف بين الحالتين، وعندما فُتح ملف مونيكا لوينسكي مارس كلينتون فن التورية واللعب بالكلمات، مما جعل المحقق المستقل "كنيث ستار" يوجه له أسئلة محددة جدًا، جعلت التحقيق يبدو على حد تعبير الكاتب اللبناني محمد السماك " كأنه قصة من قصص اللا أدب الجنسي "، وكان الجدل السياسي يدور في الأساس -منذ بدأ كلينتون ممارسة السلطة عام ١٩٩٢ - " يدور حول كيفية صياغة مواقفه المعلنة: ماذا قال؟ أين فشل في القول؟ أين قال بعض ما كان يجب ألا يقوله؟ أين نفى أقواله؟ وأين أوضح أقوالا سابقة لم يحسن قولها، أو أن الرأي العام أساء فهمه لها؟"[١].

واشتهر كلينتون - كمثال صارخ - بالمراوغة في الكلام، واللعب به، اعتمادًا على التعريفات المختلفة، التي إذا نفى معها شيئًا أمام المحقق يكون غير كاذب، وكمثال لذلك رد قاله كلينتون، يعرفه كل أطفال العالم تقريبًا.. إذ يقسمون على شيء غير الذي يُسألون عنه!! وكمثال لذلك ما قاله عندما كان حاكمًا على ولاية أركنسو، وتم التحقيق معه حول تعاطيه للماريجوانا، فكان جوابه أنه: " لم يخالف أبدًا القانون الأمريكي الذي يحظر تناول هذا المخدر"، ولم يكن كاذبًا فقد تعاطاها خارج الولايات المتحدة، وبالتالي هو لم يخالف القانون الأمريكي!!

ويدلنا ذلك على أن القدرة الكلينتونية على الإجابة عن الأسئلة بشكل غير صحيح.. دون أن يكون كاذبًا هي فن خاص به، يعتمد على

(١) محمد السماك - الأهرام - عمود " كل أربعاء " - بعنوان " ليس دفاعًا عن كلينتون " - ٣٠/ ٩/ ١٩٩٨ - ص ٩.

تقديم أجوبة مقتضبة ومحدودة أو محددة: كاستراتيجية دفاع تعتمد على اللعب بالكلام، بالإضافة إلى أسلوب آخر، وهو تقمُّص شخصية الحمل الوديع، الذي تحاصره الذئاب، إذ وصف نفسه "بأنه مثل بطل قصة آرثر كوستلر ظلام الظهيرة، وهي قصة تروي مأساة إنسان بريء (نيقولا روباشوف) عجز عن الدفاع عن نفسه، أمام تهم ملفقة ومزورة، فحوكم وأدين، ونُفِّذ فيه حكم بالموت.. دون أن يكون قد اقترف أي جُرم"[1] وهكذا تمكن كلينتون بهذا الأسلوب المتميز من التمسكن أو المسكنة، وممارسة فن الكلام الدبلوماسي أن يحافظ على صورته، ويحتفظ بثقة جمهور الناخبين في سلوكه وسياسته، مستخدمًا عبارات الأسف والندم، والاعتراف بالخطأ، التي وظفها بمهارة في عملية استدرار العطف عليه.. بدلا من إدانته.. وهو ذكاء يُحسد عليه، وكهانة تتفق وملامحه الوسيمة المتسمة بالوداعة، التي استخدمت بنجاح في الحفاظ على صورته الطيبة.

هذا ولا يجب أن نتصور أن خبراء الصورة يعتمدون فقط على القيم المظهرية الخارجية، لكنهم أيضًا يدرسون الجوانب المتعلقة بعلاقة الرئيس بالناس بطبقاتهم المختلفة، والمتعلقة بسياسته الاقتصادية، وأثرها على الشعب، وكمثال لما يُقاس به ترتيب الرؤساء في أمريكا، أجرى المؤرخ الأمريكي المعروف "آرثر شليزنجر" دراسة أثارت جدلا حول أعظم الرؤساء الأمريكيين، على مدى تاريخ الولايات المتحدة، وتصنيفهم على مراتب منها: المتوسط، والأقل من المتوسط، والفاشل، ورتب فيها الرؤساء ترتيبًا معينًا، وقام مركز بحثي آخر بإجراء دراسة أخرى لاستطلاع آراء صفوة من المؤرخين، وعلماء السياسة والأكاديميين، وكانت النتائج جد مختلفة، إذ إنهم عكفوا على دراسة الأسباب التي بُنيت على أساسها المفاضلة بين الرؤساء،

(١) المرجع السابق نفسه.

فوجدوا أن تقويم المراتب في المرة الأولى وضع في مقدمة مقاييس العظمة قدرة الرئيس على تحقيق التقدم، من خلال تدخل الحكومة الفيدرالية لرعاية الأقل دخلا، وتحقيق العدالة.. لكن هذه القيم تعتبر تقييمًا لإنجازات الرؤساء، وليست تقييمًا لصورتهم الذهنية، التي يكتسبون على ضوئها شعبيتهم بين الناس.

ولا يكتفي خبراء الصورة بفترة الانتخابات فقط، أو بالتركيز على برامج معينة؛ لتشكيل الصورة وتحسينها في بداية حكم أي رئيس وحسب.. ولكن يظلون يتابعون تقييم الحملات والاستشارات التي ينالها الرئيس طوال فترة حكمه؛ كمؤشر على مدى حرصه على مصالح الأمة الأمريكية، وبالتالي الاحتفاظ بصورته كراع لها، وحريص على مصالح الشعب الذي انتخبه، وكدليل على ذلك يتم قياس دقيق، يسجل في كتب تضم جداول ترصد مقابلات الرئيس الأمريكي (كارتر) في الفترة من ١٩٧٧ - ١٩٨١ رصدت مقابلاته مع مستشاري الأمن القومي والسياسة الخارجية، ومستشاريه الخاصين أو من يسمون Staff advice، وفي نفس الفترة رصدت لقاءاته مع المستشارين الاقتصاديين، أو من يسمون Cabinet level advice، لمناقشة السياسة الخدمية (Domestic Policy)(١)، ويُستخرج من هذه الجداول الدقيقة ما يمثل مؤشرات حول تناقص عدد مقابلات الرئيس مع مستشاريه للأمن القومي والسياسة الخارجية، وكم اجتماعًا تم بشأن الأمن القومي وكم مرة حضره سيروس فانس مستشاره للأمن القومي، ويتم رصد طبيعة هذه اللقاءات.. هل هي رسمية؟ أم شخصية؟ والأكثر من ذلك هو رصد مقابلات السيدة الأولى روزالين كارتر مع الرئيس، أو ظهورهما معًا بشكل رسمي؛ لما لدورها في الرئاسة من أهمية؛ بوصفها مستشارة له في بعض

---

(١) John Orman _ Comparing presidential Behavior _ Schedules on P. 32, 33, 35, & 36.

السياسات[1]، والأهم أنه يتم المقارنة بين تصرفات الرؤساء في هذا الصدد وبدقة؛ كي يُسترشد بها في الفترات الرئاسية اللاحقة، وفي هذا الكتاب كانت المقارنة بين فترتي رئاسة كارتر وريجان.

أما عن التوقيت فله أهميته القصوى، إذ يبدأ التفكير في الحملة الانتخابية، وأساليب رسم صورة الرؤساء، وكسب المؤيدين من الناخبين مبكرًا جدًا، وليس أدل على ذلك من ممارسة هيلاري كلينتون لضبط النفس، إبان أزمتها مع فضيحة زوجها ومونيكا لوينيسكي؛ تمهيدًا لترشيح نفسها لمجلس الشيوخ الأمريكي، وربما لرئاسة أمريكا فيما بعد ذلك كما توقع المحللون أن يكون ذلك عام ٢٠٠٤، أو ٢٠٠٨، الأمر الذي استلزم التفكير بعمق، واستشارة خبراء الصورة الذهنية والعلاقات العامة، والأخذ بنصائحهم التي تنظر إلى بعيد.. بل وإلى بعيد جدًا، أكثر مما يمكن أن نرى نحن في الشرق العربي!

وكمثال آخر على أهمية التبكير في توقيت رسم الصورة، سعى الرئيس بوش الابن فور انتهائه من حرب العراق إلى تحسين صورته، والرد على الاتهامات الموجهه له، ومحاولة غسل يديه من دم العراقيين، والقيام بجولة في الشرق الأوسط، وبعض الدول العربية؛ لإظهار أن كل شيء على ما يرام، وأن الود قائم على خير ما يرام مع القادة العرب؛ كي يستطيع الترويج لمبررات الحرب، ويُقنع الرأي العام الأمريكي أن العرب أنفسهم يشاركونه الاقتناع بها، والأكثر من ذلك إطلاق الوعود بمساعدة أفريقيا بمليارات الدولارات؛ للقضاء على مرض الإيدز، وباقي الأمراض المتوطنة، وتفضله بوصف تجارة الرقيق بأنها: "أبشع جرائم الإنسانية في كل العصور"، كل ذلك كبداية لحملته الانتخابية الجديدة مبكرًا، والتي زار في بدايتها أفريقيا، قبل عام من

(١) Ibid. p. 34.

نهاية رئاسته، إذ وقف على سواحل السنغال فوق "صخرة العبيد" بالذات، التي كان يتم منها تصدير العبيد إلى أمريكا: ليصافح الناس ويعتذر عن تجارة الرقيق، ويعِد بالمليارات من أجل أصوات الأمريكيين السود، المنحدرين من أصول أفريقية.. وإن كنت أشك في أن مثل هذا الأسلوب سيُجدي هذه المرة، في مواجهة ما اتهم به دبليو بوش وبلير من كذب وتضليل وخداع لشعبيهما، وهو سبب وجيه في العُرف الغربي؛ لرفض أي مرشح على مستوى الانتخابات الرئاسية أو التشريعية، لكونه كاذبًا أو مخادعًا، ناهيك عن أنه ليس من السهل تصديق أنه ذلك العطوف الإنساني، بعد ما أعلن عن ممارسة جنوده لشتى ألوان التعذيب للمعتقلين العراقيين.

هذا ونجد أن الأمر نفسه مارسه شوارزينجر وهو يسعى لترشيح نفسه لحكم ولاية كاليفورنيا: تمهيدًا لترشيح نفسه لحكم أمريكا كلها، إذ بدأ مبكرًا جدًا في تشكيل فريق عمل خاص به، يضم العديد من المساعدين المُلمِّين بكل القضايا السياسية والاقتصادية الخاصة بالولاية؛ لإدارة الحملة الانتخابية على أكمل وجه.. إذ ليس من المهم أن يكون المرشح نفسه مُلمًا بكل الأمور.. ولكن المهم أن يكون المحيطون به خير مستشارين له في الحملة الانتخابية، ثم في إدارة أمور الحكم، بعد أن يصبح حاكمًا.. سواء لولاية أو للدولة كلها، وأيًا ما كان الأمر.. سواء رشح شوارزينجر نفسه لرئاسة أمريكا أم لا، فإن الكثير من الصحف قد بدأت ترصد تحركاته لكسب الشعبية.. رغم أنه مهاجر نمساوي، مولود في النمسا، والقانون الأمريكي لا يجيز الترشيح للرئاسة إلا لمن هو أمريكي المولد!

هذا ولا يقتصر الأمر على أمريكا بالذات في استخدام وسائل وأساليب منوعة ومبتكرة؛ لتشكيل صورة المرشحين للرئاسة.. ولكن لكل دولة غربية أساليبها، التي تتفق وثقافتها وتراثها، والتي تختلف

عن غـيــرها من الدول، فــفي فـرنســا التي تعـتــبــر من أعــرق الديمقـراطيـات، تسـتـخـدم مـثـلا عـرائس الماريونيت، التي تحـتل في الفلكلور الفـرنسي مكانة الأراجوز عندنا في الحـملة الرئاسـيـة، بشكل يُعتبر سـلاحًا كان يهدد الرئيس شيـراك في حملته الانتخـابية ضـد منافسه " ليونيل جوسبـان " وبشكل كاد أن يؤثـر في مـجـرى الحـيـاة السيـاسية، وحيَّـر الخبـراء " مما جعلهم يتسـاءلون: هل يمكن أن تؤثر هذه العـرائس الضـاحكة في الرأي العـام لمصلحـة هذا المرشـح أو ذاك؟ وإلى أي حـد يمكن السخرية من رئيس الجمهورية"؟[1]

وقد وردت إشارة تؤرخ لظهور عرائس وأراجـوزات الحـملة الرئاسية الفـرنسيـة بعنوان " سـلاح الكاريكاتيـر الذي يـهـدد شيـراك "، تفـيـد أن السـخـرية من الحكام أو المرشحين للرئـاسـة قـديمـة جـدًا في فـرنسـا، منذ أواخـر عصـر الملك لويس السـادس عشـر، الذي ظهـرت فيه رسـوم كـاريكاتـورية يبـدو فـيـهـا الملك تارة سـكيـرًا، وعلى شـكل خنزيـر تارة أخـرى، مما أدى إلى انتهـاء عـصـر التقديس الإلهـي للملك، وشكَّل هذا الأمر إحدى إرهاصات الثورة الفرنسية.

ويُؤرخ لظهـور عـرائس المـاريونيت بـأوائل الثـمـانينيـات من القــرن الماضي، إذ ظهـرت لأول مـرة في فـرنسـا على شـاشـة التليـفـزيون في برنامج يومي، يسبق أخـبـار المساء، نجح في شـد انتـبـاه الرأي العـام في الحملة الرئاسية لعام ١٩٨٨، وذلك بتصوير " شـخـصية الرئيس الراحل ميتران على شكل ضفـدعة متعجرفة ومـغرورة، وشـديدة الثقة بنفسها، إلى الحـد الذي جعـل الفـرنسـيين يحـبـونها ويتعـاطفـون مـعـهـا، وهـو مـا رأى فيه الخبـراء بعد انتهـاء الانتـخـابات الرئـاسـيـة السـلاح المقبل في انتـخـابات الرئاسـة المقـبلة، وهو مـا حـدث بالفـعل في عـرائس القناة التليفـزيونيـة " كنال بلوس " الشهيرة .... وإذا كـان الرئيس جاك شـيـراك

(١) د. أحمد يوسف - تحقيقات و تقارير خارجية - الأهرام - ١٦ / ٣ / ٢٠٠٢ - ص ٦.

قد كسب انتخابات عام ١٩٩٥ ضد مرشح اليسار ليونيل جوسبان؛ لأن عرائس كنال بلوس كانت تصوره في شكل شخصية تتلقى الطعنات من كل الجهات.. حتى من معسكره السياسي، وأصبحت عروسة جاك شيراك تستجلب عطف الرأي العام فانقلبت الموازين، وبعد أن كان جاك شيراك في حضيض استطلاعات الرأي، إذا به يصعد رويدًا رويدًا، قبل أن يكتسح منافسيه من اليمين واليسار.... وهناك إجماع من خبراء علم الاجتماع في فرنسا، على أن جاك شيراك ربح انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٥م لجملة أسباب منها بالضرورة أن العروسة التي كانت تمثل شخصيته في كنال بلوس شدت الرأي العام إليها، واكتشف الفرنسيون بفضلها الجانب الإنساني الكبير في شخصية رئيسهم الجديد"[١].. ورغم ذلك فقد قلبت عرائس المريونيت لجاك شيراك ظهر المِجَنّ في الانتخابات الأخيرة عام ٢٠٠٢، بشكل هدد شعبيته وكاد أن يفقده أصوات الكثير من الناخبين.. بل وأثرت في هيبته كرئيس لفرنسا، لدرجة أن بعض خبراء علم الاجتماع السياسي ناقشوا فكرة منعها؛ لأن مزاجية معدي هذه البرامج الكوميدية أصبحت تتحكم في توجيه الرأي العام، وبالتالي في مستقبل فرنسا.. ومع ذلك لم تُمنع؛ لأن ذلك من شأنه أن يضر بواجهة فرنسا كدولة ديمقراطية، تقدِّس حرية التعبير والرأي.. حتى ضد رئيسها.. فأين ذلك كله مما يحدث في عالمنا العربي من تقديس وتأليه للرئيس الحاكم، في كل النظم العربية: التقليدية، والتقدمية، والثورية، والجمهورية، والملكية، والسلطانية، والقبلية!! كلها يُعد الرئيس الحاكم فيها ذاتًا مصونة لا تُمس، وبالكاد يمكن انتقاد الوزراء، أو رؤساء الوزارات في أكثرها ادعاءً للحرية والديمقراطية!! ولذلك حديث آخر يطول، سنخصص له الفصل الثاني من هذا الكتاب.

---

(١) د. أحمد يوسف - المصدر السابق نفسه .

و قبل أن نختم الحديث عن ألاعيب وفنون صناع الصورة الذهنية في الغرب، لا بد من القول إن تمكنهم من عملهم، ووضعهم لبرامج غالبًا ما تنجح في التأثير في الناخبين.. لا يتم بالخداع والتضليل، ولا حتى بإتقان استخدام أساليب ووسائل العلاقات العامة المعروفة.. ولكن لاعتمادهم على عدد من العلوم المتصلة بالنفس البشرية وبالاجتماع الإنساني، ومعرفتهم بعادات وتقاليد المجتمعات التي يتوجهون لها ببرامجهم، وإدراكهم لرغبات الناخبين، ومتابعة تطور هذه الرغبات والأهواء، وتبدلها من حقبة لأخرى، وتفهُّم العوامل المؤثرة في ذلك، بالإضافة إلى اعتمادهم على كل جديد ومفيد في البحوث العلمية والأنثروبولوجية، وآخر المستجدات التي يمكن أن تفيدهم في تصميم برامجهم لتشكيل الصورة أو تحسينها، ولنأخذ مثالا على ذلك ما نشرته المجلة الفرنسية " العلم والحياة " ردًا على السؤال المُحيِّر عن سبب عزوف جمهور الناخبين عن المشاركة في اختيار بعض النواب في المجالس التشريعية والتنفيذية.. رغم توافر الوعي في الغرب بأهمية المشاركة؛ نظرًا لأن التليفزيون هناك يلعب دورًا هامًا في تحقيق هذا الوعي؛ بمخاطبة عقل الناخبين، وتخصيص قنوات تنقل المؤتمرات الشعبية التي يعقدها المرشحون، وتعرض برامج على الهواء مباشرة، تناقش فكر ومذهب كل مرشح؛ كي تكون الصورة واضحة تمامًا أمام أعين الناخبين؛ كي يختاروا الأصلح بين المرشحين.. ليس على ضوء ما يقولون فقط.. ولكن بناء على الإيماءات التي ترسمها وجوه رجال السياسة، التي يمكن أن تخبر بالكثير عن شخصياتهم وحقيقة معتقداتهم، ومقدار الصدق والكذب فيما يقولون، أو ما يعِدون به الناخبين.. إذ يتعاون بعض خبراء السلوك في ذلك؛ بما يقدمون من نتائج بحوثهم حتى على الحيوانات، والقرود على وجه الخصوص؛ نظرًا لاقتراب أساليب

التعبير بالوجه بين الشمبانزي والإنسان، بعد أن وضعوا إيماءات وجوه هذه الحيوانات محل دراسة، وأكدوا أن هذا العلم مفيد جدًا عند التنبؤ بنتائج الانتخابات، وقياس مدى إقبال الناخبين على مرشح بعينه.. حتى قبل فرز الأصوات، الأمر الذي استخدِم لقراءة وجه بيل كلينتون وابتسامته؛ للتأكيد على أنه سيفوز بفترة رئاسة ثانية، ذلك أن إيماءات وجه أي سياسي هي المحرك الأساسي لرفض أو قبول الناخبين له.

و قد أثبت " رينيه زايان " أن هذه الإيماءات عند القرود هي نفسها الابتسامة الإغرائية عند الإنسان، ومقدمات الضحك الاجتماعي، والإنسان في حالة الرغبة في أن يرسل رسائل غير عدوانية، في حالات التوتر أو القلق؛ لتهدئة الأجواء، فالأسنان المكشوفة، والحواجب المرفوعة على وجه المرشح للحكم تعني التسامح، والرغبة في إعادة الثقة والسكينة، وبالطبع يمكن لخبراء الصورة استخدام كل النتائج العلمية المتعلقة بمثل هذه الأمور في برامجهم، والاستفادة منها.. على عكس ما هو واقع في عالمنا العربي، الذي توجد فيه فجوة هائلة بين المنظرين والأكاديميين وبحوثهم ونتائجها، وبين متخذي القرار أو المطبقين والمخططين، بحيث لا يستفيد القائمون على تطبيق أي برنامج عملي في مجال الإعلام والعلاقات العامة بنتائج البحوث الأكاديمية.. لا بل وغالبًا ما ينظرون إليها بوصفها كلامًا نظريًا غير قابل للتطبيق!

و يتفق " رينيه زايان " مع " فان هوف " أستاذ علم السلوك بجامعة إيتراخت في " أن الإنسان يتفوق على القرد، في وجود كمية أكبر من العضلات المتحركة في الوجه، مما يجعل تحكمه أكبر وأوسع في إيماءاته، فتكون أكثر تعقيدًا، وهو قادر كذلك على أن يقوم بإيماءات ساكنة غامضة ومحيرة.. وبالطبع هناك أشخاص قليلو التعبير..

وجوههم حيادية في مواجهة أي كبت.. سواء في العمل، أو في العلاقات الاجتماعية، ويستطيع الإنسان أكثر من الحيوان التحكم في تعبيرات وجهه؛ ليقوم بالخداع، والرياء، والتقليد"[1]، وكلها أمور يحسن خبراء رسم الصورة الذهنية في الغرب استغلالها لصالح عملائهم من المرشحين للرئاسة، خاصة في أمريكا، أم العلاقات العامة، ومبتدعتها.

و قد قام باحث أمريكي يدعى روجر ماسترز يعمل أستاذًا للعلوم السياسية بإثبات أن هذه الإيماءات معروفة عالميًا، وأن مشاهدي البرامج السياسية والنشرات الإخبارية، يكتسبون مع الوقت نفس إيماءات السياسيين، كما يحدث بينهم وبين من يحبون التواصل معهم فيقرءون وجوههم، وبنى دراسته على مجموعات من الأمريكيين والفرنسيين وجعلهم يشاهدون فقرات قصيرة مسجلة من حملات انتخابية لزعماء سياسيين عام ١٩٨٤، ومنع الصوت أحيانًا، واكتفى فقط بالصورة واختار الرئيس رونالد ريجان ووالتر مونديال المتنافسين على الرئاسة آنذاك، ومن فرنسا اختار جاك شيراك، ولوران فابيوس، وجون ماري لوبين عام ١٩٨٦، في التنافس على الانتخابات التشريعية، واللافت للنظر إثباته أنه في الحالتين كان الأمريكيون والفرنسيون مع أو ضد المرشح، وتطابقوا جميعًا للنظر في رد الفعل لنفس التأثيرات الانفعالية للمرشحين، كما أثبت أن الصورة هي التي تفرض الرأي على الناخب، وأنه كلما زادت إيماءات المرشح وحركاته، قلت أهمية خطابه، فيؤثر على الجانب العاطفي للمشاهدين، مما يولد لديهم مشاعر الرفض أو القبول.

كما راح يقارن بين الفرنسيين والأمريكيين تفصيلا فيما يتعلق

---

(١) نصف الدنيا - نصيحة لكل مرشح في الانتخابات - موضوع ترجمة أميمة إبراهيم العدد ٥٥٨ - ٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٠ - ص٤٤.

بالتعبير عن السعادة، أو الغضب، أو الخوف، بناء على طبيعة كل شعب، مشيرًا إلى أن الثقافة السياسية في فرنسا مبنية على التمثيل الطبقي للسلطة، وعلى البحث عن نموذج معين للطبقية والسيطرة عند الزعيم؛ ولذلك فإن الفرنسيين عند اختيارهم لزعمائهم فالأولوية تكون للخلفية الثقافية والسياسية للقائد، ومذهبه وأفكاره، وانتمائه لحزب معين، وذلك له الوزن الأهم والأكبر من مجرد قراءة العرض الإيمائي للمرشح، بخلاف الأمريكيين الذين يؤثر فيهم الشكل والإيماءات أكثر من الفكر، والمذهب، والانتماء.

و راح هذا الباحث يقارن أيضًا بين ردود الأفعال بين الناخبين البلجيك والألمان، وفي الشمال والجنوب، فالغرب ليس كما نتصور كله غربيًا.. ولكن لكل شعب خصائصه المميزة له عن غيره من الشعوب؛ ولذلك لا بد وأن يكون خبراء تشكيل صورة الرئيس من نفس البلد، ومدركين تمامًا لما يمكن أن يؤثر على الناخبين بالسلب أو بالإيجاب؛ حتى لا يقعوا فيما وقع فيه الرئيس المصري أنور السادات - كما سبق القول - عندما استعان بخبراء أمريكيين غير متفهمين تمامًا لطبيعة الشعب المصري ورغباته؛ لتشكيل صورة شعبية محببة له، كان الإخفاق حليفها بشكل واضح، كما سيأتي بيان ذلك في حينه.

هذا ولعله من أبرز الملامح المميزة للحملات الانتخابية في أمريكا بالذات - والتي بدأت بعض الدول في محاكاتها - عقد المناظرات، التي نسميها لدينا في العالم العربي المؤتمرات الانتخابية.. مع الفارق في التشبيه بالطبع، ففي أمريكا يُناظر كل مرشح منافسه علنًا، وعلى شاشات التليفزيون، في حين يقتصر الأمر في الدول الأخرى على مؤتمرات خاصة بكل حزب ومرشحيه، أو وسط مؤيدي المرشح؛ ليخطب فيهم، أو يلقى بيانًا يستتبعه بالضرورة تصفيق حاد من مؤيديه، في جمهرة عامة داخل قاعة مغلقة أو في سرادق، أو حتى

استاد رياضي، وأحيانًا يُكتفى بأن يُلقي المرشح هذا البيان على شاشة التليفزيون.. دون أن يناقشه أحد فيما يقول مباشرة، وهذه الطريقة يعمل بها أيضًا في أمريكا.. ولكن كمرحلة في المراحل الأولى، أو التمهيدية للانتخابات، حيث تعقد هذه المؤتمرات في الولايات، قبل أن ترتفع حرارة المنافسة بين المرشحين، وتدخل في دائرة تبادل التشنيعات المسيئة لصورة كل مرشح، من قِبل خصمه؛ ليحسم الأمر غالبًا لصالح المرشح؛ من خلال المناظرات العلنية، وهذا ما حدث بالفعل بعد أن جمع جون كيري المنافس للرئيس بوش الابن الأصوات المطلوبة لتمثيل الديمقراطيين، وراح يتحدى بوش، ويدعوه لعقد مناظرات شهرية معه.. فيما يمكن اعتباره محاولة لإحراجه، واستدراجه للدفاع عن سياساته، وقد جاء هذا المطلب من كيرى بزعم " أن ذلك سيكون بمثابة عودة إلى المسار الصحيح للديمقراطية، وقال كيرى.. إنه يطلب من الرئيس بوش الموافقة على الدخول في سلسلة من المناظرات الشهرية معه، تبدأ في الربيع المقبل للحديث عن القضايا الحقيقية التي تهم الولايات المتحدة"[1]، وهذا التقليد الديمقراطي، أو الذي يبدو ديمقراطيًا إلى أبعد الحدود، غالبًا ما تكون تفاصيله مرسومة بدقة، من قِبل صُنّاع الصورة.. ما لم تفلت خلاله بعض هفوات اللسان، من أحد المرشحين للرئاسة، مما قد يكون لم يُلقن به من قِبل خبراء حملته، أو إذا نجح خصمه في أن يستدرجه للوقوع في خطأ ما، أو عجز عن الرد على منافسه بحنكة سياسية مقنعة لمشاهدي المناظرة عبر الشاشات التليفزيونية، وعمومًا فهذا الأسلوب ليس جديدًا تمامًا كما قد يتوهم البعض.. بل هو قديم، وكان يمارس منذ القرن قبل الماضي - القرن التاسع عشر - إذ شهدت مدينة كوينتس بولاية إيلينوي مناظرة بين إبراهام لينكولن،

(١) الأهرام - أخبار العالم - في ١٥/ ٣ / ٢٠٠٤ - ص ٤ .

ومنافسه آنذاك ستيفن دوجلاس.

هذا وقبل أن ننتقل إلى الفصل الثاني لا بد من الإشارة إلى أن تسويق الصورة لم يعد قاصرًا على الرؤساء فحسب.. بل إن تسويق السياسة، أو تسويق صورة الدولة أيضًا أصبحت له فنونه وأساليبه، ووسائله، وهو الأمر المرتبط بالصورة التبادلية بين الشعوب، وسوء الفهم المتبادل بين الكثير من الأمم، وهو الأمر الذي يطفو على السطح غالبًا إثر الأحداث الجسام كالحروب، وتغيير القيادات الذي يُغيِّر ولو بنسبة طفيفة صورة الشعوب في أذهان الآخرين، وهو الذي عانينا منه كثيرًا نحن كعرب وكمسلمين[1]، والذي بدأت تعاني منه الآن أمريكا نفسها، بعد إعلان حربها على ما أسمته الإرهاب، والتصرفات غير المسئولة لرئيسها بوش الابن.

فمما لا شك فيه أن صورة الرئيس تنعكس على صورة الدولة، وهو أمر ثابت في عدد من الدراسات الأكاديمية الأجنبية والعربية[2]؛ ولذلك نشطت الإدارة الأمريكية مؤخرًا في طرح سؤال مُلِح مؤداه: "لماذا يكرهوننا في العالم؟! " وكأنهم غير مدركين للأسباب التي استدعت هذه الكراهية، بعد انفرادهم بالعالم، ومحاولة السيطرة والهيمنة على مقدرات شعوبه، وفرض كل ما يتفق ومصالح أمريكا على كل دول العالم بالقوة، مدعِّمين ذلك بتبريرات واهية لا يخفى بطلانها على أحد، ظانين أن بإمكان الإعلام الأمريكي المتفوق، والدعاية السياسية المراوغة، والآخذة بكل الأساليب المستحدثة أن تغيِّر المشاعر العدائية، وتحسن صورة أمريكا كدولة، خاصة لدى المسلمين والعرب، الأمر الذي دعا مايكل هولتزمان أحد رجال

---

(١) راجع للمؤلفة - صورة العرب و المسلمين في العالم - مطبوعات مركز الحضارة العربية - القاهرة - ٢٠٠٣ م.

(٢) راجع دكتورة نادية سالم -صورة العرب و الإسرائيليين في الولايات المتحدة الأمريكية - مطبوعات معهد الدراسات و البحوث العربية - ١٩٧٨ .

العلاقات العامة البارزين، والذي كان يعمل مستشارًا للعلاقات العامة في إدارة الرئيس كلينتون إلى نشر مقال بعنوان "تسويق أمريكا للمسلمين"[1]، أشار فيه إلى أن الجهود الأمريكية للفوز بقلوب وعقول المسلمين لم تحقق نجاحًا، وإلى أن أمريكا بدأت في إنفاق ملايين الدولارات لتحسين صورتها في العالم العربي والإسلامي، وقامت بتعيين منسق خاص لذلك في البيت الأبيض، ولم يحقق ذلك أي تقدم، لأنها لا تتحاور مع هذه الشعوب.. بل تكتفي بإرسال رسائل إعلامية من طرف واحد؛ لإقناعها بسياستها، وبما تفعله وتمارسه بصورة تبدو دعاية ساذجة. ويضرب هولتزمان مثالا بأن الخارجية الأمريكية أنفقت ١٥ مليون دولار على حملة إعلانية تليفزيونية مشوشة بعنوان " قيم مشتركة " حاولت فيها إقناع العالم بأن أمريكا فيها تسامح ديني، وقدمت صورًا لمسلمين يعيشون في رخاء في أمريكا، فرفضت بعض الدول العربية إذاعة هذه الإعلانات، وأسفرت استطلاعات الرأي في الدول التي أذاعتها أنها اعتُبرت سطحية، ولم تمس قضايا الخلاف الأساسية.

كما أنشأ البيت الأبيض مكتبًا للاتصالات الدولية؛ لمواجهة التصورات المعادية لأمريكا في وسائل الإعلام العالمية، ونظم هذا المكتب لقاءات لعدد من المسئولين والمعلقين الأمريكيين، مع محطات التليفزيون العربية؛ للرد ولإحباط محاولات النقد للسياسات والممارسات الأمريكية في الدول العربية، كما تم تسجيل مجموعة من اللقاءات بين أمريكيين وعرب عبر " الفيديو كونفرانس "، وتم تطوير مواقع على الإنترنت للتأثير على عقول مستخدمي شبكة المعلومات العالمية، في العالمين العربي والإسلامي - وهم مازالوا قلة على أي حال - وأنفقت الخارجية الأمريكية ٦ ملايين دولار؛ لإصدار مجلة

(١) Herald tribune _ 7 - October _ 2003.

للشباب اسمها "Hi"؛ لتوزع في العالم العربي، مقابل دولارين سعرًا للنسخة، فلم تلقَ رواجًا، كما أسقطت الطائرات الأمريكية في أفغانستان صورًا مركبة بالكومبيوتر لأسامة بن لادن وهو يرتدي الثياب الأمريكية، وهو حليق الذقن، مصحوبة بعبارة تقول: " القاتل الجبان تخلى عنكم "، فلما اكتشف الأفغان أنها صورة مُفبركة، تأكد لديهم أكثر أن أمريكا مخادعة، وافتقدت الثقة نهائيًا وبشكل قاطع في كل ما يصدر عنها، ولم يحقق كل ذلك أي أثر ملموس في تحسين صورة أمريكا، وتسويق سياستها.. رغم أنها مبتدعة أساليب ووسائل التأثير، والإعلان والدعاية، وفنونها الحديثة، والمتجددة دائمًا.

لكن الجراب الأمريكي ما زال فيه الكثير.. إذ يُتوقع أن تكون مارجريت توتويلر المتحدثة باسم الخارجية سابقًا، مسئولة عن تنفيذ سياسة جديدة للدبلوماسية العامة والدعاية السياسية، التي ستعتمد على عقد صلات مباشرة مع الصحفيين، ورجال الأعمال، والمدرسين، ورجال الدين، والفرق الرياضية، والمطربين، والفنانين، والأطباء، والمثقفين في العالم العربي والإسلامي، وتنظيم رحلات لهم إلى أمريكا.. لعل وعسى تتغيَّر الصور الكريهة لأمريكا.

هذا وقد ارتبطت صورة أمريكا في الآونة الأخيرة بصور رئيسها دبليو بوش، الأمر الذي جعل صقور إدارته يفرضون وصايتهم على الإعلام الأمريكي، فلم تعد الصحافة حرة في كل ما تنشر كما نتصور، ويتصور العالم.. بل أصبح من الثابت أن دوائر سياسية قريبة من فريق إدارة الرئيس تفرض قيودًا شديدة على ما ينشر عبر الصحافة المكتوبة، فضلا عن منع نشر أو إذاعة صور معينة، وهذه الدوائر قد اتسع نفوذها منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وأصبحت تمارس سلطاتها سرًا وعلانية؛ لحماية الإدارة الأمريكية من تشويه صورتها داخل أمريكا أو خارجها.

و قد نشرت تحليلات متعددة تؤكد أنه قد بات راسخًا في أذهان عدد كبير من المعلقين السياسيين، أنه لا ينبغي المخاطرة بمستقبلهم السياسي والمهني؛ ببث تحليلات لا ترضى عنها إدارة الرئيس جورج دبليو بوش، وعدم مهاجمة سياسته المعلنة في الحرب ضد الإرهاب، وقد أعلن هو بنفسه ضرورة الالتزام بتعليمات الإدارة؛ لأنها في حالة حرب، وأصبح المعلقون والصحفيون والكتاب يتلقون هذه التعليمات بشكل مباشر من البيت الأبيض، والبنتاجون، وخلايا جهاز المخابرات (C. I. A.)، ولقد وصل الحال في بعض الأحيان إلى النظر لكل من يصر على نشر تعليقات تغضب الإدارة الأمريكية على أنه خائن[1]، وهم في ذلك يذكروننا بما يحدث في العالم العربي، من اعتبار أي مساس برئيس دولة هو بمثابة الخيانة العظمى، وكأن ذات الرئيس مصونة لا تمس كالذات الإلهية!!.

و تشير مجلة إكسبرس الفرنسية في نفس التحليل، إلى أنه من المعروف أن صقور الإدارة الأمريكية هم الذين يفرضون سيطرتهم، على وسائل الإعلام بكل ألوانها، إلى حد الاحتكار، بحيث لا تمر كلمة أو صورة.. إلا من خلال رؤيتهم هم، وبعد مراقبة شديدة، يدققون بمقتضاها فيما يرون أنه ليس في مصلحتهم؛ ولذلك كثرت الأكاذيب، والصور المضللة.

كما تم تأسيس وحدة تعرف باسم " وحدة التأثير الاستراتيجي " بميزانية تبلغ مئات الملايين من الدولارات، يُشرف عليها مساعدو وزير الرئاسة الأمريكية، دونالد رامسفيلد، كما أن هناك مجموعة إعلامية تعرف باسم " مجموعة دبليو رندون " كانت قد قامت بدور مهم في رسم صورة أمريكا، كما تريد الإدارة، أثناء حرب تحرير الكويت عام ١٩٩١، وكان قد ثار حديث عن إلغائها، إلا أن رامسفيلد أكد أن هذا

---

(١) Express Magazine _ 2, March, 2003.

الإلغاء لم يحدث إلا على الورق فقط، فهي ما زالت موجودة، وهي التي تمد الصحف بمعلومات يراد توجيهها إلى الشعب؛ للتحكم في توجهات الرأي العام، وذلك طبقًا لما أشارت إليه مرارًا صحيفة لوس أنجلوس تايمز الأمريكية ذاتها.

كما توجد مجموعة ضغط أخرى تشكلت عام ٢٠٠٢، يعمل بها خبراء يمتلكون الأرض الإعلامية في أمريكا ولهم صلات قوية باليمين السياسي في إسرائيل، ويحتكر أعضاؤها الصحف، ويكتبون الافتتاحيات للصحف الكبرى، ويذكرنا ذلك بالوهم الكبير الذي صدَّرته أمريكا لنا وللعالم بوصفها واحة الحرية والديمقراطية، وحقيقة الأمر أنه لا أحد فيها يجرؤ على الكلام على حد تعبير بول فندلي في كتابه الضخم الشهير[1]، الذي أورد به نماذج لا يتصورها عقل عن الحرية المزعومة في أمريكا، وعرَّف فيه العالم وكشف له ألاعيب الإدارة الأمريكية، الخاضعة للوبي الصهيوني، المهيمن على الإعلام الأمريكي، وعلى كل ما يصل إلى الأذهان في أمريكا، ومن ثم في العالم.

و هنا لا بد أيضًا من الإشارة إلى مدى السيطرة على الإعلام في مراكز صناعة الصورة الأمريكية، وأساليبها في التأثير على الرأي العام العالمي، والتفنن في تلوين المفاهيم، والقيم، والمبادئ، والأفكار، التي تتبدل وتختلف، وتأخذ منحنيات وأبعادًا جديدة حسب ما تمليه المصالح الأمريكية، ووفقًا لأغراضها وأطماعها السياسية والاقتصادية المختلفة، في كل مرحلة، ولعل ذلك يذكِّرنا بما طرحه ناعوم تشومسكي في كتابه الشهير " السيطرة على الإعلام "، الذي يوضح أن أمريكا تحرك العالم وكأنه مجرد دُمى خشبية، والذي يشرح فيه

---

(١) بول فندلي – من يجرؤ على الكلام – اللوبي الصهيوني و سياسات أمريكا الداخلية والخارجية – شركة المطبوعات للتوزيع و النشر – بيروت – ١٩٨٨.

المعنى الحقيقي للديمقراطية الأمريكية، ولعبة الانتخابات التي يتابعها العالم أجمع، وهو معنى يختلف كثيرًا عن المعنى المتعارف عليه في كل أنحاء الدنيا لغويًا، أو مصطلحيًا، فالديمقراطية الأمريكية يمكن تطويعها لخدمة ما يوصف بتصنيع الإجماع، أي جعل الرأي العام يوافق على أمور لا يرغبها بالأساس؛ عن طريق استخدام وسائل دعائية.

و يقدم لنا ناعوم تشومسكي في كتابه، المعنى المباشر والمجرد لكلمة الدعاية، بأنها " تضليل القطيع الحائر (أي الجماهير) من أجل تحقيق المصالح العامة"[1]، ويقول بأن من يضلله هم فئة من المتخصصين والمسئولين، والحكام، والساسة، الذين يفكرون ويضعون الخطط والسياسات، التي تخدم في نهاية الأمر هؤلاء السادة، والقطيع له دور واضح ومحدد لا ينبغي أن يتخطاه بحال، فهو مجرد مشاهد فقط لمجريات الأمور.. ولكن من وقت لآخر يسمح له بتأييد أحد أفراد هذه الطبقة المتخصصة، بمعنى أن يُسمح له بالقول: " نحن نريدك قائدًا لنا"[2]، وهذا ما يطلق عليه الانتخابات، وبعد عملية التأييد، والوقوف خلف عضو أو آخر من الطبقة الحاكمة، يعود القطيع إلى الحظيرة ثانية، مكتفيًا بمشاهدة الأفلام المثيرة، ومباريات كرة القدم، والمسلسلات التليفزيونية.

أما عن مجال العلاقات العامة كعلم وفن له أصوله وقواعده التي ابتدعتها، وأتقنتها، وصدرتها أمريكا للعالم كله، ففيه تبدو كل الأمور مرتبة ومنسقة، فالعلاقات العامة ليست للترفيه والتسلية، وإنما للقيام بعمل جاد محسوب، ومدروس جيدًا؛ لأنها ببساطة شديدة - على حد تعبير ناعوم تشومسكي - تلقّن القيم الصحيحة؛ وفقًا لرؤية

---

(١) ناعوم تشومسكي - السيطرة على الإعلام- الإنجازات الهائلة للبروباجندا - ترجمة أميمة عبد اللطيف - مكتبة الشروق الدولية - ٢٠٠٣ - ص ٩.

(٢) المرجع السابق - ص ١٠.

الطبقة المتخصصة، التي تعمل في خدمة السادة، وصورة العالم التي تقدَّم لعامة الجمهور تبعًا للدعايات، والبرامج الدعائية التي تنتهجها الدول والحكومات أبعد ما تكون عن الحقيقة.. لكنها مع ذلك تلقى قبولا، ورضاء من قبل الجماهير؛ لأن تمرير الأكاذيب في أمريكا يتم في إطار من الحرية والديمقراطية.. وليس بالقوة والعنف كما كان يحدث في الدول الشمولية[١]، ونضيف إلى ذلك من جانبنا: أو كما يحدث وحتى الآن في العالمين العربي والإسلامي.

هذا ويؤكد ناعوم تشومسكي: أنه في خضم نظام دعائي ناجح ومخطط، يمكن تصنيع الإجماع وتوجيه الجماهير نحو وجهة محددة، وطمس الحقائق والأحداث المراد إخفاؤها، والتغطية عليها، بحيث يردد القطيع الشعارات، والدعايات التي تم تلقينها له!

و ما يعنينا هنا من كل ما سبق هو التأكيد على خطورة أساليب ووسائل صناعة صورة الرؤساء في أمريكا، والتنبُّه إلى فنونها وألاعيبها، وأكاذيبها، وما توهم به الجمهور الأمريكي ليختار رئيسه بأسلوب القطيع المساق؛ لأن هذا الاختيار ينعكس على قضايانا ومصيرنا في العالمين العربي والإسلامي.

و يؤكد مراسل صحيفة الأبزيرفر البريطانية في أمريكا إيد فوليامي، الذي قضى في الولايات المتحدة ٦ سنوات، عاصر فيها فترة من حكم الرئيس كلينتون، ثم عامين من حكم الرئيس بوش الابن، وحضر بنفسه أحداث ١١ سبتمبر، يؤكد حقيقة هامة مؤداها أن صورة الرئيس تنعكس على صورة الأمة، وفي هذا الصدد كتب مقالا يودِّع فيه أمريكا، معترفًا بتراجع مشاعر الحب الذي كان يكنه لها، واصفًا لها بأنها " أمة جريحة " تخوض حربًا، وتحدث في هذا المقال عن تغيُّر الأوضاع في أمريكا، وأثر صورة الرئيس على صورة الأمة

(١) ناعوم تشومسكي - مرجع سابق - ص ١٢ - ١٦.

الأمريكية، إذ قال: " كان المرء يجد حيرة في معرفة أيهما يُعرِّف الآخر؟ البلد أم رئيسها؟ لقد كانت تلك أمريكا بيل كلينتون، حيث تجد مساعد الرئيس جورج ستيفانوبولوس يقضى يومه في توجيه النصح بشأن البيتزا "، وكان فوليامي يرى أن أمريكا حال وصوله إليها كانت تعتبر متميزة في نظر العالم، وأنه كان شديد الإعجاب بالعديد من مظاهر الحياة في المدن الأمريكية.. إلا أن هناك شيئًا آخر قد أصابها خلال الأعوام الستة، التي عمل خلالها هناك، وقد ختم مقاله قبل رحيله عن أمريكا بالحديث عن مغزى ترشيح النجم السينمائي أرنولد شوارزينجر ليكون حاكمًا لولاية كاليفورنيا مؤكدًا: " أنه سيكون عهدًا جديدًا في أسطورة كاليفورنيا، مماثلا لما حدث عند التحول من عهد كلينتون إلى بوش، والذي جاء بمثابة بداية عهد جديد في أسطورة أمريكا"[1].

و هذا الرأي الأخير أيضًا له مغزاه، الذي يشير إلى خطورة صناعة الأسطورة الأمريكية، وصناعة أبطالها، وكيف أنه لكل بطل فيها دوره المؤثر على صورة أمته، وكل ذلك في النهاية يتحقق بفضل تطوير وتحديث فنون وأساليب العلاقات العامة، والدعاية السياسية، وصناعة صور المرشحين للرئاسة، أو الرؤساء.

و الأمر ليس وقفًا على أمريكا.. فقد انتقلت عمليات صناعة الرؤساء، من أمريكا إلى كل دول العالم، بما في ذلك روسيا، التي كانت قلب النظام الشمولي، فنجد أن بوتن - كما سبقت الإشارة - بدأ يمارس من خلال وسائل الإعلام لعبة تسويق صورته للناخبين.. واللعب بمشاعرهم، ومحاولة اجتذابهم للاقتراع بأي شكل.. فرغم أن مراسلي الصحف قالوا بأن الحملة الانتخابية التي سبقت يوم الاقتراع، في انتخابات مارس ٢٠٠٤ كانت باهتة، وغير مثيرة، مما

(١) طارق الشيخ - الأهرام - ٢٨ / ٨ / ٢٠٠٣.

عزز المخاوف من عدم تجاوز الإقبال على الانتخابات لنسبة الـ ٥٠٪ الضرورية؛ كي تصبح الانتخابات صحيحة، وبرغم أن القادة السياسيين، والزعماء الدينيين كانوا قد حثوا الناخبين على القيام بواجبهم المدني، والإدلاء بأصواتهم، الأمر الذي اضطر إدارة الحملة "في محاولة لجذب الناخبين إلى توزيع بطاقات: للحصول على ماكينات حلاقة مجانية للمتقاعدين، وتذاكر سينما مجانية للشباب"[1]؛ كي تتحقق النسبة المرجوة.. ومع ذلك فقد أعلن المرشح الشيوعي نيكولاي خارينتونوف، والمرشحة الليبرالية أيرينا خاكامادا عن تضررهما، من أن حملة بوتن الانتخابية قد شابها تحيز وسائل الإعلام الموالية للكرملين، واتهما فيها الرئيس الروسي بالفشل في محاربة الفقر والفساد؛ ولذا أجريت الانتخابات وسط إجراءات أمن مشددة، فيما يعني أن أمور الانتخابات هناك.. وإن تشبهت بالأسلوب الأمريكي، ما زالت يشوبها الطابع الشرقي من حيث الهيمنة على وسائل الإعلام، وتحيزها لمرشح السلطة، ضد المرشحين الحزبيين، أو المستقلين أيًا كانت انتماءاتهم، ومن حيث إغراء الناخبين للذهاب إلى صناديق الاقتراع، أو من حيث إحكام القبضة الأمنية على سير عمليات الاقتراع.

الخلاصة: أن الديمقراطية الغربية ليست كما حاولوا أن يوهمونا في العالم العربي، فألاعيب صُنّاع الصورة الذهنية للرؤساء لا نهاية لها، وكلما كُشفت لعبة، استبدلوا بها أخرى إلى أن تتكشف، وحقيقة الأمر أن هناك عوامل كثيرة تتحكم في عملية اختيار الرئيس غير مميزاته الشخصية.. بل إن عمليات الترغيب والترهيب، وجماعات الضغط، وحسابات القوى، واللوبي الصهيوني، والتأثيرات الاقتصادية، والشركات العملاقة، وأصحاب رءوس الأموال الضخمة... إلى غير

(١) عبد الملك خليل – الأهرام – في ١٥ / ٣ / ٢٠٠٤ – ص ٤ .

ذلك من عوامل كلها لها تأثيرها، ويعمل لها ألف حساب، في تشكيل الصورة الذهنية ورسم ملامحها بكل دقة، بحيث تُؤثر على الناخبين نصف المثقفين، ومعدومي الثقافة؛ ليتجمع للمرشح للرئاسة كم هائل من الأصوات المؤيدة.. غير المدركة للحقيقة.

أما عن مجمل ما خلصنا إليه في هذا الفصل فسنورده في شكل نقاط محددة في فصل الختام، بعيدًا عن النماذج والأمثلة، والتفاصيل سالفة الذكر، وبعد أن نستعرض صورة الرؤساء في العالم العربي عبر العصور، وتأثرها مؤخرًا بالأساليب والوسائل الغربية في صناعة الصورة.



الفصل الثانى

صورة الرئيس العربي

إذا أردنا تناول صورة الرؤساء العرب، واستعراض نماذج لما يُروِّج لتشكيلها أو تحسينها.. لا يمكننا إلا الاعتراف بأن المزاج العربي ميَّال إلى تأليه الحاكم، وصناعة البطل، أو توهم وجوده، وصبغ شخصيته بملامح أسطورية.. فالمزاج الشعبي العربي - حتى لو لم يجد هذا البطل - فإنه يصنعه، أو يتوهم وجوده؛ ليعيش في ظله أو في كنفه، ويخضع له خضوعًا فيه قدر من التأليه والتقديس غير المبرر، وكأنه يُسبغ عليه هذه الصفات والملامح؛ كي يُسوِّغ لنفسه، ويُبرر للآخرين هذا الخضوع والتأليه!! وقد نتساءل: لماذا؟! فلا نعثر على الرد الشافي بسهولة!! فلعلها تركيبة نفسية، لها جذور تاريخية، تحتاج لدراسة متعمقة.. لسنا بصددها هنا على أي حال.

ففي الشرق عمومًا، وفي العالم العربي على وجه الخصوص، نجد صورة الرئيس أو الحاكم عبر العصور، هي خلاصة محاولات من مريديه والمحيطين به لتحسين صورته كي يروجوا لفكرة استمراره في سدة الحكم حتى تستمر - مع وجوده - مصالحهم ومكتسباتهم من: هيبة، ونفوذ، ومال، وسطوة.. وإن اختلفت بعض الملامح وفقًا لاختلاف الزمان والمكان، ووضع الرئيس ذاته دستوريًا، ما بين شيخ قبيلة، أو شريف، أو داي، أو باي، أو باشا، أو خديوي، أو سلطان، أو ملك، إلى أن نصل إلى رؤساء الجمهوريات.

هذا وتكمن المأساة في العالم العربي في أن صورة الرؤساء دائمًا وردية وجميلة.. رغم كل ما تعانيه الشعوب من قهر وعنت تحت ضغط العوامل الداخلية والخارجية، وليس أدل على ذلك من مثال معاصر ظل لفترة غير قصيرة يعكس بفجاجة ما نذهب إليه في هذا الصدد، وتمثَّل أمام ناظر العالم أجمع مؤخرًا، وهو مثال صدام حسين، كخير

دليل على ما كانت تمارسه وسائل الإعلام العراقية لتحسين صورته، وما كانت تبذله مؤسسة الرئاسة العراقية من عطايا للصحفيين العرب؛ ليرددوا ما تريده تمجيدًا لشخص الرئيس صدام.

هذا ونجد بوجه عام أن وسائل الإعلام العربية دائمًا لا تقدم حقائق في هذا الصدد، حتى لو حدث وهبطت شعبية أي رئيس، أو اهتزت صورته أمام شعبه مهما كانت الأسباب، وقد رأينا سلفًا ما يحدث في الغرب حينما تعلن وسائل الإعلام أرقام قياس الرأي العام حيال صورة الرؤساء بوضوح وصراحة، تحدد وضعيته الحقيقية في نفوس الناس، في حين نجد وسائل الإعلام العربية دائمًا تؤكد أن صورة الرئيس - أي رئيس - في أزهى أحوالها، وأن ما يقوله هو الحكمة المقطرة، وأن ما شدا به لسانه في خطابه التاريخي الأخير هز العالم، وركزت عليه وسائل الإعلام العالمية، وأشادت بما احتواه من آراء سديدة، كل ذلك إلى جانب تجاهل أي أفول في شعبية أي رئيس عربي، وتجاهل ما يُطلقه الناس عليه من همسات أو نكات.. لا بل وتغالي وسائل الإعلام العربية أكثر وتنشر تبريرات لأي أخطاء تصدر عن الرؤساء والملوك.. مهما كان أثرها الذي يشعر به رجل الشارع العادي، فأين كل ذلك من التعامل الغربي مع صورة الرؤساء هناك؟!

هذا ولو عدنا إلى العصور الغابرة فسنجد أنه حتى في الأسطورة أو في السيرة الشعبية، أو في القصص الديني يميل الشرقيون إلى المبالغة في الترويج لملامح غير حقيقية، ولا يمكن تصديقها كوسيلة ترويج للقبول الشخصي؛ من أجل استمراره بالتبعية، واستمرار خضوع الرعية له، وتصديقهم لما يُروجه المريدون عن البطل أو الوليّ، إذ نجد أتباعه يسبغون عليه الكثير من الصفات، التي تصل إلى حد التأليه، أو تقريبه بشكل أو بآخر من الذات الإلهية.

ويحدثنا التاريخ القديم أيضًا عن أساليب متعددة لترويج الصورة.. ليس فقط بنشر كل ما هو حسن أو محبب للناس.. ولكن يُحدثنا عمن كانوا يُروِّجون لملامح - تعد كريهة بالنسبة لنا الآن - مثل زرع الخوف والرعب، والرهبة من الحاكم في قلوب الرعية؛ حتى يرسموا له صورة مهيبة، يخشاها الناس، فيستمرون في الخضوع لهذا الملك أو الحاكم، مثلما حدث مع " إيفان الرهيب " قيصر روسيا، و" الحجاج بن يوسف الثقفي " في العصر العباسي، الذي زرع بنفسه الخوف في نفوس شعبه بمقولته الشهيرة التي ظلت باقية ومتواترة من بعده: "إني أرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني والله لصاحبها "، ومن بعدهما كان " ستالين " في الاتحاد السوفيتي، و"هتلر" في ألمانيا و" موسوليني " في إيطاليا، وما كان التخويف والترهيب منهم إلا برامج لرسم صورتهم؛ وفقًا لمنطق مختلف عما يحدُث الآن، إذ كان الترويج لصورتهم بإشاعة كل ما من شأنه بث الرهبة والخشية في نفوس شعوبهم.. وليس نشر ما هو حسن، أو طيب ومحبب للناس!! وهو توجه ربما كان يناسب الحقبة التي حكموا فيها، أو يناسب طبيعة الشعوب التي حكموها آنذاك!!

هذا ونجد أن المبالغة في الوصف بكل صورها -الحسن منها والسيئ بقياسنا- كان المنهج الأساسي في رسم صورة البطل.. حتى في السير الشعبية، إذ نجد أن الرواة كانوا يبالغون في وصف أبطالها.. لا بل وأحيانًا كانوا يمنحونهم صفات غير بشرية، ومميزات وهمية لا تُصدَّق بالمغالاة في تقدير شجاعتهم وإقدامهم، وإنطاقهم بما لم يقولوا؛ كتدليل على الشجاعة الأدبية، أو اتباع القيم والمثل العليا، أو الاتصاف بالشجاعة والبطولة الخارقة، أو رجاحة العقل، والنطق بالحكمة المقطرة.. وكل بقدر، والنماذج على ذلك كثيرة، بدءًا بأبي زيد الهلالي سلامة في المغرب العربي، إلى سيف بن ذي يزن في

اليمن، ومرورًا بأدهم الشرقاوي في مصر، وانتهاء بما نسب إلى أحمد عرابي كبطل وقائد لثورة شعبية، إذ حدثونا بأنه قال للخديوي أمام قصره في وقفته الشهيرة ممتطيًا صهوة جواده عام ١٨٨٢: " لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا، ووالله لن نورَّث أو نستعبد بعد اليوم" وهو قول لم ينطقه عرابي، كما أثبتت دراسة تاريخية عن الثورة العرابية أجراها الباحث الألماني إليكسندر شولش[1] وأكد فيها أن هذه الرواية لم يذكرها إلا عرابي نفسه في مذكراته.. لكن لم يُشر إليها أي من شهود الواقعة، أو أي مصدر تاريخي تحدث عن تفاصيل أحداث الثورة العرابية.

ونذكر ضمن المبالغات التي تنسب للقادة وهي في واقع الحال لم تحدث.. ما روي عن عمر بن الخطاب، حينما قيل إنه كان ينام كأي أعرابي تحت الشجرة، فقال عنه بدوي قدم لمقابلته: "عدلت فأمنت فنمت يا عمر"، أو "عدلت فنمت أمنًا يا عمر"، وهو أيضًا قول مشكوك فيه تاريخيًا، فالمعروف أن تدوين التاريخ الإسلامي قد بدأ بعد مائة عام من ظهور الإسلام، كما أنه اعتمد على الروايات الشفهية التي ليس لها إثبات أو دليل تاريخي.. بل هي مجرد حكايات تدعم صور القادة بشكل أسطوري[2].

ومثل ذلك ما نُسب لطارق بن زياد من أنه أحرق السفن، وقال لجنوده: " البحر من أمامكم، والعدو من خلفكم "، وهي مقولة تتناقض تمامًا والمبادئ العسكرية، والتخطيط للمعارك، وحسابات النصر والهزيمة، التي يجب أن يُعمل بها، أو يعمل لها ألف حساب أي قائد عسكري محنك مثل طارق بن زياد.. الذي توجد الكثير من المقولات التي لا يُتصور حدوثها مثل القول بأنه نزل برجليه إلى مياه

(١) مصر للمصريين - ترجمة د. رءوف عباس - منشورات عين - الطبعة الثانية .
(٢) رأي للدكتور رءوف عباس في حديث خاص سمح بنشره و الاستشهاد به.

المحيط، وقال مقسمًا بالله ما معناه أنه لو كان يعلم أن خلف هذه المياه أرضًا أخرى لذهب إليها وفتحها في سبيل الله.

وتعتبر كل هذه المقولات نماذج لما يمكن أن يُشيعَه الأتباع والمريدون، عمن يريدون تصويرهم في صورة من صور الحكمة أو البطولة النادرة.. والنماذج كثيرة كما سبق القول، وتعج بها السير التي تتغنى بأن عنترة كان يقتل المئات بضربة واحدة من سيفه، وأن أبا سعدة الزناتي خليفة وند أبي زيد الهلالي سلامة في الملحمة الشعبية كان على حد قول الأغنية: " أبو سعدة فارس معدود، على كتافه يبنوا قصرين، وعلى شنابه يقفوا صقرين "، إلى آخر ما ورد في سيرته، أو المدونة[1]، أو المتداولة شفهيًا على طول الشمال الأفريقي من تونس إلى مصر.

هذا وقد تطورت صور المبالغة في تصوير البطل؛ وفقًا لمقتضيات العصر والمكان، فقيل مثلا إن أدهم الشرقاوي، البطل الشعبي المصري، كان "يرطن بالسبعة ألسن"، والأمثلة على مثل هذه المبالغات أكثر من أن نحصرها جميعًا هنا.. وهي ليست موضوعنا بالذات في هذا المقام.

المهم أنه حتى في العصر الحديث لم يسلم الأمر ممن يروِّجون لسمات البطل بما ليس فيه، أو بقدر من المبالغة والتضخيم في بعض صفاته.. حتى خارج الشرق العربي، وأبرز مثال على ذلك أسطورة التحرر الوطني، في العصر الحديث، الطبيب " أرنستو تشي جيفارا "، الذي انطلق من موطنه الأصلي في الأرجنتين إلى كل أمريكا اللاتينية والوسطى؛ ليحررها، ثم ذاع صيته في العالم كله: كرمز مُلهِم للملايين، وراجت عنه بطولات لا تُصدَّق، من حيث اعتناقه لُمثل عليا، وقيامه ببطولات وتضحيات من أجل المبدأ الذي آمن به، وكان العالم

(١) راجع عبد الرحمن الأبنودي - السيرة الهلالية - مطبوعات أخبار اليوم - ١٩٨٨ .

بالفعل في حاجة مُلحَّة، وتعطُّش حقيقي لبطل، أو رمز يتمثَّله الشباب آنذاك، ثم حدث ذلك مؤخرًا (٢٠٠٣) حينما برز احتياج الشباب في كل أنحاء العالم لهذه الصورة الرمز، أثناء الغزو الأنجلو - أمريكي للعراق، فرفع الشباب الذين لم يعاصروا جيفارا، ولم يروه، ولم يروا عبد الناصر أيضًا، ولم يعرفوا الكثير عن مبادئهما، وصراعهما ضد الطغاة.. لكنهم رفعوا صورهما كرموز؛ تأكيدًا لمناصرتهم لتحرر الشعوب، ورفضهم للاستعمار الجديد.. حتى لو حاول الغزاة الجدد الادعاء بأنهم قدموا من أجل التحرير!!

ورغم أن " تشي جيفارا " كان بالفعل بطلا ورمزًا، يؤمن بمُثل عليا، ضحى من أجلها بحياته واستقراره، وما يعتنقه من أفكار، كانت وما تزال قادرة على تُحريك كوامن الشباب في شتى أنحاء العالم من أجل التغيير والثورة.. إلا أن أمريكا حاولت طمس ملامح هذه الصورة الذهنية التي راجت عنه، وتحطيم أسطورته، ومحو كل ما انتشر عن سلوكه وحياته ونضاله الذي وصل إلى حد وصفه آنذاك بـ " المسيح الجديد، وشيوع ظهور لعنة تشي، وهي التي طاردت وحاقت بكل من دبر قتله، لدرجة أن معظمهم مات في ظروف غامضة وغريبة، كما أصيب قاتله جاري برادو بشلل يعذبه"[1].. وبغض النظر عن حجم وكم المبالغة، في تشكيل هذه الصورة الأسطورية لجيفارا كبطل، وحجم وكم الصدق فيها من الكذب، فقد جوبهت من قِبل الولايات المتحدة الأمريكية -كما سبق القول- بمحاولة تشويهها؛ بإنتاج فيلم يحاول أن يدمر هذه الصورة؛ مستغلة كل فنون السينما الهوليودية.. لكن صورة جيفارا ظلت كامنة في النفوس والأذهان لعقود، وما لبثت أن عادت للظهور بقوة إبان حرب ظالمة، رُفعت فيها صوره معيدة إلى الأذهان ما كان يُروج له من مبادئ.

(١) عبد الملك خليل - تقرير بعنوان " في ذكرى ميلاده الـ ٧٥ جيفارا مازال ملهما للملايين" -رسالة موسكو - تحقيقات و تقارير خارجية - الأهرام - ٢٠٠٣/٧/٥ - ص ٦ .

كذلك الحال بالنسبة لعبد الناصر: كرمز من رموز التحرر الوطني في العالم العربي، ودول آسيا وأفريقيا، الذي يؤكد محمد حسنين هيكل أنهم "حاولوا قتله، وقتل سياسته ماديًا، وحاولوا ثلاث مرات يعترف بها جون ماركس[1] في شهادته... ويحاولون الآن اغتيال ذكراه وتاريخه معنويًا وبالتشويه والتشويش، ورغم مضي قرابة ست سنوات على الرحيل فإن الحرب الشاملة ضده تزداد حدة وتصاعدًا مع كل يوم"[2]، ومازالت مستمرة.. فرغم أن الصورة المنطبعة عنه ما زالت تحرك مشاعر الشباب إلى يومنا هذا بدليل افتقادنا له في هذه الحقبة المتردية، الأمر الذي جعل الشباب يرفعون صوره عام ٢٠٠٢م في المظاهرات المناهضة لضرب العراق في كل أنحاء الوطن العربي، وجعل الكثير من الصحف العربية تترحم على أيامه، وتنشر المقالات المعبرة عن هذا الافتقاد، والملاحق التي تحمل عناوين صريحة مثل: "طل علينا يا جمال"، وذلك في الاحتفال بالعيد الخمسين لثورة يوليو معيدين للأذهان ما كان يكتب عنه في حياته كشكل أو أسلوب من أساليب صناعة الصورة.. لكن إعادة نشره الآن لا يدخل بحال في إطار الدعاية السياسية له، أو تحسين صورته، فهو في ذمة الله، لا يمارس أي ضغط على أحد، ولا جدوى من تحسين أو تشويه صورته بالنسبة له، لكنها مشاعر حقيقية من بعض مريديه الباقين على عهدهم في وضعه موضع البطل القومي الأسطورة.

هذا ويعتبر تسويق صور الزعماء، ورسمها بشيء من المبالغة ليس بدعة غربية.. ولكن الغرب هو الذي قنن لها، وجعلها علمًا حديثًا له أصوله وقواعده.. فالترويج لصور الزعماء عرفته مصر كمثال في

(١) أحد مؤلفي كتاب "عبادة المخابرات" الذي كشف عن محاولات المخابرات الأمريكية اغتيال عبد الناصر في أواخر الخمسينيات ثلاث مرات .

(٢) محمد حسنين هيكل - ملحق صوت الأمة - الأحد ٢١ / ٧ / ٢٠٠٢ نقلا عن : الأهرام - في ٨ / ٣ / ١٩٧٦ .

تاريخها الحديث، وتحدثنا بعض المراجع التاريخية عن نماذج لهذا التسويق لصور مصطفى كامل ومحمد فريد، مما كان له أثره في تاريخ مصر[١]، وكنموذج له أيضًا ما فعله عبد الرحمن فهمي بالنسبة لرسم وصناعة صورة سعد زغلول في جرائد الوفد أثناء وجود سعد في باريس، الأمر الذي جعل المصريين يضعونه في مكانة عالية جدًا كزعيم، ويستقبلونه استقبال الأبطال الفاتحين حين عودته[٢]، والأمر نفسه قد مورس مع مصطفى النحاس عند خلافته لسعد، إذ قدّم بوصفه " ابن سعد البكر "، وأنه "راهب الحركة الوطنية".. حيث لم يكن قد تزوج بعد، وكان التركيز في تقديم صورته والترويج لها بوصفه رجلا طيبًا وأن الطيبة كانت أبرز سماته، كأسلوب مضمون لاكتساب قلوب المصريين[٣].

ونعود لنتساءل: لماذا يميل الشرقيون عامة والعرب خاصة إلى تأليه الحاكم أو الرئيس؟!! وللإجابة على ذلك لا بد من الاعتراف بأن لهذه الظاهرة جذورًا تاريخية، لعلها ليست عربية في الأصل.. بل لعل العرب توارثوها من أهل الحضارات الشرقية القديمة، (الفرعونية، والبابلية، والآشورية، والفارسية)؛ حيث كان الحاكم يؤله نفسه بنفسه، أو بوحي من المحيطين به من الكهنة في الحضارة الفرعونية كمثال، إذ كانوا هم أصحاب المصالح في ترسيخ فكرة الفرعون الإله، وهذا ما شهدت به كتب التاريخ، وذكره القرآن الكريم أيضًا، فيما أورد من قصص، فقد جاء في محكم التنزيل ما يؤكد تأليه الحاكم لنفسه في قوله تعالى: (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري)[٤]؛ لذلك نجد من الضروري أن نستهل هذا

(١) راجع عبد الرحمن الرافعي - مصطفى كامل .

(٢) راجع عبد الخالق لاشين - سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية - منشورات مكتبة مدبولي - القاهرة .

(٣) راجع في هذا الصدد - عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية في مصر .

(٤) سورة القصص - الآية ٣٨ .

الفصل بتتبع للجذور التاريخية لهذه الظاهرة منذ أقدم العصور، وصولا إلى التاريخ الحديث.

الحاكم في مصر الفرعونية

يجرنا ما سبق من تساؤل إلى تفنيد أسباب تأليه الحاكم في مصر القديمة، كما استعرضها الدكتور إمام عبد الفتاح في كتابه القيِّم " الطاغية "، إذ يقول:

"كان الملك في مصر الفرعونية إلهًا منذ بداية النظام الملكي فيها، ولم تكن هذه الألوهية رمزية أو مجازية تشير فقط إلى سلطته المطلقة، ومكانته السامية.. بل هي تعبير حرفي عن عقيدة كانت إحدى السمات التي تميزت بها مصر الفرعونية، وهي عقيدة تطورت على مر السنين.. لكنها لم تفقد شيئًا من قدرتها وتأثيرها"[1].

ويفند الدكتور إمام عبد الفتاح السمات التي كانت تميِّز الحاكم أو الملك في مصر، وترسِّخ هذه العقيدة، وهي كثيرة، سنحاول فيما يلي من نقاط أن نلخِّصها:

١- "شخصية إلهية مقدسة، وبالتالي فهو أقدس من أن يُخاطبه أحد مباشرة........ بل إن كل ما هو جزء من شخص الملك، كظله مثلا، مترع بالقداسة، فلا يقوى البشر على الدنو منه".

٢- "هذه الشخصية الإلهية تتمتع بعلم إلهي أيضًا فلا تخفى عليه خافية..... إن جلالته عليم بكل شيء بما حدث وبما يقع، وليس هناك في الدنيا شيء لا يعلمه، إنه توت إله الحكمة في كل شيء، وما من معرفة إلا وقد أحاط بها "

٣- "إن كل ما يتفوه به صاحب الجلالة يجب أن يُنفَّذ.. بل لا بد أن يتحقق فورًا، ذلك لأن مشيئة الملك وإرادته هي القانون، ولها ما

(١) إمام عبد الفتاح - مرجع سابق - ص ٢٨ .

للعقيدة الدينية من قوة وشكيمة، فهو يعمل ما يجب أن يُعمل، ولا يرتكب قط إثمًا، أو ما يُثير بغضًا أو حقدًا، وهكذا لا يسع المواطن المصري العادي إلا التسليم والخضوع لأوامره ونواهيه".

٤- "ترتب على شخصية الملك الأسطورية هذه نتيجة مهمة أيضًا، هي أنه لم تكن هناك قواعد قانونية[١] مكتوبة أو مفصلة إذ لم تكن هناك حاجة إليها ما دامت كلها متمثّلة في شخص الإله الذي كان دائمًا على استعداد لإصدار الأوامر اللازمة لما يجب أن تكون عليه نظم الدولة، وطرق التعامل فيها، وربما كان من أسباب عدم وجود قواعد قانونية: الخوف من أن تُقيَّد سلطة الملك الشخصية".

٥- "كان القضاة يحكمون حسب العادات والتقاليد المحلية التي يرون أنها توافق الإرادة الملكية، التي يمكن أن تتغير: إذا اقتضت رغبته ذلك".

٦- "كان الملك هو همزة الوصل الوحيدة بين الناس والآلهة - فهو الكاهن الأكبر، وهو الذي يُعيِّن الكهنة لمساعدته - ومن هنا فهو وحده الذي كان يستطيع تفسير ما تريده ماعت Maat إلهة العدالة، ويقوم بتطبيقه في مملكته؛ ولهذا كان من المفاهيم الأساسية التي يُسلِّم بها الجميع أن الإرادة الملكية لا يمكن أن تهدف إلا لسعادة مصر ورخائها"[٢].

٧- "معنى ذلك كله أن فرعون في مصر هو المُشرِّع والمنفِّذ، وهو الذي يحكم القضاء باسمه، وهو الذي يعرف رغبات الآلهة ويحققها.... فرعون هو المرجع الأعلى، والموئِل الأسمى، إليه وحده تُرفع طلبات الاسترحام، ولا يُمنع منها أحد من رعايا فرعون.. مهما

(١) من المعروف أن التشريع المكتوب حديث جدًا .. و مع ذلك في كتاب الموتى قواعد للحساب الأخروي مكتوبة ، و بها كثير من قواعد الأخلاق ، و المثل العليا ، وآداب السلوك ، و بعض الأوامر و النواهي ، و التعاليم التي تنظم حياة المصريين الاجتماعية .

(٢) نقلا عن د. بطرس غالي - المدخل في علم السياسة- مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة التاسعة - ١٩٩٠ - ص ١٨ .

تواضع قدره وانحط شأنه، وبذلك تتاح له فرصة مراقبة أعمال عُمَّاله المتصرِّفين في شئون مملكته الواسعة، والضرب بشدة على أيدي العابثين بأمورها والخارجين على إرادته"[1].

وبهذا المفهوم لقدسية الحاكم نستطيع أن نوجز - باختصار - أبرز سماته التي ما زلنا بعد قرون.. وحتى بعد إلغاء النظم الملكية، وقيام الجمهورية، نؤله بها الحاكم أو الرئيس، وتصفه وسائل الإعلام ببقايا الصفات القدسية، التي توارثناها عن أجدادنا الفراعنة، ونقلناها بدورنا إلى الدول العربية المحيطة بنا، أو لعلهم ورثوها عنَّا في حقب كانت مصر الفرعونية سيدة العالم القديم، وتهيمن على كثير من البلدان المحيطة بها، وهذه السمات دون مغالاة أو تزيُّد تؤكد أن الحاكم:

- **جليل القدر:** وهي درجة أقل من القدسية بقليل؛ ولذلك نتحرَّج من الاقتراب منه، ونحيط أي شيء يتصل به بهالة، فحتى اسمه يحاط بعبارات السيادة والفخامة.
- **هو عليم حكيم:** إذ ندَّعي له بالعلم والمعرفة والإحاطة بكل شيء؛ ولذلك فهو دائمًا في نظرنا حكيم زمانه.
- **أحلامه أوامر:** فكل ما ينطق به يقطُر حكمة؛ ولذلك فأوامره وتوجيهاته.. أو حتى تلميحاته وإيماءاته واجبة النفاذ، وكأنها قانون ملزم.
- **منزَّه لا يُخطئ:** فحتى القرارات التي يثبت بالتجربة فشل تطبيقها، أو إضرارها بمصالح الكثير من الناس، تجد ألف من يبرر صدورها، ويشرح مدى تقدميتها، وجدواها التي لم تدركها العقول بعد؛ ولذلك يجب التسليم، والخضوع للرئيس، ولكل ما يأمر به.

---

(١) نقلا عن : تاريخ الحضارات العام - بإشراف موريس كورروازية - ترجمة فريد داخر و فؤاد أبو ريحان - المجلد الأول - ص ٥٢-٥٣ .

- **هو القانون:** فأوامره ملزمة، وعلى ترزية القوانين - في ظل دولة تحكمها مؤسسات - أن يُفصِّلوا القانون على مُراده، ووفقًا لرأيه، ولما أشار به.. على أن تكون فضفاضة وهلامية، بحيث إذا أراد الاستثناء منها، أو الخروج عليها تكون التفسيرات المختلفة.. أو المتناقضة أحيانًا جاهزة من قِبلهم.
- **مثال يُحتذى:** تقلده الرعية، خاصة المحيطين به.. حتى في المظهر.
- **عادل منصف:** أو هكذا تُقدِّمه وسائل الإعلام، وأبواق الدعاية، بوصفه لا يُريد إلا المصلحة العامة، وإحقاق الحقوق لأصحابها، وأوامره إلهام ووحي من الله العادل؛ ولذلك يُركِّزون على أن الجميع يلجئون له في كل شيء، وأن كل الأمور تُقضى بتوجيهات عُليا منه.
- **متواضع رحيم:** يستمع للجميع ويحل مشاكلهم.. لكنه في نفس الوقت يضرب بيد من حديد على أيدي عُمَّاله المتصرفين (أي الوزراء والقيادات الأدنى منه).

أليست هذه هي الصورة، التي يُحاول المحيطون بأي رئيس أن يروِّجوا لها بين الناس؟؟ فهل الفروق بينها وبين الصورة القديمة للفرعون الإله كبيرة؟؟ نلاحظ بالطبع أن الفرق فقط في المسميات والألفاظ.. لكن المعاني وما توحي به القصص من سمات واحدة تقريبًا.

هذا وقد يتبادر للذهن سؤال ملح مؤداه: كيف آمن المصريون - وهم من هم فكرًا، وحضارة، وعلمًا - بأن الفرعون هو الإله؟!لكن أديبنا الكبير نجيب محفوظ يرد على هذا التساؤل ببساطة متناهية تحسم الأمر قائلا: "لم يكن عجيبًا أن يعبد المصريون فرعون.. ولكن العجيب أن فرعون آمن حقًا بأنه إله"[1]، ونستطيع أن نشير هنا إلى

(١) مجلة الهلال - يونيو ٢٠٠٤ - ص ٧٣ .

الدور الذي كان يقوم به الكهنة في تشكيل صورة الفرعون، ونجاحهم في إقناع الرعية بأنه إله.. لا بل وإقناعهم للفرعون نفسه بأنه بالفعل إله، وهي المهمة التي يقوم بها الآن وبمهارة منقطعة النظير المحيطون بأي رئيس معاصر.. ليس في مصر وحدها.. بل في العالم العربي كله.

الحاكم في بلاد الرافدين

إذا كان هذا هو الحال في مصر القديمة، كإحدى أهم الحضارات الشرقية، التي أثَّرت في صور الرؤساء العرب.. فماذا عن حضارة بلاد الرافدين؟ وكيف كان يؤله فيها الملوك؟؟ يجيبنا عن هذا التساؤل أيضًا الدكتور إمام عبد الفتاح، في إطار حديثه عن الطاعة البابلية قائلا: " كانت السلطة السياسية في بلاد ما بين النهرين تستند باستمرار إلى مصدر إلهي، فلقد هبط النظام الملكي من السماء، والملك هو " حاكم المدينة " وهو " الكاهن الأعظم " وهو نائب الآلهة ومندوبها.

"و يفاخر الملوك بالأصل الملكي، الذي ينتسبون إليه.. لكنهم مع ذلك لا يفتئون في الوقت ذاته يُذكّرون الناس باختيار الآلهة لهم! وإذا ما اختار الملك ابنًا ليتولى الحكم بعده، حرص على أن يعرض هذا الاختيار على الآلهة لتقره.

"و بعد المصادقة على الاختيار يُقسم الابن يمين الولاء والخضوع والاحترام لأبيه، ويدخل "المختار" إلى بيت الوراثة حيث يُدرَّب على مهام منصبه المقبل، ويوم ارتقائه العرش تُجرى احتفالات دينية، يُمنح أثناءها الابن المختار اسمه الملكي، ويُقلَّد الشعارات رمز السلطة الإلهية"[1]، ويجدُر بنا أن نلفت النظر هنا إلى أن فكرة إطلاق اسم

(١) الطاغية – ص ٣٣ – نقلا عن : تاريخ الحضارات – المجلد الأول – ص ١٣٩ .

ملكي لكل حاكم، كطقس بابلي قد بقي وأصبح ملمحًا أساسيًا، وتوارثته بلاد الرافدين حتى في العصر الإسلامي، والعباسي على وجه الخصوص، كما سيأتي بيان ذلك في حينه.. لا بل والأدهى والأمر أنه انتقل من بلاد الرافدين إلى مصر في العصر العباسي، وغيرها من ولايات الخلافة الإسلامية، وظل هذا الأسلوب يُتّبع حتى الآن في بعض النظم الجمهورية!!

هذا ويؤكد الدكتور إمام عبد الفتاح، على فكرة " الطاعة المطلقة "، التي مارسها سكان بلاد الرافدين العراقيون الآن كسمة أساسية من سمات العلاقة بين الحاكم والمحكوم منذ الأزل، ويُبدي رأيه في العلاقة بين ما كان وما هو كائن حتى الآن، فيقول عن ذلك: " لقد كانت الفضيلة الكبرى في بلاد ما بين النهرين عمومًا، وبابل بصفة خاصة، هي الطاعة التامة.. فالدولة تقوم أساسًا على الطاعة والخضوع للسلطة، فلا عجب أن نرى إذن أن " الحياة الفاضلة " في أرض الرافدين كانت هي الحياة المطيعة.. حيث كان الفرد يقف في مركز مجموعة من الدوائر المتلاحقة من السلطة، تحد من حرية عمله ونشاطه، وكان الأمر في الماضي السحيق، على نحو ما هو عليه في يومنا الراهن، تبدأ دوائر السلطة أو الطاعة - لا فرق - بدائرة الأسرة، حيث يوصَى العراقي القديم بهذه العبارة: " اسمع كلمة أمك؛ كما تسمع كلمة إلهك، واسمع كلمة أخيك الأكبر؛ كما تسمع كلمة أبيك"، وتنتهي هذه الدوائر بالدولة والمجتمع، فهناك المراقب والمحاسب، والمشرف في الزراعة، وفي التجارة، ثم هناك الملك وهو فوقهم جميعًا، والكل يطلب الطاعة من المواطن.. بل الاستسلام والخضوع المطلق، وكان العراقي القديم كالعراقي الحديث، ينظر إلى الجمهور الذي لا قائد له نظرة الاستياء والشفقة، والخوف أيضًا: " الجنود بلا ملك غنم بلا راع "! (لاحظ تعبير الغنم، وهم حتى في

حالة وجود الراعي لا بد أن يكونوا غنمًا! إلخ). والعمال بلا مراقب كالمياه بلا مفتش ري "، و" الفلاحون بلا مشرف كحقل بلا حارث "

"و هكذا نجد أنه يستحيل وجود عالم منظم ما لم تفرض عليه سلطة عُليا إرادتها، والفرد هنا يشعر بأن السلطة دائمًا على حق - كما كان المصريون يعتقدون أن فرعون لا يمكن أن يرتكب خطأً أو يقترف إثمًا"[1].

الحاكم في الحضارة الفارسية

من كل ما سبق يتضح لنا المرتكزات الأساسية التي تقوم عليها فكرة تأليه الحاكم في الحضارتين الفرعونية والبابلية، وهما: فكرتا التقديس للحاكم، وطاعته، فماذا عن تأليه الحاكم في الحضارة الفارسية؟؟ التي تميزت فكرة التقديس لديها بطقوس كان من أبرزها كما يحدثنا بذلك دكتور إمام عبد الفتاح، وكثير من المراجع التاريخية التي اعتمد عليها، تقول: "إنه عندما غزا الإسكندر فارس، وجد القوم يسجدون للإمبراطور ويؤلهونه، فابتدع سياسته الخاصة بالمزج وإدماج العناصر المقدونية بالفارسية في إمبراطوريته، واتخذ في المناسبات العامة الزي الفارسي، ومراسم البلاط الفارسي، وإذ ذاك أزمع على اقتباس تلك العادة الفارسية: عادة السجود للملك. وهي التي كان يتعيَّن بمقتضاها على جميع من يقتربون من الملك السجود له، وهو إجراء تقتضيه بالنسبة للفرس الشعائر الرسمية!.. ولكنه كان في نظر اليونانيين المقدونيين ينطوي على عبادة حقيقية للحاكم، وما كان الإنسان ليسجد إلا للآلهة"[2]، وهذا الحديث بالذات يدلنا على أساليب انتقال التقاليد، والطقوس، والأفكار بين الحضارات المختلفة،

---

(١) الطاغية - ص ٣٤ .

(٢) الطاغية - ص ٣٥ .

مهما اختلفت طبيعتها.. شرقية كانت أم غربية، فتلاقحها يعتمد على ما يريد حكامها اقتباسه من أية حضارة، وفرضه على شعوبهم، أو تأثر هذه الشعوب بما يُمارس في الحضارات التي تحتك بها، وكمثال لذلك يمكن أن نشير أيضًا إلى " نقل الإسكندر فكرة " التاج " من فارس.. حتى أصبحت مرادفة للملك، وكذلك لفظ العرش"[1].. لكن هذا الانتقال كان مرهونًا بمدى قبول ورضا المحكومين بما يُفرض عليهم، أو عدم رضاهم وعدم قبولهم لما يُعد تصرفًا دخيلا على عاداتهم وتقاليدهم، الأمر الذي يجعلهم يرفضونه، ولا يمارسونه، وقد يجعل الحكام أنفسهم يتراجعون عن فرضه على الرعية الأبية، وكمثال لذلك أنه " عندما ابتدع الإسكندر عادة السجود هذه، تطورت الأمور على نحو غير منتظر، فقد عارضها المقدونيون بشدة، وأظهر البعض استياءه وغضبه.. بل إن أحد قواده فعل ما هو أسوأ من المعارضة، فعندما سمع بمطلب الإسكندر، استولت عليه نوبة من الضحك! ... وكان الإسكندر قد أوتي قدرة فائقة على الإحساس بما هو ممكن من الأمور، فأسقط السجود من حسابه نهائيًا"[2].

هذا وقد كان الحكم في الحضارة اليونانية يشبه النظم الجمهورية أكثر من النظم الملكية الشرقية.. ورغم أن اليونان قد عرفت عصرًا سُمي بعصر الطغاة استمر لما يقرُب من قرن ونصف.. إلا أنه لم يحدُث أن طلب إمبراطور يوناني من رعاياه أن يسجدوا له، كما هو الحال في الشرق، ويقول دكتور إمام عبدالفتاح إمام عن ذلك: "صحيح أن المدن اليونانية تقلّبت عليها الأنظمة، وعرفت من بين ما عرفت النظام الملكي.. لكنه لم يكن بقسوة النظام الشرقي؛ وتبعًا لذلك يظل من الصواب أن نقول: إن المدينة اليونانية كانت جمهورية، في مقابل

(١) الطاغية - ص ٣٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٩ .

النظام الملكي في الشرق، ولهذا فإنه يُقال عادة إنه بعد غزو الإسكندر للشرق انهزمت المدينة اليونانية الجمهورية، وانتصر النظام الملكي"[١]، وهذا يوضح لنا بعض الجذور الفارقة بين النظرة للحاكم في الشرق وفي الغرب. وأسلوب التعامل مع الحاكم في كلا النظامين.

وهكذا نجد أن " الإسكندر لم يُفكر في تأليه نفسه إلا في الشرق، موطن تأليه الحكّام؛ ولهذا كانت آسيا هي الأصل والمنبع للاستبداد، في كل الفلسفة السياسية في أوروبا، وكان الطغيان الشرقي هو النموذج، الذي تحدَّث عنه المفكرون، في عصر التنوير"[٢].

هذا ولعل التقديس الفارسي القديم للملوك والحكام والأباطرة قد بقيت بعض ملامحه حتى العصر الحديث، وشاهد المعاصرون لها بعض ملامحه إبان عصر الشاه محمد رضا بهلوي آخر أباطرة عرش الطاووس، بكل ما أحاط بنظامه من أبهة وبذخ شاهنشاهي، في مقابل ما عاناه الشعب الإيراني من قهر جعله يثور ثورته العارمة الشهيرة، التي بدأت إرهاصاتها في نهاية السبعينيات، ونجحت في مطلع الثمانينيات في تغيير وجه الحياة في إيران.. وليس مجرد تغيير نظام الحكم من نظام إمبراطوري، إلى نظام حكم الملالي، ذي الطابع الديني.

هذا وقد كانت أخبار تململ الإيرانيين من مفاسد حكم الشاه لا يُشار إليها بحال في داخل إيران - كما هي عادة الشرقيين - لكن وسائل الإعلام الغربية هي التي بدأت تقدم الدليل تلو الدليل على فساد حكم الشاه وظلمه لشعبه، وتهريبه بلايين الدولارات من أموال هذا الشعب، هو وشقيقته التوأم إلى خارج إيران، بما يشير إلى اعتباره أغنى رجل في العالم، ويشير إلى ممتلكاته في الخارج من

---

(١) الطاغية - ص ٣٧ .

(٢) Perry Anderson : Lineage_s of the Absolutist State P. 463, Verso, London 1989.

قصور وضياع واستثمارات في معظم دول العالم الغربي.

وقد كانت الصورة الذهنية المرسومة للشاه آنذاك والتي ساهم هو بنفسه في تكريسها تتسم بالعظمة والأبهة والبذخ؛ بوصفه ملك الملوك كما كان يلقب باللغة الفارسية " الشاهنشاه "، وكان يُرصد لتحقيق هذه الصورة الذهنية، بندًا دائمًا في الميزانية الإيرانية السنوية يتضمن مصاريف رئيس الدولة - أي الشاه - وقد بلغت سنة ١٩٧٦ - ١٩٧٧ ثلاثة وأربعين مليون دولارا، كما رُصد في ذلك العام بليون دولار وضعت تحت تصرف الشاه.

وقد كانت الصورة التي يُروَّج لها عكس الحقيقة تمامًا، مما لم يكسبها أية مصداقية، الأمر الذي عجَّل بقيام الثورة الإيرانية ضد الشاه، الذي كان يحاول أن يظهر في سنواته الأخيرة بمظهر الحاكم الذي يريد أن يحرر بلاده من الإقطاع والإقطاعيين، بأن يوزع الأرض على الفلاحين.. إلا أن الأرقام التي كانت توردها تقارير الدوائر الغربية كانت تؤكد عكس ذلك تمامًا فالشاه كان أكبر إقطاعي ليس في إيران وحدها إنما في العالم كله، فقد كان يمتلك مئات القرى، بما عليها ومثلها من المراعي.

وعندما أقامت وزارة الزراعة الإيرانية بنكًا لشراء الأراضي المخصصة للتوزيع على الفلاحين الإيرانيين من الإقطاعيين، باع البنك تلك الأراضي للفلاحين بفائدة قدرها عشرة في المائة، فكانت النتيجة أن حوالي ١٥ ٪ فقط من تلك الأراضي بيعت لهؤلاء الفلاحين، وأنهم أثقلوا بالديون فتحول الإصلاح الزراعي المزعوم إلى فائدة للإقطاعيين الذين ظلوا يملكون الأرض، ويملكون ٥٦٪ من إجمالي الأراضي الإيرانية.

ولنقس على ذلك كل القطاعات من عمال وموظفين كانت أجورهم متدنية، بل وتقول الأرقام الغربية أن ٤٠٪ من العائلات الإيرانية كانت

تقيم في مساكن صغيرة تبتلع القسم الأكبر من أجورهم، وأن ٢٣٪ من الأطفال الإيرانيين كانوا يموتون سنويًا؛ بسبب سوء التغذية وعدم توفير الخدمات الصحية.. لا بل ووصل الحال إلى القول بأن متوسط العمر في إيران لا نجد له مثيلا في الانخفاض؛ لأنه يبلغ ٣٨ عامًا فقط!

أما عن إرهاب الشاه للشعب الإيراني فكان كما تشير التقارير الغربية خطيرًا بالفعل، خاصة ما كان يتعلق بالمخابرات الإيرانية، التي كانت معروفة باسم جهاز " السافاك "، الذي بلغت ميزانيته مئات الملايين من الدولارات، وانتشر زبانيته في كل أنحاء العالم لتعقب أفراد الشعب الإيراني، ناهيك عما كان يُمارس داخليًا ضد العمال المضربين في أحداث نهاية الخمسينيات، وإضرابات طلاب المدارس المتوسطة بسبب القيود السياسية عام ١٩٥٩، وكانت السافاك تقتل منهم المئات، وتصاعد التعسف الشاهنشاهي فتصاعدت أعداد القتلى في مظاهرات طلاب الجامعات والمدارس، ومواكبهم الدينية ليصل إلى أربعة آلاف طالب وطالبة عام ١٩٦٣، واستمر الحال في تصاعد في مواجهة إضرابات العمال في إبريل ١٩٧٤، فقد وضعت منظمة العفو الدولية تقريرًا عن أساليب التعذيب التي مارستها عناصر السافاك قالت فيه " إن السافاك لا تستعمل الوسائل المعروفة من صدمات كهربائية وضرب فحسب، وإنما تلجأ إلى ممارسات أخرى ابتدعتها مثل إدخال الزجاجات المكسورة في ... أو ربط الأوزان الحديدية إلى .... أو ترويض حيوانات متوحشة لتقوم بعمليات الاغتصاب "، كما جاء في التقرير أن عدد المعتقلين لدى السافاك لم يكن ذات يوم يقل عن خمسة وعشرين ألفًا من المواطنين الإيرانيين.. وإن كان قد بلغ في كثير من الأحيان ما يزيد عن مائة ألف.

والغريب حقًا أنه قبل أيام فقط كان الشاه يريد أن يصور فيلمًا

عما حققه وأنجزه في إيران من أعمال باهرة ومن عدالة اجتماعية، وكان الحديث يدور في وسائل الإعلام الإيرانية عن مئات الجمعيات الخيرية التي تقوم بالإشراف عليها الشهبانو.

وقد تمثلت مظاهر العدالة الاجتماعية الشاهنشاهية في آخر أعياد الشاه التي كانت بكل المقاييس احتفالات أسطورية، تناولتها كل وسائل الإعلام المحلية والعالمية، وهي التي كلفت خزينة إيران أربعمائة مليون دولار، وكان آخر عيد ميلاد أقيم للشاه في قصره داخل إيران قد تكلف مليون دولار وأحضرت كل المأكولات والمشروبات المقدمة فيه من أشهر مطاعم باريس، والشعب الإيراني يتضور جوعًا، ووسائل الإعلام التي ترسم للشاه أبهى صورة تواصل رسالتها المقدسة تجاه الحاكم، فكما هي العادة لا يجرؤ أحد في الشرق أن ينبس ببنت شفة ضد الرؤساء.. ولكنهم ما يلبثون فور سقوطهم أن يتباروا في وضع الكتب التي تشير إلى كم وحجم الفحش والفجور وعظائم الأمور التي كانت تمارس، وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة لعصر الشاه، إذ دُبجت الكتب العديدة التي وصل الحد بها للإشارة إلى أن سلطات الشاه كانت تعمد إلى إلقاء الشعب الإيراني نفسه - على حد قولهم - في أحضان الفجور والإباحية.

نماذج من الحكام في مصر

لما كانت مصر من أبرز النماذج العالمية.. ولا أقول العربية وحسب من حيث تبدُّل وتناوب الحكام عليها من كل حدب وصوب، ما بين حيثيين، وهكسوس، وليبيين، ونوبيين، وروم، وفرس، ومماليك، وفرنجة: فرنسيين، وإنجليز، كما حكمها رؤساء وملوك وأباطرة من كل نوع وجنس: نساء ورجال وخصيان، كما أنها كدولة من أقدم النظم السياسية، قد عرفت نظم حكم مختلفة: ملكية، وإمبراطورية،

وخلافة، وولاية، وسلطنة، وإمارة، وأخيرًا جمهورية، وكانت يومًا ما حاضرة العالم العربي.. إن لم نقل حاضرة الدنيا، وكانت أحيانًا مجرد ولاية، أو إمارة تابعة لدولة عظمى، كما عانت من الاحتلال بكل ألوانه، ونالت حريتها واستقلت عن مستعمريها عدة مرات، وتعاقب عليها الغزاة والمستعمرون من كل دين ومِلَّة، إلى أن تحررت مؤخرًا من الاستعمار، قبل ما يزيد قليلاً عن نصف قرن؛ لكل ذلك رأيت أن نبدأ بها كنموذج لصورة الحاكم أو الرئيس في العالم العربي؛ لنتتبع هذه الصورة بعمق وتفصيل أكبر من أي دولة عربية أخرى، مرورًا بمختلف العصور التي تعاقبت عليها؛ الأمر الذي يستلزم التعرض لجانب تاريخي للتعريف بحكامها على اختلافهم.

بعد أن أشرنا سلفًا إلى صورة الحُكام في مصر القديمة؛ ممثلة في الفرعون الإله الذي كانت له صفات الجلالة والألوهية، والذي بلغت مصر في عصور بعض هؤلاء الفراعنة شأوًا عظيمًا، وحققت أمجادًا عسكرية، ونهضت فيها العلوم، والفنون، والتجارة، وشتى مظاهر الرفاهية، والتطاول في البنيان؛ حبًا وعبادة وزلفى لهذا الفرعون الإله.. رغم كل ما يوصف به هؤلاء الفراعنة، في المراجع التاريخية من عنت وصلف، الأمر الذي يجعلنا نتعجب كيف يمكن لشعب مُستعبد أن يُبدع أكثر وأروع في ظل العبودية؟! وكيف يمكن أن ينصب إبداعه على تمجيد الحاكم، وبناء الأهرام كمقابر عظيمة تمجده، وتظل أثرًا لآلاف السنين من بعده، ويقضي الشعب عشرين عاماً في بنائها؟! وكيف يتفانى الشعب في رسم وكتابة تاريخ الفرعون الإله على جدران المعابد، والمسلات، والخراطيش، راسمًا له صورة محببة وعظيمة في آن معًا إذا كان يعاني في ظل حكمه من العبودية؟! وكيف لا يُبدع نفس الشعب الآن بنفس المستوى، وهو - كما يُفترض - حر غير مستعبد؟! هنا يمكننا الإشارة إلى أن ازدهار الحياة

المصرية: ربما كان لرضا الناس عن ملكهم وحبهم له بوصفه حاكمًا صالحًا، وقديرًا، وعادلا يدير الدولة إدارة ناجحة.. وإن تميزت بالحزم والشدة ولذلك تزدهر الحياة بكل مناحيها ومظاهرها، ولعل ذلك هو التفسير الذي يمكن أن يُبرر إبداع المصريين في ظل نظم الحكم القوية القاهرة.

هذا ولعلني أرى أن ما خطه المصري القديم تمجيدًا لحُكامه كان رسمًا لصورة ذهنية لهذا الحاكم.. كان الهدف منها أن تُروِّج له، وتحبب الرعية فيه، وتُقرِّبه من قلوبهم أو عقولهم، بتعديد مآثره وانتصاراته، ناهيك عن إحاطة اسمه - مجرد اسمه - بهالة من التبجيل والاحترام داخل الخراطيش، وفي كل المدونات التاريخية، سواء أكانت على جدران المعابد أو على المسلات، أو على البرديات، إذ إن أسماء الملوك كانت تحاط بخرطوش مميز لها عن باقي النص المكتوب، وقد بدأ تصميم الخراطيش مبسطًا في العصر الفرعوني، وأصبح يتطور ليصبح أكثر تعقيدًا في العصر البطلمي، وهو ما يفعله الآن تمامًا خبراء الصورة الذهنية، أو المحيطون بالرؤساء، فمن غير المعقول أن يكون المصريون القدماء قد خطوا وشيدوا كل ذلك فقط تخليدًا للذكرى، أي أنهم كانوا يكتبون لنا.. وليس للشعب المعاصر لهذا الملك أو ذاك!! أي لرعيته؛ بدليل أن بعض من كان يأتي إلى سدة الحكم من الملوك، كانوا يمحون ما سطره مريدو من قبلهم، ويسطرون هم أمجادهم، أو ينسبون لأنفسهم ما فعله الأولون؛ كمحو لذكراهم وطمس لتاريخهم؛ حتى لا تظل قلوب الرعية معلقة بمن سبقوا من حكام، وهو الأمر الذي ما زال يحدُث حتى الآن في بعض الدول العربية - وفي مصر بالذات- وقد عاصرنا جميعًا نماذج من لذلك، خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي.

الدولة الحديثة

إذا عدنا إلى العصر الفرعوني بمزيد من التفاصيل، فسنجد أن أحوال مصر قد تدهورت في نهاية الدولة الوسطى، التي انتهت بغزو الهكسوس لشمال مصر.. دون جنوبها، إلى أن قيَّض الله لها في عصر الدولة الحديثة، في الفترة من ١٥٨٠ إلى ١٣١٤ ق. م عددًا من الملوك، الذين خاضوا حروبًا لتحريرها، وطردوا الهكسوس، وأدخلوها في طور حربي عظيم، تمكنوا فيه من فتح فلسطين وسوريا. حتى وصلوا إلى نهر الفرات شمالا، والشلال الرابع في السودان جنوبًا، وكوَّنوا ما سُمِّي بعهد الإمبراطورية، وعاشت مصر في ظلهم في بلهنية وعز، واشتهر من هؤلاء الملوك أحمس، وأمنحتب، وتحتمس، وحتشبسوت أول ملكة مصرية، ثم تلا ذلك عصر الرعامسة الأوائل: من رمسيس الأول حتى العاشر، ونعمت مصر في هذه الحقبة بمجد حقيقي.. ولكن عصر الرعامسة استُكمِل بتسعة ملوك آخرين، بدءًا من رمسيس الحادي عشر، وحتى التاسع عشر، لكنهم كانوا " ملوكًا ضعافًا، تسببوا في سقوط الأسرة العشرين، وبداية عصر الاضمحلال الأخير من الأسرة الحادية والعشرين، إلى الأسرة الحادية والثلاثين، التي انتهت بغزو الإسكندر المقدوني لمصر"[1].

عصر الفرس والإغريق

بدأ هذا العصر بعد أن تمكن المصريون من طرد ملوك النوبة، والقبض على زمام الأمور بمعاونة الإغريق، لكن مصر سقطت في يد قمبيز ملك الفرس سنة ٥٢٥ ق. م.، الذي حكمها إلى أن انتهى حكم

---

(١) د. ناصر الأنصاري - موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم - دار الشروق - الطبعة الثالثة ١٩٩٨ - ص ٣٤ .

الفرس بغزو الإسكندر لمصر عام ٣٣٢ ق. م.، إذ سلمها الوالي الفارسي له دون مقاومة، واستقبله المصريون بالترحاب؛ لتخليصه لهم من الاحتلال الفارسي، وقد حكمها الإسكندر حتى توفي عام ٣٢٣ ق.م. وهنا تجدر الإشارة إلى أمر لا بد من ملاحظته - بالنسبة للشعب المصري - يتعلق بمدى رضاه عن مقدم الغزاة إلى أرضه؛ ليُخلِّصوه من حكامه، فيرحب بهم، ويرضى بالخضوع لحكمهم، ثم لا يلبثون أن يسوموا هذا الشعب الطيب ألوان العذاب، فيضج منهم ويسخط عليهم، إلى أن يأتيه غزاة آخرون، فيتوهم أنهم أفضل من سابقيهم، فيرحب بهم دون أن يتعلم من الدرس، الذي طالما تكرر عبر التاريخ المصري الطويل، كما سنرى فيما يلي.

عصر البطالمة

بوفاة الإسكندر - الذي رحب به المصريون - بدأ عصر البطالمة؛ حيث إن الإسكندر قد مات، قبل أن يُنظِّم وراثة العرش، في كل الإمبراطورية المقدونية، كما لم يترك وصية بترشيح خلف له.

وحكم البطالمة مصر، إلى أن زاد نفوذ روما فيها بسبب خلافاتهم، واحتكامهم الدائم لروما، وكان الفصل الأخير في تاريخ دولة البطالمة في مصر بارتقاء كليوباترا السابعة العرش عام ٥١ ق. م. وما هو معروف عن قصتها مع يوليوس قيصر، ثم ماركوس أنطونيوس، ثم انتصار أوكتافيوس على الأخير عام ٣١ ق. م. في موقعة أكتيوم، ودخوله الإسكندرية في العام التالي، فانهارت دولة البطالمة في مصر بدخول الرومان، أي أن التخلص من هؤلاء الحكام قد جاءهم أيضًا من الخارج وليس بثورة منهم.

الحكم الروماني

انضوت مصر تحت راية الإمبراطورية الرومانية، في عهد الإمبراطور أغسطس، ولم تحدثنا كتب التاريخ عن ثورات مصرية عنيفة، أو رفض جازم صارم للحُكام الأجانب رغم أن القرون الثلاثة الأولى للحكم الروماني كانت تحمل تعبيرًا عن عدم رضا الشعب بحكامه الجدد، واحتجاجًا منهم على نظام الضرائب المرتفعة، ولكن لم يكن لهذه الثورات أثر فعال.. إلا أن الفوضى قد عمت أنحاء مصر نظرًا للاضطهاد والتعذيب الذي عانى منه المصريون على أيدي الحكام الرومان، حتى في ظل الإمبراطورية الرومانية الشرقية المسماة بالدولة البيزنطية، وإن كان اعتلاء الإمبراطور قسطنطين العرش، والاعتراف الرسمي بالمسيحية، قد جعل المسيحيين يطمئنون على أنفسهم، ويعملون في حرية، " ولكن هذه الحرية أدت إلى ظهور انقسامات وخلافات في الرأي؛ مما أدى إلى نشوء خلافات بين كنيسة الإسكندرية والقصر الإمبراطوري في القسطنطينية، وكانت هذه المنازعات الدينية سببًا في ازدياد الكراهية والعداء الشديد، بل والمقاومة العنيفة للحكومة الإمبراطورية في القسطنطينية، وزاد من أسباب كراهية أهالي مصر للحكومة الإمبراطورية زيادة الضرائب، وفساد الإدارة وظلمها؛ مما أدى إلى فقر داخلي، وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى أزمة اقتصادية، وأزمة اجتماعية، أدت إلى فساد مالي وإداري واقتصادي، وضرائبي، ومنازعات دينية، وإلى إثارة الفوضى، والنزعات الانفصالية أحيانًا"[1].

ويقودنا هذا إلى التساؤل: أليس غريبًا بحق ألا يثور المصريون ثورة عارمة لمجابهة كل هذه المفاسد، ورفض كل هذه المعاناة؟! وفي نفس الوقت حينما يأمنون على أنفسهم، وينعمون بقدر من الحرية يدب الخلاف، وتنشب بينهم النزاعات، والنزعات الانفصالية!! أم تراه

(١) د. ناصر الأنصاري - المرجع السابق - ص ٥١ .

شعبًا قد تعوَّد تأليه الحاكم الفرعوني؟! فأصبح يرضخ أيضًا للحاكم الأجنبي الظالم ويؤلهـه!! أهو شـعب يسـتـعـذِب العـذاب؟! ويعـيش مـسـتكينًا في ظل الحـاكم الظالم المستـبـد، ويتـمـرد على الحكام الضعـاف، أو من يعطونه قـدرًا من الحرية!! الحقيقة التي لا بد من الاعتـراف بهـا: أن طبيعـة هذا الشعب جد محيـرة!! وتحـتـاج إلى دراسات متأنية لسبر أغوار هذه الشخصية المتفردة للشعب المصري - وإن كـان هذا ليس مـوضـوعنا هنا - لكنا طرحناه فـقط؛ من باب الإطلال تاريخيًـا على طبيـعـة تعامل المصـريين مع حكامهم، بكل مشاربهم، ورؤيتهم لهم، ولقدر الرضـوخ لهم، أو رفضهم؛ تمهيـدًا لمناقشة ما آل إليه حالهم مع حكامهم المعاصرين.. لكني أستشهد هنا بقـول الروائي صنع الله إبراهيم، واصفًا شـعب مصـر بأنه: " شعب عظيم فضَّل دائمًا أن يكون مستعبدًا؛ كيلا يُحرم من عشق الحرية والتطلع إليها"[1]!!.. وإن كانت هذه الرؤية للرضوخ المصري للحكام تعد رؤية رومانسية محضة!!.

هذا ولا أريد هنا أن يُفهم مما أثرته من تساؤلات فيما سبق حول موقف الشعب المصري من غزاته أنه رؤيتي الشخصية المتشائمة لهذه الحقبة المظلمة من تاريخ الشعب المصري العظيم، الذي أظهر مقاومة باسلة في أحيان أخرى - للحملات الصليبية مثلا -، بما يوحي بأنه يأبى على نفسه العبودية.. ولكن وفق منطق يحتاج إلى المزيد من التحليل التاريخي لموقفه من غزاته على اختلافهم، وصبره على مستعمريه وظالميه صبرًا يطول أحيانًا إلى الحد الذي يوحي بالاستكانة الكاملة، الأمر الذي جعلني أطرح ما طرحت من تساؤلات حيرى!! وأبدي ما قد يبدو للبعض استنكارًا لسلوك شعب بأسره،

---

(١) شرف - روايات الهلال - العدد٥٧٩ - مارس ١٩٩٧ - الطبعة الثانية - الفصل ٩ - ص١٣٨ .

وذلك ما حدا بي إلى التوصية بمزيد من الدراسات المستفيضة لسبر غور وكنه هذا الشعب العظيم.. الذي يُبدي أحيانًا تضاؤلا أمام حُكامه يبدو غير مبرر، ولا يتسق بحال وعظمته، وعراقته في معرفة أصول الحكم وقواعده.

الدولة البيزنطية

استكمالا لتتبع تاريخ حكام مصر نشير إلى أن هرقل قد حاول احتواء هذه الخلافات الدينية، ولكن الفرس زحفوا على مصر آنذاك، وتمكنوا من إسقاط الإسكندرية عام ٦١٨م، واحتلوا مصر لمدة عشر سنوات، وسط سخط المصريين، إلى أن انتصر عليهم هرقل في معركة نينوى عام ٦٢٧م، وأجلاهم عن مصر.. لكن المصريين اتخذوا موقفًا سلبيًا من عودة البيزنطيين لحكمهم!! وزاد الاضطهاد، وبالتالي كراهية المصريين للحكم الروماني كله.. ولكن دون أن يُحركوا ساكنًا!.. أو لنقل إنصافًا للحق أنهم اكتفوا بالسخط والكراهية.. دون أن تتحول نيران هذه الكراهية إلى ثورة حقيقية، تطيح بهذا الحكم الجائر، وهذا يُعد أمرًا محيرًا أيضًا! في موقف المصريين ممن يحكمونهم، ما زالوا يمارسونه حتى الآن.. مهما زادت وطأة الظروف الاقتصادية عليهم.. يتذمرون، ويسخطون، ويسخرون، ويطلقون النكات.. دون ثورة حقيقية تغيّر الأوضاع، أو تطيح بالحاكم وتغيّره!!

صدر الإسلام

صدر الإسلام هو ما تعارف على أن يُسمى به عصر النبي، والخلفاء الراشدين، قبل أن يُسيَّس الإسلام في العصر الأموي وما تلاه، والفرق بين خلفاء هذا العصر وبين ما آل إليه حال القيادة أو إمارة المؤمنين - كما اصطلح على تسميتها بدءًا من الخليفة الراشد

العادل عمر بن الخطاب - أنها كانت في البداية خلافة راشدة وليست ملكًا. إذ كان بيت المال للأمة جمعاء، وله أمين مستقل عن الحاكم أو الخليفة، في حين أصبح فيما بعد في يد الحاكم المالك، ورهن أهوائه، هو وأعوانه.

وكان الخليفة أو أمير المؤمنين في الخلافة الراشدة يستن سنة النبي، ويعدل بين الناس، في حين تراوحت صور الحكام المسلمين، فيما بعد بين: حاكم عادل، وحاكم مستبد، كما وصل الاستغلال مداه، فبعد أن كان الخلفاء الراشدون الأربعة، وخامسهم عمر بن عبد العزيز، يتعففون عن مس أموال المسلمين، أصبح الاغتراف من بيت المال، هو السمة السائدة بين الحكام والخلفاء، خاصة في العصرين الأموي والعباسي.

هذا ونعود بالحديث عن الرئاسة في صدر الإسلام، فنجد أن كتب التاريخ تحدثنا، بأنه حينما ظهرت على مسرح الأحداث العالمية دولة جديدة في الشرق، هي الدولة العربية، التي حملت دينًا جديدًا هو الإسلام، وبدأت تتوسع خارج الجزيرة العربية، وفتحت مصر عام ٦٤٠م، بين ما فتحت من بلدان، رحب المصريون بالفتح الإسلامي حتى يتخلصوا من التعسف الروماني بكل أشكاله الغربية والشرقية البيزنطية، أي أن الخلاص قد أتاهم من الخارج مرة أخرى ورحبوا به!

هذا وقد تولى حكم مصر، في صدر الإسلام -في عهد الخلفاء الراشدين- ستة ولاة كان أولهم عمرو بن العاص، وآخرهم محمد بن أبي بكر الصديق، بأمر من سيدنا على بن أبي طالب (الذي قتل عام ٤٠ هـ / ٦٦١ م)، وحتى ذلك التاريخ، كان السائد هو الفهم السليم للإيمان، ولتطبيق سنة الرسول في الحكم، فلا جور ولا حيف، ولا تصارع على السلطة؛ حيث كانت القيادة آنذاك قدوة، ومسئولية، وتكليفًا.. وليست تشريفًا أو تنعُّمًا، ولم يكن الأمير أو الخليفة يحظى

بأي شيء يميِّزه عن سائر العباد المحكومين، أو المؤتمرين بأمره، حتى يتكالبوا على السلطة، والاغتراف من مزاياها، وما تحققه للحاكم من نفوذ، بدليل أن أبا بكر الصديق (رضي الله عنه وأرضاه) خرج للتجارة ثاني أيام مبايعة المسلمين له، وتوليته للخلافة، ولما رأى الصحابة أن يتفرَّغ للخلافة، فرض له أبو عبيدة بن الجراح، وزير مالية ذاك الزمان، وأمين الأمة وأمين بيت المال، قوت يوم مثل أحد المهاجرين، وقال له: " لا أنت أفضل، ولا أقل "، كما فرض له كسوتين، واحدة صيفية، والأخرى شتوية، على أن يُسلمها لبيت المال إذا أخلقت (أي دابت)؛ ليحصل على كسوة أخرى.

وبنفس المنطق عندما تولى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه وأرضاه)، قال له علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): "سأفرض لك ما يُصلحك ويُصلح عيالك بالمعروف، فقال عمر: "القول ما قاله علي"، وقبل ما فرض له بنفس راضية، كذلك كان الحال بالنسبة لعمر بن عبد العزيز الذي سأل زوجته درهمًا؛ ليشترى عنبًا، فقالت له: لا، فقال: " هذا أهون علينا من سلاسل الأغلال في أيدينا في جهنم "، حيث كان يُنظر لأكل مال المسلمين على أنه حرام، ومصير أكلُه نار جهنم!! فأين ذلك مما رأينا عليه خلفاء الدول الإسلامية فيما بعد، حينما بدأ التصارع على السلطة والممالك، من أجل العز، والجاه، والسلطة، والسطوة، والصولجان؟!!!

الدولة الأموية

بعد وفاة أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) أسس معاوية بن أبي سفيان من بعده الدولة الأموية في دمشق، وتولى على مصر في عهد هذه الدولة ٢٥ واليًا، كان أولهم أيضًا عمرو بن العاص.

وطالما كان الحديث عن الدولة الأموية، فلا بد من الإتيان على ذكر

أمر هام، يتعلق بموضوع صناعة الصورة الذهنية للحكام، التي نتصور جميعًا أنها ظاهرة أو علم غربي المنشأ، أمريكي الصنع.. لكن وقائع التاريخ الإسلامي تشير إلى استخدام المسلمين لوسائل إعلامية - بمفهوم ذلك العصر - كان من شأنها التأثير في صورة الحكام، إذ يشير بعض المؤرخين القدامى إلى أن: " أول من وضع القصص في الإسلام هم الحرورية من الخوارج، بمعنى أنهم أول من بدَّل القصص الديني وزاد فيه لتأييد وجهة نظرهم الدينية والفكرية، وهو موقف مفهوم، في ظل الصراع الفكري والديني المأساوي، الذي اندلع بين أنصار الإمام علي، وأنصار معاوية بن أبي سفيان. فيما عُرف في التاريخ الإسلامي بالفتنة الكبرى، والذي انتهى بسيطرة الأمويين على الحكم، وهزيمة شيعة علي، وخروج الحرورية الخوارج على الجميع"[1]، وهذا يؤكد لنا العلاقة التي اكتشفها الأمويون بين القصص الديني الإسلامي والسياسة، وإدراكهم لأهمية الفن القصصي كوسيلة إعلام فاعلة آنذاك، واستخدامهم لها في مجال رسم صورة الأمراء والولاة والخلفاء.

ويشير سيد خميس في هذا الصدد إلى أن الخليفة معاوية قد أدرك مبكرًا " السحر الإعلامي للقصص الديني، وقوة تأثيره في نفوس العامة، فبعث في طلب القصاص، وجمعهم إليه، وأجرى عليهم الرواتب من بيت المال، ثم أوعز إلى قصَّاصيه، وقد أصبحوا موظفين في الدولة، في مصر والشام، بالدعاء له بعد صلاة الصبح والعشاء، فكان القصاص يجلس بعد انتهاء الإمام من صلاة الصبح، فيذكر الله ويحمده، ويُصلي على نبيه، ثم يدعو للخليفة، ولأهله وجنوده بالنصر والتأييد، ويدعو على من يُحاربه، وعلى الكفار عامة! وكان بعض

(١) سيد خميس - القصص الديني بين التراث و التاريخ - مكتبة الأسرة ٢٠٠١ - سلسلة الأعمال الخاصة - ص ٨٠ .

القصاص يستخدم يديه في تأكيد وشرح ما يقصه، ومن هؤلاء سليم بن عز الذي عين كأول قاص بمصر عام ٣٨هـ، وبهذا انقسم القصص الديني الإسلامي إلى: قصص يؤلفه الخاصة؛ لأداء وظيفة سياسية وإعلامية: لصالح الحكم القائم، وقصص يرويه قصاص العامة؛ للوعظ وللتعليم؛ حسبة لوجه الله واحتسابًا"[1].

وإذا استطعنا أن نرصد بداية استخدام الإعلام القصصي الشفهي؛ كوسيلة لتحسين صورة الحاكم منذ بداية تسييس الإسلام إبان العصر الأموي، فلا بد من الإشارة إلى أنه لم يكن كله يُستخدم بهذا الغرض.. بل كان هناك نوع ثالث ذكره الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين "، كان الهدف منه دينيًا بحتًا، هو التحذير، والتذكير.. لكن ظل القصص المتمثل في مرويات الشيعة عن آل البيت، وخاصة فيما يتصل بمقتل الإمام الحسين (رضوان الله عليه) ظل يلعب خيالهم المشوب بالعاطفة المشبوبة دورًا هائلا في تأليف القصص الخيالي، على حساب الوقائع التاريخية، حتى " اختفى الأصل، وأضيف إليه من مبالغات، لعب الحب المفرط لآل البيت والخيال فيها دورًا لا يمكن تصديقه"[2].

أما عن الأسلوب الآخر الذي كان الأمراء والخلفاء الأمويون بوجه عام، وفي الأندلس على وجه الخصوص، يرسمون به صورتهم، فكان باستخدام الألقاب التي ينتحلونها لأنفسهم، أو يُطلقها عليهم المقربون منهم، والتي كانت دائمًا مصحوبة بلقب رقمي مثل: الأول، الثاني.. وهكذا تمييزًا للخلفاء ذوي الأسماء المتكررة؛ تيمنًا بأجدادهم، مع لقب مُحبب يُضاف للاسم والترقيم، مثل: الداخل، والرضا، والمرتضى، والأوسط، والناصر، والمستنصر، والمؤيد، والمستعين، والمستكفي،

(١) المرجع السابق – ص ٨١ .
(٢) سيد خميس – مرجع سابق . ص ٨٤ .

والمعتمد، والمستظهر، والمهدي[1].

أما أمراء الطوائف الذين تولوا في الأندلس، فلم يُلقَّبوا في البداية بأي لقب يمنحهم سمة معينة تقدمهم للرعية، عدا كلمة " أبو"، ونسبته إلى اسم ابنه، أو أبيه، ثم بدءوا بعد ذلك يلقِّبون أنفسهم بألقاب شبيهة بالخلفاء من مثل: القاضي، والمعتضد، والمعتمد، والمظفر، ومعز الدولة، والمستعين، والمقتدر، والمؤتمن، وعماد الدولة، والناصر، والمتأيد بالله، والقائم، والعالي، والمستعلي، والقادر، وصاحب المرية، وعز الدولة، وناصر الدولة، وعميد الدولة، والمستظهر، والموفق، وإقبال الدولة، مع تكرار هذه المسميات وشبيهاتها[2].

هذا وتعطينا كل هذه المسميات مؤشرًا لإدراك هؤلاء الولاة لأهمية دورهم سياسيًا في تعزيز الدولة الإسلامية، ورفع عمدها، والإقبال عليها؛ كهدف عام يسعون لتحقيقه في هذه المرحلة.. دون أن يربطوا ألقابهم بالدين، كما سيحدث فيما بعد، في الدولة العباسية.

أما أمراء غرناطة الحمراء فقد بدءوا أيضًا دون ألقاب، ثم ألحقوا أسماءهم بألقاب من نوعية: الغني بالله، والأيسر، وابن الحرة، والزغل، وابن الأحمر[3].. وهكذا.

هذا وغني عن البيان ما كان ينعم به الولاة في الأندلس، من عز وجاه، وسلطان، حيث كانوا يقيمون الولائم، ويقتنون الجواري والعبيد، ويمنحون المغنين العطايا والهبات بمناسبة، وبغير مناسبة، حتى إنه يحكى عن المقتدر بالله أنه أنفق على ختان خمسة من أبنائه ٦٠٠ ألف دينار، وقس على ذلك، حتى ألهتهم الدنيا، والتكالب على

---

(١) دكتور إبراهيم بيضون - الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة من ٩٢- ٤٢٢هـ/ ٧١١- ١٠٣١م - دار النهضة العربية بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٨٦م - ص٤٠٤ ، نقلا عن كتاب طبقات سلاطين الإسلام لستانلي لين بول .

(٢) المرجع السابق - ص ٤٠٥ .

(٣) المرجع السابق - ص ٤٠٩ .

متاعها، عن تثبيت أركان الدولة الإسلامية في الأندلس، حتى ذهب ريحها، وسقطت.

وقبل أن ننتقل إلى دولة إسلامية أخرى لا بد من الإشارة إلى أن معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية ومُسيِّس الدولة الإسلامية، وجاعلها ملكية بعد ٤٠ عامًا فقط من هجرة الرسول، لم يكتف بالقصص الديني وشراء القصاصين، بل لجأ في مرحلة لاحقة عندما أراد أن تكون الولاية لابنه من بعده إلى وسيلة أخرى هي التلويح بالقوة لإرهاب الرعية، ولذا " جمع حوله دهاة العرب ليدعموا فكرته، وفهم يزيد بن المقنع العذري هدف معاوية، فعندما دعاه للبيعة لابنه قال: هذا أمير المؤمنين وأشار بسيفه إلى معاوية، فإذا هلك فهذا، وأشار بسيفه إلى يزيد، ومن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، وكانت كلماته هي الحاسمة لخصت ما في نفس معاوية، وقال له: اجلس فأنت سيد الخطباء!!"[1].

إذن كانت صورة الرئيس يتم رسمها بمعسول الكلام، وبالمال، ثم بالتلويح بالقوة، من خلال حواريين من الشعراء والخطباء والقصاصين، والدهاة من الولاة والمريدين.

الدولة العباسية

أما عن الدولة العباسية، التي بدأت بعد مائة وخمسين عامًا من الحكم الأموي، الذي انتهى عام ١٣٢هـ / ٧٥٠ م، ليبدأ العصر العباسي الذي استمر في حاضرته بغداد، حتى عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م؛ أي حوالي ٥٠٨ سنة، فقد تولى فيها على مصر ٩٦ واليًا، حاول بعضهم من أمثال: أحمد بن طولون، والإخشيد

(١) إسماعيل إبراهيم - فن المقال الصحفي - دار الفجر للنشر و التوزيع - الطبعة الثانية ٢٠٠٣م - ص ٢١٢ - نقلا عن مقال لعباس الطرابيلي في جريدة الوفد ٢٠٠٠/٦/١٨ بعنوان : الشرق و الديمقراطية ، معاوية .. و الأسد ، يزيد .. و بشار .

الاستقلال بمصر عن الدولة العباسية.

هذا وقبل أن نتعرض لهاتين الدولتين اللتين استقلتا عن الخلافة العباسية وهما: الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية، تجدر الإشارة إلى أن بداية تمجيد الحاكم، وتأليهه المستمدة من الطاعة البابلية، قد برزت في عصر الدولة العباسية بشكل لافت للنظر.. خاصة وأن هذه الخلافة حرصت على رسم صورة للحاكم : بإطلاق لقب موح على كل خليفة.. حتى قبل أن يُصبح حاكمًا، أحيانًا منذ ميلاده، أو حتى منذ توليه ولاية العهد، كأول برامج أو خطوات رسم صورة ذهنية للحاكم، أو للرئيس العربي، متأثرة بالموروثات البابلية والفارسية في طاعة وتقديس الحُكام، فعرفنا مسميات كثيرة للخلفاء العباسيين على التوالي، من نوعية: المنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد، والأمين، والمأمون، والشديد ... إلخ.

وإمعانًا في التفخيم والتأليه أضيف اسم الله إلى ألقاب الخلفاء العباسيين.. حتى ضاقت اللغة نفسها عن هذه النسبة إلى الله، فأطلقت على التوالي ألقاب مركبة مع اسم الله من نوعية: المعتصم بالله، والواثق بالله، والمنتصر بالله، والمستعين بالله، والمتوكل بالله، والمعتز بالله، والمهتدي بالله، والمعتمد بالله، والمعتضد بالله، والمكتفي بالله، والمقتدر بالله، والقاهر بالله، والراضي بالله، والمتقي بالله، والمستكفي بالله.

هذا ولم تكن الرعية هي التي تؤله الحاكم : حبًا له، ولم يكن المقربون منه هم من يطلقون هذه المسميات عليه : تزلفًا ونفاقًا.. ولكن الغريب حقًا أن الحاكم كان يؤله نفسه بنفسه : بدليل مقولة الخليفة العباسي الثاني، الملقب بالمنصور: أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه[1].. لا بل والأكثر من ذلك أنه كان يتصور، أنه يوزع

(١) د. إمام عبد الفتاح - الطاغية - فصل بعنوان: " السلطان يلبس عباءة الدين - ص١٥٧

الأرزاق على العباد بمشيئة الله : وكأنه الموكل من قبل الله : لتوزيع الأرزاق!!

وقد نهج حكام مصر الذين استقلُّوا بها لفترات متقطعة عن الدولة العباسية، نهجوا نفس النهج بأسلوب مصري مختلف إلى حد ما، فأطلقوا على بعض حُكام الدولة الطولونية ألقابًا، من نوعية: أبو الجيش، وأبو العساكر، وأبو المناقب، وفي الدولة الإخشيدية ألقابًا مثل: أبو المِسك، وأبو الفوارس، وكلها تدل على مدى التأثُّر، والتأثير الذي يتم في مجال تصوير الوالي أو الخليفة بصورة موحية، ومؤثرة في الرعية من شأنها أن تقرِّبه من قلوبهم، وترسم له صورًا محببة بوصفه الرئيس.. ليس بالتعيين من قبل خلفاء الدولة العباسية فحسب، ولكن بالمبايعة أيضًا، كما حدث خلال الدولتين: الطولونية والإخشيدية، اللتين كانتا يُبايع فيهما ولي العهد، ابن الحاكم كمرشح وحيد للولاية ولاستلام سدة الحكم ؛ ولذا كان لا بد من ترغيب الشعب في هذا المرشح، ورسم صورة ذهنية له كي يضمنوا له البيعة بيسر، ودون أدنى اعتراض.. وإن كنت أرى أنها كانت بيعة صورية، لم يكن المصريون يملكون حيالها الرفض، كما لم يُتح لهم فيها فرصة الاختيار، بين عدة بدائل أو بُدلاء، فالمرشح واحد فقط، وهو ابن الحاكم أو الوالي السابق أو المتوفى، وهو المعروف لديهم دون غيره من الناس، وغير مطروح أمامه أحد غيره ليختاروا بحرية، ومن الغريب أيضًا أن هذا التقليد المصري ما زال معمولا به إلى يومنا هذا!! فما زال الدستور المصري ينص على أن يُعيِّن الرئيس نائبًا له، يُرشح من بعده ليكون الرئيس، ويُستفتى الشعب عنه ؛ ليقول: " نعم " في الأغلب الأعم ؛ لأنه لا يُطرح أحد منافسًا له ؛ وبما أن الشعب يكون قد عرفه دون سواه، وتكون وسائل الإعلام قد مهَّدت له الطريق إلى الرئاسة: برسم صورة ذهنية طيبة له، وترويجها بين الناس، يصح إذن العمل

بالمثل العامي القائل: " اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش "!!

هذا وتجدر الإشارة مرة أخرى إلى دور القصص الإسلامي في السياسة والإعلام، الذي ابتدع لأول مرة في الدولة الأموية، لنقول بأنه مع ظهور الصراع العربي الفارسي في العصر العباسي، أضاف القصاصون الفرس، إلى القصص الديني الإسلامي، الكثير من الأساطير والخرافات الفارسية، ويذكر الجاحظ في " البيان والتبيين " براعتهم في القصص، وانتشاره في الطرقات والمساجد والأسواق، واستمرار التأليف فيه حتى القرنين الرابع والخامس الهجريين، واستجابة العامة لهذه القصص الخيالية، وانشغالهم بها وبقائليها ؛ حيث اتخذت جانب العامة من البائسين والفقراء : ليصبروا على حكامهم الذين أسرفوا على أنفسهم في الترف والمتع، وتركوا الشعوب ترزح في الفقر والفاقة. " الأمر الذي استفز الفقهاء والمخلصين من علماء الدين. فشنوا على القصاص وجمهورهم حملات شعواء، وجعلوا الخلفاء يصدرون مراسيم متعددة تنهى عن حضور القصاص، وتولى المحتسبون مراقبة القصاص في المساجد والأسواق والطرقات ؛ باعتبارهم من أصحاب الصنائع الفاسدة، الذين أفسدوا على الناس حياتهم"[1].

هذا وللحقيقة أرى أن قصَّاص هذا الزمان ممن يدبجون المديح للحكام، ويضللون الشعوب من خلال أبواقهم الإعلامية، هم أيضًا من أصحاب الصنائع الفاسدة ومن المفسدين في كل عصر، ويجب تعقب ما يقولون وتفنيده ؛ لتوعية الرعية من خلال منابر إعلامية حرة.

هذا وغني عن البيان ما اتسم به العصر العباسي من ترف وبذخ، حيث العطايا، والهبات للقيان، والغواني، والمغنين، والشعراء المادحين، ويحدثنا التاريخ كنموذج ومثل، أن الخليفة العباسي الهادي الذي كان يحب الاستماع إلى المغنين، قد أعطى أحدهم ٥٠ ألف دينار مقابل

(١) سيد خميس - مرجع سابق - ص ٨٣ .

ثلاثة أبيات من الشعر أعجبته!! ناهيك عما ساد القصور من مفاسد وفتن أدت إلى اختلاف الصورة تمامًا بين الخلفاء في العصور الإسلامية المختلفة، وبين خلفاء ذاك الزمان!!

ونعود لنستكمل مسيرة تاريخ مصر مع حكامها، فنقول إنه بعد أن عادت مصر ولاية عباسية، بعد سقوط الدولة الطولونية في عام ٢٩٢هـ / ٩٠٥م، دأبت الدولة العباسية في كثرة تعيين الولاة وتغييرهم، وسحب بعض اختصاصات هؤلاء الولاة، ومنحها لعمال الخراج - أي الجُباة - الذين كان بإمكانهم الدس للولاة وتنحيتهم من قِبل بغداد.. حتى إنه قد تم تعيين أربعة ولاة في سنة واحدة.. وإن كان بعض الولاة قد نجحوا في أن يُثبِّتوا أقدامهم في مصر، ويقيموا دولة ذات قوة، وشبه مستقلة عن دولة الخلافة، يورِّثون فيها الحكم لأبنائهم، وقد قامت الدولة الإخشيدية بالفعل على هذا الأساس.. إلا أنها لم تصمد طويلا في وجه الغزو الفاطمي المتكرر.

الدولة الفاطمية

نجح الغزو الفاطمي في عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م بفضل إرسال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، القائد جوهر الصقلي من المغرب إلى مصر، الذي نجح في دخولها وجعلِها ولاية فاطمية، إلى أن وصل إليها المعز لدين الله الفاطمي بنفسه، وجعلها مقرًا له، فأصبحت بذلك مصر دار خلافة.. وليست مجرد ولاية أو إمارة.

ما يهمنا هنا هو الصورة التي يُرسم بها الحاكم أو الخليفة، وأبرزها ما يُطلق عليه من ألقاب، فنجد أن الخلافة الفاطمية أيضًا نحت نفس المنحى العباسي في المسميات، من نوعية: المعز لدين الله، والعزيز لدين الله، والحاكم بأمر الله، والظاهر لإعزاز دين الله، والمستنصر بالله، والمستعلي بالله، والآمر بأحكام الله، والحافظ لدين

الله، والظافر بأمر الله، والفائز بنصر الله، والعاضد لدين الله.

وهنا نلاحظ المغالاة في الألقاب : بحيث لم تعد مجرد صفة واحدة، كما كان الحال في بداية الدولة العباسية.. لا بل أصبحت جملة تجمع بين اسم الله والدين، والدعاء بالفوز والنصر، والإيحاء بما يفعله الحاكم من حفظ للدين وإعزازه، وبأنه ظافر أو حاكم بأمر الله، ولا يخفى ما في ذلك من إيهام للرعية المتديِّنة بالفطرة، بما يحظى به الحاكم من دعم إلهي، أو الإيحاء بالتأييد الإلهي له ؛ بمنحه ما ليس فيه من صفات.

الدولة الأيوبية

بعد أن تعددت دور الخلافة الإسلامية ما بين: عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر، وأموية في الأندلس، وبعد أن ضعُفت الخلافة الفاطمية، وبدأت هجمات الصليبيين، وما هو معروف من طلب النجدة من حُكام الشام، ونجاح صلاح الدين الأيوبي في صدِّهم، ثم استقلاله بمصر عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وتأسيسه للدولة الأيوبية، التي حكمت مصر، والشام واليمن حوالي ٨٢ سنة، وأصبحت مصر في عصرها دار سلطنة، وأصبح حكامها ملوكًا، أطلق عليهم على التوالي مسميات مختلفة مثل: الناصر، العزيز، المنصور، العادل، الكامل، الصالح، المعظم، ثم عصمة الدين أم خليل شجرة الدر، التي لُقِّبت بعدة ألقاب غير هذا اللقب.. رغم قصر فترة حكمها التي لم تزد عن ٨٠ يومًا[1]، ثم الملك الأشرف الذي كان يبلغ من العمر ست سنوات فقط، فسجنه عز الدين أيبك زوج أمه شجرة الدر، التي تنازلت له عن الملك ؛ بسبب رفض السلطان العباسي المستنصر بالله أن يتولى حكم مصر امرأة.. رغم رضا المصريين بذلك!!

(١) د. ناصر الأنصاري - مرجع سابق - ص ٨٩ - ٩٠ .

كيف؟! أتصور أن ذلك يعتبر أيضًا مؤشرًا على الاختلاف بين المصريين والعرب! فالمصريون سبق وأن حكمتهم النساء، بدءًا بالملكة حتشبسوت، وانتهاءً بكليوباترا السابعة، أو الكليوباترات السبع، اللاتي حكمن مصر في العصر البطلمي، وامتد حكمهن من خلال وصايتهن على أبنائهن إلى بلاد الشام شرقًا، وإلى برقة غربًا(١)، ولم يجد المصريون غضاضة في ذلك.. وإن كانت بعض كتب التاريخ تشير إلى أن أهل مصر أيضًا لم يكونوا مقتنعين بأن تتقلد أمورهم امرأة هي شجرة الدر.. ومع ذلك قبلوا!! إلى أن جاءهم الإنقاذ من هذا الموقف ؛ من الخارج مرة أخرى.. من الخليفة العباسي!!

هذا ولعل ما يهمنا ذكره هنا كنموذج لرسم صورة الحكم، ودعمه بالرمز، اتخاذ شعار للدولة الذي زاد في عصر الأيوبيين والمماليك، إذ اتخذ السلطان صلاح الدين الأيوبي شعارًا يمثل بعض النسور وجد منقوشاً على جدران قلعة الجبل التي أمر ببنائها.

عصر المماليك

بتولي نور الدين أيبك الحكم انتهت رسميًا الدولة الأيوبية في مصر، وبدأ حكم المماليك عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢م، ومن الأمور المحيرة أيضًا في طبيعة تقبُّل الشعب المصري لحكامه أن يقبلوا بأن يحكمهم العبيد!! فكلنا يعرف أن المماليك كانوا " طائفة من الأرقاء المشترين بالأموال لغرض تطعيم الجيوش العربية وتقويتها، وكانوا خليطًا من الأتراك، والشراكسة، والروم، والروس، وأقلية أوروبية، وقد عاشوا في مصر كطائفة منفصلة عما حولها، واحتفظوا بشخصيتهم، ولم يختلطوا بأي عنصر من عناصر السكان المصريين، وقد كثر عدد المماليك، وزادت قوتهم، وتقلدوا

(١) لمعرفة المزيد عنهن يرجع إلى دكتور شفيق غربال- الموسوعة العربية الميسرة - ص١٤٧٧ .

المناصب الهامة.. خاصة في أواخر الدولة الأيوبية[1].

وكلنا يعرف أن فترة حكم المماليك استمرت حتى عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، أي استمرت زهاء ٢٦٥ سنة، تناوب فيها على مصر ٢٧ من المماليك البحرية، و٢٨ من المماليك البرجية، وكان اعتمادهم على قوتهم العسكرية، وعلى دعم ملكهم من قِبل دولة الخلافة العباسية المنهارة في بغداد : بسبب الهجوم التتري، وإسباغها السلطة الدينية على سلاطين المماليك، إلى أن كان الفتح العثماني لمصر على يد السلطان سليم الأول، بعد ما يزيد عن قرنين ونصف القرن، عانت فيها مصر من صلف المماليك وصراعاتهم، ولم يُخلّصها منهم إلا قيام الخلافة العثمانية : أي جاءهم الإنقاذ من الخارج مرة أخرى!!

ولعل ما يهمنا من هؤلاء المماليك هنا هو رسم صورة الحاكم، وأسلوب تسويقه لدى الناس بالإيهام بالهيبة، وإسباغ السلطة الدينية إلى اسمه : كي يخشاه الناس أكثر مما يحبونه ؛ ولذلك كانت مسميات سلاطين المماليك كثيرة، ولا يُكتفى فيها بأن يُقال الملك فلان، أو السلطان فلان، ولكن يُقال على سبيل المثال:

- السلطان الملك المعز عز الدين أيبك.
- السلطان الملك المنصور نور الدين علي
- السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز.
- السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس.
- السلطان الملك السعيد ناصر الدين.
- السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش.
- السلطان الملك المنصور سيف الدين .

والقائمة طويلة لا مجال لذكرها كلها هنا، فأهم ما يهمنا منها هو الألقاب والسمات التي كان يُسبغها كل سلطان على نفسه، أو يُطلقها

(١) د. ناصر الأنصاري - مرجع سابق - ص ٩٣ .

عليه المحيطون به، ولم تخرج عن المعاني التي يمكن أن تهز مشاعر المصريين، وتؤثر فيهم، مثل: الأشرف، والناصر، والعادل، والمظفر، والصالح، والكامل، والظاهر، والمؤيد، والعزيز ...إلخ، وكلها تنويعات على معان متشابهة، وكانوا يكررونها عبر تاريخهم تيمنًا بمن سبقوهم من سلاطين على كثرتهم ؛ إذ لم تدم فترات حكم بعضهم أكثر من ليلة واحدة، ورغم أصولهم المتواضعة وأنسابهم المجهولة، فهم عبيد أرقاء شراء مال، ومستجلبون من كل حدب وصوب، ولا يعلم أحد عن أصولهم الحقيقية شيئًا ؛ لذا حرصوا على أن يسبق أسماءهم سلسلة من الألقاب الموحية كما سبق القول.. لا بل وكانت توقيعاتهم المعتمدة التي يمهرون بها الفرمانات تتكون من ١٨ - ٢٥ كلمة، وكنموذج لها التوقيع المزركش للسلطان الأشرف الذي كان نصه: " السلطان الملك الأشرف ناصر الدنيا والدين ابن الملك الأمجد ابن السلطان الملك الناصر ابن الملك المنصور قلاوون شعبان بن حسين خلّد الله سلطانه"[١]. أي كان يؤصل لنفسه، ويمجد أجداده، ويوحي بالعظمة والشرف، ويدعو لنفسه بالخلود! في كل ما يمهر به اسمه.

هذا ناهيك عن اتخاذ السلطان المملوكي وكل المماليك - على كثرتهم - شعارًا لكل منهم، يدل على نوعية الوظيفة التي يتقلدها في قصر الحكم، وكان يُطلق على هذه الشعارات آنذاك " الرنوك جمع رنك، وقد يكون الرنك من لون واحد، أو من عدة ألوان، وقد يكون بسيطًا أو مركبًا، وكان يوضع على البيوت، والأماكن المنسوبة إلى صاحبه، وكذلك على جوخ الخيول والجمال، وأحيانًا على السجاد، والسيوف، والأقواس، والدروع، والأدوات المعدنية، والخشبية، والزجاجية "، وكان لهذه الأختام والرنوك أثرها في تشكيل صورة مهيبة لصاحبها، أيًا كان منصبه الرئاسي.

---

(١) د. ناصر الأنصاري - مرجع سابق - اللوحة رقم ٥١ - ص ١٩٩ .

(٢) د. ناصر الأنصاري - مرجع سابق - ص ١٤١ .

الدولة العثمانية

كانت نهاية حكم المماليك لمصر حينما هُزِم طومان باي آخر سلاطينهم، في معركة مرج دابق، ودخل الجيش العثماني مصر، بعد أن سادت الفوضى، وتم شنق آخر القيادات المملوكية، فخضعت لهم مصر تمامًا، وتحولت إلى ولاية من ولايات الدولة العثمانية، بعد أن كانت مقرًا للخلافة العباسية في عصر المماليك، وأصبح حاكم مصر يُسمى واليًا أو باشا، ويتم تعيينه بفرمان من السلطان العثماني، بعد أن كان سلطانًا وملكًا في آن معًا!!

و الحقيقة أن لفظ " باشا "، الذي لقّب به ولاة مصر في العصر العثماني، مشتق من اللغة الفارسية، أي أنه قد لا يقِل معنًى عن المَلِك؛ فهو مأخوذ عن لفظة " باد شاه وهي كلمة من مقطعين باد بمعنى عرش، وشاه بمعنى صاحب أو سيد.. أي سيد العرش، أو الملك، وقد يكون تحريفًا لكلمة بشة في التركية القديمة، بمعنى الأخ الأكبر، وكان لقب باشا في الدولة العثمانية لقبًا رسميًا للوزراء، والأمراء، وكبار رجال السلك العسكري، ولما كان والي مصر هو نائب السلطان فكان يُعتبر وزير السلطنة للشئون المصرية"[1].

هذا وبرغم زوال حكم المماليك رسميًا طوال فترة هيمنة العثمانيين على مصر، إلا أنهم احتفظوا ببعض السلطات، التي مكنتهم من الاستئثار بالحُكام أو الولاة، وساعدهم على ذلك ضعف السلطنة العثمانية وانغلاقها، وكثرة تغيير الولاة؛ إذ تتابع على مصر ١٣٦ واليًا، خلال عهود ٢١ سلطانًا عثمانيًا، ذلك بالإضافة إلى احتفاظ المماليك بعصبيتهم، وشرائهم للجنود والأتباع من الشركس، والقوقاز، والكرج، فعظم نفوذ البكوات المماليك، واستطاعوا استرجاع سلطة الحكم، بعد انسحاب الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر،

(١) ناصر الأنصاري - المرجع السابق - هامش الصفحة ١٠٤ .

وبداية القرن التاسع عشر، وتولي محمد على باشا الكبير مقاليد الحكم في مصر.

هذا وعدا تولي الحكم، فقد كان المماليك يتولون مناصب مميزة داخل قصور الولاة، ويكوّنون الحاشية التي تقوم بما تقوم به مؤسسة الرئاسة الآن من مهام، وبالمقابل كان لكل منهم لقب يدل على ما يُمارسه من سلطات، وشعار يرمز ويدل على طبيعة عمله، مثل: الدوادار أي كاتب السلطان، وشعاره الدواة، والسلحدار متولي السلاح السلطاني، وشعاره السيف، والجمدار وهو المسئول عن الثياب السلطانية، وشعاره البقجة، والجوكندار المسئول عن لعبة أشبه بالبولو الآن، وشعاره عصاتان وكرة، والعلمندار أي حامل الراية، وشعاره علمان، والطبلدار أي مسئول الطبول، وشعاره الطبلة وزوج من العصي، والجمقدار وهو حامل الدبوس، وشعاره الصولجان ... إلخ.

و مما هو جدير بالذكر، بالنسبة للولاة الذين حكموا مصر في هذا العصر، أن المصريين كانوا يتقبَّلون أن يحكمهم ليس مجرد عبيد.. لا بل وخصيان أيضًا[1]، ويحتملون حكمهم لعقود من الزمن.. دون تذمُّر!! أو لعلهم كانوا يُنفِّسون عن سخطهم بما تركوه لنا من تراث شعبي، يتحسَّر فيه المصري على تحكُّم العويل فيه!! سواء كأمثال شعبية أو مواويل وأغان، أو حتى نكات ونوادر.. من نوعية ما كان يُحكى عن الحاكم بأمر الله الفاطمي، وبهاء الدين قرقوش وزير صلاح الدين الأيوبي، وغيرهم، مكتفين بهذا التنفيس؛ كبديل عن الاعتراض، أو الرفض المعلن، والثورة من أجل التغيير، وهو الأمر الذي

(١) كمثال سليمان باشا الخادم الخصي الذي كان واليًا على مصر لفترتين . عام ٩٢١هـ/ ١٥٢٤، و ظل في منصبه عشر سنوات حائزًا على ثقة السلطان سليمان القانوني ، ثم في الفترة من ٩٤٢هـ / ١٥٣٦م لمدة عامين ، و داود باشا الخصى الذي تولى بعده ، و توفي عام ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م ، أي أن مصر حكمت من قبل خصيان لمدة ٢٢ عامًا . و هو أيضًا أمر جدير بدراسة تحليلية تاريخية لهذه الحقبة .

استحق المزيد من الدراسات من قبل متخصصين: لسبر غور الشخصيه المصرية في هذا الصدد.

هذا.. ولعل هذا التسليم بالواقع يعد آفة مصرية -ولا أقول سمة- لأن الاكتفاء بالسخرية حيلة العاجز الوحيدة، في حين أنها إحدى حيل المغلوب على أمره، بعد أن يستخدم شتى الحيل والوسائل: مثل الثبات على الموقف، ومحاولة الحصول على الحق، والعراك من أجله، ثم أخيرًا التسليم بالأمر الواقع.. لكن المصريين كانوا دائمًا.. وما زالوا ميالين للسخرية من حكامهم، والتنكيت عليهم.. عِوضًا عن مجابهتهم بقوة، ولعل الحال الآن لم يتغيَّر كثيرًا عمَّا كان عليه موقف المصريين من حكامهم قديمًا!!.. رغم اختلاف الظروف، والملابسات التاريخية!!

و يفلسف الدكتور إمام عبد الفتاح إمام هذا الأمر قائلا: " في التاريخ ما يُشير إلى أن الرعية قد تبكم، أو لا تبالغ في الشكوى: إذا تسلَّط الطاغية عليها، كأن الجبن يأخذ منها كل مأخذ، فيُخمد أنفاسها، وترضخ صاغرة؛ كأنها تتقي شر نقمته، خلافًا لما لو اعتدلت السلطة، فتجاهر الرعية بمطالبها، ولا يحول بطش الطاغية دون تألبها، والمطالبة بما تروم من حقوق"[1].

أما عن الألقاب التي كانت تطلق على سلاطين ووزراء الدولة العثمانية فلم تكن كثيرة.. لكنها كانت توحي بالعظمة أيضًا، من نوعية: الباب العالي، والوزير الأعظم، والصدر الأعظم.. إلى جانب الألقاب التي كانت تحمل معنى المهن التي يقوم بها بعض الولاة في مصر من نوعية: باشا، وسلاح دار، ودفتردار، والكتخدا، والخازن دار، والنيشانجي، والبلطة جي، والدوادار، والقائم مقام، وهو المنصب الذي تولاه محمد على باشا لمدة أربع سنوات، بعد عزل الوالي دويدار محمد أورفللي باشا.. دون أن يرسل الباب العالي ولاة على مصر، ثم

(١) الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي - ص ٤٦ - ٤٧ .

تولى بعد ذلك عدد آخر من الولاة، إلى أن قدمت الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية عام ١٧٩٨م، وجلت عن مصر بعد ثلاث سنوات، اتحدت فيها جميع القوى: التركية، والبريطانية، والمملوكية لإجلائها، ثم بدأت كل قوة تعمل لمصالحها الخاصة.

و قبل أن نلج للحديث عن عصر أسرة محمد على، التي تعتبر بداية التأريخ للعصر الحديث في مصر، لا بد وأن نرد على تساؤل قد يرد إلى الأذهان، مؤداه: هل كانت الألقاب والمسميات فقط هي رموز الترويج للحاكم، وتشكيل صورة ذهنية محببة له لدى الرعية؟؟ الحقيقة أنه حتى هذه الحقبة كان الحكام يكتفون بمظاهر محدودة في رسم صورتهم، بشكل موح لكنه غير مباشر، فلم يحفلوا بتصوير أنفسهم رسمًا، أو تصويرًا؛ إذ كان تصوير الأشخاص غير مقبول لأسباب دينية منذ قيام الدولة الإسلامية.. رغم أن من سبقوهم من حكام الفراعنة كانوا يحرصون على تصوير أنفسهم نحتًا كاملا، ورسمًا على الجدران، وتدوينًا لتاريخهم على المسلات وجدران المعابد والمقابر، وإحاطة أسمائهم عليها بالخراطيش التي تعطي أسماءهم هالة مبالغًا فيها، ويشهد على ذلك ما تبقى لنا من آثار فرعونية، وأيضًا يونانية، أما في العصور الرومانية، والبيزنطية، والبطلميَّة فقد كان حُكام مصر مجرد ولاة تابعين لدولة عظمى أو إمبراطورية؛ ولذلك كان التركيز على تمجيد الإمبراطور، وليس الولاة على مصر؛ نظرًا لأن حكمهم لم يكن ليدوم طويلا.. لكن الحكام العرب ومن تعاقب بعدهم ركزوا - عوضًا عن النحت والتصوير - على الزخرفة الخطية العربية لأسمائهم، التي زينوا بها جدران قصورهم ومكتباتهم ومسكوكاتهم من العملات المعدنية، كما كان للطغراء الخاصة بالحكام العثمانيين أهميتها كرمز للسلطة، إذ كان الطغراء عبارة عن " التوقيع السلطاني الذي يصعب تقليده، وكان لكل سلطان من السلاطين

العثمانيين طغراؤه الخاصة، التي يوقع بها على الفرمانات، والمعاهدات، والرسائل، والبراءات السلطانية، وكانت تستعمل على الأعلام، والنقود، والمسكوكات والسجلات، والسفن الحربية، والمدافع[1].

هذا وقد استحدثت في البلاط العثماني وظيفة أشبه بما نسميه الآن - حامل أختام الملك - تسمى الطغرائي، وهو من يدقق الأوراق التي ستُمهر بتوقيع أو طغراء الحاكم، قبل أن يُذيِّلها بهذا التوقيع، الذي كان يُعد من رموز السلطة وهيبتها.

حكم أسرة محمد علي

أدرك محمد علي باشا - دون غيره - أهمية البعد القومي لمن يريد تولي حكم مصر - على حد قول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي - فتقرَّب من القوى الوطنية الشعبية، ووصل بفضل إرادتها ليكون والي مصر عام ١٨٠٥[2]، فلم يجد الباب العالي بدذا من إصدار فرمان بذلك، وأسس حكمه لمصر هو وأسرته، بعد ثلاثة قرون من حكم الدولة العثمانية لها، وستمر حكم أسرة محمد علي حوالي قرن ونصف، تولى فيها حكم مصر ١١ حاكمًا، ما بين والٍ وباشا، وخديوي، وسلطان، وملك.

و اللافت للنظر في هذا الأمر أن المصريين أنفسهم هم من ولوا محمد علي باشا عليهم واختاروه بإرادتهم، رغم وجود زعماء وطنيين من المصريين[3]، كان بالإمكان توليتهم بدلا من هذا الألباني الأمي..

(١) د. ناصر الأنصاري - مرجع سابق - ص ١٢٩ .

(٢) تاريخ الحركة القومية و تطور نظام الحكم في مصر - الأعمال الفكرية - مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ -الجزء الثاني - ص ٢٩٢ ٣٠٤ .

(٣) من أمثال السيد عمر مكرم . و السيد محمد السادات . و الشيخ عبد الله الشرقاوي . والشيخ محمد المهدي . الشيخ سليمان الفيومي . السيد أحمد المحروقي . و الشيخ مصطفى الصاوي . و الشيخ محمد الأمير .

تاجر الدخان.. لكنها مصر العجيبة في تعاملها مع كل من حكموها!! والتي كانت لا تأبى أن يولّى عليها الأغراب، والنساء، والمغامرون من العبيد والمماليك.. وحتى الخصيان!!.

هذا ولعل " اختيار محمد علي باشا الكبير.. رغم أنه مملوك مستجلب، لا ينتمي لقبيلة عربية معروفة، فهو لا يناصره أحد، ولا يناصر أحدًا، بمعنى أنه لا تمييز لأية قبيلة على أخرى، وكان يُنظر له بوصفه في مستوى اجتماعي أعلى، وأنه يتمتع بشخصية مميزة؛ نظرًا لوصوله إلى ما هو فيه رغم أنه غريب، وكان الباشوات في الزمن الماضي يتقربون من القصور بالزواج من جواري هذه القصور، ويعتبر ذلك شرفًا ونسبًا لهم يمنحهم قيمة اجتماعية، لكون الجارية شركسية أو تركية"[1].. ورغم ذلك لا بد من الاعتراف بأن محمد علي قد نقل مصر من حال إلى حال، ومن عصر لعصر، فكان اختياره خيرًا لمصر، فمن يعلم لو أن المصريين لم يختاروه، واختاروا أحد زعمائهم الآخرين، فهل كانت مصر سيتم تحديثها على أيديهم كما حدث على يد محمد علي؟ وهل كان السلطان العثماني أو الباب العالي سيوافق على تعيين مصري ليحكم مصر؟ وهل كان سيضمن ولاءه له؟.. لكن محمد علي فيما بعد استأثر بحكم مصر، وتم توريث حكمها لأبنائه من بعده، الذين فسد بعضهم وصلح بعضهم.. والنتيجة هي استمرار قبول مصر لحكم غير المصريين!!.. دون أن يتعصبوا لمصريتهم أو يغلبوها على تدينهم، وولائهم لدولة الخلافة، ولعل ذلك يرجع لتدينهم الفطري الشديد، الذي جعلهم يطبقون القول " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى " ولعله كان أتقى!! الأمر أولا وأخيرًا يحتاج تحليلا تاريخيًا يبرر هذا الاختيار الذي أدى على أي حال إلى تولي باني مصر الحديثة.

---

(١) د. محمد السعيد عبد المؤمن- العمامة و العباءة في السياسة و الحكم - الزهراء للإعلام العربي - الطبعة الأولى ١٩٩٥ - مقدمة الناشر .

هذا ولعل لذكاء محمد علي نفسه دورًا في تشكيل صورته في أذهان المصريين، فقد كان من المعروف أن محمد علي كان يتسم بالذكاء والوسامة، والهيبة والنشاط، وأنه اهتم بتعزيز قواه البدنية، وكان يهوى ركوب جواده ساعات طويلة حتى أصبح مواطنوه يشهدون له بأنه فارس ماهر، وكانت المناصب التي تولاها قبل توليته حكم مصر مصدرًا لرصد الكثير من الملامح والسمات التي حببت القيادات الشعبية المصرية فيه، فاختارته دون اختيار واحد منها، فكان أن أجلسوه كأول حاكم يتولى باختيار المصريين وترشيحهم وإقرارهم بالولاية له، فلم يجد السلطان العثماني بدًا من الرضوخ لرغبة القوى الشعبية المصرية، فأصدر فرمانًا بتوليه حكم مصر، ثم خدمته ظروف سياسية كثيرة، منها القضاء على حملة فريزر ١٨٠٧م، واستطاعته التخلص من المماليك نهائيًا في حادث مذبحة القلعة الشهير عام ١٨١١م، وهم من كان المصريون يكرهونهم كراهية التحريم، ثم ما لمسه المصريون بأنفسهم بعد ذلك من مظاهر النهضة والتحديث على المستويين الحضاري والعسكري، في ظل حكم محمد علي باني نهضة مصر الحديثة، إلى أن توفي عام ١٨٤٩م.

و إذا أردنا تتبع حكّام مصر في عصر أسرة محمد علي، أي في العصر الحديث، الذي يعرف معظمنا الكثير من تفاصيله الدقيقة، فسنجد أن الألقاب والمسميات كانت محدودة، فقد بدأت بلقب باشا لمحمد علي باشا الكبير نفسه ثم لابنه إبراهيم باشا، وحفيده عباس حلمي الأول، ثم ابنه سعيد، فحفيده إسماعيل، الذي يُعتبر أول من حمل لقب خديو[1]؛ بالتودد ودفع الرشاوي لذوي النفوذ في الآستانة، وهذا اللقب الأخير " كلمة فارسية ترتفع بالمُلقب بها إلى مرتبة الملوك والسلاطين، وهي أقل من الخلافة، وأعلى من الوزارة، ومنذ ذلك

(١) راجع عبد الرحمن الرافعي – عصر إسماعيل – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ – الجزء الأول .

التاريخ ٨ يونيو ١٨٦٧م أصبح لها استعمال واحد في الإمبراطورية العثمانية هو للدلالة على حاكم مصر"[١].

وتلا إسماعيل ابنه توفيق الذي حدثت في عهده الثورة العرابية، وفُرضت على أثر فشلها الحماية على مصر، وعُزل توفيق، وتولى عباس حلمي الثاني آخر خديوي لمصر، إذ تولى بعده السلطان حسين كامل، كأول سلطان لمصر في العصر الحديث، وهذا كان معناه استقلال مصر عن الدولة العثمانية، ثم السلطان فؤاد، الذي ما لبث أن أصبح الملك فؤاد الأول، والذي قامت في عهده ثورة ١٩١٩م.. لكنها كانت ثورات ضد الإنجليز.. وليست ضد السلطان الحاكم، فهي شكل من أشكال التمرد على الحكم الأجنبي أو الاحتلال الأجنبي.. وليس ضد الحكام العثمانيين الذين لا يعتبرهم المصريون محتلين.

هذا وقد استمرت أساليب رسم صورة الحكام كما هي، يزيد عليها استخدام صورهم المرسومة أحيانًا، ثم المصورة فيما بعد، ناهيك عن استحداث هيئات رئاسية تمثلت في الديوان السلطاني والعاملين فيه، ومن كانوا يسمون بالمعية السنية، وهم المحيطون بالحكام من أتباع ومستفيدين وهم من يمثلون أبواق ثناء ودعاية أيضًا، كما بدأ التأثر بالنمط الأوروبي في بلاط وقصور حكام مصر، وكان الأمير أحمد فؤاد آخر أبناء الخديوي إسماعيل قد ولد وتربى وتخرج في المنفى بإيطاليا، وعُين ياورًا لملك إيطاليا بعد تخرجه في الكلية العسكرية، وكان شديد الطموح، إذ سعى كي يكون ملكًا على ألبانيا، أو نائبًا للملك في ليبيا تحت التاج الإيطالي، ولما خاب سعيه عاد إلى مصر وابتسم له الحظ، إذ دنا له عرش مصر في ظل التاج البريطاني لمًا توفي أخوه السلطان حسين كامل فجأة بعد ولاية قصيرة، إذ كان الإنجليز هم من ولوه ومنحوه لقب سلطان؛ " حتى يقطعوا الصلة

(١) دكتور ناصر الأنصاري - مرجع سابق - هامش الصفحة ١٢٣ .

تمامًا باللقب العثماني، ويقتنع المصريون بأن السلطان انتقل إلى القاهرة! وفوجئوا بموته بعد مدة لم تكن طويلة وخلال الحرب. وفوجئوا أكثر برفض الأمير كمال الدين حسين أن يخلف أباه ... ووجدوا ضالتهم المنشودة في الأمير أحمد فؤاد، والذي وجد نفسه وكل حياته وأحلامه في المنصب"[1] وبذلك انتقل العرش إلى العم أحمد فؤاد.

و لما استقلت مصر بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م، أصدر السلطان فؤاد أمرًا يُعلن فيه نفسه ملكًا على مصر، ثم أصدر الدستور في نفس العام، وافتتح البرلمان الجديد، وتألفت أول وزارة شعبية في عهده برئاسة سعد زغلول.. لكن سلوك الملك فؤاد الشخصي كان سيئًا، الأمر الذي جعل صورته الذهنية لدى الشعب المصري سيئة أيضًا، وقد كانت سيرته هذه على حد تعبير محمد عودة مما: "تحدث به الناس زمنًا "، وكانت مصدرًا للروايات الكثيرة عنه، إذ لم يكن الأمير ثم السلطان يتمتع بسيرة طيبة خاصة أو عامة"[1]، وظل مركزه غير مستقر ومكانته في وضع متذبذب، وكان كثيرًا ما يُشاع بين الناس أنه لن يدوم، وأن هناك أمراء في الأسرة يرون أنهم أحق وأجدر منه، كما لم تنقطع مؤامرات هؤلاء الأمراء وشائعاتهم ضده، وكان للإنجليز رأي سيئ فيه، صاغه ملنر قائلا: " لا يفتقر السلطان الحالي إلى الذكاء والدهاء.. ولكنه صغير النفس، وبلا أي مبدأ على الإطلاق، ولا يحمل أي اهتمام بمصر وأهلها، ولا يحفل بشيء ولا يسعى نحو هدف، ولا يدفعه أي حافز سوى مصلحته الشخصية ... ولا يحظى بأي تقدير أو تعاطف من رعاياه"[1].

---

(١) محمد عودة- كيف سقطت الملكية في مصر؟ : فاروق بداية و نهاية - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م - الأعمال الفكرية - ص ١٢

(٢) المرجع السابق - ص ١٣ ، ١٤ .

(٣) المرجع السابق - ص ١٨ ، ١٩ .

و حينما توفي الملك فؤاد عام ١٩٣٦م، تولى ابنه الملك فاروق الأول، بعد أن ثبَّت الإنجليز وراثة العرش في أبناء الملك فؤاد: نظرًا لعدم ثقتهم في أي من الأمراء الآخرين، وكان إعداد أي أمير من الأسر المالكة للحكم يبدأ منذ ولادته، كما هو الحال في الدول الأوروبية. وكان السائد بدافع من الإنجليز أن تكون المربيات من البريطانيات، اللواتي كن قد اكتسبن شهرة واسعة وعالمية كأفضل مربيات لأطفال الأسرة المالكة وأبناء الطبقات الراقية في الشرق والغرب، فيما أصبح يسمى " رسالة المرأة البيضاء الحضارية "، إذ "كانت المربية البريطانية إحدى أهم مؤسسات الإمبراطورية ودعاماتها، وكن - المربيات - يؤدين واجباتهن المهنية والوطنية بكفاءة ودقة، وكانت حياتهن داخل القصور ووسط الأسر المالكة والحاكمة تتيح لهن تنشئة حكام موالين ومخلصين يتشربون طريقة الحياة البريطانية في المهد"[1]، وقد اختير للأمير الصغير فاروق " مس تاير " متحملة مسئولية "تربية أول جنتلمان بريطاني في الأسرة العلوية" على حد تعبير محمد عودة.. وقد نجحت في أن تهيمن على حياته وأصبحت أوسع السيدات نفوذًا في القصر بعد الملكة.

هذا وقد أصبحت صناعة الحكام العرب تتم في ظل الاستعمار متأثرة بالتقاليد الأرستقراطية البريطانية، وهي على أي حال صناعة لشخصياتهم وليست لصورهم.. لكن الشخصية كما هو معروف تؤثر فيما بعد في ملامح الصورة الذهنية المنطبعة لدى الناس، وقد كانت صناعة شخصيات الحكام تبدأ بعد التربية في القصور بالتسجيل في إحدى مدرستين عريقتين في إنجلترا (آيتون، وهارو)، وكان المفروض أن يكون فاروق أول أمير من الأسرة العلوية يحظى بهذا الشرف، بعد أن " كان أعضاء الأسرة ينشئون ويربون تربية عثمانية في القصور في

(١) المرجع السابق - ص ٢١ .

فرنسا أو النمسا أو إيطاليا وكانت لغتهم الأولى الفرنسية، وكانت صناعة الحكام الموالين وصياغتهم منذ الصغر صناعة بريطانية قديمة وأنجبت مواكب منهم في كل أرجاء الإمبراطورية"[1]و لكن نتيجة لاعتراض الملكة على سفر ابنها وهو صغير، ونتيجة لتدخل كبير مهندسي القصور الملكية حضرة صاحب العزة " فيروتشي بك " - الذي كان في الأصل له مهمة أخرى بالنسبة للملك فؤاد هي القوادة - أقول نتيجة لتدخله أرجئ سفر الأمير فاروق، واكتفي بأن يُعد له برنامج مقتبس من برامج مدرسة آيتون يتولاه طاقم من المدرسين الإنجليز ومدرس رياضي فرنسي كي يكون لفرنسا نصيب في تربية الأمير!!

وعن تربية فاروق وتعليمه يقول عبد الرحمن الرافعي مؤكدًا لما جاء في الكثير من المراجع: " لم يجد فاروق منذ نشأته تربية طيبة صالحة، ولا تلقى تعليمًا صحيحًا نافعًا، فقد كانت تربيته في السراي بين الخدم والحاشية الذين كانوا يحيطونه بمظاهر الملق والتعظيم والتأليه، فنشأ في بيئة بعثت فيه نزعة التعالي على الشعب، هذا إلى أن والده الملك فؤاد كان يُشرف بنفسه على تربيته، وكان يغرس في نفسه هذه النزعة التي كانت منهاجه منذ تولى العرش، إذ لم يكن قط ملكًا ديموقرطيًا"[2].

وحينما بلغ فاروق الرابعة عشرة كان قد أصبح شابًا وسيمًا، وبدأ يخرج إلى الحياة العامة وتنشر صوره الصحف والمجلات بشكل يثير الإعجاب، ومُنح لقب أمير الصعيد تيمنًا بولي عهد بريطانيا " أمير ويلز ".. ولكن بأمر من المندوب السامي البريطاني غير قابل للجدل هذه المرة سافر الأمير فاروق إلى بريطانيا كي يراها ويرى العالم،

(١) المرجع السابق - ص ٢٢ .

(٢) مقدمات ثورة ٢٣ يوليو - مكتبة الأسرة ١٩٩٧ الأعمال الفكرية - ص ١٨٥ - و بتوسع في الجزئين الأول و الثاني من كتاب في أعقاب الثورة للمؤلف نفسه .

ويدرس العسكرية، ويتأهل لتولي العرش، وتواكب سفره مع مرض والده.. لكن الأمور تغيرت إذ بدا أن الأمير يفتقر إلى السلوك الملكي، وأن " المس تاير " لم تحمه من التأثير الإيطالي والشركسي وثبت عدم صلاحيته للالتحاق بالكلية العسكرية؛ إذ كان مدللا ولا يحتمل منهجها في إعداد ضباط للحرب الحديثة التي كانت وشيكة الحدوث، وبذلك تصدع المشروع التربوي لصناعة الملك فاروق، الذي كان يقضي أوقات فراغه في النوادي الأرستقراطية وعلب الليل في لندن بتشجيع من اثنين من مرافقيه في هذه الرحلة وهم أحمد حسنين باشا، عمر فتحي، في حين كان رائده عزيز المصري يحاول أن يثنيه عن غيه.. لكنه مال ناحية من يغويانه فسارا به على حد قول الرافعي: " في مهاوي الانحراف والرذيلة، ولم يقم في إنجلترا إلا سبعة أشهر، إذ غادرها عقب وفاة والده"[1].

و لما توفي الملك فؤاد تنفست مصر الصعداء لموته حيث كان الجميع يكرهونه نظرًا للصورة الذهنية التي سادت عنه لدى الجميع، ولذا رحبوا بتولي الملك فاروق الأول للعرش رغم حداثة سنه وقلة خبرته، وخرجت الجماهير لاستقباله حيث لم يحظ أي من حكام أسرة محمد علي بصورة ذهنية طيبة ومحببة لدى الشعب المصري كما حظي الملك فاروق الأول الذي سادت في بداية توليه موجة من التفاؤل لتصحيح الأوضاع المتردية.

هذا وعوضًا عما كانت تحاول بريطانيا عمله في صناعة الملك فاروق، التف حوله آخرون زينوا له صورة أخرى غير صورة الملك الدستوري، وسعوا لتصويره كخليفة عثماني، فبدلا من أن يتوج ملكًا دستوريًا تحت قبة البرلمان كان الملك الصغير - الذي لم يُعرف يومًا بتدينه - يريد بيعة دينية كخليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين، وأن يتم

---

(١) المرجع السابق - ص ١٨٦ .

ذلك في القلعة، وأن يتناول التاج من يد شيخ الإسلام المراغي، ويتسلم أيضًا سيف جده محمد علي، ثم يتلو المشايخ ورجال الدين دعاءً خاصا لجلالته كما كان يُتلى للسلاطين العثمانيين والخلفاء وأمراء المؤمنين العباسيين.

و كما هي العادة الشرقية في تأليه الحكام أو ربطهم بأي ملمح إيماني أو ديني سعى المحيطون بالملك فاروق إلى منحه هذه السمة، وكان أبرزهم رائده أحمد حسنين باشا، وعلي ماهر باشا، ووجدا أن أصلح من يقوم بهذه المهمة الشيخ مصطفى المراغي، وبالفعل لم يتوانَ عن ذلك، " وخرج الإمام بفتوى على المسلمين تقول: إن الله يرسل كل مائة عام على رأس الأمة الإسلامية مصلحًا يُجدد حياتها ودينها ويوحد صفوفها، وإن فاروق هو من اختاره الله وبعثه بهذه الرسالة للمائة عام القادمة!! وكانت أولى الدلالات على ذلك اسمه، فهو الفاروق بين الخير الشر وبين الظلام والنور!!"[1]، والغريب حقًا أن هذه الدعوة وجدت من يؤيدها من النابهين في مصر وفي مقدمتهم أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد والكاتب الكبير محمود عباس العقاد اللذان أيدا بيعة الملك ليكون خليفة، وكذلك بايعته قوى حزبية جديدة تمثلت في مصر الفتاة والإخوان المسلمين، لا بل وكشف نقيب الأشراف في القاهرة عن أن جلالة الفاروق ينتهي نسبه إلى آل البيت وأن جده الأكبر الحسين بن علي وفاطمة الزهراء بنت الرسول وأنه ورث هذا النسب النبوي عن جده لأمه محمد شريف باشا!!

و قد أوردت هنا تفاصيل عن أساليب رسم صورة الملك فاروق كنموذج لكل ما يُمارس مع أي حاكم عربي، فيفسده بداية، ويحاول إيهام الرعية بغير الحقيقة، وتحاط كل هذه الأكاذيب بفتاوى دينية، وآراء لنابهي الأمة تدعم ملامح هذه الصورة وتحاول تأكيدها، وقوى

(١) محمد عودة مرجع سابق - ص ٣٤ .

حزبية تتبناها.. لكن الشعوب دائمًا أذكى كثيرًا من صناع الصورة العرب.

هذا على المستوى الشعبي.. فما بالنا برسم وتشكيل الصورة على المستوى الرسمي من قِبل هيئة أو مؤسسة يُناط بها القيام بهذا الأمر بالأساس! إذا أردنا رصد أساليب صناعة صورة الحكام طوال حكم الأسرة العلوية بدءًا بمحمد علي وانتهاء بالملك فاروق سنجد أن مؤسسة الرئاسة كانت قد " نمت منذ تولى محمد علي حكم مصر عام ١٨٠٥م.. بدءًا بالمجلس العالي الذي شكله هذا الباشا، ومرورًا بالمعيَّة السنية، التي كانت قد استقرت على عهد الخديوي إسماعيل وخلفائه ... وصولا إلى الديوان في العهد الملكي"(١)، ويرأسه رئيس الديوان وهو المسئول الأول، الذي تتبعه دواوين أخرى كان عددها خمسة، هي ديوان الخاصة والأوقاف الملكية، وديوان كبير الأمناء، وديوان كبير الياوران، والديوان الملكي، الذي تتبعه خمس إدارات، وكان لكل منها اختصاصاتها، إلى جانب وجود ما أسماه حسن باشا يوسف " بوظائف غير المسئولين " وكان يُقصد بهم رجال الحاشية الذين كان يحمل لهم قدرًا كبيرًا من عدم الاحترام، ويُحمِّلهم مسئولية أغلب انحرافات الملك، والحقيقة أن هؤلاء بالذات هم من يعكسون صورة الحاكم لدى الرعية، فصلاحهم من صلاحه، والعكس صحيح، وهم من يُحدِّثون عنه فيُحسِّنون صورته، أو يشوهونها، ويُحكى عنهم: بالاتصال الشخصي، وكأنهم رواة حديث وشهود عيان على سلوك الحاكم.

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما كانت عليه مؤسسة الرئاسة أو الحكم قبل قيام الثورة منذ بداية حكم محمد علي، الذي عَرفت فيه مصر لأول مرة معنى الاتصال الجماهيري، الذي بدأ بإصدار: "جرنال

---

(١) يونان لبيب رزق - مقال بعنوان " مؤسسة الرئاسة قراءة تاريخية " - الأهرام -ص ٣ .

الخديوي "، ثم جريدة " الوقائع المصرية ، عام ١٨٢٨م، والتي كانت أول صحيفة عربية / تركية رسمية بالمعنى العصري لكلمة صحافة.
وبإلقاء الضوء على عناصر مؤسسة الرئاسة: يمكننا التعرف على الدور المنوط بها لرسم صورة الحكام، وترتيب مظاهر الأبهة والفخامة الموحية بالهيبة لكل حاكم أمام رعيته، من حيث تقسيم هذه المؤسسة، والتعريف باختصاصات العاملين فيها، والشارات، والرموز التي يتخذونها؛ لتحقيق أهدافهم بالنسبة لرسم صورة الحاكم.

و لنبدأ بما حدثنا به ابن خلدون عن الشارات والرموز، التي اتخذها الملوك والسلاطين: دليلا على سلطانهم، ومنها ما يلي:

- **الآلة:** وهي ما يستعمل لرفع الروح المعنوية للجيوش من قرع طبول، ورفع الرايات والألوية.
- **السرير:** وهو عرش السلطان بمفهومنا الحالي.
- **السكة:** وهي العملة التي يُنقش عليها اسم الملك أو خاتمه: كنوع من تأكيد سلطانه.
- **مقصورة الصلاة:** التي تخصص في المسجد لصلاة الحاكم.
- **الطراز:** ويقصد به تطريز اسم الحاكم، أو شعاره على ملابسه الحريرية.
- **الفساطيط:** أي الخيام التي تنصب للحاكم في المناسبات المختلفة، كخروجه للحرب، أو الرياضة الصحراوية، أو النزهات الخلوية وإقامة المآدب، وكان لكل مناسبة خيامها الخاصة[١].

هذا عدا صور الحُكام التي كانت في البداية مرسومة ثم أصبحت صورًا فوتوغرافية (أبيض وأسود) ثم أصبحت صورًا فوتوغرافية ملونة يدويًا، ثم أصبحت الآن صورًا ملونة آليًا، وجرت التقاليد منذ ذلك الحين على تعليقها على الجدران في الدواوين، والمكاتب

(١) مقدمة ابن خلدون - الفصل السادس و الثلاثون .

الحكومية؛ كرمز للسلطة والحكم، والاعتزاز بالرئيس، ويُغالي البعض في تكبيرها، وتنويع أساليب تصميمها، ووضع أطر مذهبة وفخمة لها، وعمل سجاجيد وجداريات منها لا يُكتفى الآن بوضعها في المكاتب والأماكن المغلقة.. بل تزين بها الطرقات والشوارع، والميادين العامة، في أماكن بارزة ولافتة للنظر في مصر وفي غيرها من البلدان العربية.

أما عن خاتم المُلك الذي يحمل توقيع الملك، وتختم به الفرمانات، والقوانين، والقرارات الهامة، والمعاهدات، فقد بدأت تُعرف منذ العصر الفرعوني، وكانت تسمى آنذاك "الخرطوش"، ثم أصبح اسمها "الرنوك"، ثم " الطغراء " في العصر المملوكي والعثماني، أضف إلى ذلك ما استُحدِث من رموز حديثة نسبيًا للسلطة مثل: شعار الدولة، وعلمها، ونشيدها الوطني، سواء كان سلامًا ملكيًا، أو جمهوريًا، وهو لحن تختص به كل دولة ليميزها عن غيرها، ويُحترم ويُبجل عند سماعه.. لا بل ويقف له الحضور مهابة واحترامًا عند عزفه في المناسبات الوطنية، كاستهلال لأي نشاط رئاسي أو رسمي.. ورغم أن هذا الأخير مع العلم والشعار تعتبر رموزًا وطنية.. لا علاقة لها بحاكم أو رئيس بعينه.. إلا أنها في مصر وفي بعض الدول العربية ترتبط بشخص الحاكم أو الرئيس، وتتغير بتغييرهم، فتصبح وكأنها رمز شخصي له، أو لحقبة حكمه، أكثر منها رمزًا وطني خالص مرادف لقيمة الوطن في نفوس الرعية!!

هذا وقبل أن ننتقل من الحديث عن العصر الملكي، إلى الحديث عن صور رؤساء الجمهورية في مصر، لا بد من العودة مرة أخرى إلى الحديث عن صورة آخر ملوك مصر الملك فاروق الذي رحب به الشعب المصري - كما سبق القول - أيما ترحيب في بادئ الأمر.. لكن تصرفاته الشخصية هي التي رسمت له فيما بعد صورة سيئة، وكانت

المهد الأول لكراهية الشعب له، والترحيب بانقلاب الجيش عليه، وقيام ثورة مضادة له، وتغيير نظام الحكم من ملكي إلى جمهوري، فكما سبق القول استقبله المصريون بكثير من الحب والترحاب.. ربما لم يحظ بمثلهما حاكم من قبله، لكنه خلال خمسة عشر عامًا فقط - هي فترة حكمه - استطاع أن يُبدِّل صورته، في أنظار ومخيلة وأذهان الشعب المصري من النقيض إلى النقيض، فقوبل يوم عزله بترحاب وارتياح بعد أن تبدَّلت صورته الذهنية، من شاب وسيم مفعم بالنشاط التفَّت القلوب حوله، وكان يلقب بالمليك المحبوب؛ نظرًا لإعلانه عام توليه الحكم ١٩٣٧، أنه سيلتزم بالدستور ويحترمه، وهو الأمر الذي لم يحدُث على الإطلاق، طوال تاريخه السياسي الذي يشهد بذلك.. دونما داع للدخول في تفاصيل تبديله للوزارات حسبما اتفق، وفرضه لأحزاب ألأقلية في ظروف غاية في الحساسية: إذ كانت مصر خاضعة للاحتلال البريطاني، والحرب العالمية الثانية تدور رحاها، وما كانت مصر تعانيه عسكريًا واقتصاديًا بسببها.

ناهيك عن تصرفات الملك الشخصية، التي كانت وحدها كفيلة بتشويه صورته، إذ كان سلوكه الشخصي أهم أداة تدميرية لصورته، حتى إن أحد أقرب خلصائه قد كتب يقول: " إن فاروق الرجل دمر فاروق الملك، فقد أولع بالظهور في الأماكن العامة بصحبة لا تليق، وبلعب الورق الذي سيطر عليه في أواخر سنِي حكمه، حتى بات يقضي معظم لياليه حول الموائد الخضراء، وكانت هذه الأماكن يرتادها العديد من أفراد الشعب، وكان هؤلاء يرددون ما يرون، ويضيفون الكثير من التفاصيل والعبارات والقصص.. التي ربما لم تحدث.. ولكنها دمرت صورته تمامًا، ولا شك أن خلافه مع زوجته الأولى الملكة فريدة، وما فعلته الملكة نازلي والدته، من استسلام لرغباتها الشخصية، وتركها لمصر، كل هذا أضاف رتوشًا كثيرة

للصورة القاتمة، التي بات الشعب يحتفظ للملك بها"[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أهمية دور المرأة في رسم صورة الحكام والرؤساء شرقًا وغربًا، فقد كان لزواج الملك فاروق المبكر - ولو ظاهريًا - مدلول يشير إلى اعتزامه سلوك الطريق القويم في حياته الخاصة، الأمر الذي حببه إلى الشعب.. لكن طلاقه وما شاع حول أسبابه من ملابسات كان من الأسباب التي هزت مكانة فاروق لدى الشعب " وجعلت الألسنة تلوك أنباء استهتاره وفساده، وكانت هذه الأنباء تتردد بين الناس، وهم بين مصدِّق ومكذب فجاء الطلاق مثبتًا صدقها"[2]. ثم كان لقصة زواجه الثاني الذي كان أشبه بحادثة خطف لفتاة مخطوبة أثره أيضًا في تشويه صورة الملك فاروق بعد أن تناقلها الناس في كل أنحاء مصر.

إذن كان الاتصال الشخصي، وتناقل الأخبار الشخصية للملك، والشائعات أو الأخبار المروية شفاهة هي الوسائل الفاعلة في رسم الصورة، إلى جانب ما كانت تنشره بعض صحف الأحزاب المعارضة مُجهَّلا أو بالإشارات الدالة، ولا ننسى هنا دور الزجل الذي كان شعراؤه ينظمونه مستخدمين التورية.. حتى في عصر الملك فؤاد، واستمروا في نشره وتداوله شفاهة، ويقال بأن بيرم التونسي كان من أكثر هؤلاء الزجَّالين سخرية من الملك وأمه، وحاشيته.

أما الإذاعة فلم يكن لها دور فاعل في رسم هذه الصورة السيئة بالطبع، فهي إذاعة حكومية - كما هي حتى الآن - وكان دورها ينحصر في أن تمجد الملك المفدى، وتشيد به.. فإذا كانت هذه هي صورة آخر ملوك مصر، سيئة في مجمل ملامحها.. رغم الجهود الرسمية في تحسينها، ورسم ملامح طيبة لها؛ من خلال التركيز على

---

(١) د. عمرو مبروك - مقال بعنوان: "ذكرى رحيل ملك و نهاية أسرة "- الأهرام٢٣/ ٢٠٠٠ ص١٠ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - مقدمات ثورة ٢٣ يوليو - ص ١٨٧ .

الإنجازات.. إذا كانت هناك ثمة إنجازات، ونشر أخبار تحركات الأميرات في الأعمال الخيرية، وأنشطة المبرات، وجمعية الهلال الأحمر، وما إلى ذلك من صور الترغيب، وتحسين الصورة لدى الرعية الفقيرة؛ بالتعطُّف العُلوي من الملك وأسرته.. لكن هذه الملامح الإنسانية للملك ولأفراد أسرته لم تستطع أن تمحو ما انتشر عن انحلال وانحدار وفضائح عائلته وأقرب الناس إليه، من نوعية زواج بعض الأميرات من أجانب من الأفاقين والمغامرين، وزواج أمه الملكة نزلي عرفيًا من أحمد حسنين باشا، وشيوع أمر هذه الزيجات التي يرفضها الشعب المصري المتدين بطبعه، فما بالنا لو اجتمعت إلى كل هذه المباذل مساوئه الشخصية، وأخطاؤه في الحكم!!

هذا ويصف فتحي رضوان ما حدث للملك فاروق، في الأيام الأولى من قيام الثورة، بما يعكس هبوط.. بل سقوط صورته سقوطًا كاملا. وبأسلوب يعكس أهمية الصورة الذهنية للحاكم، التي يمكن أن تقضي على شعبيته تمامًا، وتمحو أي ولاء له، فيقول نصًا: "خرج الملك بعد هذه الأيام الثلاثة، دون أن يرفع مصري واحد يده بقصد الاعتراض.. فضلا عن المقاومة، حتى حرس الملك، الذي تمرغ في نِعمه، وحظي بشديد عطفه لم يسفك من أجله دمعة، ولم يُطلق في الهواء قذيفة، ووقف الكل يشاهدون إسدال الستار على حكمه وملكه وعهده، لا يخالط مشاعرهم إلا الأسف الإنساني على رجل بدأ حكمه محفوفًا بإعجاب الشعب وحبه، استمر لسنوات قليلة معقد الآمال، ولم يكن مطلوبًا منه للمحافظة على هذه المكانة إلا أقل القليل، كان لا يُطلب منه أكثر من ألا يبدو لشعبه في مواقف لا تليق بالملك، وألا يُنقل عنه ما يعيبه في حياته الخاصة، وأن يطبق الحديث الشريف: "إذا بليتم فاستتروا"، ولكنه للأسف الشديد جرى على تقاليد العائلة المالكة، ولا سيما في المراحل الأخيرة من حياته، هذه التقاليد التي تقضي بأن

يبدأ الملك صغير السن جميل الطلعة، قريبًا من قلب الشعب؛ لوطنيته ولعدائه لخصوم البلاد، ثم يتقدم في السن، فيترهل جسمه ويتضخم، ويزداد طمعه في مال الشعب، ثم يحيط نفسه ببطانة سوء، ما يلبث سوء سلوكها، وخروجها على تقاليد البلاد الخلقية والدينية، أن يجعل الألسن تتناقلها، ثم ينحاز الملك شيئًا فشيئًا لأعداء الوطن، حتى يصبح عميلهم الأول، وخادمهم الأكبر، فينفذ أوامرهم، ويطبق سياستهم، وينثني عن الشعب ويتنكر له، حتى يصبح ندًا للشيطان"[1]، وخلاصة القول أن الصورة الذهنية للملك فاروق كانت في مجملها سيئة على الصعيد السياسي والشخصي، فاستحق الطرد من مصر، ومن قلوب المصريين.

هذا ويحدثنا التاريخ، بأن مصر لم يحكمها حاكم من أبنائها، منذ عام ٣٢٣ قبل الميلاد، أي منذ عهد الإسكندر الأكبر، وحتى عام ١٩٥٢م.. بل كان كل حكامها من الأجانب، وكان كل منهم يحاول بكل قوته أن يُبعد المصريين عن سدة الحكم.. سواء في المناصب الإدارية العليا، أو حتى المراكز الدنيا، كما كان كل الحكام يلجئون إلى أن تكون الإدارة من غير المصريين؛ حتى يضمنوا بقاءهم في سدة الحكم أطول فترة ممكنة، وكان الحاكم الأجنبي يُحاط بالمتملقين والمنافقين من العاملين معه، من كل الجنسيات، أما المصريون فكانوا طيِّعين بطبعهم، نادرًا ما يتمردون على حاكم.. لا بل وكانت ظروف القهر التي يعيشون فيها تجعلهم يتحايلون على وضعهم الغريب كأغراب في بلادهم، يحكمهم الأجانب؛ بالتملق خشية البطش، وبالتندر والفكاهة، وإطلاق الأقوال الشفهية الطيارة، التي صارت أمثالا فيما بعد من نوعية: "البيت بيت أبونا والغُرب بيطردونا"!

(١) فتحي رضوان ٧٢ شهرًا مع عبد الناصر - كتاب الحرية ٢ - دار الحرية للطباعة والنشر- الطبعة الثانية ١٩٨٦ - ص ٧، ٨ .

هذا ومن الغريب حقًا.. أن المصريين كانوا دائمًا عزوفين عن تولي السلطة.. وكأن لسان حالهم يردد الحكمة العربية القائلة: "السلطان من بعد عن السلطان"، كأسلوب للهروب من تسلط الحكام عليهم.. حتى لو كانوا من المقربين منهم، هربًا من الاضطرار للتملق والنفاق، فالمصري في الأصل يعتز بنفسه جدًا - مهما كانت مكانته في السلم الاجتماعي - ويتحسس ضد من يهين كرامته، فيتجنب ذلك بالبعد عن الحكام؛ كي يشعر بأنه سيد نفسه، وكان بعضهم يعزف عن السلطة بكل أشكالها.. حتى في منصب القضاء، وكأنهم يخشون أن يكون من بينهم حاكم أو قاض؛ خوفًا من أن يظلم الناس، فالمصري المتدين المستكين كان يُفضل أن يكون بين المظلومين، على أن يكون ظالمًا، وكأن الظلم قرين الحكم والسلطة؛ ولذا يقول المثل الشعبي المصري: "يا بخت من بات مظلوم، ولا باتش ظالم".

ومصداق ذلك ما يحدثنا به الجبرتي عن فترة وجود زعامات شعبية مثل السيد عمر مكرم.. ورغم ذلك اجتمع المصريون على تولي محمد علي باشا حكم مصر - وهو الألباني الغريب - إذ لم يكونوا آنذاك يقدّمون مصريتهم على تديُّنهم، وعلى ولائهم لأمير المؤمنين الخليفة الإسلامي في الدولة العثمانية - أو في أية دولة تكون مقرًا للخلافة الإسلامية - وذلك بعد أن كانت لهم أول سابقة في التاريخ: أن يحكم العبيد من المماليك شعبًا حرًا، ويقبل هذا الشعب تسيُّد المماليك عليه وتقلُّبهم على حكمه، ويقبلون أيضًا أن تُولَّى عليهم امرأة - وجارية ليست حرة - وهي شجرة الدر، زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب.. رغم علمهم بأنه لا ولاية في الإسلام لعبد أو لامرأة، وقد كان هذا التسليم الغريب مثارًا لتساؤلات عدد من المؤرخين والمفكرين! لكنه زمن ولى وانصرم بكل ملوكه وحكامه، وتولى

أبناء مصر قيادها، بعد أن تنازل الملك فاروق الأول عن العرش لابنه الطفل الرضيع الملك أحمد فؤاد الثاني بعد قيام ثورة ١٩٥٢م، إلى أن أعلنت الجمهورية في ١٨ يونيو ١٩٥٣م، ليبدأ عصر جديد سنرى كيف كان رؤساء جمهورية مصر فيه يرسمون صورهم الذهنية؟ وسنرى كيف لُقّب فيه هؤلاء الرؤساء؟ وكيف تشكلت صورهم؟؛ وفقًا لمنطق حديث ومتطور، في رسم صورة الرؤساء، وكيف تم الترويج لهذه الصور لدى الشعب بشكل مدروس ومُتعمَّد أحيانًا، وعفوي أو تلقائي أحيانًا أخرى.

العصر الجمهوري

أخيرًا.. وبعد طول صبر واحتمال، من الآباء والأجداد، لحكم أجنبي جائر، كانوا فيه تابعين وخدمًا للفرس واليونان، والرومان، ثم العرب، والترك، والكرد، والطليان، والأرمن، والفرنسيس، والإنجليز، حانت اللحظة التي تنسموا فيها عبير التحرر وشعروا فيها بمعنى الاستقلال عن الأجنبي، وأن يحكمهم فرد منهم، في ظل نظام جمهوري، حكمهم فيه رؤساء من أبناء مصر، وما زالوا حتى الآن يحكمهم مصريون.. رغم ما تعرضوا له من نكسات، وما خاضوا من معارك وحروب عسكرية وسياسية، عانوا منها وما زالوا يعانون من تبعاتها، سواء كانت تبعية للأمريكان، أو معاهدات سلام جائرة مع بني صهيون.

هذا وقد حكم مصر في العصر الجمهوري أربعة رؤساء هم:

* **الرئيس محمد نجيب:** في الفترة من ١٨ يونيو ١٩٥٣ إلى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤م.. بعد أن تولى رئاسة الوزارة اعتبارًا من يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢م؛ باستقالة علي ماهر، ثم جمع بعد ذلك بين قيادة الجيش، ورئاسة الوزراء، ورئاسة الجمهورية.

* **الرئيس جمال عبد الناصر:** في الفترة من ٢٣ يونيو ١٩٥٤، إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م.
* **الرئيس محمد أنور السادات:** اعتبارًا من أكتوبر ١٩٧٠م إلى ٦ أكتوبر ١٩٨١م.
* **الرئيس محمد حسني مبارك:** اعتبارًا من ١٤ أكتوبر ١٩٨١م، بعد فترة دستورية انتقالية لمدة أسبوع، تولاها صوفي أبو طالب، رئيس مجلس الشعب آنذاك.

ونظرًا لمعرفتنا بملابسات تولى كل هؤلاء الرؤساء المعاصرين لمقاليد الحكم؛ سنلج مباشرةً إلى الحديث عن أساليب رسم صورة هؤلاء الرؤساء بالمفهوم العصري، أي باستخدام وسائل الاتصال الجماهيري، كل وفقًا لما توافر في عصره منها، بدءًا بالصحافة، والإذاعة، والسينما - من خلال ما كان يُسمى بالجريدة الناطقة، ثم الأفلام الروائية والتسجيلية فيما بعد - ثم أخيرًا التليفزيون، سواء جاء ذلك بأسلوب عفوي، أو متعمد وفقًا لبرامج موضوعة مسبقًا من قِبل خبراء في رسم الصورة الذهنية، أو وفقًا لاجتهادات كل رئيس منهم، كما سنتعرَّف على الظروف التاريخية، التي خدمت في تحسين صورة كل رئيس.. أو أضرت بصورة أي منهم.

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بعد أن انتهى عصر أسرة محمد علي، وبدأ العصر الجمهوري كان لا بد من تفكيك المؤسسة الملكية؛ لأسباب يوجزها دكتور يونان لبيب قائلا: " ليس فقط لأسباب تتعلق بالتخلص من النظام، أو ما سُمِّي وقتئذ بالعهد البائد، وإنما أيضًا لأن أغلب إدارات هذه المؤسسة فقدت فاعليتها ... ... بعد أن تمت مصادرة تلك الأملاك لحساب الشعب المصري، ثم بقية الدواوين التي كانت لازمة لتوفير الأبهة لولي النعم، لم تعد لها وظيفة بعد أن غاب سيد القصر، ولم يكن الحُكام الجدد القادمون من صفوف الشعب في

حاجة إلى تلك الأبهة.. والتي لم تكن لائقة حتى لو اصطنعوها"[1].

وقد تطورت بالطبع مؤسسة الرئاسة في العصر الجمهوري عبر مراحل متتالية، وأضيفت لها مهام ووظائف إعلامية واضحة، وأصبحت هي الجهة المنوط بها رسم صورة الرئيس، والترويج لها، كما سيتضح لنا من الصفحات التالية.

(١) يونان لبيب رزق، مرجع سابق، نقلا عن مذكرات رجل القصر أحمد شفيق باشا ، ومذكرات حسن باشا يوسف المنشورة عام ١٩٨٢ تحت عنوان " مكونات القصر " .

الرئيس محمد نجيب

تميزت الملامح الشخصية للرئيس محمد نجيب بالطيبة والهدوء، وكأنه أب حان.. رغم انه قُدِّم لأول مرة للشعب المصري بوصفه قائد ثورة، وزعيم حركة عسكرية، وصفت آنذاك بـ "الحركة المباركة" .. رغم عدم ظهوره تقريبًا إلا بالملابس العسكرية، وفي فمه غليونه الشهير كانت الصحف وتعليقات الإذاعة - وهما وسيلتا الاتصال اللتان كانتا معروفتين في بداية الخمسينيات - كانتا تحاولان التركيز على إبراز هذه السمات تحديدًا للرئيس محمد نجيب: بالقول بأن له قلبًا طيبًا فيه خضرة الوادي، وصفاء جوه، وكانتا تركزان على أدائه الصلاة في المساجد الشهيرة، التي تضم رفات أولياء الله الصالحين وآل البيت، وسط جموع المصلين بتواضع شديد، وأنه كان كريمًا وودودًا مع عامة الشعب؛ لا يأنف من الجلوس إلى جوارهم، والتربيت على أكتافهم، وكأنه واحد منهم.. رغم الإشارة إلى أنه كان سليل أسرة عسكرية عريقة، وكانت الصحف آنذاك ما زالت تسبق اسمه بالألقاب، التي كانت معروفة قبل الثورة، والتي كانت ترتبط بالوزراء وعِلية القوم، ففي التعريف به صبيحة الثورة نشرت الصحف ما يُشبه السيرة الذاتية للرئيس نجيب، جاء فيها أنه:

- "من مواليد السودان، ولد في الخرطوم في ٢٠/ ٢ / ١٩٠١م.
- سليل أسرة عسكرية عريقة.
- حاصل على إجازة الحقوق، ودبلوم الدراسات العليا للدكتوراه في الاقتصاد السياسي والقانون الخاص، وحصل بجانب الدكتوراه على شهادة أركان حرب (درس القانون وهو ضابط).

- اشترك في حرب فلسطين وجرح ثلاث مرات.
- عمل **عزته** قائدًا للواء الثاني، ثم قائدًا للواء الرابع.
- أهم معارك خاضها معركة التيه ٨٦، في دير البلح، وأصيب برصاصة اخترقت صدره.
- مُنح **عزته** نجمة فؤاد الأول العسكرية؛ عن هذه المعركة بالذات.
- انتُخِب لأول مرة رئيسًا لمجلس إدارة نادي ضباط الجيش، وكانوا قبله يُعيَّنون، إلى أن صدر الأمر الملكي الكريم بإعادة انتخاب أعضاء مجلس إدارة هذا النادي.
- انتُخِب **سعادته** لأول مرة رئيسًا لجمعية مشوهي الحرب.
- كاتب ممتاز في المجلات العسكرية.
- متزوج وله أربع بنات، وولدان، وهو مستقيم السيرة.. محبوب من الجميع.
- تخرج في الكلية الحربية الملكية في ١٩١٨/١/٢٣م، ورُقي حتى رتبة لواء، في ٩ / ١٢ / ١٩٥٠م.[(١)]

ومن خلاصة ما تقدَّم، نستطيع أن ندرك بسهولة الصورة المرغوب تقديمها للشعب، عن رئيسه الجديد، أو قائد الثورة، إذ لم تكن الملكية قد ألغيت بعد، ولم يكن محمد نجيب قد أصبح رئيسًا للجمهورية بعد.. لكن ملخص ملامح الصورة هي التركيز على: العراقة، والشجاعة أو البطولة؛ بدليل خوضه المعارك والحروب، وتوليه قيادة لواءات عسكرية هامة، ونيله نجمة عسكرية، ثم أنه محبوب من الجميع؛ بدليل انتخابه لرئاسة نادي الضباط، وجمعية مشوهي الحرب؛ بما يدل على حنوه وعطفه، مع الإشارة إلى أنه كاتب ممتاز، وأنه مستقيم السيرة، ورب أسرة وأب، ولعل ذلك كان ردًا على الصورة النقيضة، التي رفضها الشعب المصري في الملك

---
(١) قصاصة من جريدة المصري بتاريخ ٢٤/ ٧ / ١٩٥٢م .

فاروق، فتم التركيز في صورة نجيب على سمات مختلفة عنها تمامًا.

والحق يُقال: إن الصحف في بداية الثورة قد نجحت إلى حد كبير. في تقديم صورة طيبة للرئيس الجديد: بدليل أننا - وكنا آنذاك أطفالا- كنا نحبه بشدة.. بل إنني كنت أرى صورته مرسومة على القمر.. أو هكذا كان يُخيَّل إليَّ، أن ما يبدو على وجه القمر من ظلال رمادية، هي صورة جانبية للرئيس محمد نجيب، وهو يرتدي الكاب العسكري، وكانت الصحف قد دأبت في نشرها كصورة رسمية للرئيس الجديد، ومضت السنون والعقود، وأنا أكاد لا أرى على وجه القمر إلا صورته؛ كإحدى ثوابت ما نتصوره في الطفولة، ويصعب محوه بمرور السنين.

هذا ونتيجة للحملة الإعلامية، التي قامت بها الصحف، اكتسب الرئيس نجيب شعبية كاسحة.. حتى قبل أن يُصبح رئيسًا للجمهورية، وكان بالطبع يُلقَّب في البداية بـ " اللواء محمد نجيب بك " و" سعادة اللواء نجيب بك "و ينادى " عزته"[1].

أما صحيفة الأهرام.. فقد لقَّبته - بعد ذلك بشهور - بـ "جندي مصر الأول"، وأشارت إلى ما يوحي "بسرعته المعهودة"[2]، كما لقبته بـ"القائد البطل الذي استطاع أن يُحرر مصر"[3]، كما نشرت عنه - في نفس العدد - قصة خبرية، تعكس مدى نزاهته، إذ تتناول واقعة تلقّيه غليونًا إنجليزيًا، هدية من مجهول، أصر على دفع الرسوم الجمركية عنها.

أما عن التحامه بالجماهير فنُشر خبر يقول نصًا: " لأول مرة في تاريخ رؤساء الوزارات، محمد نجيب يفتح بابه للشاكين، ويستقبل

(١) المصري ، العدد الصادر في ٢٤/ ٧ / ١٩٥٢ - في مواضع متفرقة .
(٢) الأهرام في ٩ / ٩ / ١٩٥٢م .
(٣) الأهرام في ٢١ / ٩ / ١٩٥٢م .

ذوي الظلامات، واقفًا ٤٠ دقيقة"[١]، وجاء في هذا الموضوع بالذات إشارات تقول: إن " الرئيس يُفسح صدره للشاكين، ويستمع إلى ظلاماتهم، وهو بادي الرضا والاطمئنان "، وإشارة إلى: " تلطُّفه مع وفد آخر، وتحيته للصحفيين، واعتذاره لهم عن التأخير "، بالإضافة إلى وصفه بألقاب مثل: " رجل العهد الجديد " و" منقذ مصر"[٢].

واستكمالا للتأكيد على مدى نزاهة الرئيس نجيب وتواضعه، أو عدم تمييزه لنفسه عن عامة الشعب، نشرت الأهرام عنوانًا يقول: "الرئيس يسمح بتفتيشه بقصر القبة"، ويقول محتوى الخبر: "زار الرئيس اللواء محمد نجيب أمس قصر القبة؛ لمشاهدة ما فيه من تحف، وقد حدث أن لاحظ عند خروجه أن الحراس يفتشون الخارجين، فلما أقبل على الباب تراجع الحراس احترامًا له، فما كان منه إلا أن أصدر أمره إليهم بتفتيشه كما يفتشون سائر الزائرين، فرضخ الحراس أمام إصرار الرئيس وفتشوه، وهكذا يُلقي الرئيس - كعادته كل يوم - درسًا جديدًا في المساواة والنظام"[٣]، وإمعانًا في إبراز هذا الخبر نشر داخل إطار كعنصر من عناصر الإبراز الصحفي، للفت نظر القراء.

هذا وقد استمر رسم صورة الرئيس نجيب دائمًا بوصفه القدوة، سواء جاء ذلك بشكل غير مباشر؛ وفقًا لتصرُّف يصدر عنه عفوًا، فتبرزه الصحف؛ كي يقتدي به الناس؛ إرساءً لقواعد النظام الجديد، الذي يُفترض أنه مختلف عن النظم الملكية، فلا مجال فيه للتفرقة بين الحاكم والمحكوم، أو جاء ذلك بشكل مباشر كعبارة موجهة بتعمد، مثل العنوان الصحفي

(١) الأهرام - في ٢٣ / ٩ / ١٩٥٢م .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) قصاصة من ملف الرئيس نجيب في أرشيف الأهرام - بتاريخ ٢/ ٢ / ١٩٥٣ .

القائل: " الرئيس قدوة للمواطنين"[1].

وتأكيدًا على ما يرسيه من قواعد لنظام جديد يُقدِّم هو فيه القدوة، ظلت الصحف لشهور تنشر أخبارًا تفيد هذا المعنى، مثل القول بأن: " الهدايا المقدمة للرئيس أمر بتحويلها إلى المتحف الحربي"[2]، وقد قيل تحت هذا العنوان أنه قد تم جرد الهدايا، وتدوين عددها وأوصافها في قائمتين إحداهما تحفظ عند الرئيس، والأخرى بالمتحف الحربي.. وتمت الإشارة إلى نوعية هذه الهدايا بأنها مصاحف، وكتب، وآيات قرآنية، ولوحات تذكارية، وسيوف، وخناجر وأسلحة عربية أثرية نفيسة.. عدا الغليون والزهرة التي كان قد سبق الإشارة إليهما.

هذا ويجب أن يُذكر هنا، أن صورة نجيب لم تكن لتتجح، أو تكون بهذه الوضاءة.. إلا إذا اتسمت بالصدق، بمعنى التطابق، أو التشابه بين الأصل والصورة، ويبدو أن الرئيس نجيب كانت شخصيته بالفعل، تتسم بالملامح التي دأبت الصحف في تكرارها، فما شاع عن الرجل ممن يعرفونه، وشهدوا على سلوكه قبل وبعد قيام الثورة.. وحتى بعد عزله بأنه كان " حسن السمعة شجاعًا، امتاز دون أكثر زملائه برفضه الخضوع والإذعان لا للملك فاروق، ولا الحاشية العسكرية والمدنية، وكانت له مواقف مذكورة من ضباط الملك ...... وكان فوق ذلك موظفًا عف اليد، لم يطمع قط في المال العام، ولم يأخذ منه مليمًا واحدًا؛ ولذلك وقع اختيار الضباط الشبان عليه منذ اللحظة الأولى، فكان اختيارًا موفقًا، فقد أثبتت الأيام بعد ذلك، أنه كان يتمتع إلى جانب شجاعته الفائقة، ونزاهته الكاملة، بجاذبية لا تقاوَم، ولذلك ما كاد يقع نظر الشعب عليه، وهو يُلوح بقبعته العسكرية حتى تعلق به،

---

(1) الأهرام في ١٣ / ٤ / ١٩٥٣ .

(2) الأهرام - في ٢١ / ٣ / ١٩٥٣ .

ووقع في حبه، فأصبح يجري في أعقاب موكبه، وهو منجذب إليه، مشدود إلى شخصيته، يود أن يلمسه، أو يقبله، أو يعانقه لو استطاع، وقد امتُحن محمد نجيب امتحانًا عسيرًا، ذلك أنه ورث الزعامة الشعبية عن زعيم أحبه المصريون غاية الحب، وتغنوا باسمه في المظاهرات والاحتفالات، ذلك هو مصطفى النحاس باشا"[1].. وهنا يلفت نظرنا فتحي رضوان إلى أن شخصية نجيب كانت جواز المرور له إلى قلوب المصريين وعقولهم، فقد أتى بعد زعامات لها شعبيتها أيضًا، ويمكننا أن نتصور أنه لم يكن من السهل أن يحتل محلها بسهولة، ومع ذلك حدث هذا بفضل سِماته الشخصية، التي أكسبت الصورة التي ترسمها له وسائل الإعلام مصداقية عالية.

هذا ويشير فتحي رضوان أيضًا إلى الظن الذي كان سائدًا من أن محمد نجيب سيبقى بعيدًا عن قلب الشعب المصري وفاءً لزعيمه القديم، ولكن لم يحدث ذلك؛ إذ إن نجيب قد أنسى الشعب حبه لزعيمه القديم "بلا أدنى جهد" على حد تعبيره، فهو في رأيه لم يبذل جهدًا ليغزو قلب الأمة المصرية، وليحتل فيه مكان البطل الأول المحبوب، ومن اللحظة الأولى " تعلم الناس كيف يرددون اسمه، وكيف يشترون صوره، وكيف يرفعون هذه الصور في المظاهرات والمواكب، وكيف يلصقونها في الدور والأماكن العامة، وقد كان له خاصية تميَّز بها وتفوَّق على سلفه، تلك هي حب الأطفال الشديد له، فما من اجتماع عام إلا جاءت إليه الأمهات ومعهن أطفالهن، حتى تحلق الأطفال حول محمد نجيب، يتعلقون به، ويتسلقون أكتافه، ويقبلونه، وهو يحملهم فوق ذراعيه مثنى وثلاث ورباع، ويقبلهم، ويعودون إلى أمهاتهم، وهم يتسابقون في منظر جميل وكأنهم الحمائم البيض، وجاء حب الأمهات بعد حب الأطفال، فقد

(١) فتحي رضوان - مرجع سابق - ص ١٢ .

كن يقتربن من الزعيم الجديد ويقدمن له (الأوتوجرافات)؛ ليوقع لهن باسمه، فلا يمل ولا يتعب، ويوقع المئات في هذه الدفاتر وهو راض ومبتسم، يوزع دعاباته التي تضحك، وتزيد من حب الناس له وتعلقهم به"[1].. وقد آثرت أن أنقل وصف فتحي رضوان نصًا، لأنه يعكس بصدق واقعًا عشته بنفسي، ورأيته بأم عيني وأنا بعد طفلة، لشعبية الرئيس نجيب، ولواقع كان يُمارس في بداية الخمسينيات، بعفوية حيث لم يكن علم الصورة الذهنية قد تتأسس بعد، أما الآن فنرى نزرًا يسيرًا منه.. لكنه مصنوع؛ ولذا لا يتميز بالمصداقية؛ لأنه من صنع خبراء الصورة، أو افتعالا من بعض الرؤساء في العالم العربي، وفي كل دول العالم.

أما عن الألقاب التي قدِّم بها الرئيس نجيب في الصحف - خاصة الأهرام - فقد كانت تأتي وكأنها استفتاء على الرئيس الجديد، وشهادات في شخصه من مصادر متعددة وخارجية، وكان من أهمها، ما جاء على لسان شاب ألماني من قول: " المنقذ الأكبر لمصر بشجاعته"[2]، وما ورد على لسان العقيد أديب الشيشكلي نائب رئيس وزراء سوريا آنذاك، من أن: "حركة محمد نجيب كانت ضرورة اجتماعية ووطنية"[3]، ولا يخفى في هذا الاستشهاد من نسبة الثورة كلها كحركة اجتماعية لاسم الرئيس نجيب!! كما جاء في مقال لأحمد الصاوي محمد ما يشير إلى أن: " التايمز اللندنية في استفتاء عن رجل الساعة، أو رجل السنة استشهاد بأن الجنرال نجيب الذي خلَّص بلاده من فاروق هو رجل السنة"[4].

وكما هي العادة تشارك كل الصحف المحلية في دراسة جوانب

---

(١) فتحي رضوان - المرجع السابق - ص ١٢ ، ١٣

(٢) الأهرام في ١٣ / ١١ / ١٩٥٢م .

(٣) الأهرام في ١٩ / ١١ / ١٩٥٢م - قصاصة بملفه في الأرشيف .

(٤) أحمد الصاوي محمد - في ٢ / ١٢ / ١٩٥٢م .

شخصية أي رئيس جديد، وتبرز ما تنشره عنه الصحف والمصادر الإخبارية العالمية؛ كأسلوب تأكيد لملامح الصورة المرغوب ترويجها عنه، تمامًا كما نقول نحن حتى الآن ومنذ عقود، العبارة الشهيرة والمعهودة: الصحف الغربية تشيد بحكمة الرئيس، وتحركه الواعي، وتبرز أهم نقاط في خطابه التاريخي... إلى آخر ما درجنا على كتابته في كل مناسبة، ومع كل رئيس جاء بعد نجيب، ويبدو أن بذور هذا التقديم، لكل ما يتصل بالرؤساء والملوك والحكام العرب الآن، كانت بداياته أو بذوره مبكرة، منذ مطلع الخمسينيات من القرن الماضي.. حتى قبل أن ينشر الكاتب الغربي الشهير "كنيث بولدنج" كتابه الرائد في هذا المجال "The Image"، الذي قنن فيه لدراسات الصورة الذهنية لأول مرة، كعلم له قواعده وأصوله.

هذا وقد دأبت الأهرام على نشر ما يرسم ملامح محببة للرئيس الجديد، تعكس ما يتمتع به من سمات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "آراء ناضجة وجريئة للرئيس اللواء، تنشرها له صحف أمريكا في: الدين، والفلسفة، والسياسة"[1]، و"الرئيس الشعبي اللواء محمد نجيب مواساته في وفاة طالب، وعطفه على عمال في حادث"، مصحوبًا بصورة له مكتوب تحتها، "يواسي أحد المصابين في حادث العنابر عند زيارته لمستشفى السكة الحديد أمس"[2]، و"مصطفى النحاس عند محمد نجيب"، و"إجراء يتفق تمامًا مع الروح الوطنية الصادقة للعهد الجديد"، و"عهد الحريات المكفولة، والعمل الصادق بالتعاون والنظام"[3].

هذا وقد كان كل ما يُنشر في بداية الثورة يُبرَز فيه دور الرئيس محمد نجيب.. وكأنه الزعيم الوحيد للثورة، إلى أن نُشر خبر مؤداه:

(١) ملف الرئيس نجيب في أرشيف الأهرام - قصاصة بتاريخ ٤ / ١٢ / ١٩٥٢م.
(٢) الأهرام - في ٧ / ١٢ / ١٩٥٢ .
(٣) المصدر السابق نفسه .

"محمد نجيب يرد الزيارة للنحاس، البكباشي جمال عبد الناصر يرافق الرئيس اللواء في زيارته"[1]، وكان هذا هو أول ظهور لعبد الناصر مع نجيب في لقاء رسمي.. وفي نفس التاريخ نشرت الأهرام: "الرئيس يوحد صفوف الأمة، ويعمل على نبذ الخلافات؛ لتكون الأمة قلبًا واحدًا "؛ مما يوحي ببوادر مطالبة الضباط الأحرار بعد أقل من خمسة أشهر بالمشاركة في الزعامة، وعدم انفراد نجيب بحب الناس، وبصورة الزعيم الأوحد للحركة.

وحتى بعد ١٨ يونيو ١٩٥٣ حينما أصبحت مصر - وهي أقدم دولة ملكية في التاريخ - أحدث جمهورية، وأصبح محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر، ورئيسًا للوزراء، وأصبح جمال عبد الناصر نائبًا له " ظهر عدد ضخم من المقالات في الصحف الغربية في ذلك الوقت، تشير إلى أن الكثير من خارج الحدود يتساءلون: كيف يقود مصر هذا الضابط المرفه المنعم، الذي لا تفارق السيجارة الدانهيل فمه، وأطلقوا عليه اسم كرومويل المصري، ولم ينتبه أحد إلى عبد الناصر، واعتقد اللواء نجيب - على ما يبدو أن دوره الحقيقي هو زعامة الأمة.. وعلى الرغم من كونه ليبراليًا.. إلا أنه كضابط نظامي عالي الرتبة لم يتعود على أن تكون أوامره محل مناقشة، وبالطبع بعد انتخابه رئيسًا للجمهورية لم يعد راغبًا في سماع نصائح ممجوجة، فتوترت والتهبت العلاقات بين نجيب وعبدالناصر، وأدى اختلاف وجهات نظرهم إلى تفاقم الصراع السياسي القائم في مصر"[2]، وهذا الرأي الغربي يفيد بأن صورة الرئيس نجيب لم تكن على خير ما يرام في الخارج، كما كانت الصحف المصرية تروّج لذلك، كما أنها في إطارها الضيق داخل تنظيم الثورة كانت قد بدأت تهتز، " كما

(١) الأهرام - قصاصة بتاريخ ٨/ ١٢ / ١٩٥٢م .

(٢) أ. أجاريشيف - ناصر - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - ١٩٧٧- ص ١٧٤ .

صار ينتقد مجلس قيادة الثورة في أحاديثه مع رجال السياسة والدبلوماسيين الأجانب، ولم يعد مسنودًا في المجلس، مجلس قيادة الثورة"[1].. لكن عبد الناصر كان دائم الظهور كواحد من رجال الثورة دون الإفصاح عن مكانته الحقيقية، ودوره في قيامها.

وكان أول ظهور لجمال عبد الناصر كندٍّ لمحمد نجيب وإلى جواره، صورة نشرتها الصحف لهما معًا في جامعة القاهرة، في احتفال بذكرى الشهداء، ومعهما عبد اللطيف البغدادي، الذي كان اسمه يسبق عبد الناصر؛ مما يدل على أن الصحف نفسها لم تكن تدرك حتى بداية عام ١٩٥٣، من هو القائد الفعلي للثورة، وكانت الشعبية كلها للواء محمد نجيب بك.

وعلى ذكر الصور الفوتوغرافية ودورها في رسم الصورة الذهنية للرئيس نجيب، تجدر الإشارة إلى نوعية الصور التي كان يتم التركيز عليها وإبرازها في صدر صفحات الصحف، وفي جريدة مصر الناطقة التي كانت تُعرَض، على مشاهدي ورواد دور السينما، قبل كل عرض لفيلم روائي، وهي جريدة إخبارية مصورة، تُعد الآن سجلا أرشيفيًا لتاريخ الثورة.. بل ولتاريخ مصر، كما كانت تُعد من أهم وسائل الاتصال الجماهيري آنذاك التي يُمكن استغلالها للتعريف بالرئيس الجديد، وتقابل الآن أخبار التليفزيون المصورة، كمصدر توثيق للأحداث.

والملاحظ على هذه الصور الصحفية، أو السينمائية أنها كانت تركّز على الرئيس نجيب وهو يخطب بالزي العسكري في "حشد عظيم" - على حد تعبير كلام الصور، أو الجريدة الناطقة.. لكن هذا الحشد كان يُعد ضئيلا.. بل وضئيلا جدًا، قياسًا بما كان يُنشر بعد ذلك بسنوات من صور للرئيس جمال عبد الناصر، وحوله بالفعل

(١) المرجع السابق - ص ١٧٥ .

حشود عظيمة تبلغ الآلاف، أو ما أصبحنا نسمعه بعد ذلك من مذيعي الإذاعة والتليفزيون وهم يصفون - دون خجل - الجماهير المحتشدة لتحية الرئيس فلان على جانبي الطريق، وعين المشاهد ترى دون حاجة لتعليق خادع الموكب وهو يسير، ولا يظهر معه في الكدر، أو يحيط به سوى بعض المارة في الطريق بالصدفة!!

المهم أن الصحف كانت تركز على صور الرئيس نجيب، وهو يواسي المرضى في مستشفى أميري ببنها وطنطا مثلا، أو وهو "يداعب طفلين والابتسامة لا تفارق شفتيه"، على حد تعبير ما ورد أسفل الصورة من وصف لها، فالحق يُقال إن كلام الصور - أو ما يُسمى بلغة الصحافة الكبشن " CAPTION" كان في الأغلب الأعم أبلغ من الصور الصحفية نفسها، إذ كان يحمل قدرًا من المبالغة، أو لفتًا لانتباه القرَّاء، إلى أمر من شأنه الإيحاء، أو الإيهام بالصورة المرغوب تثبيتها في أذهان العامة، وهي أن الرئيس محمد نجيب كان يحظى بشعبية كاسحة، والحقيقة أنه كان بالفعل يحظى بشعبية كبيرة نسبيًا.. لكنها لم تكن بالقدر الذي تصفه الصحف، وكدليل على ذلك نشر صورة لسيدتين تلتقطان صورًا، وتحتها عبارة تقول: "أُخِذت هاتان السيدتان بالحفاوة التي يلقاها الرئيس من الشعب، فهرعتا لالتقاط مظاهر ابتهاج الشعب "، وكتأكيد آخر على أن كلام الصور كان غالبًا مبالغًا فيه، أو أكبر مما تعكسه الصور الفوتوغرافية، ما كُتب تحت صورة للرئيس نجيب، وهو داخل سيارة مكشوفة، وصفين من الناس من مُرتدي الجلاليب، والطريق خالٍ تمامًا، في حين كان كلام الصورة يقول: " سدَّت جماهير الشعب الطرق، ولم تترك إلا مجالا محدودًا لمرور سيارة الرئيس، وهي في طريقها إلى بنها، ويُرى الرئيس اللواء محمد نجيب وهو يُحيي الشعب، وحوله لفيف من مرافقيه "، وعبارة أخرى تحت صورة كبيرة،

منشورة على ٧ أعمدة، تقول: "خرجت طنطا عن بكرة أبيها لاستقبال الرئيس"[١].

هذا وقد استمرت الصحف على هذه المبالغة لفترة طويلة، وبدت المبالغة في وصف الحشود بأنها بالآلاف.. لا وبالملايين، دون أن تعكس الصور ذلك، ففي تعليق آخر على صورة كتبت الأهرام: "بين أمواج الجماهير الهاتفة، وتحت أقواس النصر والأعلام والزينات، سار موكب الرئيس اللواء محمد نجيب في شوارع دمنهور، يُحييّ مستقبليه الهاتفين بحياته، وحياة صحبه"[٢]، ومن الجدير بالذكر أنه في هذا اللقاء برزت أول دعوة للشعب للتقشف؛ لتوفير المال، ووعود بأن يفيض وادينا بالذهب!!

وبالطبع تعكس هذه الصور والتعليقات المصاحبة لها - كما سبق القول - ملامح وسمات الصورة المرغوبة، وهي أن للرئيس شعبية كاسحة، وأنه يَلقى ترحيبًا أينما حل، وأنه طيب عطوف، يربت على المرضى ويواسيهم، ويشفق على المعاقين، وهو كريم، وتأكيدًا لذلك نشرت له صورة على عمودين، وتحتها عبارة تقول: "إحدى كرائم السيدات، وهي تتناول التبرع من الرئيس اللواء محمد نجيب؛ لجمعية مساعدة مشوهي الحرب وأبناء الشهداء، في أثناء حفل الآنسة أم كلثوم مساء أمس"[٣].

واستمر التعبير عن إنسانية الرئيس، منذ بداية توليه منصبه، وحتى وقت قريب من تنحيته، وكان معظم ما يُنشر كتنويعات على نغمة واحدة، هي البساطة، والاقتراب من الناس، والعطف عليهم، وكنماذج لهذه التنويعات وصف خُطبه بصفة مختلفة عما نسمعه الآن كوصف لخطب الرؤساء بأنها تاريخية، إذ كانت الصحف تصف خطب

(١) الأهرام في ٢٣ / ٩ / ١٩٥٢ .
(٢) الأهرام - في ١٥ / ٤ / ١٩٥٢ .
(٣) الأهرام في أكتوبر ١٩٥٢ .

الرئيس نجيب قائلة: "خطاب إنساني للرئيس في وفد أسيوط"[1]، والتركيز على الجوانب الإنسانية في تصرفاته وسلوكه، مثل الإشارة إلى أن: " الرئيس يزور جنديًا في داره، ويستقبله بدار الرياسة؛ ليكرر تعزيته في فقد ولده ... كان الشاب في الرابعة عشرة من عمره، ووقع تحت إحدى السيارات من شدة الزحام وقضى نحبه عند مرور موكب الرئيس اللواء بدائرة باب الشعرية"[2]، كذلك تكرار نشر صورة له وهو يصافح الناس، ويهدي إليهم صورته موقعة منه.. ونشر مانشيتات حمراء كبيرة على يومين متتاليين تقول: " استقبالات شعبية رائعة للرئيس بالإسكندرية "، وزيارته المستشفيات والمؤسسات الاجتماعية والخيرية، وعطفه على الجنود والمرضى"[3].

هذا وإمعانًا في تأكيد نزاهة الرئيس نجيب، نُشرت قصة خبرية على عمودين، بعنوان يقول: " تحذير من استعمال اسم الرئيس أو أي فرد بأسرته "، وكان موضوع القصة أن شخصًا ادعى أنه موفد من الرئيس في مزارع أنشاص، وحصل على طيور ودواجن بمبلغ ٥٦ جنيهًا، ثم باعها، واستقدمه الرئيس إلى دار الرياسة، واعتقل وأحيل للنيابة للتحقيق تمهيدًا لمحاكمته بعد اعترافه، وفي نهاية القصة تشير الصحيفة إلى أنه " مما يجدر بالذكر بعد ذلك أن الرئيس اللواء يدير بنفسه شئون بيته.. حيث يحيا الحياة الديمقراطية الصحيحة"[4].

هذا بالإضافة إلى الاقتباس من خطب الرئيس نجيب وتصريحاته، لعبارات تبرز الجانب الإنساني، وتعكس مدى تعاطفه مع الناس، وتبشرهم بحياة كريمة آمنة، من نوعية: " الرئيس محمد نجيب يقول: إننا نكافح لحياة كريمة قوامها احترام الفرد... وإنني أكره الحروب،

(١) قصاصة من ملف الرئيس نجيب - بتاريخ ١٦/ ٢ / ١٩٥٢ .
(٢) الأهرام - في ٢٤ / ٣ / ١٩٥٢ .
(٣) ١٣ . و ١٤ أبريل ١٩٥٢ .
(٤) الأهرام - في ٢٩ / ٤ / ١٩٥٢ .

وأهيب بالعالم أن يحافظ على القيم الخلقية... إن النظام والتنظيم هما ما نحتاج إليهما، بعد أن حققنا الاتحاد وعزمنا على العمل"[1]، ولا يخفى ما في هذا الكلام من طرح لشعارات الثورة الثلاثة، وتقريبها من أذهان العامة من الناس، إذ كانت الشعارات المرفوعة آنذاك عبارة عن ثلاثيات تكررت كثيرًا في خطب الرئيس نجيب، وهي: الاتحاد، والنظام، والعمل، كما كان الأعداء المطلوب مقاومتهم هم: الفقر والجهل والمرض.

أما عن تقديمه هو لنفسه من خلال خطبه، وأحاديثه الصحفية لمندوبي الوكالات العالمية، فكان ميالا فيها في البداية إلى التروي، وعدم المغالاة، مع شرح للخطوط الرئيسية للسياسة الداخلية، إذ جاء في أول حديث صحفي له، أدلى به " للمستر والتر كولينز " مدير وكالة " اليونايتد برس " في الشرق الأوسط، بعد أربع ساعات من حلفه اليمين الدستورية أمام مجلس الوصاية المؤقت قوله: " لا تفكير في حل الأحزاب حاليًا "، و" مشروع تحديد الملكية يعود على البلد بفوائد اقتصادية، واجتماعية، وسياسية "، و" الحد من الغلاء، ومكافحة التضخم، ورفع مستوى العُمال، وفرض الضرائب التصاعدية، وتشجيع التجارة والصناعة"[2]، وكان ذلك إجابة منه على تسعة أسئلة مكتوبة، بلور فيها توجهات الثورة بحذر.. لكنه بدأ بعد ذلك يُعلن عن حل الأحزاب، وإلغاء الألقاب، وتحديد الملكية الزراعية، وما إلى ذلك من قرارات، كان من الحكمة التروي في إعلانها من البداية؛ لأن إعلانها كان كفيلا بتأليب بعض القوى التي لا يُستهان بها، ضد الثورة؛ لتقويضها.

هذا وقد نشرت الأهرام بعد عدة أيام فقط على لسان الرئيس

---

(١) الأهرام - في ٢٢ / ٢ / ١٩٥٣ .

(٢) قصاصة من أرشيف الأهرام بتاريخ ٩ / ٩ / ١٩٥٢م - ملف محمد نجيب .

محمد نجيب عنوانًا رئيسيًا ضخمًا، اختلفت فيه لهجة الرئيس الجديد، إلى حد يبدو معه مقدار حزمه وشدته، ووضعه لملامح النظام الجديد المبني على النظام والعمل، وهي الشعارات التي بدأت بها الثورة، وجاء فيه نصًا: " الرئيس محمد نجيب يقول: "الإعدام جزاء الغشاشين، وتجار السوق السوداء، ومهربي الحشيش.. كفانا زعامات تُبنى على الهتافات، فنحن في عهد جديد، قوامه العمل"، وأتبعت الأهرام هذا العنوان بمجموعة من العناوين الفرعية، لنفس الموضوع تقول: "النظام أساس الحياة"، "اهتفوا لمصر والسودان"، "اصبروا قليلا"، "الإعدام للغشاشين "، " القانون هو القانون "، و"قد أعذر من أنذر"[1].

هذا ونجد أن محمد نجيب الذي بدأ هادئًا في تصريحاته وخطبه، قد بدأ بعد ذلك يُبدي شدة وحزمًا عسكريًا.. أكثر منه سياسيًا، إذ بدأ بعد عدة أشهر بإصدار تصريحات كثيرة وصفت بـ: " تصريح خطير للرئيس محمد نجيب إلى الأهرام: تحقيق الجلاء، وحل مشكلة السودان أهم ما يشغل بالنا الآن"[2]، ومن هذا التاريخ الذي كان بداية وصف تصريحات نجيب بالخطيرة، بدأت المبالغة في وصف كل ما يتفوه به بالروعة، والوطنية، والمبالغة في وصف الحشود من حوله، ومدى تأثيره عليها.. حتى لو كان ما يقوله هو طعنًا في ثورة ١٩١٩، التي كانت -حتى ذلك التاريخ - عزيزة على قلوب المصريين، ويفخرون بها، ويتصورون أن ثورتهم الجديدة - ثورة يوليو - امتداد لتحقيق أهدافها، وأهداف وآمال الشعب المصري الذي أجهضت ثورته عام ١٩١٩.. لكنه كان وما زال يعتز بها، وبزعيمها سعد زغلول، ومن بعده مصطفى النحاس باشا، إذ حاول نجيب في البداية الإيهام بأنه

(١) من ملف محمد نجيب في أرشيف الأهرام - بتاريخ ٢٥ / ٩ / ١٩٥٢ .
(٢) الأهرام - قصاصة بتاريخ ١ / ١ / ١٩٥٣م.

سيوحد الأمة على قلب واحد، بكل تياراتها السياسية، والوفدية بالأساس: بوصف حزب الوفد المولود من رحم ثورة ١٩، هو حزب الأغلبية الساحقة لجموع المصريين، ثم ما لبث أن تغيَّر موقفه! وبسرعة بعد شهور قليلة من تصريحاته السابقة!!

هذا وقد كان من الغريب حقًا أن يبدأ نجيب بالطعن في ثورة ١٩، وقياداتها، والمقارنة بينها وبين حركة الضباط الأحرار، وأسلوبهم في الزعامة.. رغم أن أصابع الاتهام كانت تشير طوال السبعينيات إلى أن جمال عبد الناصر هو الذي غيَّر أو أمر بتغيير كتب التاريخ؛ لتشويه صورة كل من سبقه، بما في ذلك ثورة ١٩١٩، والحقيقة التي أكاد أجزم بها، أنه بريء من ذلك؛ بدليل أننا في النصف الثاني من الستينيات، كنَّا ندرس مادة باسم " ثورة يوليو"، كان يُدرِّسها لنا الأستاذ الدكتور رفعت المحجوب، وكان أول سطر في كتابه - المقرر على كل كليات جامعة القاهرة آنذاك - يقول نصًا: " إن ثورة ١٩ تعد إرهاصة من إرهاصات ثورة يوليو ٥٢ "، وكنا وقتها لا نعي معنى كلمة إرهاصة، فكان يستفيض في شرح، كيف كانت ثورة ١٩١٩ مقدمة ممهدة لقيام ثورة يوليو، وكيف استفاد منها زعماء ثورة يوليو، واستلهموا أهدافها.. لكن الرئيس محمد نجيب كان في مطلع عام ١٩٥٣ قد استحوذ على القلوب والعقول معًا، وكانت الصحف تشيد بكل ما يقوله.. حتى لو كان ذمًا وتقريعًا لثورة ١٩١٩ وزعمائها، إذ كانت تصف ما يقوله الرئيس نجيب نصًا بما يلي: " **يُلقي كلمة وطنية رائعة** في احتفال ١٥ ألف طالب جامعي بذكرى الشهداء: ثورة ١٩١٩ كانت عاقرًا!، كما قال في كلمته: قامت ثورة ١٩١٩ وكان هدفها طرد العدو، وتطهير البلاد من آثار الاحتلال، وتمكين المصريين من حق الاستقلال، فهل حققت تلك الثورة هدفها؟ كلا... لقد بدأت قوية.. وما لبث الضعف أن أصابها، وولدت والنجاح في ركابها، وما لبثت

الهزيمة أن أمسكت بخناقها، فضاعت معالم الثورة في مصر، كما ضاعت مصر في معالمها، وكل ذلك أيها السادة إنما يرجع إلى أن القائمين بأمرها جانبوا النظام، فلم ينتظموا، وجانبوا الاتحاد فلم يتحدوا، وجانبوا العمل فلم يُنتجوا، وانصرفوا إلى المغانم، وكان واجبًا عليهم أن يدفعوا ضريبة الثورة ومغارمها، وأحبوا ذاتهم، وتطلعوا إلى الزعامات الزائفة، وفتحوا عيونهم على بريق المناصب، وما لبث المستعمر أن عرف ذلك الضعف فيهم، فأخذ يعالجهم، ولقحهم بالرتبة والمنصب والزعامة، وملأ عيونهم بالبريق، وأتخم بطونهم بالمال، وفتح لهم دروب المجد الحرام، وعندئذ بدأت حياتهم الخاصة، وانتهت حياة الوطن"[1].. ومن الغريب حقًا أن التقليل من شأن ثورة ١٩١٩ قد نُسب فيما بعد إلى الرئيس عبدالناصر.. وليس نجيب.. رغم أن عبد الناصر في الباب الرابع من الميثاق الوطني الذي قدمه في ٢١ مايو ١٩٦٢ للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية، قد تحدث بتعاطف شديد عن ثورة ١٩١٩ تحت عنوان " درس النكسة"[2]، وبرر ما حدث بأسلوب أخف كثيرًا مما كان يصدر عن الرئيس نجيب من تصريحات.

هذا وبمتابعة دقيقة للعناوين، والصور الصحفية التي كانت تنشر، والكلام الشارح لها، خلال النصف الثاني من عام ١٩٥٢، والفترة من عام ١٩٥٣، التي كان فيها الرئيس نجيب رئيسًا للوزراء ثم رئيسًا للجمهورية، سنجد أن الصحف - وسيلة الإعلام الأولى آنذاك - كانت تتابع جولات الرئيس نجيب في أقاليم مصر، بقدر من المبالغة المتعمدة والموحية.. وأن تكون المتابعة موحية فهذا أمر ضروري لرسم الصورة المرغوبة للرئيس - أي رئيس - أما أن تعتمد على المبالغة

(١) الأهرام - قصاصة بتاريخ ١٢/ ١ /١٩٥٣ .

(٢) راجع الميثاق - منشورات وزارة الإرشاد القومي - الهيئة العامة للاستعلامات- ص٣٦-٤٧.

فهذا ما يمكن أن يدمر برنامج رسم الصورة من أساسه، إذ قد يزيح الكاذب الصادق والحقيقي في ملامح الصورة، وقد كان كل ما يُنشر يدور تقريبًا في إطار واحد، لا يخرج في تنويعاته عما سبق الإشارة إليه من سمات، إلى جانب التركيز على كل ما يقوله الرئيس نجيب عن سياسته، ومبادئ الثورة التي كانت قد بدأت تتبلور - كما سبق القول - في الشعارات المعروفة:الاتحاد، والنظام والعمل، ومحاربة الأعداء الأزليين للشعب المصري وهم: الفقر، والجهل، والمرض؛ ولذلك كان التركيز في الغالب على الجوانب الإنسانية. مثل العنوان القائل: "محمد نجيب في بنها، وطنطا، والمحلة الكبرى "، " تهافت الشعب على استقبال منقذه "، وكلام الصورة المنشورة على أربعة أعمدة، الذي يقول: " الرئيس اللواء يشق طريقه، ومن حوله الجمهور يهتف مرحبًا بقدومه، ويحمل الأعلام "؛ وذلك تعبيرًا عما يكنه الشعب له من حب واحترام، وكلام صور أخرى يقول: " صورة للرئيس نجيب، وأمامه لفات الأقمشة التي أعدت لتوزيعها على العمال في المحلة"[1].. وتركيزًا على الجوانب الإنسانية والعاطفية أيضًا، نشرت الصحف تقول: " الرئيس اللواء يُلبِّي صوت بائسة، ويُعطيها كل ما كان في جيبه من نقود"... و"السيدة تهم بتقبيله، وتدعو له بدوام النصر "، وصورة لأم وتحتها تعليق يقول: "الرئيس يرى جراح الطفل بنفسه، والأم تشكو إليه ما أصابها؛ إذ أُخرج ابنها من المستشفى قبل أن يبرأ"[2].

هكذا نرى أن رسم الصورة كان يُركز على اللعب بعواطف الناس والبسطاء، والتركيز على الأنشطة الخيرية، كتوزيع الصدقات وعيادة المرضى ومواساتهم.. أكثر من الحديث عن السياسة والمبادئ

(١) قصاصة من ملف محمد نجيب في أرشيف الأهرام بتاريخ ٣٠ / ٩ / ١٩٥٢ .
(٢) الأهرام - في ٥ /١٠ / ١٩٥٢ .

والقرارات.. وإن كان الأمر لا يخلو أحيانًا من التعرُّض للسياسة.. ولكن بالتدريج، فبعد أن نفى الرئيس نجيب فكرة إلغاء الأحزاب، وجدناه يُصرِّح في إحدى جولاته قائلا: "ما دام جندي أجنبي واحد على أرض وادي النيل فلا معنى للتفرق والتحزب"، و"إنجلترا لم تعلن أنها لن تستغني عن قناة السويس.. إلا لمَّا أشاع دعاة الهزيمة أننا مختلفون"، و"ألد أعداء الحركة الإخلال بالأمن، والاعتداء على الحُرمات"(1) ولعل هذه التصريحات كانت محاولة منه للملمة الشمل وجمع الأمة، وفي نفس الوقت يمكن أن تنطوي على إشارة تاريخية لنا، إلى بداية الخلاف داخل مجلس الثورة، وبداية التطلع إلى كرسي الحكم، من قِبل القائمين الفعليين بالثورة.

هذا وقد كان الرئيس محمد نجيب يحاول تجنُّب ذكر الملك فاروق، أو الحديث عن مثالبه؛ ولعل مرد ذلك إلى أن فترة رئاسته للوزارة كانت في ظل نظام ملكي، إذ لم تكن الجمهورية قد أعلنت بعد؛ ولذلك كنا نرى في ثنايا بعض مقالات "أحمد الصاوي محمد" وصفًا للرئيس محمد نجيب - وهو يتحدث عن الملك السابق فاروق - يقول الصاوي فيه: "نفض الرئيس رماد غليونه كما لو كان يباعد ما بينه وبين شيء لم يعُد له وجود، وقال: إن وقتي أثمن من أن يُبدد في الرد على مهاترات.. لا يُقصد بها إلا اللغو، والكسب المادي، ثم نفض الرئيس رماد غليونه مرة أخرى"(2).

هذا وقد بدأت الصحف في نهايات عام ١٩٥٢ تستبدل بعض التعبيرات بأخرى كالقول "النهضة" بدلا من "الثورة، و"التوزيع العادل" بدلا من "محاربة الإقطاع"، وبدأ الرئيس نفسه في بلورة أهدافه، في كل لقاءاته الشعبية، فعلى سبيل المثال نُشر آنذاك

(1) قصاصة سبق الاقتباس منها بتاريخ ٣٠ / ٩ / ١٩٥٢ .
(2) ملف الرئيس نجيب في أرشيف الأهرام بتاريخ ٦ / ١٠ / ١٩٥٢ .

تصريح مؤداه: " الرئيس يُعلن في الإسكندرية دستور العهد الجديد.. نحن مصممون على خروج آخر جندي أجنبي... وأن نتحرر من ذلة الفقر، وظلمة الجهل، وبؤس المرض[1]"، كما بدأت الصحف تغالي في وصف شعبية الرئيس بتكرار وصف لقاءاته بالتفصيل كالقول: "احتشدت حماسة الطلبة، وتعالت هتافاتهم بحياة الرئيس والجيش، فرفع الرئيس اللواء محمد نجيب قبعته، مرددًا شكره لهذا الاستقبال الرائع"[2]، والقول بأن: " الرئيس يتمتع بحب شعبي عظيم.. مصلح في الشئون الداخلية، وحكيم في الشئون الخارجية "، ويشار في هذا العدد من الصحيفة إلى رسالة، من مراسل الأهرام في نيويورك بتاريخ ١٩ يناير ١٩٥٣، يقول فيها: " كتبت اليوم جريدة نيويورك هيرالد تريبيون تقول: إنه لم يكن ثمة بد من أن يتّخذ الرئيس اللواء محمد نجيب قراراته بطريقة فجائية جازمة، وقالت: إن محمد نجيب حاول تنفيذ مشروعاته الإصلاحية، مع بقاء النظام السياسي السائد في مصر، وكثيرًا ما أعلن أنه يود تعزيز الديمقراطية، وبعث بالفعل أول شعاع أمل، في نفوس الفلاحين المنسيين"[3]، وقد كانت بالفعل الصحف الغربية تشيد أحيانًا بالرئيس نجيب.. لكنها أيضًا كانت تتعجب أحيانًا؛ من أن هذا الرجل المرفّه المنعّم سيقود مصر، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وإلى أنه كان ليبراليًا.. ولكنه رجل عسكري يرفض مناقشة آرائه.

هذا وإمعانًا من الصحف المصرية في عكس الصورة الذهنية المنطبعة في العالم عن الرئيس نجيب وإنسانيته، ومدى وصول هذا المعنى إلى الجميع.. حتى الأطفال، ليس في مصر وحسب.. ولكن في كل أنحاء العالم، نشرت الأهرام في مطلع عام ١٩٥٣ عنونًا يقول: "

---

(١) الأهرام بتاريخ ٧ / ١١ / ١٩٥٢ .
(٢) الأهرام بتاريخ ٢٥ / ١٠ / ١٩٥٢ .
(٣) قصاصة من ملف الرئيس نجيب بتاريخ ٢٠ / ١ / ١٩٥٣ .

الأطفال يطلبون إلى الرئيس أن يُهدي إليهم صورته "، وأوردت تحت هذا العنوان - كخلفية للخبر - ما يؤكد أن صيته قد ضرب الآفاق، فقالت الصحيفة: "من هذه الرسائل أيضًا عشرات بعث بها إلى الرئيس اللواء أطفال من أمريكا، وإكوادور، والأرجنتين، وسويسرا .. يقولون فيها إنهم عرفوا من آبائهم حبه الشديد للأطفال، وحنوه الكبير عليهم؛ ولهذا فإنهم أحبوه كثيرًا، ويرددون اسمه كل يوم، وقد التمسوا منه أن يُهدي إليهم صورته الفوتوغرافية، فأمر الرئيس اللواء بإجابتهم إلى طلبهم"[1]، واستمراءً لنفس الأسلوب تتابعت الإشارة إلى ذلك عدة مرات، إذ نُشر في يوم لاحق، خبر مؤداه أنه نظرًا " للثقة بالرئيس في الخارج ٢٠٠ رسالة أسبوعيًا تطلب صورته، والرئيس يُهدي صورته للأمير محمد عبدالمنعم الوصي المؤقت على العرش"[2].

و استكمالا لملامح الصورة التي تتسم بالإنسانية والحزم، والشجاعة، والحكمة، والوطنية، استمرت الصحف في إعادة نشر ما تكتبه الصحف العالمية عن الرئيس نجيب، فنشرت الأهرام خبرًا على عمود عنوانه " جندي ذكي محبوب "، جاء فيه: "نشرت اليوم صحيفة ديجول الناطقة بلسان حزبه مقالا بعنوان: نجيب يطلب استقلال مصر، وصفت فيه قائد الثورة المصرية، بأنه جندي ذكي محبوب؛ للشعبية التي يتمتع بها؛ ولترحيب الشعب المصري به أينما ذهب"[3]، وغني عن البيان.. خاصة للإعلاميين، ولمن يقرءون الصحف بإمعان ووعي، مغزى عملية الاجتزاء من مقال تحليلي، تنشره صحيفة حزبية عن قائد ثورة جديدة، قامت في دولة محتلة من إنجلترا الدولة الاستعمارية المنافسة لها، وما قد يرد في هذا المقال من تحليلات قد

(١) قصاصة بتاريخ ٢٩ / ١ / ١٩٥٣ .
(٢) الأهرام - ١ / ٣ / ١٩٥٣ .
(٣) الأهرام - ١٥ / ٢ / ١٩٥٣ .

يكون بعضها مع، وبعضها الآخر ضد قائد ينادي بتحرير بلده من الاستعمار - وفرنسا آنذاك دولة استعمارية أيضًا - كما أن هذه الصحف الأجنبية كانت تتأثر بما تكتبه الصحف المصرية عن هذه الشعبية الكاسحة للرئيس نجيب.. بل وتنقل عنها أحيانًا، إذن كان كل ما يُنشر ترديد أصداء متبادلا بين الصحف، وتركيزًا على نُصرة ثورة قامت في مستعمرة بريطانية.. لا يخلو بالطبع من إعجاب بشكل أو بآخر بشخص الرئيس محمد نجيب.

هذا وفي متابعة أخرى لما يُنشر عن الرئيس نجيب في الخارج، ويمكن أن يُفيد في دعم صورته وقيادته داخليًا، وردت إشارة إلى أن " صحافة فرنسا تشيد بنهضة مصر "، جاء فيها ما يخص الرئيس من صفات تحت عنوان: "محمد نجيب أبو الهول الجديد، يجمع بين الرقة والشدة "، ورد فيه " كتب جان رو في جريدة فرانس تيرير، تحت عنوان في بلاد أبي الهول الجديد، أن أبا الهول الجديد هو محمد نجيب، وأنه يجمع بين الرقة، رقة أهل الفكر، وبين الشدة والصرامة، اللتين يتسم بهما العسكريون"[1].. كل هذا الوصف كان يختص به الرئيس نجيب.. دون سواه من رجال الثورة - التي لم يكن هو قائدها الحقيقي - وقد أشارت هذه المقالة إلى تصريح على لسان عبدالناصر حول نفي انضمام نقابات العمال إلى حركة التحرير، لعله كان بداية لظهور اسم عبد الناصر بشكل لافت.. لكن دون إدراك لكونه قائد الثورة الحقيقي.. بل كان الاهتمام كله ينصب على شخص نجيب وحده.. ولعل ذلك يُفسِّر للبعض العجلة في تنحيته، وإعلان اسم القائد الفعلي، فالنفس البشرية قد تُنكر ذاتها لفترة.. لكن الاستمرار في نكران الذات، والاكتفاء بالدور الثاني وليس دور البطولة، أو بدور خفي وسط المجموعة، في ظل هذا التلميع الإعلامي

(١) الأهرام - في١٢ / ٢ / ١٩٥٣ .

للرئيس نجيب أمر لم يكن بالإمكان الاستمرار فيه لفترة طويلة.. خاصة بالنسبة لشخص مثل عبد الناصر، ولعل ذلك يُفسر لنا بعض الأمور التي سنتناولها فيما بعد، حينما نستعرض الصورة الشعبية للرئيس جمال عبد الناصر.

هذا وقد أشارت الأهرام أيضًا لرأي غربي آخر في الرئيس نجيب مؤداه: " قالت اليوم جريدة واشنطن بوست: إن الرئيس محمد نجيب سياسي بعيد النظر.. وعقَّبت بأن اتفاق السودان.. لو أمكن اتخاذه أساسًا للحكم على اللواء نجيب لصح القول بأن رجل مصر القوي سياسي بعيد النظر"[1]، كما أشارت الصحف في صياغة ذكية لعنوان أرجأت فيه صلب الخبر إلى ما بعد الإشادة، إذ قالت: " أعظم قائد بأفريقيا لايف الأمريكية تصف الرئيس "، وجاء فيه نصًا: " وصفته بأنه أعظم قائد عسكري مقدام في أفريقيا، وقالت: إن الفلاحين وعمال المصانع ورجال القبائل يدينون بالولاء له؛ لأنه وعد بأن يحرر الفلاحين من الفقر المدقع، وبدأ العمل لتحقيق الإصلاح الزراعي، وخفض الأسعار إلى أدنى حد"[2]، وفي نفس العدد أشارت إلى أن " رئيس جمهورية فرنسا يشيد بمصر وقائد نهضتها ".

من كل ما سبق يتضح لنا كم ونوعية ما كان يُنشر عن الرئيس نجيب، وهو ما زال بعد مجرد رئيس وزراء ووزيرًا للحربية والبحرية، وذلك - على أية حال - يُعد حملة جيدة جدًا.. إن لم نقدرها بامتياز قياسًا بالزمان الذي تمت فيه، وطبيعة الشعب الموجَّهة إليه، وبساطة العصر، ومحدودية وسائل الاتصال الجماهيري.. قياسًا بما نحن عليه الآن في ظل السماوات المفتوحة، وتعدد وسائط الاتصال، وهي حملة توضِّح أن الرئيس نجيب كان مدركًا بفطرته، لما يُمكن أن يُدعِّم مكانته

(١) الأهرام - ١٥ / ٢ / ١٩٥٣ .
(٢) الأهرام - في ٣٠ / ٤ / ١٩٥٣ .

في قلوب المصريين، ويُقرِّبه منهم، إذ يتضح مدى فهمه لنفسية أفراد هذا الشعب، وما يُعجبهم، وما لا يُعجبهم في حكامهم، خاصة في فترة مخاض، وميلاد لعهد جديد، بعد أن عانى الشعب في ظل النظم المملوكية، والعثمانية، وملوك أسرة محمد على من الألبان، ومساعديهم من الأتراك والشراكسة، وسيتضح لنا أكثر مدى نجاح هذه الحملة الدعائية، التي نجحت في رسم صورة طيبة للرئيس نجيب، وقرّبته من قلوب أفراد شعبه، خاصة إذا ما قسنا هذه الحملة بما مارسه الرئيس السادات، في حملته لتقديم نفسه للشعب المصري، بعد شعبية كاسحة للرئيس عبد الناصر.. لكن ذلك سيأتي في حينه.

هذا وتجدر الإشارة بالنسبة للرئيس نجيب إلى أنه قد طُرحت له حملة دعائية أخرى أكثر قوة؛ تمهيدًا لتوليه رئاسة الجمهورية، في الفترة المواكبة لإعلان الجمهورية، سنتعرض لها أيضًا.. ولكن باختصار؛ نظرًا لأنها كانت أيضًا تنويعات على نفس سمات الصورة السابقة.. ولكن بأساليب مختلفة نوعًا، من حيث القوة، والوصف، والتحليل.

فمع بداية شهر مايو ١٩٥٣م بدأت الحملة الدعائية الثانية؛ تمهيدًا لإعلان الجمهورية، وبدأت بنشر صور مرسومة للرئيس نجيب، يبدو فيها أجمل من الواقع كثيرًا، كما بدأت الإشارة إلى سيرته الذاتية مرة أخرى، وبإسهاب وتفاصيل أكثر، وبرنة من السجع الذي يسهُل حفظه، وأيضًا يثبُت أكثر في الأذهان، خاصة لدى العامة والبسطاء؛ لقربه من المزاج المصري آنذاك؛ إذ لم تكن الكتابة قد تخلصت تمامًا من استخدام السجع، والطباق، والجناس؛ كأساليب تأثير لغوية، كما أنها تحولت لدى الناس إلى شعارات يسهُل حفظها، وتداولها، وتكرارها، مثل العناوين التي كانت تقول: " تاريخ مشرف لزعيم الثورة المباركة "، و" محمد نجيب طالب العلم، ورافع اللواء، وقائد الجيش "، و" الرجل

الذي أنقذ مصر: استقام فأقام، واتصل فوصل، وصبر فانتصر .
ونُشِرت مع هذه العناوين صور مرسومة له، قيل إنها: " بناء على تعدد الطلبات من كل أنحاء العالم؛ لمعرفة بيان.. ولو موجز من حياته "، وعلى ثلاثة أعمدة نشرت معلومات كثيرة، استخلصت منها ملامح أو سمات الصورة المرغوب تثبيتها في هذه الحملة، وهي أنه: " أديب له ذوقه - كاتب ممتاز - أكمل نصف دينه - خدم في الصحارى عشر سنوات - الضابط الطالب - دفع الضريبة في حرب فلسطين"(1).

و لا يخفى بالطبع أهمية تكرار مطالبة الناس من كل أنحاء العالم بصور الرئيس، إذ كان هذا المطلب مناسبًا تمامًا للعصر، حيث كان من مظاهر الاعتزاز بأي شخص ومحبته، الاحتفاظ بصورة له، أو تعليقها في صدر المنزل، كما أن القول بأنه أكمل نصف دينه بدلا من القول بأنه متزوج، يعطي مدلول الاستقامة والتديُّن، وهما من الأمور المحببة في شخصية الرئيس في مصر؛ خاصة بعد ما أشيع عن الملك السابق فاروق من مخاز، إلى جانب الإشارة بطرف خفي إلى أنه دفع الضريبة كفاحًا وعملا في الصحراء، ودفع ضريبة الدم في حرب فلسطين، ناهيك عن القول بأنه لم يتوقف عن طلب العلم.. حتى وهو ضابط، وأنه كان كاتبًا ممتازًا.

هذا وفي نفس العدد من الأهرام نشر مُلخص لحياته، تضمن تفصيلات أكثر.. لم يكن قد سبق نشرها، مثل القول: " كان والده يوزباشيًا في الجيش، ثم مأمورًا بحكومة السودان، بلدته النحارية بمركز كفر الزيات، والدته مصرية، ولدت ونشأت بالسودان، ونشأ محمد نجيب بالسودان.. إلى أن أتم دراسته الثانوية تقريبًا، ثم سافر إلى مصر، ودخل الكلية الحربية... حصل على إجازة الحقوق، في مايو ١٩٢٧، وحصل على عدة دبلومات ودكتوراه، وهو ضابط

(1) الأهرام في ٣٠ / ٥ / ١٩٥٣ .

صغير"[1] ولعل محاولات التركيز على كونه مصريًا، عاش صباه في السودان، أي أنه نصف مصري.. نصف سوداني، فإن كان مصري المولد فهو سوداني النشأة، هذا الأمر بالذات كان له مدلول طيب في النفوس آنذاك، أيام كان من يحكم مصر يحكم السودان أيضًا.

و تحت عنوان " فلسفة الحكم الصالح يكتبها الرئيس " رويت مجموعة من القصص الخبرية مؤداها: " شاب يشتمه فيسامحه، ويطلب الإفراج عنه فورًا! لن نقبل مطلقًا أن يهضم حق أي إنسان "، " يشتم الرئيس (كان عمره ١٤ سنة) فيأمر بالعفو عنه قائلا: إذا كانت تهمته أنه شتمني، فإني أسامحه، وأطلب الإفراج عنه "، بالإضافة إلى النشر عن مقابلته للعامة من الناس، و" لقروية بائسة، ومعها طفلها"[2].

هذا وقد استمرت الحملة الدعائية لرسم الصورة على نفس خطوات الحملة الأولى؛ بالتركيز على الجوانب الإنسانية، ومحاولة الربط بين مصر والسودان، كالقول: " وفاء الرئيس محمد نجيب لصديق له مجاهد سوداني كبير"[3]، وأيضًا بالإشارة إلى اهتمام الصحف الغربية بالإشادة به.. ولكن هذه المرة مع الإشارة إلى بقية رجال الثورة الآخرين، كالقول دون ذكر ألقاب لأول مرة، بأن: "صحيفة فرنسية تشيد ببطولة محمد نجيب، وتقول عن رجال الثورة: كالأسود في قوتهم، والحمام في وداعتهم"[4]، ولعل ذكر اسم الرئيس دون ألقاب، كان أسلوبًا جديدًا تمامًا على حملات الدعاية السياسية آنذاك، خاصة في دولة ظلت تُحكم حُكمًا ملكيًا لفترة طويلة، وكان للألقاب التي تسبق أي اسم أثرها في خلق قدر من المهابة والتفخيم..

---

(١) ١٩٥٣/٥/٢٠.
(٢) ١٩٥٣/٥/٢٨
(٣) ١٩٥٣/٦/٣
(٤) الأهرام في ٧ / ٦ / ١٩٥٣ .

ولكن من المعروف أن هذه الألقاب - عبر العصور - لم يكن من شأنها يومًا أن تُقرِّب صورة الحاكم أو شخصه من القلوب: ولذلك كان عدم ذكر الألقاب - حتى بالنسبة لرئيس الدولة - يُعد خطوة في خلق صورة شعبية له، ومساواته بعامة الشعب، وهو الشعار الذي كان مرفوعًا آنئذ.. وقد بدأ تحقيقه بإلغاء الألقاب، ثم في إعلان النظام الجمهوري ثم التأكيد عليه بالنسبة للرئيس أيضًا.

كما أشارت الأهرام في عنوان لها، إلى أن "أيزنهاور يفخر بمحمد نجيب، ويقول: إنه من أعظم رجالات العالم"، وجاء في الخبر الذي كان يُشير إلى تشبيه نجيب بأيزنهاور.. القائد العسكري المنتصر في الحرب العالمية، والذي أهَّلَهُ انتصاره كي يُنتخب عام ١٩٥٢ كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية، قوله عن محمد نجيب: "إني لفخور أن يكون هناك تشابُه بيني وبين رجل من أعظم رجالات العالم في هذا الوقت... فهو في مصر قائد ثورتها، وزعيم نهضتها، وموضع تقدير العالم"(١).

هذا ولم تألُ الصحافة جهدًا في الاستمرار في نشر قصص خبرية منوعة؛ للتأكيد على مطالبة الجماهير وإقبالها على صور الرئيس؛ كمظهر من مظاهر إعزازها له، واعتزازها به، وحبها له، إذ نشرت الأهرام قصة خبرية عن بيع في مزاد علني في حفلة أقيمت بنادي الصيد، لمعهد الأيتام التابع للمحفل الماسوني، تحت عنوان: "الإقبال على صور الرئيس، ٤ صور تباع ب ٥٠٠ جنيه"(٢).

هذا وإمعانًا في إبراز الجانب الإنساني وملامح الكرم، والإسار في شخصية الرئيس محمد نجيب، نشرت الأهرام خبرًا، تُقارن فيه بين راتب الرئيس في السنة قياسًا بمن سبقوه، استعرضت فيه تاريخ

---

(١) ١٩٥٣/٦/٢٧ .

(٢) الأهرام - في ٢٧ / ٦ / ١٩٥٣ .

المخصصات في العهود الخديوية والملكية. وجاء تحت عناوين تقول: "٦ آلاف جنيه مرتب رئيس الجمهورية "، " الرئيس محمد نجيب يتنازل عن نصفها للأمة "، ويقول: " أقرر أني.. لو كنت أملك من الموارد الخاصة ما يكفي لنفقاتي الضرورية، لتنازلت عن آخر مليم من مرتبي "، مع إشارة في الخبر إلى أنه " قد حرر الرئيس كتابًا رسميًا بهذا التبرع، وسلمه لوزير المالية والاقتصاد"[١].

و استكمالا لملامح الصورة الإنسانية، المتسمة بالقناعة والتواضع، وعدم التعالي عن الحياة التي يحياها الشعب، وعدم استغلال النفوذ؛ نُشر خبر مؤداه، " قرر الرئيس اللواء محمد نجيب بوصفه رئيسًا لجمهورية مصر، أن يحضر يوميًا إلى قصر الجمهورية؛ لتأدية أعمال رياسة الدولة، ثم يؤدي في دار الرياسة أعماله كرئيس للوزراء..... وافتر ثغر الرئيس عن ابتسامة حلوة وقال: " إنني أحمد الله كثيرًا، قانع بالمسكن الذي أقيم فيه، وأستبشر به، ولن تغيِّر رياسة الجمهورية شيئًا من أمري، وكم أود من كل قلبي أن أمشي على قدميَّ بين الناس ومعهم.. لولا القيود والتقاليد، التي يتحتم مراعاتها عند تولي الحكم في مختلف بلاد العالم " وقال: " إن العبرة بالسكان لا بالمسكن"[٢]، وقد عقد صلاح سالم وزير الإرشاد القومي مؤتمرًا صحفيًا، قال فيه: إن منزل محمد نجيب منزل تاريخي، شهد مولد هذه الحركة المباركة، وقال: " لقد ألغينا الألقاب؛ ولذلك لن يُلقب مثل باقي رؤساء الدول بفخامة الرئيس"[٣].

هذا وقد بدأ محمد نجيب تنفيذ برنامج لتشكيل صورته.. إذا كان هناك ثمة برنامج مخطط بالفعل لرسمها، وظلت الصحف تتابع

(٢) الأهرام - في ١ / ٧ / ١٩٥٣ .

(٢) الأهرام - في ٢٢ / ٦ / ١٩٥٣ .

(٣) انظر ملف إعلان النظام الجمهوري في مصر برياسة اللواء محمد نجيب - بتاريخ ١٩٥٣/٦/١٩.

تحركاته، وتؤكد على جانب مهم فيها وهو التواضع والتقشف، وكمثال لما نشر في هذا الصدد "محمد نجيب قدوة صالحة للشعب"، "الرئيس يستقل القطار العادي لتعزية القائد العام"[1]، إذ كانت والدة عبد الحكيم عامر قد توفيت، في قريته إسطال في صعيد مصر.

و كنموذج آخر يُركز على نفس التوجه في رسم الصورة، نُشر تحت عنوان "تقشف الرئيس" خبر نصه: " تناول الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب وجبة الغداء أمس في دار الرياسة، وكانت مؤلفة من الخبز، والجبن الأبيض، والبطيخ، هو لا يأكل حتى يشبع.. وإنما يأكل ما يساعده على تصريف الشئون المختلفة لمصلحة الوطن وأهله، وقد نشرت الأهرام من قبل أنه قرر البقاء في داره المتواضعة.. بالرغم من توليه منصب رياسة جمهورية مصر.. غير أن بعض مقتضيات ظروف هذا المنصب الرئيسي الكبير، اضطرته إلى أن يستأجر جزءًا من الأراضي الفضاء المجاورة لداره؛ ليُنشئ عليها غرفة استقبال، تؤثث بأثاث عادي؛ نظرًا لأن غرفة الاستقبال الموجودة في داره لا تتسع لأكثر من عشرة أشخاص"[2].. ومن اللافت للنظر حقًا استخدام بعض الألفاظ، والصفات، والعبارات ذات الدلالة في هذا الخبر، كالقول بأن الأثاث عادي، وأن الرئيس لا يأكل حتى يشبع، تأسيًا بالحديث الشريف، وأن ما حدث من تجديد في الدار أمر اضطراري، اقتضته التزاماته كحاكم، يُفترض أن يستقبل في داره أعدادًا كبيرة من الزوار.. وأن هذه التوسعة لم تتم من منطلق مستلزمات الوجاهة، أو الأبهة التي يُحيط بها الحُكام أنفسهم، أو يستسلمون لها كبديهيات، يوحي لهم بها من حولهم، ولا يقفون عندها؛ لمناقشتها ومعرفة مبرراتها وكأنها مسلمات يجب ألا تستوقفهم.. بينما هي في الحقيقة

(١) قصاصة من ملف محمد نجيب – بتاريخ ٢ / ٧ / ١٩٥٣ .
(٢) الأهرام في ٥ / ٧ / ١٩٥٣ .

تكون بداية نسج خيوط العنكبوت حولهم والنفخ فيهم، والمبالغة في تقديرهم، وهي الأمور التي قد تستغل ضدهم فيما بعد في عالمنا العربي؛ للتدليل على فسادهم، وتشويه صورتهم، بعد أن يُصبحوا تاريخًا.

هذا وقد بدأت الصحف بعد إعلان الجمهورية، وتولي الرئيس نجيب، كما بدأ بعض من حوله يزيدون من جرعة المبالغة في وصفه، من خلال تصريحاتهم المرتبطة به كرئيس، وبسلوكه، وبمدى شعبيته، وبدأ نشر المانشتات الضخمة، التي تقول على سبيل المثال لا الحصر: " مليون مصري يرددون البيعة لرئيس الجمهورية"[1]، ونشر المقالات الطوال التي يُدبِّجها المحيطون بالرئيس نجيب من الضباط الأحرار، تحت عناوين تحمل قدرًا مبالغًا فيه أيضًا من التفخيم والتعظيم.. رغم علمهم بأنه ليس قائد الثورة الفعلي.. بما فيهم عبد الناصر نفسه، الذي أرجأت ذكر شهادته لنجيب، إلى موضع لاحق؛ تمهيدًا للحديث عن عبد الناصر نفسه.. لكني أورد هنا نموذجًا واحدًا فقط.. كتبه اللواء أركان حرب أحمد شوقي عبد الرحمن، تحت عنوان " محمد نجيب بين عظماء العالم، جاء فيه ذِكر لسمات الرئيس نجيب، ومعلومات عن عائلته، ونقاط تحوُّل في حياته، وكيف صنعته بيئته، ومقاريات بينه وبين القيادات العالمية في ذاك الزمان، وهذه السمات يمكن استخلاصها مما أورد فيما يلي على حد تعبير الكاتب نفسه:

* نصيب وافر من الشجاعة والجرأة.
* جدته الأرملة كانت تشتغل بالحياكة؛ لتربية الطفلين بعد فقد صلتها بأهلها في مصر.
* صلابة العود، وصلابة الذهن، وقوة الاحتمال.

---

(١) ١٩٥٣/٦/٢٤

* أبوه خريج فنون وصنائع، وكان رياضيًا ممتازًا، وكابتن مصر في كرة القدم.
* لم يكن من المتفوقين في بداية أعوام الدراسة الابتدائية، وكان في لعبه يقضي وقته في بناء استحكامات وتدريب إخوته وأقاربه عسكريًا، ويشبهونه بأيزنهاور؛ لأن أم أيزنهاور كانت تتهاه عن الحرب.
* لم يكن لين المراس.. كانت أمه تضربه وتسيل دمه بالموس؛ لتردعه فلم ينثن، وكانت ترش على جرحه الملح.
* عيَّره زملاؤه فأفلح، وكان رسوبه في السنة الثالثة الابتدائية هو نقطة التحول في حياته؛ لأن زملاءه عيَّروه وقالوا " يا سمك بايت "، ولما أعاد كان ترتيبه الثاني.
* كان لا يسكت على بغض، وفي ذلك شُبِّه بأتاتورك.. إذ كان أول ضابط قدم استقالته في ٤ فبراير[1]، وقال فيها نجيب نصًا: "حيث إني لم أستطع أن أحمي مليكي وقت الخطر، فإني لأخجل من أن أرتدي بذلتي العسكرية، أو أسير بها بين مواطنيَّ؛ ولذا أقدم استقالتي ".. ومع ذلك كره فاروق، إلى الحد الذي جعله يدعو الله، وهو يُصلي في الكعبة سنة ٥٢ قائلا: " اللهم تل عرش فاروق على يَديَّ، وحقق آمالي في تحرير بلادي ".
* تقديس النظام في دمه.
* يحب جنوده.
* دارس مطلع.
* جاذبيَّته من داخله.. من روحه، ومن التعبير الباسم والنبيل دائمًا على وجهه.

(١) يوم الحادثة التي حاصرت فيها القوات البريطانية قصر عابدين : لإجبار الملك فاروق على تولي النحاس باشا الوزارة .

* قوة الذاكرة.
* معرفة اللغات.
* غير خبير بالطبخ، وهو بذلك عكس أيزنهاور[1].

هذا.. ولمن أراد تحليل السمات السابقة أن يتأملها مرة أخرى؛ ليقف بنفسه على كم السمات المميزة، قياسًا بما قد يُؤخذ منها على الرئيس، فهو يُشبَّه بالزعماء الكبار: أتاتورك، وأيزنهاور، وما قيل عن عناده يُحسب له.. وليس عليه، وما قيل عن كفاح جدته التي كانت تعمل بالحياكة، أيضًا يُقربه من البسطاء والعامة، ويُضفي عليه سمة أنه لم يتربَّ مُرفَّهًا، وأنه منذ نعومة أظافره صلب، وأنه رجل عسكري منذ طفولته.. وحتى الإشارة إلى مدى ولائه للملك فاروق، استدرك الكاتب بعدها، فقال إنه كان يدعو عليه في صلاته في الحرم، وهو انقلاب في المشاعر غير مبرر، ولا معنى له؛ في ضوء معرفة اللواء أحمد شوقي نفسه.. بأنه ليس بالفعل من خطط لقلب نظام الحكم.. لا بل ولم يكن من بين من خططوا لذلك أصلا!! ولا أجد مبررًا لأن يُقال عن الرئيس ما ليس فيه، أو تُنسب له أقوال غير منطقية؛ لمجرد أنه الرئيس.. إلا السبب العربي التليد، ألا وهو التأليه الشرقي المتوارث للرؤساء. فمن بالله كان مع محمد نجيب في صلاته في الكعبة، وسمع هذا الدعاء؟! وهل كان أحد يجرؤ على الجهر بمثل هذا الدعاء علنًا، وعلى مسمع من آخرين؟!، وهل حدث ذلك قبل قيام الثورة أم بعدها؟! أمور لم يوضِّحها كاتب المقال على أي حال!!

و استكمالا لملامح هذه الصورة.. نُشرت في نفس العدد، في يوم الاحتفال بالعيد الأول للثورة عناوين على ثلاثة أعمدة تقول: " الرئيس الذي يقترض لإغاثة الملهوف "، و" محمد نجيب يدعو لحياة الرجولة، ويمقت التبرج والخلاعة "، ذلك ناهيك عن عدد من العناوين الفرعية،

(١) خلاصة مقال طويل نشر بتاريخ ٢٣ / ٧ / ١٩٥٣ (في العيد الأول للثورة) .

التي قد توحي بما ورد تحتها من حديث.. دون الحاجة لاستعراضه تفصيلا، مثل: " الفول والطعمية دائمًا - الرئيس الكريم - يقترض لإغاثة الملهوف - يحنو على المريض والمكلوم - حبه لجيرانه - البعد عن الترف - ضد التبرج والخلاعة - الرجل المجامل - يكره الوساطة والتوصية - المبادئ السامية - الإرهاق في العمل - يعمل ١٨ ساعة على الأقل "، وهو نفس الرقم الذي ذكر فيما بعد عن بعض رؤساء الجمهورية في مصر؛ كإشارة لدأبهم في العمل، وسهرهم على مصالح الشعب!!

الخلاصة: بعد ذكر كل النماذج السابقة مما قيل عن الرئيس نجيب، أنه في بداية الثورة، وقبل إلغاء الألقاب كان يُلقب بالرئيس (أي رئيس الوزراء)، ويضاف لها لقب اللواء، أو عزته أو سعادته، وبك.. ذلك إلى جانب ما يُطلق عليه من ألقاب تمنحه الشعبية، وتوضح دوره، وهي سمات ذات محددات سياسية واجتماعية في إجمالها، نذكر منها حصرًا: جندي مصر الأول، والقائد أو الزعيم، والبطل، ومنقذ مصر، ومحرر مصر، ورجل العهد الجديد، ورجل الساعة، ورجل السنة، وأعظم رجل في العالم.

ذلك بالإضافة إلى سمات أخرى حصلت على تكرارات كبيرة خلال العام الأول من الثورة، وهي: محبوب من الجميع، وله شعبية أو جماهيرية، ومتواضع، وعطوف (خاصة على الأطفال)، ورقيق، ومجامل، ومحسن كريم، ومصلح، تليها سمات: منظم، ومحب للعمل، ومستقيم السيرة، وكاتب ممتاز، أو أديب له ذوقه، ونزيه، وعادل، ومتواضع، ومتقشف أو زاهد، وواسع الصدر، أو حليم، وحازم، ويكره الفساد، ويُقدّس القانون، ويكره الواسطة والتوصية، ورجل مبادئ، وبشوش، وشجاع أو مقدام، وجريء، وقوي، وسديد الرأي، ومثقف، ووطني، وصادق، ومتعاون، ووحدوي، ويمقت التبرج والخلاعة،

ومتدين، ومصلح، وحكيم، وفريد أو طراز وحده، ويحب الفلاحين والعمال، وذكي، وإنساني رقيق، ومسالم أو محب للسلام، وأهل للثقة، وسياسي، وعظيم، وغير متعصب دينيًا أو عنصريًا، ومعلم، ومحترم، وقدوة، ومتسامح، ومخلص أو وفيّ، وليبرالي أو ديمقراطي[1].

و تجدر الإشارة إلى أن الكثير من هذه السمات قد ورد بألفاظ وتركيبات مختلفة.. ولكن لها دلالات واحدة، سواء بالنسبة للسمات ذات المحددات الاجتماعية أو السياسية، وكانت أساليب التعبير عن سمات صورة الرئيس نجيب تتضح من خلال: العناوين الصحفية، والصور، وكلام الصور أو الكابشن، والقصص الخبرية القصيرة، التي كانت توزع على صفحات الصحف.. خاصة الصفحة الأولى، وتُبرَز داخل إطار: من باب لفت الانتباه إليها إخراجيًا.. كما استخدمت صور مرسومة للرئيس نجيب، تمنحه وسامة أكبر، مع تعليقات تركز على بشاشته، وجمال روحه، وحدبه، وعطفه، ورقته، وفي المقابل حزمه، وشجاعته، وقوته، وجرأته، كما كثر الاستشهاد بآراء شخصيات أجنبية؛ لتأكيد السمات التي يُروَّج لها؛ لمنحها مصداقية، ناهيك عن شهادة رجال الثورة أنفسهم له بالكثير من هذه السمات.

هذا ويجب ألا نغفل أثر الاتصال الشخصي في رسم صورة الرئيس نجيب، فقد كان هو نفسه يتصرَّف بشكل طيب، حيال الكثيرين من أبناء الشعب، خلال جولاته في الأحياء والأقاليم، وكان كل من يلتقي به ويجد منه ملمحًا طيبًا، ويتسم بالتواضع، يَحكي عن هذا الحدث؛ بكثير من المبالغة الشعبية المعروفة، أو بانبهار شديد بمدى تواضعه، قياسًا بما كان يعانيه الشعب من صلف الحكام

(١) خلاصة دراسة غير منشورة لتحليل عينة مما نشر عن الرئيس محمد نجيب . قامت بها المؤلفة.

الأتراك وتعاليهم، وتأليههم لأنفسهم، وبهذا المنظور كان نجيب نمطًا جد مختلف.. يستحق الإشادة، وقد كان لهذا السلوك الشخصي منه، وللتناقل الشفهي للأحداث الصغيرة ذات الدلالة أثره في تشكيل صورة طيبة له.

و هنا تجدر الإشارة إلى نماذج مما رواه لي البعض عن لقائهم العابر بالرئيس نجيب.. فمن يقول: إنه قابله في معسكر منقاباد بمحافظة أسيوط، واقترب منه والتقط معه صورة هو وأخواته، وهم أبناء فرد صف ضابط بسيط (صول)، ويتذكر هذا اللقاء وهو يتحدث بإعجاب بالرئيس نجيب، وتواضعه، وظُرفه، إذ طلب منه أن يوقع له على نشرة عليها صور الضباط الأحرار، فرحب الرئيس بذلك.. لكنه بحث معه عن قلم.. فلم يجد، فما كان منه إلا أن قال للصبي - طالب التوقيع - شعار الكشافة الشهير: " كن مستعدًا "، فضحك الجميع من سرعة بديهة الرئيس، وخفة ظله.

و لو حاولنا متابعة القصص الشخصية لكل ممن التقى بالرئيس نجيب شخصيًا، من عامة الناس.. خاصة من كانوا في سن الصبا والشباب آنذاك، فسنجد الكثير، مما نشرته الصحف وقتها، وما زال يُنشر في بريد القراء في ذكراه، خاصة ما يُقال عن كرمه، وتواضعه، وبساطته بالذات، وكنموذج لذلك خطاب نشر في بريد الأهرام مؤخرًا، يقول كاتبه إنه التقى بالرئيس نجيب في المسجد، ورفض وهو صبي أن يقوم من الصفوف الأولى؛ ليُفسح المكان للرئيس، فلم يغضب.. بل ربَّت على كتفه، وجلس إلى جواره في تواضع جم، ومنحه "شلن"، وهو ثروة بالنسبة لأي طفل في ذاك الزمان.

هذا ومن المهم هنا أن نلفت النظر.. إلى أن ملامح الصورة التي كانت ترسمها الصحف.. لم تكن تختلف عما يُروِّج له العامة من الناس، وما يقصُّونه عن البطل الإنسان المتواضع.. بل كانت تتطابق

القصص الصحفية مع ما يراه العامة كشهود عيان، ويحدثون به غيرهم في اتصالهم الشخصي، ولعل ذلك ما ثبّت في الأذهان ملامح طيّبة، ولها مصداقية لدى الناس عن الرئيس نجيب.. في حين سنجد مثلا أن رسم وسائل الإعلام لملامح صورة الرئيس السادات، كانت تتناقض إلى حد كبير كصورة منشورة، مع الأسلوب الذي كان يُقدم به نفسه للناس، كما سأستفيض في شرح ذلك تفصيلا في حينه.

هذا ومن المهم هنا، إجمال ما سبق الإشارة إليه عن وسائل رسم صورة الرئيس نجيب، الذي تم من خلال: الاتصال الشخصي، والخطابة كاتصال مواجهي مباشر، والصحافة كوسيلة اتصال جماهيري. بالإضافة إلى التعليقات الإذاعية، والجريدة السينمائية الناطقة، واستخدام الصور الفوتوغرافية والاستشهاد بآراء الأجانب في شخصه؛ كزوار، أو الاستشهاد بما كان يُنشر في الصحف الأجنبية، وأيضًا من خلال فن البورتريه أو الإلستراشن الصحفي، الذي كان يُجمّله، ويمنحه مسحة من الوسامة، تعكس ما يُروَّج له من سمات البشاشة والطيبة.. خاصة في الحملة الدعائية الثانية، التي بدأت بعد توليه رئاسة الجمهورية، وإلغاء ما كان يسبق اسمه من ألقاب.

إلى جانب كل ما سبق من وسائل اتصال كان للشائعة أيضًا دور في خلق شعبية الرئيس نجيب، وتقريبه إلى قلوب الناس ليس في مصر وحدها.. بل في كل وادي النيل، مصر والسودان، ويحدثنا عن ذلك فتحي رضوان قائلا: "كانت لهذا الزعيم الجديد خاصية جديدة هي أن الإشاعة صنعت له نسبًا، فقد قيل إن أمه سودانية أو نوبية، وأعان على رواج هذه الإشاعة، أن طريقته في نطق اللفظ العربي شبيهة بالنطق السوداني أو النوبي، ولعل مرد ذلك أن والده وخاله

وربما عمه أيضًا - قد كانوا ضباطًا في الجيش المصري بالسودان، وأنهم ماتوا ودفنوا هناك، فتطبع بطبعهم وحاكاهم من حيث لا يدري بنطقهم، ولذلك أحبه أهل النوبة والسودانيون حبًا شديدًا، وصدَّق بعضهم أن أمه سودانية"[1].

هذا وقبل أن ننهي الحديث عن صورة الرئيس نجيب، يجدُر بنا أن نعود إلى نموذج آخر وأخير - له أهميته - مما كان يقوله رجال الثورة عن الرئيس نجيب في تصريحاتهم، بما يوحي للشعب بأنه بالفعل قائد الثورة، وبما يُكرِّس هذا التصور.. حتى من قِبل قائدها الفعلي - وهو ما أشرت له سلفًا - مما جاء على لسان عبد الناصر في إحدى جولات الرئيس نجيب، التي رافقه فيها إلى صعيد مصر، ومعهم بعض من رجال الثورة، زاروا فيها محافظة أسيوط، وقرية بني مر مسقط رأس جمال عبد الناصر، وتبادل فيها الرجلان التحية في كلمات على الملأ، من شأنها التأثير في الجماهير، ورسم صورة لكليهما في الأذهان، فماذا قال عبد الناصر عن نجيب؟ وماذا قال نجيب عنه؟!

تحت مانشيت أحمر كبير: " نصف مليون يستقبلون الرئيس في أسيوط "، يليه مقدمة تقول: في بلدة بني مر ألقى البكباشي جمال عبد الناصر كلمة، رحب فيها به باسم أبناء الإقليم والفلاحين... جمال عبدالناصر يقول للرئيس: حررتنا من الفزع والخوف؛ فآمنا بك مصلحًا لمصر، ونذيرًا لأعدائها.. سر ونحن معك جنود لك.. فقد حفظنا أول درس لقنتنا إياه.. إن مصر كلها تناصرك للقضاء على الاحتلال "، (إذن عبد الناصر كان يُقر لنجيب بالأستاذية والقيادة؛ بوصفه جنديًا له!!)، ورد عليه نجيب بكلمة جاء فيها: " يكفي بلدة بني مُر فخرًا، أنها أنجبت جمال عبدالناصر، العقل الراجح، والقوة المفكرة، والعزيمة الجبارة، التي لا تتأخر عن العمل في سبيل الوطن،

---
(١) فتحي رضوان - مرجع سابق - ص ١٣ .

مع بذل التضحيات.. حتى أصبح ضباط الجيش جميعًا على خُلقه، وإيمانه، وقوته... فزملاؤنا ضباط الجيش يعملون في صمت دائم.. ولولا إلحاحي على أن يعرف الشعب أسماءهم، لما عرف أحد عن بطولتهم شيئًا.. إنهم قوم وهبوا أنفسهم لله، وحياتهم لمصر والسودان"[1].. لكننا نلاحظ أن نجيب قد مدح عبدالناصر أكثر، ونعته بعدد من الصفات القيادية، وكان لكلمته هذه مغزى عميق.. لعله أرضى نفس عبد الناصر، خاصة وأن هذا المديح قد قيل في قريته، وبين عائلته وقومه، وسمعته مصر كلها، ونشرته الصحف.. لكنه حتى ذلك التاريخ لم يكن ذا مغزى، أو دلالة لدى جماهير الشعب، التي كانت لا ترى إلا محمد نجيب القائد المعلن للثورة.. ولكن بعد هذا الخطاب بأقل من عامين، نُحِّي الرئيس نجيب، في نوفمبر ١٩٥٤، وكان مطلوبًا من وسائل الإعلام المتاحة آنئذ، أن تدير الدفة، وتبدأ في رسم صورة للرئيس جمال عبد الناصر تحظى بنفس الرونق.. إن لم تزد عنها!! وزاد من صعوبة هذه المهمة أن الرئيس نجيب كان قد اكتسب بالفعل شعبية كبيرة، بعد أكثر من عام تولى فيها مقاليد الحكم، وكانت كل وسائل الإعلام تشيد به، وكل قيادات الثورة تؤكد له القيادة، وقد ذكر ذلك المؤرخ العسكري جمال حماد حينما قال: " في بداية الثورة كان أعضاء مجلس قيادتها.. وفي مقدمتهم عبد الناصر يتنافسون أمام الجماهير الحاشدة في الإشادة بقيادة محمد نجيب الحكيمة، ووطنيته الصادقة.. ولكن مطلع عام ٥٤ شهد حالا غير ذلك الحال، وصورًا غير تلك الصور، فقد اشتعل الصراع على السلطة بين محمد نجيب، وعبد الناصر، وهو الصراع الذي بلغ ذروته في مارس ٥٤، والذي دعم فيه مجلس قيادة الثورة عبد الناصر، مما أدى إلى انتصاره، واختتمت المأساة فصولها في ١٤

(١) الأهرام - في ٢٥ / ٣ / ١٩٥٣ .

نوفمبر ٥٤؛ بتنحية محمد نجيب عن كل مناصبه"[١].

هذا وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الرئيس نجيب - حتى بعد أن عُزل - ظل ينظر بموضوعية إلى شخصية الرئيس عبد الناصر؛ إذ جاء في مذكراته التي كتبها فيما بعد من منفاه، واصفًا تفاصيل ساعة الصفر قبل قيام الثورة، والساعات الأولى بعد إعلانها بقوله: "أعجبت بجمال عبد الناصر؛ لأنه لم يوافق على ذبح فاروق"[٢].. لكنه لم يكن موضوعيًا في تقييمه لما حدث في ليلة ٢٣ يوليو، وهل هو ثورة أم انقلاب؟، وقوله: " اخترق العسكريون كل المجالات، وصبغوا الحياة المدنية باللون الكاكي"[٣]، فقد وصف الثورة بالانقلاب، وتناسى أوصافه لها أيام كان رئيسًا للجمهورية، كما صوَّر فترة حكم عبد الناصر منذ بدأ الصراع بينهما بالتحول إلى الدكتاتورية.

هذا ورغم أن عبد الناصر كان هو القائد الفعلي للثورة، التي وصفها الرئيس نجيب بالانقلاب، فإن جمال حماد الذي صاغ البيان الأول للثورة، وأضاف إليه محمد نجيب بعض التعديلات بخطه، وأذاعه السادات، باسم اللواء محمد نجيب، ينسب لنجيب دورًا مهمًا في هذا الانقلاب أو الثورة، إذ يقول إن هذا البيان: " كان هو العامل الحاسم في انضمام جميع أسلحة ووحدات القوات المسلحة، غير المشتركة في الحركة، إلى الوحدات الثائرة القليلة العدد. كما كان العامل الرئيسي فيما لاقته حركة الجيش في بدايتها من تأييد شعبي جارف؛ فقد كان لشخصية محمد نجيب المهيبة المحترمة فعل السحر في نفوس الجيش، وجماهير الشعب"[٤]، وبهذا يُلخص جمال حماد دور شخصية محمد نجيب، وتأثيرها، أو تأثير الصورة الذهنية

---

(١) مقال بعنوان " في ذكرى الرئيس الراحل محمد نجيب - نشر بتاريخ ١٩٥٣/٨/٢٩ .

(٢) كنت رئيسًا لمصر" - منشورات المكتب المصري الحديث - ١٩٨٤ - ص ٩٩ - ١٢٩ .

(٣) فصل من مذكرات محمد نجيب بعنوان " ما بعد الانقلاب " - المرجع السابق - ص ١٤٣ - ١٧٣ .

(٤) المقال السابق- المنشور بتاريخ ٢٩ / ٨ / ١٩٩٥ .

المنطبعة عنه لدى أفراد الجيش، في إنجاح الثورة.

لكن ما حدث بعد ذلك، وتحديدًا أوائل عام ١٩٥٤، كان صراعًا بين جيلين، كما وصفه فتحي رضوان، مشيرًا إلى أنه " لم يكن ممكنًا أن يبقى محمد نجيب على رأس قيادة الثورة، فقد كان الفارق في السن غير قليل، شباب في حدود الثلاثين، مع رجل أو شيخ في حدود الخمسين، ولم يكن من مواهب محمد نجيب أن يحاول استمالة الشبان نحوه، أو أن يوقع بينهم ليقسمهم، ويبقى على رأسهم، أو على رأس الأغلبية، وكان إحساسهم بأنهم تفضلوا عليه بإسناد الزعامة إليه، صحيح أنهم في البداية كانوا فرحين بحب الشعب له، وتعلق الجماهير به: لأن ذلك الحب كان شهادة لهم بحسن الاختيار، وكانوا يرون في مظاهر التأييد الجارفة للزعيم الذي اختاروه، دليلا على نجاح ثورتهم واستقرارها، وعلى أن المنافسة بين الثورة وخصومها قد حُسمت لصالح الثورة، بهذه الشعبية الضخمة التي ظفر بها محمد نجيب"[1]. وهذا يؤكد أهمية الصورة الذهنية في صناعة حركة التاريخ.. فهي ليست مجرد صناعة زعامة، أو خلق شعبية لرئيس ما.

أما عن أثر نجاح الثورة، وما تلاها من أحداث كظروف تاريخية، في صورة الرئيس نجيب، فإنها بلا أدنى شك قد ساهمت في صنع صورته، وتحويله إلى بطل شعبي، وعن هذه النقطة بالذات قال فتحي رضوان: " إن محمد نجيب بدا بطلا شعبيًا كاملا، من اليوم الأول الذي ظهر فيه للناس، لم يحتج إلى زمن لتتكامل شخصيته كزعيم، ولا شك أن نصيبًا كبيرًا من هذا السر، يرجع إلى نجاح الثورة السريع، وطرد الملك بلا تعثر ولا تردد، وإخلاد القوات الأجنبية إلى السكون والصمت، وإذعان الملك لإرادة الثورة، وخروجه من مصر.. كل هذه الأحداث أثارت في المصريين الإحساس بالكرامة: فهؤلاء حفنة من

(١) ٧٢ شهرًا مع عبد الناصر - ص ١٤ .

أبناء مصر استطاعوا أن يدبروا لبلدهم فأحسنوا التدبير، وطردوا آخر ملك من عائلة غير مصرية... وكان القول الشائع إن المصريين لا يحسنون عملا... فهذه الثورة جاءت شهادة للمصريين، بأنهم يحسنون كتمان ما يجب كتمانه، ويحسنون التنظيم والتنفيذ، ويليقون بالمهام الكبرى، وكان محمد نجيب هو رأس هذه الجماعة، فما أحراه وأجدره بالحب والتكريم.. وبالإعجاب والإعزاز.[1]. وهنا لا بد من وقفة؛ لنقول بأن الظروف التاريخية لها أثرها على صورة الرؤساء، كما سنلاحظ ذلك أيضًا في صورة ما تلاه من حكام، لكن الأمر اختلف بالنسبة له إذ بدا وكأنه شخصية مستقلة عن مجلس قيادة الثورة، فحتى بعد أن كثرت الشكوى من الأحوال الاقتصادية ظل محمد نجيب محبوبًا؛ فقد كان لشخصيته المتفردة سحرها.

و إذ أقول إن شعبية الرئيس محمد نجيب في البداية، قد كانت عاملا فاعلا في إنجاح حركة الجيش، وتحويلها من مجرد حركة عسكرية إلى ثورة، نجح في تثبيت دعائم أركانها، فما بالنا بصورته الشعبية التي تكونت بعد عام وأربعة أشهر بكل ملامحها الجميلة لدى الشعب!! الأمر الذي يجعلنا نطرح عددًا من التساؤلات مؤداها: كيف استطاع عبد الناصر أن يتغلب على هذه الصورة؟ وكيف استطاع أن يُشكل صورة له تحقق نفس الشعبية أو تفوقها؟ وهل ابتُكِرت أساليب جديدة في تقديمه للرأي العام؟ أم تراها نفس السمات، التي اعتادوا على تقديمها، وما زالوا يكررونها بالنسبة لأي رئيس؟! وبنفس المبالغات الرقمية.. من عينة ما قيل عن نجيب من أن: مليونًا يبايعونه رئيسًا، ومائة ألف يبايعونه في الأزهر، ونصف مليون يستقبلونه في أسيوط.. التي ربما لم يكن مجموع سكانها في هذا الزمان قد بلغ المليون!! وهل كان التركيز في صورة عبد الناصر أيضًا على: الطيبة،

(١) ٧٢ شهرًا مع عبد الناصر - ص٤٠ .

والتـواضع، والبسـاطة، والتـدين. والكرم، وإغـاثة الملهـوف، وحـبـه للأطفـال.. أو حبهم له؟ ثم هل كانت الأخبـار التي تنشـر عنه تنصب أيضًـا على التبـرعـات، وإهداءات الصـور، وكـلام صور من نوعـيـة: " جلس الرئيس في خشـوع يسـتمع إلى خطبـة الجـمعـة "؟! أم تُـرى أن التـقديم لصـورة عـبد النـاصـر قـد تطلّب سـمـات أخرى.. تتـواءم مع المرحلة، والظروف التي تولى فيها الحكم؟

ثم أخـيـرًا هل تمتع الرئيس الجـديد، بنفس الميـزات الثـلاث التي تمتع بهـا الرئيس نجيب، والتي اعتـرف له بهـا التـاريخ - على حد قـول فتحي رضـوان - وهـي: " شجـاعـته ونزاهتـه، وجـاذبيتـه"[1]؟ أم تـرى أن الرئيس الجديد قد تفوق عليه فيها؟! وكيف حدث ذلك؟!

(١) المرجع السابق - ص ١٥ .

صورة الرئيس عبد الناصر

بعد الاستعراض السابق لملامح صورة الرئيس نجيب، التي انطبعت في القلوب قبل الأذهان، يُصبح بداهة رسم صورة لرئيس جديد أمرًا جد صعب، فكيف ببساطة يمكن محو هذه الصورة المحببة؟ وإحلال صورة أخرى مكانها؟ وكيف يمكن محو الصورة الجميلة الراسخة للرئيس نجيب قائد الثورة ومفجرها، وترسيخ فكرة جديدة بأن القائد الفعلي للثورة هو عبدالناصر؟ ثم ما هي الملامح الجديدة والخاصة، التي يمكن أن تتشكل عليها صورة الرئيس الجديد، وتلقى قبولا ورضًا شعبيًا؟

للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها، لا بد بداية من الإشارة إلى أنه ما لم تكن شخصية الرئيس الجديد لها تفرُّدها وتميُّزها لما كان بالإمكان أن ينجح الإعلام في تقريبها من أذهان الجمهور، فعبد الناصر من حيث الهيئة الخارجية، مهيب الطلعة، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن أمه كأنها ولدته، ودعت له: " رُح وأنت زعيم "، كما أنه لولا الظروف التاريخية التي تلاحقت بعد ذلك، والتي كانت عاملا دافعًا أيضًا في إنجاح صورة الرئيس الثاني لجمهورية مصر، لما تمتع بهذه الصورة المحببة.. ليس محليًا فحسب، بل وعربيًا ودوليًا، وهذا ما سنستعرضه في السطور القادمة، من خلال رصد تطور مؤسسة الرئاسة نفسها، ثم رصد السمات التي اتسمت بها صورة الرئيس عبد الناصر، والقيم التي روعيت في رسم هذه الصورة، ومدى ملاءمتها لما يُحب الشعب المصري أن يراه من رئيسه، طوال ما يقرُب من عقدين هما فترة حكمه التي قاربت على ثمانية عشر عامًا، ما

بين مناصب وزارية، ورئاسة للجمهورية.

هذا ولا بد أيضًا من الوقوف على كيفية رسم صورة له عند توليه.. دون رصيد ما في قلوب الشعب المصري؟ ثم تحديد ما إذا كانت سمات هذه الصورة قد تغيرت، عندما أعيد تنصيبه على عرش قلوب المصريين مرة أخرى بعد نكسة يونيو ١٩٦٧م؟ وله أرضية من المحبة السابقة في قلوبهم، تدعمها إنجازات عظيمة.. استشعرها وشارك فيها الشعب المصري، وهل اختلفت الصورة في كلتا الحالتين؟ ثم كيف ساهمت الحقبة التاريخية بكل أحداثها وملابساتها في رسم ملامح هذه الصورة؟ وهل كانت صورة مصنوعة بإتقان وفقًا لدراسة، أو برنامج معد مسبقًا؟ وهل كان يتم تطوير هذا البرنامج بصفة دائمة لتحقيق ما يُشبه الإجماع على شخص عبد الناصر من خلال بروباجندا أو دعاية سياسية قوية، وقادرة على الإنجاز؟ أم كانت صورة عفوية، ساهمت فيها بشكل فاعل شخصية عبد الناصر نفسه، وما تميز به من كاريزما؟

كلنا يعرف كيف تولى عبد الناصر، أو كيف انتقلت السلطة إليه، ولا أرى داعيًا لسرد هذه الملابسات مرة أخرى؛ حيث إن قصة الصراع على السلطة بين محمد نجيب وعبد الناصر قد تناولتها الكثير من مذكرات قادة الثورة، وهم رفاق درب الاثنين معًا كما أرخ لها المؤرخ العسكري جمال حماد في الكثير من كتاباته الحديثة، كلما أتت مناسبة احتفالية بذكرى الثورة، أو ذكرى أي من الرئيسين.. لكن أهم ما يهمنا هنا هو صورة الرئيس الذهنية، وكيف تم رسم ملامحها، والترويج لها إعلاميًا أو دعائيًا، دون خوض عميق في السياسة ووقائعها، وما قد يصدُق منها، وما يمكن أن يدخل في مجال الادعاء، فالتأريخ ليس مهمتي، كما أن تحقيق ما أصبح تراثًا سياسيًا ليس غايتي.. لكني أستشهد فقط بقول لجمال حماد، يتصل بوصف الوضع

منذ قيام الثورة الذي يعكس حجم شعبية الرجلين، قبل تولي عبد الناصر للسلطة، وهذا القول يخدم ما ندعيه عن مدى صعوبة رسم صورة محببة للرئيس عبد الناصر في ظل مناخ يصفه حماد قائلا: "لم يكن عبد الناصر برتبته الصغيرة، وشخصيته المجهولة من الكثيرين من أفراد الجيش والشعب، بقادر على أن يدخل في منافسة متكافئة مع محمد نجيب بشعبيته الضخمة بين الجماهير، ومكانته المرموقة داخل مصر وخارجها، فقد أصبح محمد نجيب بعد أقل من شهرين من قيام الثورة يتولى أخطر ثلاثة مناصب في الدولة وهي: رئاسة مجلس قيادة الثورة، ورئاسة مجلس الوزراء، والقيادة العامة للقوات المسلحة؛ مما جعل في حوزته سلطات لم يتجمع مثلها لشخص واحد من قبله، واكتسب محمد نجيب بالإضافة إلى المناصب الرسمية - التي كان يتولاها - شعبية جارفة، فقد تركزت عليه الأضواء؛ باعتباره الرجل الذي قاد الثورة، وطرد الملك، وأنقذ الشعب المصري من عهد الظلم والطغيان، وأصبح أمل البلاد في تحريرها من الاحتلال البريطاني الجاثم على صدرها منذ سبعين عامًا، وكان عبد الناصر بحكم أنه الصانع الحقيقي للثورة قد أصابته الغيرة، وخالجه الشعور بالاستياء من جراء ذلك الوضع، ولهذا بدأ في التخطيط منذ منتصف عام ٥٣ لإزاحة محمد نجيب عن السلطة"(١).

وقد استرسل جمال حماد في وصف أسلوب وخطوات عبد الناصر في إزاحة نجيب عن السلطة.. لكنه لم يقل لنا كيف خطط لإزاحته من قلوب المصريين؟ وإذا كان عبد الناصر قد استطاع بالفعل أن ينتزع من نجيب - حتى أثناء حكمه - قيادة الجيش لصديقه عبد الحكيم عامر، ثم رئاسة الوزراء لنفسه، ثم تنحيته عن رئاسة الجمهورية، لكن معركته الكبرى مع نجيب - في تصوري - كانت محو

(١) الأهرام - من يكتب تاريخ ثورة يوليو؟ - ٢٥ / ٧ / ١٩٩٩ - صفحة دنيا الثقافة .

صورته الشعبية من قلوب الناس؛ لتحل محلها صورته، وهي المعركة التي نحن هنا بصدد استعراض الخطوات والتكتيكات التي اتبعت لكسبها، كمعركة إعلامية بالأساس.. دون الدخول في التفاصيل السياسية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن عبد الناصر قد بدأ في رسم صورته من نقطة ما قبل الصفر، إذ كان أقل رجال الثورة شعبية وجماهيرية، ويؤكد ذلك محمد حسنين هيكل، في كتابه " عبد الناصر والعالم "، إذ يقول: " حقق محمد نجيب شعبية كبرى، واغترف كل المجد، بينما ظل عبد الناصر خلف الصفوف في الظل، يفكر دائمًا، ويبدو للناس رجلاً عبوسًا.. وهكذا أسيء فهمه، إنه لمن الغريب أن الرجل الذي أصبح موضع حب كل إنسان، بدأ موضع سوء فهم من الناس، وكان الموضوع الذي يتردد في خطبه في ذلك الحين: لن أستجدي تصفيقًا، ولن أستجدي هتافًا"[1].. فمن كان يتصور أن تصبح له فيما بعد صورة جماهيرية وشعبية، تفوق كل الرؤساء العرب.. ربما لعصور خلت أو أقبلت!!

هذا وتمسكًا بالنهج الذي بدأت به، وهو عدم الدخول في التفاصيل السياسية، أجد أنه لزامًا عليَّ أن ألج مباشرة للحديث عن مؤسسة الرئاسة في عصر عبد الناصر، وما هي العناصر الإعلامية التي أضيفت إليها لتوجيه كل ما يُروَّج عن الرئيس الوجهة المطلوبة.

في هذا الصدد يقول الدكتور يونان لبيب رزق عن مؤسسة الرئاسة، إنها كانت في فترة نجيب.. أو في أغلب فترة عبد الناصر جهازًا بديلا، وذا طبيعة مختلفة عما كان قبل الثورة، و" حتى بعد اتخاذ هذا الجهاز لشكله النهائي، بعد ثلاث سنوات فحسب من التخلص من المؤسسة الملكية (١٩٥٥)، نلاحظ أنه كان بسيطًا

(١) محمد حسنين هيكل- عبد الناصر والعالم- دار النهار للنشر - بيروت - ١٩٧٢ - ص٤٧ .

ومباشرًا، الرئيس على القمة، ويتبعه فضلا عن المخابرات العامة أربع إدارات ...... وبالمقارنة بين مؤسسة الرئاسة الجديدة والمؤسسة الملكية، نلاحظ أنه مع اختفاء مظاهر الأبهة فقد اتسعت على الجانب الآخر صلاحيات السلطة الفعلية ... ولم تكن ثمة غرابة في ذلك فإن العهد الجديد الذي لم تكن قد استقرت قوائمه بعد، كان في حاجة إلى تجميع الصلاحيات في أيدي المؤسسة الجديدة اتقاءً للمخاطر المحيطة، وكانت عديدة، وثمة ملاحظة هنا جديرة بالاهتمام ألا وهي أنه قد تفشت في تلك الحقبة، وربما حتى يومنا هذا ظاهرة تتبيع كثير من الهيئات إلى مؤسسة الرئاسة، .... وبعد استقرار النظام الجمهوري عرفت مؤسسة الرئاسة إعادة التنظيم مرة عام ١٩٥٦، والثانية بعد عامين، كان أهم ما في أولاهما ظهور منصب وزير شئون رئاسة الجمهورية، وتجميع الإدارات الأمنية في قالب واحد .. المخابرات، وسكرتارية الرئيس للمعلومات، وما يتبعها من أمن ومعلومات، فضلا عن ظهور منصب السكرتير الصحفي للرئيس"[١].

هذا ويفيض دكتور يونان في تتبع تفاصيل التطور في مؤسسة الرئاسة.. لكن أبرز ما يهمنا فيما قال هو العنصر الأخير الذي أضيف إلى هذه المؤسسة، وهو السكرتير الصحفي للرئيس، وهو الذي تمر من خلاله كل ملامح وسمات الصورة، فهو يُراقب ما تكتبه وسائل الإعلام المحلية والخارجية، ويُعطي توجيهات بما يُمكن أن يُحسِّن الصورة، أو يُصحح ما يشوبها من تظليل أو تشويه.. وهو وإن كان شخصًا واحدًا على قمة جهاز إعلامي، له مسمى لا يحمل هذا المعنى مباشرة، فهو ليس خبيرًا في الصورة الذهنية، أو في العلاقات العامة.. بل لعله مجرد ضابط جيش من الشئون المعنوية، أو الإدارية يتمتع بثقة الرئيس، توكل إليه هذه المهمة؛ أو بالكاد صحفي يوثق به،

(١) مؤسسة الرئاسة قراءة تاريخية - الأهرام - ٤ مايو ١٩٩٩ - ص ٣ .

أو رجل مخابرات، المهم أنه يمكننا أن نعتبره كفرد أو كإدارة هو المسئول بالفعل عن رسم صورة الرئيس.

هذا الجهد الإعلامي بالإضافة إلى ما كان لشخصية الرئيس عبد الناصر من كاريزما، يملك بها التأثير والقدرة على حشد الجماهير حول أية فكرة أو قضية، كانت الأداة الأخرى في رسم الصورة، وقد تمثَّلت هذه الكاريزما في مظهره المهيب، وقامته الفارعة، وعينيه العميقتين، وقدراته الخطابية المثيرة، وصوته الجهوري، ومصريته الخالصة، وهذه الأخيرة وحدها كانت كفيلة بأن تُقرِّبه من القلوب قبل العقول.

ومن الملاحظ أن مسألة الكاريزما الشخصية لم يكن يتفرَّد بها عبد الناصر وحده في هذا الزمان، إذ كانت الحقبة التاريخية كلها تضم عمالقة - كلا في موقعه - من أمثال: نهرو، وديجول، وتيتو، ومن قبلهم غاندي وتشرشل، وهتلر، مع الفارق في التشبيه بين كل منهم، لكنها كانت قيادات لها وزنها في مواطنها، وعلى مستوى العالم بأسره، وكان عبدالناصر واحدًا منهم، خدمته المرحلة التاريخية التي ساعدت في تأسيس الصورة الذهنية لهذه القيادات، بما لها من تأثير فاعل في الجماهير، بحيث يمكن أن نطلق عليه - دون مبالغة - عصر الكاريزمات، أو العصر الكاريزمي!!

هذا وإذا قلنا إن السمات الشخصية الكاريزمية، والظروف التاريخية المحيطة بعبد الناصر قد ساعدت على تحقيق صورة محببة له، أكثر مما يمكن أن ترسمه مؤسسة الرئاسة بسكرتارية الرئيس الصحفية، أو ما يتبعها من إدارة إعلامية متكاملة، نكون غير مبالغين؛ ولذلك أسبابه بالطبع؛ إذ كان تعرُّض الجماهير للدعاية أقل في عصر كانت وسائل الإعلام -قياسًا بما نحن عليه الآن - تعتبر محدودة الانتشار، وقليلة التنوع، كما كان الحراك الاجتماعي متباطئًا نسبيًا،

قياسًا بما حدث في العالم في العقد الأخير من القرن العشرين. ويُضاف إلى كل ما سبق - كما يقول د. هشام الحديدي - في شرحه لنماذج من الكاريزمات، وما يؤثر في صناعتها، وما يرسم الملامح المؤكدة لصورتها - أن الأنباء المنشورة عنها كانت " تتواتر مجللة بهالة من القدسية (الثيوقراطية) والخرافة، وليس هناك من سبيل لرد أو تمحيص ذلك البث الأحادي المتراكم إلى حث، والمنتهي إلى حس مبهم.. لكنه شديد الكثافة، مثلما تحول عبد الناصر وأم كلثوم في ذهن العرب أجمعين إلى رمزين لا تصح القومية إلا بهما، ولا تستقيم عروبة بدونهما"[1].

وبرغم ما في هذا التعبير الأخير من تهكم، إلا أن الحالة كانت هكذا بالفعل؛ سطوة أسطورية كاسحة، وصورة رمزية وموحية بكل ما هو أصيل وجميل.. ولكن كيف حدث هذا التأثير على الشارع المصري، وبسرعة؟ لا بل وعلى الشارع العربي كله. وكيف ترامت أصداء وملامح صورة عبد الناصر إلى الغرب، فأحدثت شيئًا من الخشية والهيبة في النفوس؟!.. وإن تراوحت المشاعر فيما بعد، بين محبة مفرطة لعبدالناصر في العالم العربي، وكراهية مفرطة له في الغرب.. لكنها على أية حال مشوبة بالاحترام، والخشية، والتحسب.

هذا ويعلل دكتور هشام الحديدي احتياج العالم العربي إلى الزعامات الكاريزمية عبر تاريخه، قائلا: " أشد ما كانت الأمم بحاجة إلى كاريزمية كان إبان فترات كفاحها ومعاناتها.. ففي هذا الظرف الاستثنائي يوحِّد الخطر المدلهم المشاعر، فتشرئب الأعناق بحثًا عن مُخلِّص، وهذا المخلص بدوره يكون شخصية استثنائية، تعرف كيف تدغدغ أحلام الجماهير، وكيف تربت بحنان على أكتافها الملتهبة،

(١) د. هشام الحديدي - كاريزما الزعامات .. من الوارثين ؟- أسبوعيات الأهرام - ملحق الجمعة ٣٠ / ٦ / ٢٠٠٠ - ص ١ .

وهذا فحوى علم نفس الجماهير.. فحركة الجموع تختلف عن حركة الأفراد جملة وتفصيلا"[1]، والحق يُقال إن الرئيس عبد الناصر كان بالفعل الرئيس المناسب في الوقت المناسب، أو كما كان يُنشر في الصحف آنذاك أنه الرئيس الذي " جاء في موعده مع القدر "، ولقد خدمه القدر أو الظرف التاريخي، وساعد في تشكيل صورة ذهنية أسطورية له.

هذا وبالطبع لا يمكن أن ننسب النجاح الذي حالف رسم صورة الرئيس عبد الناصر فقط إلى ما يتمتع به من كاريزما، وإلى الظروف التاريخية المواكبة لظهوره محليًا وعالميًا، وإلى نجاح مؤسسة الرئاسة في التعتيم على كل ما يشوه صورته، وإبراز الملامح المحببة في الصورة؛ بتمرير الأنباء التي من شأنها أن تحدث تراكمًا طيبًا يخدم هذه الصورة؛ لأن ذلك كله قد يُحدث مفعوله لدى البسطاء من العامة، يدعمه ما تحقق لهم من مكاسب اجتماعية على يديه وفي عهده.. لكن التأثير في الصفوة المثقفة لم يكن ليحدث.. إلا بتقديم فكر هذا الرئيس، ورؤيته بشكل مكثف ومكتوب، يمكن أن يُقنع المثقفين، ولا يتركهم كالعامة يُشكلون تصورهم على أساس عاطفي بحت، أو من خلال ما تُحدثه الأنباء المتواترة من أثر تراكمي؛ لذا كان كتاب " فلسفة الثورة "، وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه الرئيس عبد الناصر، وسجل فيه كل تجاربه الإنسانية والسياسية، واستعرض فيه كيفية تكوُّن فكره الثوري، وهو الكتاب الذي تُرجم إلى معظم، إن لم نقل كل لغات العالم، فقدم من خلاله عبد الناصر نفسه وفكره.. ليس للشعب المصري فحسب وإنما للشعب العربي كله على المستوى القومي، وللعالم أجمع، حتى لو قيل إن هذا الكتاب ليس من خط قلمه، ولكن من كتبه هو الصحفي المعروف محمد حسنين هيكل، صديقه،

(١) المصدر السابق نفسه .

ومستشاره الصحفي الحقيقي، بل ومستشاره السياسي أيضًا، فإن اختياره لشخص كهيكل ليكتب أو ليقدم فكره للناس، كان اختيارًا غاية في التوفيق ساهم في رسم صورة عظيمة لهذا الرئيس، الذي اعتلى سُدة الحكم بعد رئيس محبوب حقق شعبية كبيرة في نفوس الشعب المصري هو الرئيس محمد نجيب.

هذا ونجد فيما كتبه عبد الناصر بنفسه.. أو أوحى به إلى هيكل - كصاحب قلم رفيع المستوى - ما يوضح كم حِسه القومي، ورؤيته السياسية الواضحة على المستوى المحلي، والعربي، وإدراكه لقوة الأمة العربية ممثلة أولا في مدى الترابط المادي والمعنوي لمجموعة الشعوب العربية، ثم في وحدة الأرض جغرافيًا كبعد استراتيجي، ثم في الثروات العربية، وعلى رأسها الثروة البترولية كبعد اقتصادي، إذن نستطيع القول بأن المدخل الحقيقي لعبد الناصر إلى قلوب الصفوة الواعية كان أنه وضع يدها.. أو وضع لها إطارًا حول مصادر قوتها، ولم يكن انهزاميًا معها.. لا بل قوَّاها، وبث فيها روحًا كانت بحاجة ماسة إليها في تلك الآونة، وقدم نفسه بشكل يؤكد أنه إنسان واضح، بشكل حاسم ومحبب للجميع، بمعنى أنه كان كما يقول العامة: " راجل دُغري "، وهي إحدى سمات الرجولة الحقة والمحببة في الشخصية التي يُمكن للعرب أن يُقلدوها قيادهم أو مقاليد حكمهم وهم مطمئنون، بالإضافة إلى العامل النفسي المستخدم في مخاطبتهم، وهو بعث القوة والكرامة في النفوس، الأمر الذي كان الرئيس عبد الناصر لا يألو جهدًا في تكراره طوال فترة حكمه، والذي وضح من ترديده الدائم لمقولات كثيرة تكرِّس هذا المعنى، ومنها نذكر قوله: "لسوف أظل دائمًا أقول إننا أقوياء، ولكن الكارثة الكبرى أننا لا ندرك مدى قوتنا"[1].

(١) عزت السعدني - تحقيق السبت " عندما يكتب الزعماء " - الأهرام - ٢٠٠٣/٨/٢٣ ص٣.

هذا ويبدو أن عبد الناصر كان - وحتى قبل قيام الثورة - مؤمنًا بقوتنا كعرب، ويحدوه دائمًا الأمل في قوة هذه الأمة، وفي قوته الذاتية، وكان يتصرف بشجاعة نادرة، تحدثت بها فيما بعد بعض المصادر العربية والأجنبية الصديقة والعدوة، مما خدم تأكيد سمة محببة في صورة عبد الناصر، وهي الشجاعة والقوة، ولنأخذ مثالا على ذلك شهادة أحد الضباط الإسرائيليين الذين حاصروا كتيبته في الفالوجا، بعد حرب فلسطين عام ١٩٤٨، ونقلها كاتب روسي خدم في مصر فترة، في كتاب أصدره عن عبد الناصر، إذ يصف بالتفصيل وقائع حصار الفالوجا، بعد أن انتصر الجيش الصهيوني على الجيوش العربية، واستولى على كل القرى المحيطة بالفالوجا.. لا بل وتمكن من الاستيلاء على نصف الفالوجا، وبدأ الإسرائيليون يُغيرون على الموقع الذي كان فيه عبد الناصر وقواته، ويقول هذا الكاتب الروسي نصًا: "أعطى ناصر أوامره للكتيبة ببدء الهجوم، وتكبَّد العدو خسائر فادحة، وفي الصباح ظهرت أمام الفالوجا عربة إسرائيلية وهي ترفع راية بيضاء، ومن خلال مكبر الصوت انطلق صوت ضابط إسرائيلي يريد أن يتقابل مع مصري! "أوقفوا الضرب" قالها ناصر، وركب هو وضابطان ورقيب العربة الجيب. - أنا ممثل قيادة هذه المنطقة، ومعي أوامر بأن أوضح لكم أنكم محاصرون بصورة كاملة، وستؤسرون حتمًا، وعليكم أن تسلموا أنفسكم، نطقها الضابط الإسرائيلي بالإنجليزية، وهو يرفع من نبرات صوته، ويطل برأسه خارج العربة. - نحن نعرف موقفنا جيدًا.. ولكن لدينا وفي أيدينا السلاح، وسوف نقاتل حتى النهاية. أجاب ناصر بلهجة حاسمة. انتقل الضابط الإسرائيلي إلى التخاطب باللغة العربية، وحينما أصر ناصر على رفض الاستسلام، بدأ الضابط الإسرائيلي يطلب إتاحة الفرصة حتى يتم إخلاء المصابين والقتلى من أرض المعركة إلى المؤخرة، ولم يرفض

ناصر ذلك، ومثل هذه المقابلات العسكرية تكررت في بعض الحالات.. وأصبح أمر هذه المقابلات معروفًا بواسطة النشر، فلقد ظهرت على صفحات الجريدة الإسرائيلية جويش أوبزيرفر بواسطة الضابط الإسرائيلي الذي قابل ناصر، وكان ذلك الضابط برتبة نقيب أثناء تلك المقابلات، ثم خدم بعد ذلك برتبة عقيد في الجيش الإسرائيلي في أركان إيجال آلون، واسم هذا الضابط هو موردخاي كوجن، كذلك نوه عبد الناصر عن تلك المقابلات شخصيًا في كتابه فلسفة الثورة، ويلاحظ إيجال آلون أن تلك المقابلات أعطته في حينها انطباعًا عن قوة ناصر[1]، ولا شك أن مثل هذه الشهادات من الأعداء قبل الأصدقاء، كان لها أثرها في ترك الانطباع عن قوة وشجاعة عبد الناصر، ناهيك عن تواتر مثل هذه القصص كاتصال شخصي، بين الضباط والجنود الذين كانوا مشاركين في هذه الوقائع، وقاموا بنشرها بين ذويهم، وتناقلتها الألسن، ونشرتها الصحف الأجنبية والعربية، مؤكدة على سمة محببة في صورة عبد الناصر مؤمِّنة على صدق هذه السمة، ووجودها الفعلي في شخصيته.. قبل أن تكون في صورته التي يُروَّج لها.

كما كان لواقعة محاولة اغتيال عبد الناصر في حادثة ميدان المنشية بالإسكندرية عام ١٩٥٤، حين وجِّهت إليه ست طلقات نارية، وهو يخطب في جماهير غفيرة، تحت سمع وبصر الشعب المصري نفسه، وقد سجلتها عدسات مصوري الصحف، وكاميرات السينما بالصورة، ومحطات الإذاعة التي كانت تبث الخطاب صوتيًا على الهواء مباشرة، كان لها بالطبع أثرها في تحسين صورة عبد الناصر، التي كانت مشوهة حتى ذلك التاريخ، إذ كانت الحادثة تعكس مدى

---

(١) أ. أجاريشيف - ناصر - ترجمة د. سلوى أبو سعدة وأحمد شرف -دار الثقافة الجديدة - القاهرة - ١٩٧٧ - ص ٨٣- ٨٤ .

الشجاعة الشخصية التي كان يتمتع بها، والتي يعتقد محمد حسنين هيكل أن الصورة الجماهيرية لعبدالناصر قد بدأت تتغير اعتبارًا من هذا التاريخ، أو هذه الواقعة تحديدًا، ويرى أنه سرعان ما بدأت صورته تزداد رسوخًا في أفئدة الجماهير، إلى أن أصبح عبد الناصر في وصف هيكل: " رمزًا وتجسيدًا للشعب العربي بأسره "، أو كما قال له أندريه مالرو الكاتب الفرنسي الشهير: "سيدخل عبد الناصر التاريخ كتجسيد لمصر، كما دخل نابليون التاريخ تجسيدًا لفرنسا "..

فالذي حدث في المنشية أن عبد الناصر لم يهتز له روع، إنما ظل واقفًا في مكانه يتحدى القاتل بينما اختبأ بعض زملائه من رجال الثورة، الذين كانوا يفوقونه في شعبيتهم تحت المنصة التي كان يخطب عبد الناصر فوقها، ووسط دوي الرصاصات وهي تخطئه، استمر عبد الناصر يتحدث إلى الجماهير، قائلا: "إخواني المواطنين، فليبق كل منكم في مكانه، إنني حي لم أمت، ولو مت فإن كل واحد منكم هو جمال عبد الناصر، ولن تسقط الراية"[1]، ومن مثل هذه الوقائع التي لها شهود عيان روجوا لها، بدأت تتسق ملامح الشخصية مع ملامح الصورة الذهنية، مما أكسبها المصداقية والاتساق الذي حقق لها النجاح.

وقد لعب الرئيس عبد الناصر دوره.. ليس كرئيس لمصر فحسب، ولكن كزعيم للأمة العربية كلها، مستخدمًا أو جاعلا في خدمته كل ما سبق الإشارة إليه من عناصر وهي: الكاريزما الشخصية، والظروف التاريخية، ووسائل الاتصال المتاحة آنذاك، وفي مقدمتها خُطبه التي كانت تطيّرها الإذاعات، وتسجّلها السينما، وتنشرها الصحف، ثم التليفزيون فيما بعد في فترة الستينيات، إلى أن أصبح البطل الأسطوري في حياة الأمة العربية كلها.. لا بل وغالبية الدول

(١) محمد سلماوي - مرجع سابق - ص ٢٤ .

الأفريقية، والآسيوية الساعية للتحرر، والزعيم الملهم، والأب الروحي أو الفعلي، الذي يستطيع أن يحقق كل الآمال، ويصنع المعجزات، فهو من وجهة نظرهم القادر على فعل أي شيء، وكل شيء، وكأنه الساحر الذي ما أن يلمس بعصاه شيئًا.. حتى يتحول بقدرته الفذة إلى ما يريد.

بهذا المعنى حمَّلت هذه الصورة الأسطورية عبدالناصر الكثير مما لا يستطيعه بالفعل، ولذا وصفها محمد حسنين هيكل قائلا: " كان واضحًا أن عبد الناصر هو الزعيم الكبير، الذي علقت عليه الأمة آمالها، وأن كتلها الشعبية تتطلع إليه لتحقيق هذه الآمال، دون أن تكون على علم بالحقائق، وهي تطلب منه المعجزات، دون أن تتوافر لديه الوسائل، وقد خبر هو ذلك بنفسه حين أعلن أنه لا يملك خطة لتحرير فلسطين، وقد أحدث هذا الإعلان ضجة هائلة في العالم العربي، وجاء إلى لقائه عدد من الساسة العرب؛ يرجونه ألا يُكرر هذا الإعلان مرة أخرى؛ لأنه صدمة لمشاعر الأمة، وكان من بين الذين جاءوه بهذا القول السيد أحمد الشقيري، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يومئذ، ودار بين الاثنين حوار حول هذه المسألة، وكان رأي الشقيري أن هذا الإعلان نزل على جماهير الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة نزول الصاعقة، ورد جمال عبد الناصر: إنني أريدهم أن يعرفوا الحقائق، فقال الشقيري: إن الجماهير تملك آمالها، أما الحقائق فهي ملك زعمائها، وبخاصة الزعماء التاريخيين الذين تتعلق بهم هذه الآمال، ورد جمال عبد الناصر بأنه لن يكون هو وحده الذي يحرر فلسطين، وإنما الشعوب هي التي يتعيَّن عليها أن تتحمل مسئوليات الحرب وتكاليف التحرير. وهذا يُعطيها الحق في معرفة الحقيقة، وكان رد الشقيري أنه يتوسل إلى الرئيس ألا يكرر هذا التصريح؛ حفاظًا على معنويات الأمة. كان جمال عبد الناصر

يُدرك ما يقوله الشقيري عن حالة الجماهير، إن الجماهير كانت في حالة فوران شديد، وهي تنتظر من بطلها أن يحقق المعجزة، أما الباقي فهي لا تعتبره من شأنها، وكانت هذه مشكلة من أعقد المشاكل التي تتنازع شخصية جمال عبد الناصر ودوره؛ ذلك أن شخصيته أسرت الجماهير العربية، وحين أصبح الرجل آسر الجماهير العربية فقد أصبح في نفس الوقت أسيرها، لقد كان عبد الناصر مطالبًا في كل الوقت مهما كانت الظروف بأن يُلبِّي نداء هذه الجماهير، وأن يلتزم في الوقت نفسه بالحقائق الموضوعية لعوامل القوة الفاعلة، وكان هذا مستحيلا"(١).

من الاستشهاد السابق يتبين للجميع - ولمن لم يعيشوا عصر عبد الناصر بالذات - حجم وملامح الصورة الذهنية، التي انطبعت عنه لدى الشعب العربي كله.. وليس المصريين فحسب، ولنقارن بين هذه الصورة وبين صورته في عصر الرئيس نجيب، أو حتى في بداية توليه للسلطة، التي أشرنا إلى رأي المؤرخ العسكري جمال حماد فيها، وبالتحديد قوله إنه كان شخصًا مجهولا بالنسبة للجيش، والشعب المصري، في مقابل رئيس له شعبية كاسحة، فيتجدد السؤال مرة أخرى، كيف تحققت هذه النقلة النوعية الكبيرة في صورته؟! في ظل وسائل إعلام محدودة في بداية حكمه - حيث لم يكن التليفزيون قد دخل مصر أو العالم العربي بعد، وفي بداية دخوله كان محليًا - وفي ظل رفض جماهيري لشخصه، من قِبل محبي نجيب داخليًا، وخارجيًا!!

لا بد هنا أن نقف أمام الوضع الدرامي الذي أحاط بصورته مقابل جماهيره التي ترفض أن تتصور -مجرد تصور - أنه قد يعجز عن حل إحدى قضاياها، وأنه ليس لديه حل سحري لها.. رغم أن هذه

(١) محمد حسنين هيكل - "٦٧- الانفجار" - ص ٢١٢ .

هي الحقيقة، التي كان يدركها مبكرًا - وأثبتتها السنين فيما بعد - وكان يحاول أن يصارح الجماهير بها، فتحول ضغوط من قيادات أخرى دون ذلك؛ حتى تظل معنويات الجماهير العربية كلها مرتفعة، ولا تتحطم آمالها! فكان أن تدعمت صورته الذهنية لدى الجماهير، ولم تهتز كصورة لبطل أسطوري.

وللحقيقة فإن بداية الوعي بأهمية الإعلام في رسم الصورة - كشكل من أشكال الدعاية السياسية - قد ظهرت مبكرًا في مصر، وتحديدًا في مطلع الخمسينيات.. ولكن بمعنى مختلف، ليس بمعنى رسم صورة الرئيس، ولكن بمعنى وجود شكل من أشكال الدعاية السياسية للثورة، خاصة وأنها في البداية كانت تطرح مبادئ تُناقِض ما كان سائدًا في المجتمع المصري، وقد بدأ هذا الوعي يتبلور بفضل شخصية مدنية.. وليست عسكرية، هي فتحي رضوان، الذي "نصح مجلس قيادة الثورة بالاهتمام بجهاز الإذاعة، وتغيير برامجه؛ فلسفة، وتخطيطًا، وتنفيذًا، وأسلوبًا، وإنشاء وزارة للدعاية للثورة - صدر في يوم ١٠ نوفمبر ١٩٥٢ مرسوم بقانون بإنشاء وزارة للدعاية تحت اسم: "الإرشاد القومي" وأُسندت إلى فتحي رضوان نفسه هذه الوزارة"[١]، ومن هنا بدأت تتربى الكوادر التي يُناط بها الحفاظ على صورة الثورة، ومن ثم قياداتها.. لكن صورة عبد الناصر بالذات كانت لها سمات جد مختلفة، وكان ما يُطلق من سمات من خلال وسائل الإعلام: الصحف أو الإذاعة، والجريدة السينمائية الناطقة، ومن بعدهم التليفزيون، تتسق وما يصدر عن الرئيس جمال من تصرفات، ولا تتناقض معها؛ الأمر الذي حقق لهذه الصورة نجاحًا فاق كل تصور أو تخطيط، فعن الإلهام الذي كانت الصحف تروِّج له بالنسبة لصورة عبد الناصر، بوصفه "الزعيم الملهم"، والشجاعة كسمة أساسية في

(١) عبد العظيم رمضان - مقال بعنوان : "قصة وزارتين (٤)" - الأهرام - ص ١٠ .

شخصيته، أظهرت الظروف أنهما كانتا بالفعل سمتين أساسيتين فيه.. وليس في صورته فحسب.. أو هكذا رأى الشعب، فقد توافق ما تروِّج له الصحف عن شجاعته في التحرك قبل الثورة بتنظيم سري يقوده ويدير حركته، غير عابئ بأخطار جسيمة قد تحيق به هو شخصيًا، وكأنه زعيم ملهم من الله؛ لنجدة ونصرة هذا الشعب، الذي تحمَّل الكثير، كما تواكب ما تروِّج له الصحف مع حدوث بعض الوقائع، التي تعكس أنه بالفعل يتمتع بشجاعة نادرة، وأنه بحق قد وُهِب الزعامة كمنة أو منحة من الله، وهبة إلهية حباه الله بها، مثل كل عبقري في أي مجال من المجالات، ممن نعجب من نبوغهم.. لكنا نُسلِّم بأن لهم دورهم في تغيير مسار التاريخ العلمي أو السياسي.

هذا ولا بد أن ننبه هنا إلى أهمية اتساق المواقف مع ما يُروِّج له صُنَّاع الصور الذهنية؛ لأن أي تناقض بين ما يُقال وما يحدُث على أرض الواقع، أو يتناقض مع تصرفات صاحب الصورة، لا بد أن يسحب عنه المصداقية، ويمحو أثر أي برامج لرسم الصورة المرغوبة، وهو ما حدث فيما بعد بالنسبة للرئيس السادات، الذي استعان بخبراء أمريكيين؛ لوضع برنامج لرسم صورة محببة له؛ تحقيقًا للشعبية: ذلك أنه كان واقعاً في نفس المأزق، الذي كان فيه عبدالناصر في بداية توليه الرئاسة، بعد رئيس له شعبيته كنجيب، وحدث الشيء نفسه مع السادات؛ إذ جاء بعد رئيس كانت له شعبية كاسحة أكثر من نجيب.. وهو أمر سنستفيض في شرح تفاصيله في حينه.. لكنا هنا فقط ننوه أو نشير إليه؛ كعامل من عوامل النجاح في رسم الصورة الذهنية المرغوبة للرؤساء.

هذا وقد خدم صورة الرئيس عبد الناصر أيضًا أنه لم يكن مجرد رئيس دولة، بل كان يتصرَّف كالزعماء العظام، إذ كانت له رؤية شمولية، جعلته يخرج عن حدود بلده مصر، لا بل وحدود الوطن

العربي، ليساعد الحركات التحررية ضد الاستعمار في كل أنحاء العالم، الأمر الذي خلق له صورة ذهنية أكسبته محبة جارفة في الداخل، وفي الخارج بين هذه الشعوب الطامحة للتحرر، لكنها أيضًا أكسبته في العالم الغربي الاستعماري -الذي كانت شمس سيطرته قد بدأت تغيب -أكسبته عداوتهم وحذرهم.. وإن كانوا - كما سبق القول - يُكنُّون له قدرًا من التقدير والاحترام، وسنستعرض جانبًا من ملامح هذه التركيبة النفسية من المشاعر تفصيلا فيما بعد، لكنا هنا نشير فقط إلى تحليل نفسي ذكره الدكتور عادل صادق في معرض حديث في ذكرى عبد الناصر، قال فيه: "لم يمت عبد الناصر برصاصة من الداخل؛ لأن الحب الجارف للشعب كان أقوى سياج، وحتى الذين عاداهم عبد الناصر؛ لمواقفهم المناوئة من الثورة، كانوا يعانون صراع الحب والكراهية في آن واحد حيال عبدالناصر، وكانوا يخفون في داخلهم مشاعر الرهبة الممزوجة بالإعجاب؛ لأنهم كانوا على يقين من إخلاص عبد الناصر وشدته في الحق"[1].

أما عن رؤية الغربيين لعبد الناصر، أو صورتهم الذهنية عنه، فقد سُوِّدت بها صفحات الصحف، ودوِّنت فيها مجلدات من الكتب أثناء حياته وبعد مماته، حتى إننا لا نكون مغالين إذا قلنا إنه بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود على وفاته إنه ما زال مِلء السمع والبصر، تُقيَّم أمور كثيرة على ضوء ماذا لو كان بيننا حتى الآن؟ وماذا ترك في النفوس من مشاعر، وفي العقول من أفكار يمكن أن تكون وراء أي تصرف شعبي في الشارع العربي، خاصة في المناسبات، التي يحتاج فيها الأمر للعودة إلى تقييم الأوضاع العربية الراهنة.

هذا وما زال يبرُز الاحتياج إلى القومية العربية التي كان عبد

---

(١) الأهرام - مقال بعنوان " ١٥ يناير الشارع الفلسطيني في ذكرى ميلاد عبد الناصر " - ٢٠٠٠/١/١٨ - ص ١٠ .

الناصر -لا أقول أول من نظّر لها- لكنه كان أول من طبّق مبادئها في العصر الحديث؛ ولذا نجد أن صورته الذهنية لدى العرب عامة.. لا بل وحتى الشباب منهم من غير معاصريه تظهر في الملمات التي يشعر فيها المواطنون بالعري واليتم النفسي، فيُظهرون احتياجهم إلى وجوده، ويكفي أن المظاهرات التي اجتاحت العواصم العربية والعالمية إبان العدوان الأمريكي على العراق، كانت معظمها ترفع صور عبد الناصر؛ كرمز من رموز التحرر الوطني والقومية العربية، الأمر الذي يعكس امتداد ملامح محببة في صورته الذهنية، حتى بعد وفاته!! فكيف تحقق ذلك خلال أقل من عقدين؟ ليدوم لأكثر من ثلاثة عقود بعد رحيله؟!!

أرى أنه عوضًا عن القيام بتتبع الأخبار والموضوعات، التي كانت تُنشر عن الرئيس جمال عبد الناصر في الصحف في بداية فترة ولايته، لاستخلاص سمات وملامح صورته التي قدمتها وسائل الاتصال آنذاك، والتي حرص القائمون على الدعاية له على الترويج لها، أكتفي بأن أستخلص هذه السمات من بحث قُدِّم إلى " المؤتمر الفكري الأول في الذكرى الـ٢١ لثورة يوليو "، الذي أقامته اللجنة الثقافية بنقابة الصحفيين المصرية، وصدر في كتيب يُحلل ملامح صورة عبد الناصر الجماهيرية، التي تمثلت في الألقاب التي كانت تُطلق عليه، وهي: القائد، والزعيم، والملهم، ورمز الأمة (وكان المقصود بالأمة في البداية مصر)، والبطل، ثم بطل العروبة، وناصر (لما في الاسم من دلالات)، كما كُنّي أبا خالد، ووصِف بالشجاعة، والقوة، والتحدي، وبأنه أهل للثقة، يؤمن بشعبه، ويتسق معه، وهو رمز للتحرر، ومُخلص، وصادق، ونزيه، وعادل، ومثل أعلى، يتميز بالاستقامة، وطهارة اليد، والخلق الحميد، وكراهية أو رفض المحاباة، وقوة الشخصية، والقدرة الخطابية، وطلاقة الحديث، والمظهر

الصحي (ويُقصد به الرجولة الجسدية)، فهو يتمتع بالقبول، وحسن الملبس، رغم البساطة في المظهر، وهو بعيد عن الملذات المادية، كما أنه مُتديِّن، ومتواضع، ومحافظ (أسريًا).. لكنه ثائر على القديم والبالي، ومناصر للمرأة،، وأصيل، وذكي، وحكيم، ولديه حسن تدبير.. بل وعبقري، ويكره الفساد، كما يكره العنف، وهو غير دموي.. بل إنساني، وعاطفي، ومحب للفكاهة، ولديه سرعة بديهة، وهو إجمالاً مثالي[1].

هذا ويمكنني أن أضيف إلى كل ما سبق من سمات، ما أعرفه شخصيًا، وما لمسته بنفسي من ملامح في صورة عبد الناصر، حيث إن فترة حكمه كانت بالنسبة لي بداية تكوين الوعي، إذ إني أذكر تمامًا ملامح الصورة التي ارتسمت في مخيلة معظمنا.. إن لم نقل جميعنا؛ كنتاج لما كانت تنشره الصحف، وتذيعه الإذاعة، ثم التليفزيون، والأهم من هذه الوسائل الدعائية.. ما كانت تبثه الأغاني الوطنية من معان، كانت في رأيي أحد أهم منابر الدعاية للرئيس عبد الناصر، إذ قيضَ الله له آنذاك عددًا من مؤلفي الأغاني، والملحنين، والمطربين، وعلى رأسهم: عبد الحليم حافظ، ومحمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وغيرهم من مشاهير الغناء العربي.. وليس المصري فحسب، وكان لما يتغنون به من سمات محببة، وما يُروِّجون له من مبادئ عبد الناصر الأثر البالغ في نفوس النشء والشباب.. لا بل وعامة الشعب في داخل مصر وخارجها، إذ كانوا بدورهم يرددون هذه المعاني والأغاني، ويحفظونها على ألسنتهم، وفي قلوبهم، مما كان له أثر لا يمكن إغفاله كأداة دعاية سياسية، لعلها لم تحدث بهذا الزخم لأحد من قبله، أو بعده من رؤساء مصر، وكأنهم قد استنفدوا في

---

(١) محمد سلماوي - " الصورة الجماهيرية لجمال عبد الناصر " - سلسلة قضايا قومية ٤ - دار الموقف العربي - ١٩٨٣ . (خلاصة ما ورد في الكتاب من سمات) .

أغانيهم كل المعاني، في رسم صورة عبد الناصر بالذات، ولم يتركوا ما يمكن أن يتغنى به أحد لمن أتوا بعده، بنفس القوة والحماس.. إذ كُتبت لهم بالطبع بعض الأغنيات، التي تؤلف في كل مناسبة قومية، خاصة في الاحتفالات السنوية بنصر أكتوبر ١٩٧٣.. لكن هذه الأغاني لم تَرْقَ بحال من الأحوال إلى مستوى ما ذاع وانتشر، وما زال يسكن الذاكرة العربية في وصف عبد الناصر بأنه: حبيب الملايين، وروح الأمة العربية، ومثال الوطنية، والريس و... و... من الصفات التي تغنى بها الناس وترسَّخت في النفوس والأذهان، مُشكِّلة ملامح صورته الذهنية لدى الجميع.

ويذكرنا الغناء بعلاقة عبد الناصر بالفن والفنانين، خاصة المغنين، وما ذكره بعض المقربين من عبد الناصر، عن عشقه لصوت أم كلثوم، وعلاقته الوطيدة بها، وأيضًا اعتباره عبد الحليم حافظ نتاج الثورة وصوتها، وتقريبه له.. حتى إنه الشخص الوحيد الذي قبل منه هدية (كرافتة)، ويقول عادل حمودة في إحدى مقالاته إنه " لم يدخل مطرب واحد السجن في عهد جمال عبد الناصر، ولم يعاقب مطرب واحد بالمنع والتجاهل.. على عكس عدد لا بأس به من الكتَّاب والصحفيين.. مهما تكن التبريرات والدوافع"[1]، وسنتناول لاحقًا علاقة عبد الناصر بالأدب والثقافة والمثقفين والكتَّاب والصحفيين.

ناهيك عن الاستخدام العبقري للتصوير الفوتوغرافي الصحفي الذي كان يُكرِّس الصورة الذهنية للرئيس عبد الناصر، بكل ما فيها من مهابة، وبساطة في آن معًا، فصورته كزعيم، وهو رافع يده أو ذراعيه معًا محييًا شعبه، وأمامه طوفان من البشر في معظم الميادين العامة التي كان يخطب فيها.. سواء في عابدين، أو المنشية، وبالمقابل الصور التي كانت تروِّج له كمفكر ذي عقل مُرتب، وصاحب حنكة

(١) الأهرام - مقال بعنوان: "حفر منفرد على الماء" - ٢ أغسطس ٢٠٠٢ - ص ١٢.

عسكرية وهو يلعب الشطرنج، أو صوره أثناء ممارسته لهوايته المحببة، وهي التصوير السينمائي، وصوره الأسرية - على ندرتها - التي كانت تعكس علاقته بأبنائه، ثم أحفاده.. كلها كانت تقدمه للشعب خير تقديم، بوجه إنساني آخر، وتحقق له الجماهيرية والشعبية الكاسحة، التي تمتع بها طوال حياته.

هذا ولعل المطالع للقطات المنشورة له في المجلد الذي صدر في ذكرى رحيله الأولى، وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٩٨، بإشراف ابنته هدى، والمسمى "سجل عبد الناصر بالصور"(١)، ليجده خير دليل على ما أذهب إليه، بشأن أثر الصور الفوتوغرافية في رسم صورة ذهنية لعبد الناصر، وتقول هدى عبد الناصر في هذا الصدد: "التاريخ بالصور أهم الأدوات الفاعلة في التوثيق.. فالصورة تمسك بلحظة الزمن عند مرورها؛ لتحكي ما يعجز القلم عن بيانه أحيانًا"، وتضيف في موقع آخر: "إن وجه عبد الناصر يعكس شيئًا خاصًا حين يكون بين العمال في المصانع، أو مع الفلاحين، أو مع الجنود في المواقع العسكرية.. شيئًا يسمى ببساطة: الانتماء.. لقد بقي مخلصًا لأصوله وانتماءاته حتى النهاية"، وإن كان البعض يرى أن شهادة الابنة لأبيها مجروحة فهذه دعوة للرجوع إلى هذا المجلد، وإلى الصور المنشورة لعبد الناصر في مجلد آخر يحمل اسم "وثائق عبد الناصر"(٢)، يوثق لخطبه وأحاديثه وتصريحاته، ويضم بعض الصور الفوتوغرافية ليقف على أهمية هذه الأداة في رسم صورة عبد الناصر الذهنية، وتحقيق صورة جماهيرية له.

هذا.. وحتى بعد نكسة يونيو ١٩٦٧، التي كان يُفترض أن تهز هذه الصورة الذهنية الرائعة عن موضعها.. بل وتطيح بها وتُسقطها بعد

---

(١) منشورات مركز الأهرام للترجمة والنشر .

(٢) منشورات مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام .

أن تشوهها وتلطخها، نجد أن الشعب الذي كان ينسب إلى عبد الناصر كافة النجاحات والإنجازات، لم يُلق عليه اللوم بالنسبة لأي إخفاق أو هزيمة، ولم يُحمّله وحده تبعات الهزيمة العسكرية التي وقعت، وحتى عندما رغب في التنحّي أو أعلنه، حالت جموع الشعب آنئذ بينه وبين فكرة التنحي.. وإن كان هذا الأمر قد شكك البعض في أنه كان مفتعلا، أو مُمَسرحًا، وأن عبد الناصر لم يكن ينوي بالفعل التنحي.. لكني وبوصفي شاهد عيان على هذا العصر، أجزم بأن جانبًا كبيرًا من التظاهر؛ لوقف قرار التنحي كان محض عاطفة جياشة، ومحبة حقيقية لهذا الرئيس، ففور إذاعة هذا القرار كنت بين الآلاف الذين تحلّقوا حول بيت عبد الناصر بدافع من المشاعر العفوية غير المرتبة، والمبنية على ما كان لهذا الرئيس من صورة جماهيرية في الأذهان والقلوب معًا، ولم يكن لي آنذاك أدنى علاقة بالسياسة، أو منظمة الشباب، وكان معي آلاف من البشر قدِموا من تلقاء أنفسهم؛ بدافع من محبتهم له، تحركهم الصورة الذهنية المنطبعة في أذهانهم عن رئيسهم.

هذا وحتى بعد وفاة عبد الناصر التي أحدثت دويًا هائلا في كل أنحاء الأرض، عكسته شاشات التليفزيون في كل دول العالم، وتهويم طوفان من الناس.. مصريين وعرب في الشوارع منذ ليلة إعلان الوفاة، وعويلهم أو "عديدهم" الذي تردد حزينًا طوال أيام ثلاثة، إلى أن واروه التراب في جنازة مهيبة، تعد بكل المقاييس جنازة القرن مرددين: " الوداع يا جمال يا حبيب الملايين.. الوداع " بنبرة حزينة، والبنايات التي اكتست بأثواب من القماش الأسود، والنساء المتشحات بالسواد، وبكاء ونشيج الرجال والشباب، ومبيتهم في العراء، وقدومهم من كل محافظات، ومدن وقرى ونجوع مصر، يعد دليلا آخر على ما كان يتمتع به الرئيس عبد الناصر من صورة محببة لدى الشعب

المصري، والشعوب العربية التي خرجت في جنازات رمزية تعبر عن حزنها عليه، تمامًا كما كانت تخرج لتحيته وهو حي، بل وأكثر، فحتى لو شكك البعض في أن المظاهرات المصرية كانت مرتبة من قِبل الاتحاد الاشتراكي أو غيره، فهل كانت مرتبة أيضًا في العواصم العربية والعالمية؛ لتخرج بنفس الحرارة والقوة تحية له في حياته إبان زيارته للعواصم العربية والعالمية؟ فمن منا ينسى حمل سيارته في البحرين، وفي سوريا، واستقباله الحافل في الهند عام ١٩٦٠، إذ نُسِجت له مظلة من الورد طولها ٢٠ كيلومترًا، وخرجت الجموع لتحيته تحت وهج الشمس، تهتف له من قلبها، كما ذَكَّرت بهذه الاستقبالات وكالة أ. ف. من باريس عشية وفاته واصفة جماهير الشعب الهندي آنذاك بأنها كانت: "غارقة في بحر من هتاف قلبي صادق".

المهم أن الرئيس عبد الناصر تكونت له صورة ذهنية صادقة؛ لذلك كان من الصعب العبث بها بعد وفاته.. رغم الهجمة الإعلامية الشرسة، على هذه الصورة بعد وفاته، طوال عهد الرئيس السادات خدمة لتحقيق صورة جماهيرية وشعبية له بتدمير صورة

عبد الناصر، وفي هذا الصدد يؤكد محمد سلماوي: "صعوبة العبث بالصورة الجماهيرية للزعماء القائمة على أساس من الصدق.. حتى بعد مرور السنين على رحيلهم عن المسرح السياسي"[(١)]؛ فقد كانت صورة عبد الناصر بالفعل مبنية على اتساق بين الشخصية والصورة المرغوبة التي يُروَّج لها؛ ولذلك اكتسبت الصدق المطلوب كشرط أساسي في خلق صورة جماهيرية ناجحة لأي زعيم سياسي، بمعنى أن الصفات التي يُروَّج لها في الصورة لا بد وأن تتوافر بالفعل لدى صاحب الصورة، وألا تكون مقحمة على شخصيته؛ لأن جماهير

(١) الصورة الجماهيرية لجمال عبد الناصر - ص ٣٢ - ٣٣ .

الشعب على حد تعبير محمد سلماوي: "لديها دائمًا فراسة فطرية تمكّنها من أن تصدِّق ما هو حقيقي، وأن تلفظ الزيف"[1]، فما بالنا بالشعب المصري الذكي الفطن اللماح؟

هذا ولعله من الغريب حقًا أن الدلالات الإيجابية لصورة الرئيس عبد الناصر قد لاقت قبولا فاق كل تصور.. بل إن الصورة العفوية للسلطة أو الرئاسة في مصر التي تمثلت في الرئيس عبد الناصر قد لاقت قبولا ومصداقية ولو نسبيًا.. في حين أن صورة الرئيس السادات مثلا التي اعتمدت في تشكيلها على استشارة خبراء في برامج الصور الذهنية، لم تلق نفس المصداقية.. لا بل لاقت قدرًا من الكشف، والرفض والسخرية من الشعب المصري الذكي الفطن الذي يرفض أن يتذاكى عليه الآخرون، فيسخر هو منهم.

هذا وقد كان وما زال الرئيس عبد الناصر رمزًا بشكل عام، ورمزًا على المستوى الخاص، بالنسبة لكل مواطن عربي؛ ولذا أطلقوا عليه صفات القائد الزعيم والريِّس، ولعله ما زال محتفظًا بهذه المسميات حتى بعد وفاته، فما زال يُقال عنه في البلاد العربية التي لم يكن له سُلطة فعلية عليها " الزعيم الخالد".. ولا أقول هذا من منطلق رأي شخصي فحسب.. ولكني أستشعره مع الكثيرين من خلال الاتصال الشخصي، وأطالعه في الكثير من القراءات البحثية.. لا بل وحتى الروائية، ولا أجد مصداقًا لذلك أكثر مما ورد في إحدى روايات صنع الله إبراهيم، إذ يقول على لسان أحد أبطال روايته: " أصبح عبد الناصر بطل مراهقتي أثناء العدوان الثلاثي في ٥٦، يوم اخترق القاهرة في سيارة مكشوفة، من بيته في مصر الجديدة إلى الجامع الأزهر، واعتلى منبره، وقال للعالم: (سنقاتل ولن نستسلم)، واستولى عليَّ يومها شعور بالاعتزاز والكبرياء"[2].

(١) المرجع السابق - ص ٣١ .

(٢) رواية شرف - روايات الهلال - ص ٢٣٤ .

وقد لفت نظري في الآونة الأخيرة افتقاد الشباب المصري للاعتزاز بالكرامة الوطنية، والقدرة على التصدي، أو التحدي، اللذين حل محلهما شكل من أشكال التخاذل والاستسلام، وانعدام الكرامة، يبرر للشباب أن يقعد عن تحقيق أحلامه، وأن يستسلم لواقعه البائس، ويقبل الذل، في سبيل تحقيق أقل القليل، أو القبول بالفتات، وتعجبت كيف كنا في الستينيات فقراء.. ولكن لدينا اعتزازًا بذواتنا لا حد له؟! وفي نقاش بيني وبين إعلامية صديقة لفتت نظري إلى أمر غاية في الأهمية يرتبط بتأثير الرئاسات والزعامات في شعوبها كل في حقبة حكمه، بكل ما يصدر عن هذا الرئيس من قول وفعل.. فعبد الناصر عندما كان يهتف مؤكدًا كرامة المواطن العربي أو المصري، ومؤكدًا على سمات الإصرار والتحدي، كانت مقولاته تلك تدوي، وتسمع في كل الأرجاء، ويمكن أن يتأثر بها " فواعلي " فقير لا يملك قوت يومه، ويتشربها مع كوب الشاي الصعيدي الثقيل، فتشعل خياله، وتثير حميته، واعتزازه بذاته.. مهما تواضعت هذه الذات.. لكن رئاسة ما بعد عبد الناصر لا يذكون هذه الروح في المصريين، بل كانت تردد بمنظور تراه عقلانيًا: ماذا نفعل؟! هل نحارب أمريكا؟! فيشعر المواطن بهوان وضعه، وترتيب قوته بين القوى.. لا بل كانت تضع الشعب أمام ما تراه من حقائق التخلف عن الغرب، والفقر، والبطالة، ولا يملون من أن يذكروه دائمًا بأنه يأكل بالدين من الدول الكبرى، فكيف لهذه المقولات أن تذكي في الناس - كل الناس - روح العزة والكرامة!! إن القيادة قدوة، وقد كان عبد الناصر بالذات لها.

هذا وقد شهد لعبد الناصر بذلك الأجانب قبل العرب؛ ولذلك نجد الكاتب الفرنسي الشهير جان لاكوتير الذي عرفه شخصيًا إبان عمله كمراسل لجريدة " لو موند " في مصر، يقول بعد وفاته: " ما هو باق هو صورة عبد الناصر، وما أصبحت ترمز إليه، من الإحساس

بالكرامة، وروح التحديث، والشعور بالأهمية الدولية"[1]؛ وهذا ما حدث بالفعل فما تبقى من شعارات قد يزول، أو قد زال معظمه فعلا: كآمال الوحدة، والمبادئ الاشتراكية، والفكر القومي العربي، الذي ضُرب في مقتل، بعد سنوات أو عقود من وفاته، وما بقي هو مجرد رمز لحقبة، وصورة ذهنية انطبعت لدى جيل كحقيقة ملموسة، وما بقي منها للأجيال التالية هو صورة لبطل.. قد يبدو لهم أسطورة أو خرافة، أو محض خيال، أضاف له الوجدان الشعبي من عندياته، ما اعتاد أن يلصقه بالأبطال الخرافيين، أو أبطال الحواديت.

وقد عبر الدكتور أنيس صايغ، عما أتبنّاه من رأي بخصوص صورة عبد الناصر، ولماذا تفوّقت على صورة غيره من الرؤساء الذين أتوا من بعده.. رغم عدم تأسيسها على استشارات علمية مقننة، وذلك في كتابه القيم " في مفهوم الزعامة السياسية: من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر"، إذ يقول نصّا: "استطاع عبد الناصر أن يُمثّل أغلبية الشعب تمثيلاً صادقًا، وأن يدافع عن الأماني القومية دفاعًا حقيقيّا، واستطاع بواسطة ذلك أن يتحوّل إلى رمز للحركة الوطنية المعاصرة ... إن زعامة عبد الناصر تختلف من حيث المادة التي تتركب منها، إنها تنبثق عن الشعب، من مجموع طبقاته، وفئاته، وأفكاره، وهي تنبثق عن أماني الشعب، عن مطالبه التي نادى بها منذ قرن على الأقل، وعن شعاراته التي رفعها منذ أن عرف العمل السياسي الحديث، وعن أحلامه التي أخذت تتراءى له، منذ أن أقلقت باله كوابيس التخلف، والاستعمار، والتفرقة، والفاقة، وعن تراثه، وكيانه القومي، ومصالحه العامة، إنها باختصار تمثل أغلبية العرب"[2].

هذا ويشير دكتور أنيس صايغ إلى سمة من أهم السمات في

---

(١) محمد سلماوي - مرجع سابق - ص ٢٠ .

(٢) نقلا عن محمد سلماوي - مرجع سابق - ص ٢١ .

الصورة الذهنية المحببة للشعوب العربية، ولكل الناطقين باللغة العربية، وهي حسن الخطابة، إذ يرى أن الخطابة والطلاقة في الحديث، والمظهر الصحي من الخصائص الهامة في صورة الرئيس. إلى جانب الاستقامة، وطهارة اليد، والخلق الحميد. وقوة الشخصية بصفة عامة، ولذلك يقول: إن على الزعيم أن يكون ذا أسلوب يستهوي الجماهير؛ لأن العرب من أكثر شعوب العالم تأثرًا بالخطابة: فهم أولا: شعب عاطفي بالطبيعة.. تتلاعب به الكلمات المتأنقة، وتهيّجه التعابير الحساسة، وتثيره العبارات، والانفعالات النفسية أثناء الخطابة، وهم ثانيًا: شعب يُقدّس الكلمة، وقد برع العرب عبر التاريخ في علوم اللغة، وفنونها، ومنطقها، وصناعتها.. كما لم يبرع بمثلها شعب آخر، ولا أظن أن هناك شعبًا يحيط لغته بمثل القداسة السماوية التي نحيط بها العربية"[1]، وبالطبع كان عبد الناصر لها: لِما يتمتع به من صوت جهوري واضح، وقدرة على المزج بين العربية والعامية المصرية؛ بأسلوب محبب وجذاب، طلاقة لسان، وقبول أو حضور كاريزمي طاغ.

ويضيف سلماوي إلى ما ساقه الدكتور أنيس الصايغ حقيقة أخرى لها دورها بلا شك في تأكيد أهمية الخطابة، وهي أن نسبة عالية من المصريين والعرب أميون؛ مما يعطي الأذن العربية قيمة تفوق قيمة العين.. وإن كانت العين في حالة الرئيس عبد الناصر كان لها دورها أيضًا، في ترسيخ الصورة المحببة لدى العرب؛ ذلك أن المظهر الصحي الدال على الرجولة الجسدية الكاملة، التى تمتع بها الرئيس عبدالناصر كهبة سماوية، قد كان لهما دورهما أيضًا في استكمال صورة المثل الأعلى للزعيم.. وليس الرئيس وحسب.

هذا وقد شهد لعبد الناصر بهذه السمات أيضًا الكاتب الأمريكي

---

(١) المرجع السابق نفسه - ص ٣٣ .

روبرت سان جون في كتابه "الريِّس"، الذي يقول فيه: " أفضل خطب عبد الناصر التي يلقيها ارتجالا.. حيث يتكدس مئات الآلاف من الرجال والنساء في ميدان شعبي، ويقفون ساعات ثلاثًا تحت شمس حارقة يستمعون إليه، والحقيقة هي أنه لأنه مصري - أي واحد منهم - يستطيع أن يربط كثيرًا من الكلمات بعضها مع البعض، والناس ينظرون أكثر ما يستمعون، وهو المرآة التي يرون فيها انعكاس صورتهم، انعكاس أنفسهم في الوضع الذي يتمنونه لأنفسهم، وكثيرًا منهم تئن أجسامهم من التعب، أما هو فمرفوع القامة، قوي البنيان، عيناه لامعتان وسليمتان، وجيه وحسن الملبس، مثل معظم هؤلاء الأجانب، الذين يهبطون من الطائرات.. دون أن يكون لهم أي نفوذ في مصر، أما " الريِّس " فبإمكانه أن يُدخِل الرعب على الأوغاد الأجانب، كما أن الملوك ورؤساء الوزارات يقطعون آلاف الأميال ليقابلوه؛ فهو رمز مصر الحديثة، التي لم تعد تنثني ركبتيها أمام أي فرد بعد الآن"[1].. وكلنا يعرف بالطبع ما ذكره هذا الكاتب الغربي.. لكني أورده هنا؛ للتأكيد على صدق ما أدّعيه بالنسبة لصورة عبد الناصر، التي خدمتها سماته الشخصية، ومنحتها المصداقية؛ بشهادة القاصي والداني.. فحتى أعداؤه شهدوا له بالكاريزما!!

ولعل أنيس منصور من أكثر الكتاب الذين كتبوا عن عبد الناصر بشكل مُسيء، وحاولوا تشويه صورته بكل السبل.. ولأنيس منصور بالذات قدرات جبارة على الإقناع، وبأسلوب لا يُبارى.. لكنه كان يضطر أحيانًا في خضم ما يسوق من حكايات وآراء من شأنها أن تدمر الصورة الذهنية لعبد الناصر.. أن يقول رأيًا ينصف الرجل.. فالحقائق الناصعة، يكون من المستحيل تجاهلها، والضوء الباهر لا يمكن الادعاء بأننا لم نلحظه.. ولكن يمكن القول بأنه قد أعمانا عن

---

(١) Robert San John . The Boss .

الرؤية؛ ولذلك وجد أنيس منصور نفسه مضطرًا للاعتراف لعبد الناصر ببعض الملامح والسمات المميزة، كقوله: " لقد كان جمال عبد الناصر زعيمًا لا شك في ذلك، ولديه كل صفات الزعامة، وأحدث تغييرًا جذريًا في مصر، وزلزل المنطقة العربية، وكانت له قضايا كبرى، وتحديات أكبر، هناك أشياء كثيرة عند جمال عبد الناصر لابد أن توصف بصفة المبالغة: أكبر، أصغر، أعظم.. وهكذا، وكما كانت له إنجازات كبيرة.. كانت له إخفاقات كبيرة، والقاعدة تقول إنه كلما كان النور قويًا كان الظل عميقًا"(١)، وهذه شهادة غير مجروحة؛ لأنها ليست من محب عينه كليلة عن رؤية العيوب.. بل شهادة رافض لعبد الناصر: الشخصية، والصورة والحقبة بأسرها، وبكل ما فيها من خير وشر.

ونعود لذكر سمات عبد الناصر، التي تعد الاستقامة سمة أساسية أخرى خدمت صورته، وشهد له بها أيضًا العدو قبل الصديق، بدليل ما يذكره المفكر الفرنسي الشهير مكسيم رودنسون في كتابه "إسرائيل والعرب"؛ مؤكدًا على أن " الإخلاص المتأصل في عبد الناصر، هو الذي جعل منه رمزًا للكثيرين، ومثلا يُحتذى، وقد ذكر على لسان أحد رجال المخابرات الإسرائيلية: "إن الإزعاج الحقيقي الذي يسببه ناصر، هو أنه ليست له رذائل، وهذا ما يجعله معصومًا، فلا يمكن شراؤه ولا استمالته، إننا نكره شجاعته.. ولكننا لا نملك أن نفعل معه شيئًا، إنه نزيه إلى درجة مذهلة"(٢)، ويكفي ذكر هذه الشهادة دون تعليق؛ كي نصل معًا إلى تأكيد أهمية أن يتّسم صاحب الصورة بسمات جيدة؛ حتى ينجح المخططون في رسم الصورة المرغوبة له.

---

(١) محمود صلاح – أطول حديث مع أنيس منصور – مجلة آخر ساعة – ص ٢٠ .

(٢) Maksim Roodnston , Israel and the Arabs .

هذا واستكمالا لملمح أو سمة النزاهة والاستقامة التي تميَّزت بها صورة عبد الناصر، نذكر هنا قصة محاولة المخابرات الأمريكية رشوته، وبسخاء، وكيف تصرف حيال هذا الموقف، وترك لنا شاهدًا ملموسًا وباقيًا على هذه النزاهة والتعفف، هو برج القاهرة، الذي أورد أ. أجاريبشيف تفاصيلها في كتابه المعنون: " ناصر"؛ مشيرًا إلى أنه قد نوقشت في اجتماع مجلس قيادة الثورة مسألة إنشاء برج؛ لبثٍّ الإشارات اللاسلكية لوزارة الخارجية المصرية، ولم يكف التمويل، وفي إحدى مرات النقاش مع ناصر أخبروه عن شخص أمريكي، يمكن أن يضع مبلغًا تحت تصرفه الخاص، وقد روى كيوبلاند العميل السابق لإدارة المخابرات المركزية أنه كُلِّف برشوة ناصر، وعندما استفسر عبد الناصر عن سبب هذا " السخاء "، تبين أن وكالة المخابرات الأمريكية هي التي اقترحت المبلغ، وكان ٣ ملايين دولار سُلمت له عن طريق حسن التهامي، أحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، ويقول أجاريبشيف: " وقاحة بهذه الدرجة آثارت استياء عبد الناصر، إذا كان الأمريكان تصرفوا بوقاحة مع الجهات المصرية الرسمية العليا، إذن من السهل تصوُّر كيف يتصرفون مع المستخدمين العاديين؟ في أول الأمر أراد جمال إرجاع النقود، وإذاعة بيان بأن الأمريكان حاولوا رشوته، واقترح حسن التهامي، الذي تسلم النقود من كيوبلاند، استعمال المبلغ في إقامة تمثال تذكاري يشبه "أبو الهول": رأس له أنف ضخم، وفي المساحة التي أمامه يد كبيرة إصبعها الكبير يلامس الأنف، بالحركة المشهورة التي يستخدمها المصريون للتعبير عن السخرية والإغاظة، راقت الفكرة لعبد الناصر.. وبدلا من هذا التمثال قرر جمال إقامة شيء ما بدون إشارة واضحة.. ولكن كبيرة بدرجة كافية، مرئي، وغال، وثابت، وخصص المبلغ لتشييد برج للإشارات اللاسلكية.. المطلوب لوزارة الخارجية المصرية، وأضاف عبد الناصر:

"يجب على مخابراتنا متابعة نشاط الولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا شيد برج القاهرة الذي نراه أمامنا نحن الأمريكيين صباح كل يوم عبر النيل، عندما نجلس لتناول الفطور في شرفة فندق هيلتون. ذكر ذلك كيوبلاند في كتابه، واعتبر ناصر هذا البرج نصبًا تذكاريًا: يُذكّر المخابرات المركزية الأمريكية بفشل خططها في مصر"[1]، ولعل هذه الواقعة تدل دلالة واضحة على النزاهة، والاستقامة، وروح التحدي التي كان عبد الناصر يتمتع بهما كشخصية، ونجح في تكريسهما في صورته الجماهيرية.

أما عن السمات الأخرى التي اتسم بها عبد الناصر.. كامتداد لصورة محمد نجيب، الذي كان كثيرًا ما يؤكد المحيطون به عدالته ورفضه للمحاباة، سواء كانت له.. أو لأحد من أقاربه أو ذويه، فالقصص الدالة عليها كثيرة، كانت تملأ الصحف آنذاك، لكني أورد هنا رأيًا غريبًا أيضًا يؤكد هذه السمة لعبد الناصر.. رغم أن سمة المحاباة للأقارب كانت سائدة قبل قيام الثورة، إذ كانت تُعتبر عُرفًا وليست جريمة.

ويورد روبرت سان جون، في كتابه السالف الذكر، قصة حدثت في بداية الثورة، مؤداها أن عبدالناصر اتصل "شخصيًا بصاحب إحدى الصحف اليومية قائلا له: هل رأيت الصفحة الأخيرة؟ فأجابه: نعم.. هل تقصد سيادتك صورة والدك؟ ما الخطأ في ذلك؟ فأجابه عبد الناصر في لهجة صارمة: إنني أريد أن يعيش أبي وإخوتي مثل الناس العاديين، ولا أريد أن يُفسدهم منصبي"[2] فأين مثل هذا التصرف من عبد الناصر ومن نجيب!! في نبذ ورفض تمييز أقاربهم، مما بدأنا نشاهده يوميًا، في عهد الرئيس السادات، من ظهور مبالغ فيه لأفراد

(١) أجاريشيف - ناصر - ص ١٦٢- ١٦٤ .

(٢) Robert San John, The Boss .

أسرة الرئيس، خاصة زوجته، وما كانت تحاط به من هالات التكريم والتفخيم؟! ناهيك عن تقديمها على الوزراء في الصياغات الخبرية في الصحف، والإذاعة، والتليفزيون!! وما يتضمنه هذا التصرف من إعادة إلى الأذهان لصور أفراد الأسر المالكة، والأمراء، والأميرات وهن يفتتحن المشروعات، ويُقدَّمن على من سواهم من رسميين!! وبشكل ممجوج ترفضه الفئات الشعبية على اختلافها، خاصة عندما يُغالي الصحفيون ويبالغون، في تأطير هذه الشخصيات بهالات الإبراز والتضخيم، أو كما يقولون: "يُبروزوهم"، ويضعون أخبارهم في أماكن بارزة، تسبق أحيانًا أخبار رؤساء المجالس النيابية، ورؤساء الوزارات، والوزراء، الذين يظهرون إلى جوارهم في الكادر كتابعين، أو كومبارس غير متكلم!! وفي أحيان أخرى يقومون كالمرشدين السياحيين بالشرح، والتوضيح لحرم الرئيس، وكأنهم مسئولون أمامها، أو كأنها تمثل زوجها رسميًا!!

ويقودنا هذا الحديث إلى ذكر أمر آخر كانت له دلالاته في رسم صورة الرئيس عبد الناصر، وتقديمه بوصفه نصيرًا للمرأة كمواطنة لها حقوقها السياسية، ولها حق تقلُّد المناصب الرسمية.. لكنه أبدًا لم يسمح بالظهور المبالغ فيه لزوجته، إذ كانت الظروف تقتضي ظهورها كتابع له بروتوكوليًا في استقبال أحد الرؤساء الأجانب المصاحبين لزوجاتهم، أو في بعض الزيارات الرسمية للخارج.. لكنها أبدًا لم يكن يُسمح لها بأن تطغى صورتها على صور الرسميين، كما كان يُراعى في ظهورها التقاليد المصرية الأصيلة، فلا يُشار إليها إلا باسم قرينة الرئيس، دون أن يسبق اسمها ألقاب من نوعية: " السيدة الأولى"، أو " سيدة مصر الأولى ".

هذا ويُذكر أن هذه التقاليد كانت مرعاة في الداخل وفي الخارج، فحينما رافقت قرينة الرئيس عبد الناصر زوجها، في زيارة

ليوغسلافيا، واقتضت المراسيم البروتوكولية أن تدخل قاعة الاحتفال: متأبطة ذراع الرئيس المُضيف، ويدخل عبد الناصر متأبطًا ذراع زوجة تيتو، رفض الرئيس هذا التقليد الغربي، الذي يتنافى مع التقاليد والقيم المصرية الاجتماعية، وقال حينما عُرضت عليه ترتيبات الحفل: " إنني أرفض ذلك لنفسي، كما أنني لا أستطيع أن أجرح مشاعر شعبنا، حين يرى غدًا صورة قرينة رئيس جمهوريته وقد تأبطت ذراع رجل آخر، مما يُعبِّر عن إدراكه الكامل للعوامل المؤثرة على صورته لدى الجماهير، وحرصه على هذه الصورة، وبقي بعد ذلك أن يخرج عبد الناصر من هذا الموقف.. دون أن يجرح أيضًا شعور صديقه تيتو، وقد اهتدى عبد الناصر وحده إلى طريقة لم يُفكر فيها أحد من أعوانه، فقد تأبط هو ذراع صديقه الحميم تيتو؛ بالطريقة التي اعتاد الأصدقاء في مجتمعنا الشرقي أن يتأبطوا بها ذراع بعضهم البعض، بينما ترك الزوجتين تدخلان سويًا"[1]، فأين ذلك أيضًا من صور السيدة جيهان السادات، وهي تراقص المطرب الأسباني الشهير خوليو أجلسيوس؟! وصورها وهي تقبِّل أحد الرؤساء الأمريكيين؟! أو وهي تبالغ في مواساة جرحى حرب أكتوبر بالقبلات؟! والسماح بحملها من قِبلهم لالتقاط الصور التذكارية فوق الدبابات بعد حرب أكتوبر!

أما عن سمة التديُّن كسمة أساسية في صورة أي رئيس عربي، فقد اتصف بها الرئيس عبد الناصر باعتدال ووسطية، ككل الشعب المصري آنذاك، الذي كان يتمتع بقوة الإيمان.. ولكن "دون تزمت، ودون مظهرية مبالغ فيها؛ لأن المبالغة في هذه الحالة كثيرًا ما تعطي انطباعًا معاكسًا لدى الجماهير"[2].. وقد كانت المبالغة في المظاهر

---

(١) محمد سلماوي - مرجع سابق - ص ٤٣ -٤٤ .

(٢) المرجع السابق - ص ٤٥ .

الدينية، من التحاء الرجال، وحجاب النساء، لم تكن قد تفشَّت في مصر بعد. فاتسقت تصرفات الرئيس عبد الناصر آنذاك مع سلوكيات المصريين كسواد أعظم، في حين بدأت مظاهر وسلوكيات زوجة الرئيس السادات، فيما بعد تتسم بما سبق الإشارة إليه من تصرفات غير لائقة اجتماعيًا، ودينيًا في ظل مد ديني متنام، وجماعات دينية متعصبة ومتطرفة، تفرض منطقها على المجتمع المصري، وفي ظل رفع شعارات، وألقاب من نوعية: " دولة العلم والإيمان "، " الرئيس المؤمن"، التي كانت مرفوعة آنذاك؛ كوصف للرئيس السادات، ولمصر في ظل حكمه.

سمة أخرى غير ظاهرة، كانت تكمن في نفس عبد الناصر، وساهمت في تحقيق صورة ذهنية رائعة له، لدى الشعب المصري، هي إيمانه بهذا الشعب إيمانًا مطلقًا، في وقت كان الشعب في حاجة لمن يبث فيه روح القدرة على العمل.. دون سند أجنبي، وقد نجح عبد الناصر في بث هذه الروح، ويؤكد ذلك كاتب أجنبي، يقول: "إنه قُدِّر لعبد الناصر أن يعيش ويعمل في ظروف خاصة، فالمجتمع المصري المتصف حينئذ بعدم إيمانه بقواه الذاتية، كما روَّج الاستعماريون في وجدان المصريين، كان غير قادر على تصوُّر أنه يمكن للبلاد أن تنهض بدون أجانب، وكان عبد الناصر منذ ريعان الشباب مقتنعًا بأن المصريين يملكون كل الكفاءات النوعية، القادرة على إدارة بلدهم بنجاح، كانت هذه واحدة من الصفات التي ميزت جمال عبد الناصر من بين عشرات ومئات من المسئولين الآخرين المستكينين لوضعهم، المضغوطة نفسيتهم الداخلية بالإحساس بالكرامة الوطنية"[1] وقد نجح عبد الناصر بالفعل، في بث هذه الروح المصرية الوثابة، الواثقة في قدراتها، والمعتزة بكرامتها الوطنية، فأين ذلك مما حدث بعد ذلك

(١) أجاريشيف - مرجع سابق - ص ١٦٥ .

من: مشاعر التخاذل، والانبهار بالغرب، والتشكيك في القدرات الذاتية؟! ولا مجال للعجب، فقد كانت لدى عبد الناصر القدرة على تحريك الساكن والكامن في النفوس؛ بمقولات وشعارات، كانت تجد رنينًا وصدى لدى أقل الناس شأنًا، في أقصى النجوع والكفور، وكان يكفي فقط أن يهتف فيهم بصوته الجهوري القوي، وأسلوبه القادر على تحريك الكوامن، والتحفيز الفاعل وهو يقول: " إن الجماهير هي القوة الحقيقية.. والسلطة بغير الجماهير مجرد تسلط معاد لجوهر الحقيقة"، أو قوله: "الإنجليز يوم ما جُم واعتدوا علينا كانوا متصورين إن الشعب هنا حايقوم بمظاهرات يؤيد إنجلترا، طلعوا مغفلين، ما فهموش أبدًا الشعب المصري إيه، الشعب المناضل، الشعب الصامد "، أو قوله: " قالوا حاينشروا في الجرايد وحايشهروا بينا - قلنا لهم انشروا إحنا بيهمنا مصر - بيهمنا هنا القاعدة الصلبة - انشروا ٥٠٠ مقالة في لندن، و٥٠٠ مقالة في نيويورك ما بيهمناش، قولوا اللي انتوا عايزين تقولوه، واللي إحنا عايزين نقوله بنمشيه"[1]، ثم حديثه الدائم والمتكرر في معظم الخطب الجماهيرية عن كرامة المواطن المصري، التي كانت تترك أثرها في نفوس البسطاء، فما أوسع الهوة بينه وبين رؤساء آخر الزمان، وهو يُثبِّط الهمة باسم التعقل، والرويَّة، والسياسة الحكيمة، وبأسلوب تحجيم القدرات والإمكانات، والتهوين من القدرة على الفعل في عالم قوي قادر- كان قد بدأ يكشر عن أنيابه.. لا بل وأصبح فاجراً في ممارسة قدراته، واستخدام قوته في قهر الشعوب!!

هذا وقد أثر عبد الناصر؛ بصورته المتفرِّدة في حياة الأمة العربية كلها.. وليس مصر وحدها، على مستوى الشارع العربي كله من العامة

---

(١) وثائق عبد الناصر - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - مجلد الوثائق ١٩٦٩- ١٩٧٠ ص ٦٤، ٧٤، ٧٥ على التوالي .

والبسطاء. كما أثر في الصفوة المثقفة، على المستوى الإبداعي سواء في الشعر أو في الرواية، ولعل كتاب الباحث مصطفى بيومي عن "جمال عبد الناصر في عيون الأدب العربي"[1] خير دليل على الموقع الذي احتله في الرواية المصرية والعربية.. طيلة نصف القرن الماضي، ودوره السياسي والقومي الذي لعبه في حياة مصر والأمة العربية، في فترة من أكثر فترات التاريخ والقرن العشرين خصوبة وتحولا، حيث استعرض الباحث تباين الوجود الروائي لعبد الناصر لدى خمسة من الروائيين المصريين والعرب؛ تبعًا لتنوُّع أفكارهم ورؤاهم، ونمط علاقتهم ومواقفهم من عبد الناصر، وكشف عن تباين صورة هذا الوجود بين أعمالهم، التي نشرت إبان حياته، ثم بعد وفاته، حيث إن للزمن هنا دلالته، والأهم من ذلك، أنه كشف عن أن الأدباء الخمسة جميعًا لا يختلفون حول التأثير الكبير لعبد الناصر كزعيم للأمة في الأدب العربي المعاصر.

هذا وكما كان عبد الناصر ملهمًا للأدباء يرى الكاتب الروائي والناقد الأدبي خيري شلبي أن "عبد الناصر صنعه الأدب، فقد كان يقرأ بغزارة، ويوزع الكتب على رفاقه من الضباط الأحرار.. بل لقد دافع عبد الناصر عن توفيق الحكيم، عندما اتهم بأنه يسرق أعماله من سرفانتس، قائلا: ارفعوا أيديكم عن الحكيم، وأضاف: لقد تأثرت به في شبابي خاصة في رواية عودة الروح وكانت لعبد الناصر مخيلة أدبية، أفادته في استشراف مستقبل البلاد بجانب استعداده الأدبي، ولو استمر في القراءة والكتابة لكان من الممكن أن يصبح أديبًا.. ولكن دخوله الكلية الحربية حسم الأمر لصالح السياسة"[2]، وكلنا يعرف بالطبع أن لعبد الناصر رواية كتب منها فصلين وهو في المرحلة

---

(1) منشورات دار الهدى للنشر – ١٩٩٨م .

(2) تحقيق بعنوان " هؤلاء الساسة الأدباء " – الأهرام –ص ٢٧ – ٢٠٠٣/٩/١٦.

الثانوية، تدور أحداثها عن معركة رشيد عام ١٨٠٧، الأمر الذي يؤكد أنه كان قارئًا جيدًا، ولديه أيضًا هاجس الكتابة الأدبية في إطار وطني وتاريخي، وقد أثر ذلك في أسلوبه الخطابي، الذي كان عاملا حاسمًا ومؤثرًا، في رسم صورته الذهنية.

هذا وكما كانت صورة عبد الناصر ملهمة لمعاصريه فيما أبدعوا من أدب وفكر، فقد ظل حتى بعد وفاته بحوالي ثلاثة عقود بطلا حيّا، يثير المعارك ويُفجِّر التساؤلات، ويشعل المعارك الثقافية والسياسية بين جيل الإنترنت ممن ولدوا بعد رحيله، إذ يحتل عبد الناصر مواقع كثيرة على شبكة الإنترنت، منذ فترة طويلة، لم تبدأ فقط بالموقع الذي أنشأته ابنته هدى مؤخرًا[1].. لكن المواقع التي تتناول سيرة عبد الناصر كثيرة، أغربها موقع أنشاه أربعة من المغتربين العرب، في جامعة هارفارد الأمريكية، هم: فلسطينيان، وكويتي، ومصري، بعد اشتباكهم في نقاش عنيف، مع مجموعة ممن يسارعون بإدانة مسبقة لعبد الناصر.. دون معرفة بدوره وإنجازاته، إذ اتفق الأربعة على إنشاء موقع إنترنت لعبد الناصر، يحمل اسم "دار الكرامة"، ويتضمن تعريفًا بكل القيادات التاريخية العربية والإسلامية، أمثال صلاح الدين الأيوبي، وعمر المختار، وعبد القادر الجزائري، ويبدأ موقع الكرامة صفحاته - وللاسم دلالته بالطبع - بمشهد الرحيل وجنازة عبد الناصر الأسطورية، ويطرح تساؤلا مؤداه: ما الذي جعل ٦ ملايين مصري، و٤٠ مليون عربي يسيرون في جنازته، فهو بالنسبة للمصريين آنئذ رئيس رحل، وبالنسبة للعرب لم يكن رئيسًا لهم، ومن المعروف أن هناك مواقع أخرى لعبد الناصر، تظهر مصحوبة بأغنيات وطنية، وتستعرض صورًا تاريخية لمسيرته منذ طفولته، وحتى وداعه لأمير الكويت في مطار القاهرة قبل ساعات من

(١) From 07771952, www.nasser.org

طفولته، وحتى وداعه لأمير الكويت في مطار القاهرة قبل ساعات من وفاته، الأمر الذي يدعونا لتأكيد أن صورة عبد الناصر ما زالت راسخة في الأذهان، وأن هذه المواقع ما زالت مستمرة في رسم وتأكيد ملامح هذه الصورة للأجيال الجديدة، على أيدي أبناء جيل الإنترنت، مؤكدة أن روح عبد الناصر مازالت تثير المعارك، وتفجر التساؤلات!

هذا وعدا إلهام عبد الناصر للأدباء والمبدعين، فإنه ألهم نوعًا آخر من الكتاب الصحفيين، والمفكرين من العرب والأجانب؛ كي يُدبِّجوا كتبًا وبحوثًا؛ يُقيِّمون فيها شخصية عبد الناصر، وصورته أيضًا، مما قد يعجز المرء عن حصره.. لكني أتخير هنا نموذجًا مما كتبه عن شخصيته وصورته صديقه الحميم محمد حسنين هيكل، في استعراضه لبعض ذكريات يوم قيام الثورة، واجتماع مجلس قيادتها لتقرير مصير الملك فاروق، وكان رأي جمال سالم محاكمته ثم إعدامه، فاستنكر جمال عبد الناصر متسائلا: " إذا كنا سنعدمه فلماذا نحاكمه؟! " وكان رأيه أن يغادر البلاد، وقال ساعتها كما يروي هيكل: "إن الدماء ستأتي بالمزيد من الدماء، ويا جماعة افتكروا قصة مدينتين لتشارلز ديكنز "، ويعلق هيكل على رأي عبد الناصر قائلا: "إن أول ما يلفت النظر في هذا الاستشهاد، هو أول ما يلفت النظر في جمال عبد الناصر، وهو أول ما يُمكن قوله عن شخص مثقف، إنه يفهم لغة الرموز بالكلمة، أو لغة الرموز بالصوت، أو لغة الرموز باللون... شعرت أنني أمام إنسان قرأ رواية، وتقبل التعبير الذي تقدَّمه، ووصل إلى الرمز الذي فيها وفهمه، وبقى موجودًا في وعيه، وعبر عنه في لحظة معينة، وهذا أول ما لفت نظري، ثم ما لفت نظري بعد ذلك الصورة المشهورة لهذا الرجل، والتي توشك أن تكون جزءًا من صورته الذهنية عند الناس الذين عاصروه، إنه يبدو جالسًا

ويستمع في حالة إنصات وتأمل.. من يستطيع أن ينسى هذه الصورة بالذات؟ إن أهم شيء في المثقف من وجهة نظري، أنه هو الذي يستطيع أن تكون عنده القدرة على الإنصات"[1].

هذا وعوضًا عن الاسترسال في استعراض ما كُتب عن عبد الناصر أثناء حياته، وكان يُضيف ملامح وسمات لصورته الذهنية، أو ما كتب بعد وفاته، تثبيتًا لبعض هذه السمات التي راجت عنه، أو تصديًا للهجمة الشرسة، التي حاولت النيل من هذه الصورة بقسوة، في عهد الرئيس أنور السادات، أشير إلى كتاب مُدِح فيه الرئيس عبد الناصر، ورُسِمت ملامح صورته بشكل يتناقض وما ورد بعد ذلك على لسان السادات نفسه هذا الكتاب الذي اشتهر وقت صدوره بعنوان: "يا ولدي هذا عمك جمال "، وكان السادات يوجه الحديث فيه إلى ابنه جمال، الذي أسماه على اسم عبد الناصر، والمُطالع لهذا الكتاب يصدمه التناقض، بين ما ورد فيه، وما كتبه بعد ذلك الرئيس السادات نفسه، عن عبد الناصر في مذكراته المسماة: "البحث عن الذات"، وإطلاقه ليد صهره عثمان أحمد عثمان للنيل من شخصية عبد الناصر، والإساءة إلى صورته، في كتابه الذي يضم مذكراته الشخصية، والمعنون: " تجربتي "؛ تصورًا منهما بأن النيل من صورة عبد الناصر وتشويهها، كفيل بأن يُحسِّن صورة الرئيس السادات، أو يُتيح لها الفرصة للظهور بعد أن تمحى صورة عبد الناصر من الأذهان!!

ولعل أبرز ما ورد في كتاب يا "ولدي هذا عمك جمال تبريرًا لعنوان هام فيه " من أجل ذلك أحبه "، وبنص ما كتبه السادات وبتعبيراته، أن عبد الناصر كان " ديمقراطيًا، وأهلا لثقة الجميع،

(1) عادل حمودة - الأهرام - "مقال بعنوان حفر منفرد على الماء" - صباح السبت ٢٠٠٣/٨/٢ - ص١٢ .

ويقظًا، وتفكيره متطور، ويعمل ليل نهار، ويفكر بروية لينتهي إلى قرار، ويسيطر على الأحداث فيوجهها ولا توجهه، وصديقًا يوفي الوعد، صادقًا مع ربه ومع نفسه، له نفس لوامة، يحاسب نفسه دائمًا أقسى وأعنف حساب، ويلتمس لغيره كل أبواب العفو والغفران، ويحفظ العهد، ويصدق الوعد ويخلص الود، ويتقي ربه في السر والعلن، وهادئًا دائمًا، شخصية متزنة نحترمها جميعًا، صريحًا واضحًا، ينتصر للمبادئ والقيم، أو رجل مبادئ ومثل، ونجد في أسلوبه دائمًا راحة وثقة وعمقًا، ينتصر لنا ضد نفوسنا، وهو عقل الثورة ومدبرها ورائدها، وهو حاكم وطني لا يساوم ولا يخضع لإغراء أو لتهديد. يتميز بالإقدام والإيمان بمصر، ويستلهم وحيه من روح شعب مصر البسيط، ومن عبقريته أنه يبسط كل مشكلة تواجهه ويعود بها إلى أصلها، ويحسب حساب كل شيء مهما كان مستبعدًا، وهو لا يصمم إلا بعد تفكير عميق وروية فإذا صمم فإن قوى الأرض كلها لا تثنيه، وهب الحكمة، رابط الجأش صلب الإرادة لا يساوم ولا تزلزله أو تنال منه الخطوب، أراد الله أن يحقق على يديه عزتنا وكرامتنا، وأن يحقق على يديه أيضًا استقلالنا ونصرة القومية العربية التي كان يراد لها أن تقبر إلى الأبد"[1].

هذا ويختم السادات كتابه عن جمال عبد الناصر بحديث إلى الله - على حد تعبيره - أشبه بالدعاء يقول في مطلعه: " جمال يا رب من صنعك الرائع، وإبداعك القاهر، إنه عبدك المؤمن بك، المتوكل عليك، المسير بإلهامك"[2].. فأين هذا الحديث العذب عن عبد الناصر وخصاله وسماته مما درج السادات بعد ذلك من الترويج له في كتبه الأخرى بعد توليه الحكم، سواء بما خطت يداه، أو بما نطق

---

(١) أنور السادات - يا ولدي هذا عمك جمال - ملخص لما ورد في الصفحات من ٦٤- ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق - ص ١٨٧ .

به حواريوه ومريدوه من الكتاب، والتابعين يقلبون به ملامح الصورة تمامًا: خدمة لخلق صورة ذهنية جيدة للسادات نفسه.

الحقيقة كما يقول محمد حسنين هيكل أن " القيمة الكبرى لجمال عبد الناصر - والتفسير الحقيقي لحجم الحملة الضارية عليه بعد رحيله - أن حياته كانت تعبيرًا عن صدق هذه الأمة العربية مع نفسها، ومع تاريخها، مع عالمها المعاصر، ومع التطور الإنساني العام: لذلك أصبح في حياته دورًا، وتحول بعد رحيله إلى رمز. وفي الحالتين - الحياة والرحيل - كان خطرًا لا بد من وقفه، ولا بد من رده، ولا بد من حصره؛ تمهيدًا لتصفيته"[1].. لكني أرى أنه هيهات أن يحدث، فقد يُسقط التاريخ من حسابه الكثيرين.. لكن عبد الناصر لن يكون أحد هؤلاء الذين يمكن تصفية سيرتهم، أو تشويه صورتهم.. لماذا؟ فقط وببساطة؛ لأنه " استطاع أن يملك القدرة على الصدق، وهذا لا يتجلى فقط في حديثه عن دور الشعب المعلم.. لكنه يصل إلى أعمق من ذلك ... ومن هذا الصدق كان الوصول إلى الاتجاهات الحاسمة ... إن الحساب الدقيق ضروري لعمل البطل، إلى جانب هذه القدرة غير العادية التي يستمدها من ضمير أمته"[2].

الخلاصة: إن صورة عبد الناصر الذهنية قد رسمتها عدة وسائل أو أدوات، وجهات، نذكر منها:

- وسائل الاتصال المتاحة في عصره.
- الظرف أو الظروف التاريخية.
- الكاريزما الشخصية.
- اتساق الصورة مع الشخصية والتصرفات.
- الأغاني.

---

(١) صوت الأمة - ملحق بعنوان " طل علينا يا جمال " صدر بتاريخ ٢١ / ٧ / ٢٠٠٣ - نقلاً عن بصراحة في الأهرام بتاريخ ٢٨ / ٩ / ١٩٧٠ .

(٢) المرجع السابق - مقال لهيكل بعنوان " فن صناعة البطل - بتاريخ ٢٥ / 5 / 1962 /ص٢٨ .

- إخلاص واقتناع مؤسسة الرئاسة به، ودعمها لصورته.

أما عن **خلاصة السمات** التي رسمت بورتريه لصورته الذهنية فتتلخص في:

الشجاعة، والقوة، والشدة في الحق، وكراهية العنف، وكراهية الفساد، والقدرة على التأثير وبعث الأمل في النفوس، والانحياز للفقراء، والتصاقه بشعبه، والإيمان القوي به، فأصبح موضع ثقتهم، لتميزه بالاستقامة، وطهارة اليد، والنزاهة، والصدق، والخلق الحميد، والأصالة. والتدين دون تزمت، والتواضع، والبساطة، مع بعد عن الملذات المادية، فهو محافظ أسريًا.. رغم أنه نصير للمرأة، وهو أب للجميع، كما أنه يتسم بالعدل، ورفض المحاباة، ويتميز بالإخلاص، والوطنية، والحِس القومي، والحسم، والقدرة على التحدي، والتمسك بالكرامة، وهو زعيم ملهم، وعبقرية فذة قادرة على صنع المستحيل، ويتمتع بقدرة خطابية، أو طلاقة في الحديث، مع حب للفكاهة، وسرعة بديهة، وقدرة على المزج بين العامية والفصحى، فهو مثقف، وقارئ جيد، ولديه استعداد أدبي، وقوة شخصية، وقبول، وحسن مظهر، ومهابة، الخلاصة أنه مثالي، ليس له رذائل، وبطل أسطوري؛ ولذلك أصبح رمزًا أكثر منه بشر، فهو رمز للكرامة الوطنية؛ ولذا أصبح قدوة ومثلا أعلى لجميع العرب.

صورة الرئيس السادات

كلنا يعرف الظرف التاريخي الذي تولى فيه الرئيس أنور السادات - كما كانت شهرته منذ عرفه المصريون - أو محمد أنور السادات كما بدأ يُلقَّب ثلاثيًا منذ وفاة الرئيس جمال عبد الناصر.. وكأنه قد انتواها منذ اليوم الأول أن يتسمَّى باسم النبي محمد؛ تمهيدًا لما سيُلقَّب به فيما بعد: " الرئيس المؤمن "، وإعلانه مصر " دولة العلم والإيمان "، وكأن الرئيس السابق له لم يكن مؤمنًا، والدولة كانت دولة الجهل والإلحاد!!

المهم أن كلنا يعرف الظرف الذي تولَّى فيه، وكيف كان من الصعب عليه - أو على غيره - أن يخلق لنفسه صورة محببة لدى الجماهير.. بعد شعبية كاسحة بحق، كان يتمتع بها الرئيس عبد الناصر.. لكنه بحِسِّه الشعبي، وبإمكاناته الذاتية، وبالإستعانة بخبراء في رسم الصورة، نجح إلى حد ما، في أن يرسم لنفسه الصورة المرغوبة منه، والتي اعتقد أنها الصورة المرغوبة من شعب مصر أيضًا، وتصوَّر أنها ستحقق له شعبية لدى المصريين.. ومهمتي في هذا الكتاب هي الحديث عن صورة الرئيس السادات، وليس شخصيته؛ ولذا لن يرد ذكر سماته الشخصية.. إلا في إطار ما خدمت به هذه الشخصية في مجال تشكيل الصورة، ولنبدأ بالتعريف المعلوماتي الرسمي، الذي يضم بيانات أولية تستعرض سيرته الذاتية، في نقاط، ويقول:

"محمد أنور السادات ١٩١٨ - ١٩٨١ .

- ولد في قرية " ميت أبو الكوم " مركز تلا منوفية.

- تخرج في الكلية الحربية ١٩٣٨، وعين بسلاح الإشارة.

- اعتقل أكثر من مرة بسبب نشاطه السياسي، وأخرج من الجيش، وأعيد سنة ١٩٥٠.
- عند قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، كان عليه الاستيلاء على الإذاعة والشبكات التليفونية، وإذاعة أول بيان؛ يُعرِّف فيه الشعب نبأ قيام الثورة.
- عُيِّن وزيرًا للدولة ١٩٥٤، ثم سكرتيرًا للاتحاد القومي ١٩٥٩.
- انتخب رئيسًا لمجلس الأمة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٨.
- عُيِّن نائبًا لرئيس الجمهورية، وعضوًا بمجلس الرئاسة ١٩٦٤.
- انتخب عضوًا باللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي، وأمينًا للجنة القومية السياسية في سبتمبر ١٩٦٨، وأعيد تعيينه نائبًا لرئيس الجمهورية في ديسمبر ١٩٦٩.
- انتخب رئيسًا للجمهورية بعد وفاة عبد الناصر في (أكتوبر ١٩٧٠) وأعيد انتخابه في أكتوبر ١٩٧٦.
- ألف "قصة الثورة كاملة".. "صفحات مجهولة من الثورة".. "يا ولدي هذا عمك جمال".. "البحث عن الذات".
- قاد وخطط لحرب ١٩٧٣، وانتصار جيش مصر، وعبور قناة السويس.
- قاد عملية السلام لاستعادة سيناء.
- قامت باغتياله مجموعة من المتطرفين، في ٦ أكتوبر ١٩٨١"[١].

تلك هي المعلومات الأولية عن الرئيس السادات، الذي أبدى حزنًا عميقًا على رفيق دربه الرئيس الراحل عبد الناصر يوم وفاته؛ من خلال البيان الذي أذيع إعلانًا لها، كما كان هو من أعلن من قبل بيان الثورة، ثم بيان رجوع الرئيس عبد الناصر عن قرار التنحي، بوصفه آنئذ رئيس مجلس الأمة، والنائب الأول لرئيس الجمهورية، وكلنا يذكر

(١) دكتور ناصر الأنصاري - موسوعة حكام مصر - ص ١٣٠.

صورته وهو ينحني لتمثال عبد الناصر، تلك الصورة التي آذت مشاعر المصريين.. حتى مُحبي عبد الناصر أنفسهم، الذين كادوا آن يعبدوه أو يؤلهوه!! وبقدر ما استنكروا تصرف السادات سخروا منه، ولم يُصدِّقوا مشاعره، وثار لغط وقتها حول هذه الحركة من السادات، فالشعب المصري مُتديِّن، وذكي لماح بطبعه.. لكنها شخصية السادات الفلاح المصري القدير، الذي علمته الظروف كيف يستغل الفرص السانحة، إذا واتته على قلَّتها، وكان الحزن الجارف على عبد الناصر يومها طوفانًا من المشاعر في مصر والعالم العربي.. لا بل وفي معظم دول العالم، وكان حزن السادات عليه - أو إبداؤه لهذا الحزن - أول ما حاول به السادات كسب قلوب المصريين.. إذ لم يكن له حتى ذلك الوقت أي قبول يُذكر في الشارع المصري، ولم يكن من المُتصوَّر أن يحل أحد محل عبد الناصر.. وذلك ما صعَّب مهمة السادات، أو أيًا كان من سيتولى بعد عبد الناصر.. مهما كانت درجة قبوله لدى المصريين.

هذا ولم يكتف السادات بهذه الحركة التمثيلية، أو المسرحية في تقديم نفسه.. بل قدم نفسه كمسئول عن الحقبة قائلا: "لقد جئت إليكم على طريق عبد الناصر"، كما لم يتوقف عن ترديد مقولات أخرى تؤكد مسئوليته عن كل قرارات عبد الناصر: بوصفه مشاركًا في الحكم في حقبة عبد الناصر.. فلم يكن السادات ليرضى أن يوصف بأنه كومبارس غير متكلم، يتحرك في الكادر كمجرد صورة، طوال ١٨ سنة، هي فترة حكم عبد الناصر، فظل يُردد لفترة طويلة بعد توليه الحكم، أنه كان مسئولا مع عبد الناصر سواء بالممارسة، أو بالصمت: ولذلك رفض بشجاعة حجة المسئولية بالصمت، وأعلن أنه اشترك مع جمال عبد الناصر في رسم كل سياسة، واتخاذ كل قرار، فقد كان هو

الرئاسة الثانية دستوريًا بعد عبد الناصر؛ بحكم رئاسته لمجلس الشعب معظم سنوات حكم الأخير، وحين ترك رئاسة مجلس الشعب، ولّىَ بعدها منصب نائب رئيس الجمهورية، وهو الرئيس عمليًا في أواخر عهد عبد الناصر.. وإن كانت الزعامة التاريخية لعبد الناصر، بما لها من مكان ومكانة، لم تسمح لأي مسئول بجواره أن تسلّط عليه الأضواء، إذ كان مِلء السمع والبصر وحده، وكل من حوله في الظل تقريبًا.

أما عن مؤسسة الرئاسة في بداية حكم السادات، فقد كانت تتكون من رفاق عبد الناصر، الذين ظلوا يحيطون بالرئيس السادات، لِما يقرُب من عام بعد وفاته.. لكنه ما لبث أن انقلب على رجال عبد الناصر، في أحداث ١٥ مايو عام ١٩٧١، و"بعد هذا الانقلاب بقليل أعاد الرجل تنظيم المؤسسة.. صحيح أنه قد استبقى بعض وظائفها، التي كانت قائمة في عهد الرئيس السابق.. وزير شئون الرئاسة، والسكرتارية الخاصة، وصحيح أنه استبقى إدارات أخرى.. بعد أن بدَّل من أسمائها؛ فظهر ما سُمِّي بمكتب المستشارين: الأمن القومي، الشئون السياسية، الشئون الداخلية، المستشار العسكري.. غير أنه قد حدثت إضافات مهمة في المؤسسة، خلال التنظيم الذي جرى في ذلك العام.. مكتب شئون اتحاد الجمهوريات الذي شكل وقتئذ، والمجالس القومية المتخصصة، التي كان الهدف من ورائها امتصاص ما بدا من تململ وقتئذ من جانب المثقفين المصريين، والذين انخرط أغلبهم في تلك المجالس"[1]، ومن ذلك يتضح أن تشكيل مؤسسة الرئاسة، وما يتبعها من مجالس وإدارات، كان الدافع لها أحيانًا الظروف الضاغطة، التي تواجه الرئيس السادات في توليه للمهمة الرئاسية، وكان بعضها من متطلبات الوجاهة والأبهة، التي حرص عليها خلال

(١) دكتور يونان لبيب رزق - مؤسسة الرئاسة قراءة تاريخية - الأهرام - في ٤ مايو ١٩٩٩ - ص٢ .

السنوات التالية من حكمه، وهذا ليس رأيي الشخصي.. لكنه استخلاص أو قراءة تاريخية، كما أسماها الدكتور يونان لبيب رزق، بعد اطلاعه على العديد من الدراسات، التي تناولت مؤسسة الرئاسة منذ قيامها، متتبعًا ما حدث فيها من تحولات، تعكس ولا شك طبيعة نظام الحكم، في كل فترة رئاسية، والأهم أنها تعكس - كما أتصور - سمات الرئيس الحاكم أيًا كان.

هذا ولعل أبرز التغييرات، التي تمت في مؤسسة الرئاسة، في عهد الرئيس السادات، والدالة على سماته الشخصية، وبالتالي سمات صورته الذهنية فيما بعد، هي المناصب التي تتعلق بمظاهر الوجاهة، التي كان الرئيس السادات نزَّاعًا إليها، خاصة بعد انتصاره في حرب أكتوبر، واكتسابه بعض الشعبية، والقبول لدى الشعب المصري، وهذا ما يؤكده أيضًا دكتور يونان لبيب في مقاله، إذ يضيف قائلا: "وبعد انقضاء ثلاث سنوات أو يزيد قليلا (قرار رقم ١٠٠١ لسنة ١٩٧٤)، عرفت مؤسسة الرئاسة أكبر انقلاب فيها، منذ أن نشأت قبل عشرين عامًا، فقد ظهر منصب "رئيس الديوان"، الذي تبعه عشرات المكاتب.. أحصاها بعض الباحثين، فبلغت تسعة وأربعين، فضلا عن مساعد رئيس الديوان، وقد تبعه بدوره عدد من الإدارات والخدمات، بالإضافة إلى أربعة مكاتب.

ويعزو هؤلاء الباحثون ذلك الانقلاب إلى حنين الرئيس السادات لبعض مظاهر العهد الملكي، خاصة بعد استخدامه تسمية الديوان، هذا من جانب، ومن جانب آخر ما حدث من تغليب الطبيعة الاستشارية، التي صدرت عن رؤية الرئيس لذاته بأنه " كبير العائلة المصرية "، مما ظل يردده في شتى المناسبات، ونظن أن المعادين للرئيس السادات، أو الموالين له لا يختلفون كثيرًا في ولع الرجل بالجانب المظهري في حياته الشخصية، وهو الجانب الذي كان من

الطبيعي أن ينعكس على المؤسسة التي يتربع على قمتها"[1].

المهم أن أسلوب رسم الصورة الذهنية كان يتم وفقًا لرغبة الرئيس السادات، في الاتجاه الذي يوحي بالعظمة، التي بدأ الرجل يستشعرها. بعد خوضه حربًا انتصر فيها، وأكسبه هذا النصر قدرًا من الثقة في النفس، أو هذا الشعور بالعظمة، إذ سُجِّل اسمه في سجل القادة في العالم، وهذا ما يؤكده أيضًا ورود ذكره في بعض المراجع الأجنبية، التي تتناول القادة التاريخيين في العالم.. لكنها في نفس الوقت لم تعطه أكثر من حجمه الحقيقي، إذ قوَّمت ما قام به في حرب آكتوبر التقويم الموضوعي الذي يستحقه، فلم تصفه كبطل.. بل ذكرت أنه " برغم أن مصر قد حققت تقدمًا خلال الأيام الأولى لحرب يوم الكيبور أو الغفران.. فإن السادات على أية حال لم يتوقع أبدًا أن مصر ستكسب الحرب، فهو ببساطة أراد أن يُرغم إسرائيل على قبول بنود السلام، التي ستكون في صالح مصر، مثل عودة المناطق التي فقدتها مصر، في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، وقد نجح في ذلك.. ولكن على المدى الطويل برهنت النتائج على أثره الكارثي، أو المشئوم، على مجرى حياته الخاصة، أو سيرته الذاتية"[2].

هذا ويشير نفس المصدر الغربي - في تتبعه لخطوات السادات - إلى الوصول لخلاصة حول صورته، التي تراوحت بين نقيضين: إذ إنه " بينما كان يراه الكثيرون كبطل، قد أصبح منبوذًا من حلفائه السابقين، الذين اتهموه ببيع القضية العربية؛ من أجل إصلاح الاقتصاد المصري، في حين أن الفوائد الاقتصادية فشلت في مواجهة التطلعات الاقتصادية للمصريين، واحتجوا ضد سياسة السادات

(١) يونان لبيب رزق - المرجع السابق .

(٢) Encyclopedia of World History, Anwar Sadat Shocks His Neighbors. p. 1. ZoobaLeadrs.com.

الخدمية، وتزايد العلاقات الحميمة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وفي عام ١٩٨١ اغتيل من قبل متشدد ديني[١].

هذا ولعل المحك الرئيسي لرسوخ سمات معينة في صورة الرئيس السادات كان قد بدأ يتبلور.. بعد قيامه بما أسماه حركة التصحيح في ١٥ مايو ١٩٧١، التي انقلب فيها - كما سبق القول - على كل أعوان عبد الناصر، وإطلاقه لما أسماه بحرية الصحافة، التي كانت في حقيقة الأمر، تصب في خانة خدمة تحسين صورته الذهنية؛ عن طريق تشويه صورة عبد الناصر، فقد تصوَّر أن مجرد الإساءة إلى صورة عبد الناصر، وتشويهها يمكن أن يُكرِّس لسمات جيدة في صورته.

كما تصور أيضًا أن مجرد دعمه للتيار الديني الذي كان سلفًا يصفه في أحد كتبه: " بالرجعيين أعداء الثورة". وهو التيار الذي انقلب عليه فيما بعد وصفَّاه جسديًا، تصور السادات أن هذا الدعم من شأنه أن يضرب التيار الناصري، وفقًا لمنطق حرق الأرض، إلى جانب ما حاول تحقيقه بنفسه لنفسه، من خلال ممارسة تصرفات.. تصور أيضًا أن من شأنها تحسين صورته لدى الجماهير، مضافًا إلى ذلك كله استعانته بخبراء أمريكيين في العلاقات العامة؛ ليرسموا له صورة ذهنية على أساس علمي، ثم تطويره لمؤسسة الرئاسة؛ بشكل يخدم هذه الصورة المرغوبة، وساعده ظرف تاريخي رائع.. لو أنه تحقق لغيره لخدم صورته بشكل أكبر، وهو انتصار أكتوبر ١٩٧٣.. لكن ما أعقب هذا الانتصار من عدم استثمار النصر العسكري بشكل سياسي يُرضي الشعب المصري، والشعوب العربية، لم يحقق له الصورة المرجوَّة، فأصبح كما سبق القول وعلى حد تعبير المراجع الأجنبية منبوذًا.

---

(١) Ibid. p. 2 .

(٢) يا ولدي هذا عمك جمال.

هذا والحق يُقال أن شخصية السادات كانت بالفعل شخصية مُحيِّرة!! ليس بالنسبة لي فحسب.. ولكن بالنسبة لكل من تناول سياسته وحقبة حكمه، والآثار السياسية لما أصدر من قرارات.. سواء من المؤيدين له أو المعارضين لسياساته، ولنأخذ مثالا لذلك بحثًا غير منشور بشكل ورقي، لكنه من المتداولات على شبكة الإنترنت، ويتضح منه مدى حماس صاحبه للرئيس السادات، إلى جانب بعض كتابات الصحفيين المؤيدين له مثل: أنيس منصور، وصلاح منتصر، وإبراهيم نافع، ومصطفى محمود، وموسى صبري، وغيرهم كثيرين، في مقابل كتاب يضم مجموعة مقالات نشرت صحفيًا أولا خارج مصر، في صحيفة القبس الكويتية، بقلم يوسف إدريس، ثم ضمها كتاب بعنوان: "البحث عن السادات" على غرار عنوان كتاب السادات نفسه المسمى "البحث عن الذات"، بالإضافة إلى كتابات أخرى تبدو غير متحاملة عليه بشدة، تحاول فهم كُنه شخصيته.. لكني أتناول هنا ما ورد فيها ويتعلق بصورته.. أكثر مما يتناول شخصيته في إطار تقييم قراراته السياسية والاقتصادية، وما ترتب عليها من تحولات اجتماعية.

هذا ولعل أخطر ما جاء في هذه الكتابات على اختلافها، وأكثرها موضوعية ما جاء على لسان سمير زكي عبد القوي في تقديمه لكتاب يوسف إدريس المشار إليه، من أن الرئيس السادات قد لعب دورًا خطيرًا يُعد " أخطر دور لعبه ملك أو رئيس مصري في كل التاريخ المصري"[1].. بغض النظر طبعًا عن مفهوم الخطورة هنا!! فأنصار السادات أيضًا يرون أنه أهم رؤساء مصر!، وأن دوره كان أخطر الأدوار.. ولكن بمبررات أخرى.. غير التي ساقها ناشر هذا الكتاب!! كذلك لا يمكن أن ننسى هنا كتابًا هامًا نشر بعد وفاة السادات

---

(١) البحث عن السادات – المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان – ليبيا – طبعة ثانية خاصة بالمغرب العربي- ١٩٨٤ – ص ٥ .

بحوالي العقدين، للكاتب الصحفي رشاد كامل[1]؛ لتميزه أيضًا بالموضوعية؛ فقد استعرض كل الآراء المؤيدة والمعارضة للسادات، إذ قدَّم فيه شهادات الجميع واستعرض نقاط التناقض بين الشهادات التي قيلت قبل وبعد اغتيال السادات من قِبل نفس الأفراد، وكان فيها جانب من التناقض الذي يجعلنا نأخذها بحذر في كلا وجهيها، مشيرًا إلى أننا جميعًا لم نعرف السادات بمعنى المعرفة الوطيدة التي تمكننا من الحكم عليه بدقة، لكننا يمكن أن نكوِّن عنه صورة ذهنية من خلال مذكرات من احتكوا به أو ادعوا ذلك، مع الإشارة إلى أن السادات في كل مذكرات يختلف تمامًا عن سادات المذكرات الأخرى وعلى ما يبدو فقد كان هناك أكثر من سادات يحكم مصر[2] وهنا يبرز الفارق بين شخصية السادات المختلف عليها وشخصية عبد الناصر المتفق عليها تقريبًا، لنوقن لماذا اتسقت شخصية عبد الناصر مع صورته الذهنية المنطبعة، ولماذا لم تتسق شخصية السادات مع صورته نظرًا لما اعتراها من تقلب وعدم اتفاق على سماتها الحقيقية.

أما عن السيرة الذاتية للرئيس السادات، كما يضمها ملفه الصحفي، فتضم معلومات أولية، مثل التي ضمتها موسوعة حكام مصر - السالفة الإشارة إليها - مضافًا إليها معلومات أخرى، تشير إلى بعض ملامحه السلوكية، التي انعكست فيما بعد على صورته الذهنية المرغوبة، فعلى صعيد المحددات الدينية للصورة تقول مثلا إنه:

- في أغسطس ١٩٥٤ أدى فريضة الحج مع الرئيس عبد الناصر.
- وكان سكرتيرًا عامًا للمؤتمر الإسلامي في ٧ / ٨ / ٥٤.
- ورئيسًا لوفد مصر ١٩٦٩، في مؤتمر القمة الإسلامي بالرباط.

---

(١) زيارة جديدة للسادات - مكتبة الأسرة ٢٠٠١م - الأعمال الخاصة .

(٢) رشاد كامل - المرجع السابق - ص ٩٠ .

- أعلن سيادة القانون، وإقامة الحريات، ودولة المؤسسات، ودولة العلم والإيمان.

وأضيف هنا إلى كل ما تعكسه هذه المعلومات من سمات، تلقيبه لذاته بالرئيس المؤمن، وكلها عناصر تشير إلى تديُّنه، وتؤكد له سمات: متدين، وعادل، وملتزم بالقوانين والنظم المؤسسية، وزاد عليها دعمه وتقويته للتيار الديني، أيًا كان هدفه من ذلك، وأكدتها صوره الفوتوغرافية التي حرص دائمًا على أن تُظهِرُه وهو يُصلي، وتبرز في مقدمة رأسه علامة السجود، أو ما يسميه المصريون (زبيبة الصلاة)، التي تؤكد لديهم مقولة: " سيماهم على وجوههم ".. لكنهم ما لبثوا أن تفكهوا عليها فيما بعد، وأطلقوا عليها النكات.. رغم أن سمة مُتديِّن لها مفعول السحر لدى الشعب المصري المُتديِّن بطبعه، والذي يُقدِّر تمامًا هذه السمة.. لو صدَّقها، ولم يتشكك في أنها تديُّن ظاهري فحسب!!

أما على صعيد المحددات السياسية للصورة الذهنية، فتقول بيانات سيرة السادات الذاتية أنه:

- كان عضوًا في مجلس قيادة الثورة٢٣/٧/١٩٥٣
- ثم عضو هيئة التحرير في ١٩/ ٦/ ١٩٥٣.
- وعضوًا في محكمة الثورة في ١٢ /١٢/١٩٥٣.
- وفي ١/١١/١٩٥٤ كان عضوًا في محكمة الشعب، التي حاكمت جماعة الإخوان المسلمين، المتهمين بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر، رئيس الوزراء آنذاك.
- أمين عام الاتحاد القومي في ٧/١١/١٩٥٤.
- وكيل مجلس الأمة في يوليو ١٩٧٥.
- ثم رئيس مجلس الأمة ١٩٦٠، و١٩٦٤
- أمين المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في ١٥ / ٥/١٩٦٢.

- عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي ١٩٦٢/١٠/٢٤.
- بُعث من قبل مجلس الرئاسة إلى اليمن الشمالية ١٩٦٢؛ لتعزيز الحركة الثورية هناك، واشترك في تنسيق الدفاع عن الثورة اليمنية، والتوقيع على اتفاقية الدفاع المشترك نيابة عن مصر.
- نائب رئيس الجمهورية، وعضو مجلس الرئاسة في ١٩٦٤/٢/١٧.
- عضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي ١٩٦٨/٩/٢١.
- ثم نائب رئيس الجمهورية، في ٢٠ /١٢ /١٩٦٩ .

وكلها مناصب تولاها في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وتعكس مدى تداوله على مناصب منوعة لها طابعها السياسي، الرئاسي والبرلماني الهام، كما تعكس ملمحًا مهمًا، هو أنه أبدًا لم يبتعد عن الصورة، وتولى مناصب سياسية لها حساسيتها وقدرتها على الفعل والتأثير في صناعة القرار؛ أي كان شريكًا كاملا، في اتخاذ معظم القرارات الفارقة، في حياة مصر.. ولم يكن مجرد مشارك بالصمت، ذلك أنه كان مثلا يؤمن بالاشتراكية، وبالقومية العربية، ومثّل مصر في توقيع اتفاقية الدفاع المشترك في اليمن، وانخرط في التنظيم السياسي الاشتراكي، بكل أشكاله ومراحله، بشكل يعكس إيمانه بكل ذلك، ولا يعطي مؤشرًا واحدًا لإمكانية انقلابه - بعد توليه السلطة المطلقة - على كل الثوابت، التي سادت في عصر سلفه عبد الناصر!!

كما يدل على ذلك أيضًا كم من آرائه وتحليله للأحداث التي رواها لابنه في كتابه " يا ولدي هذا عمك جمال "، مما يؤكد نظرته التي كانت مختلفة تمامًا أو التي اختلفت تمامًا فيما بعد للقوى الداخلية والعالمية، وللسياسات العامة والقناعات السائدة، التي تختلف تمامًا عما اتضح من قرازاته بعد توليه الرئاسة، فالقوى التي كانت في رأيه

رجعية ومعادية للثورة قوّاها وتعاون معها، وأمريكا التي طالما تحدث عنها كقوى استعمارية تصدى لها عبد الناصر، وتشدق هو ببطولة عبد الناصر وشجاعته في هذا الصدد، ارتمى في أحضانها فيما بعد، والقومية العربية التي طالما دافع عنها أحل محلها فكرة المصرية الفرعونية التي ترسبت بقاياها للأسف في نفوس البعض مما أثر على فكرة القومية والوحدة العربية والاحتياج لهما كضرورة ملحة فيما بعد.. لكنها شخصية السادات السياسي الداهية الذي حير العالم.

أما عن المناصب التي تولاها - فيما بعد - إلى جانب توليه رئاسة الجمهورية، والقرارات التاريخية التي انفرد بها، ووضعته في موضع فريد بكل المقاييس بين الرؤساء المصريين، فكانت وما زالت لها أثرها على المنطقة العربية، وما زلنا نعاني منها حتى الآن؛ لأنها بحق أطلقت رياح التغيير على المنطقة بأسرها، وعلى كل الثوابت القومية، وأثرت وما زالت تؤثر في مجريات الأمور العربية والعالمية.. رغم الخلاف على تقييمها بين مؤيدي السادات ومعارضيه، وهي كثيرة وذات دلالة.. رغم أنها ليست موضوعنا إلا في إطار رسم سمات صورته؛ ما بين القبول والرفض الشعبي، وقد كانت هذه المناصب في فترة رئاسته للجمهورية:

- رئيس الاتحاد الاشتراكي العربي ورئيس المؤتمر القومي في ١٩٧١/٦/٢٢.
- رئيس الوزراء إلى جانب رئاسته للجمهورية في ١٩٧٤/٤/٢٥.
- رئيس الحزب الوطني الديمقراطي في ١٩٧٩/١١/٢٢ .

أما عن القرارات التي اتخذها، وكان لها تأثيرها الفارق، والحركات أو التحولات والتغييرات التي قام بها فهي كثيرة يصعب حصرها.. لكن أهمها على الإطلاق أنه:

- قام بحركة التصحيح، في ١٥ /٥ / ١٩٧١.

- أصدر قرار طرد الخبراء الروس، في يوليو ١٩٧٢.
- في ١٩٧٦ ألغى المعاهدة السوفيتية، وأعاد الأحزاب السياسية.
- في ١٩ / ١١ / ١٩٧٧ زار القدس، وأعلن مبادرة السلام.
- في سبتمبر ١٩٧٨ زار أمريكا؛ لتوقيع معاهدة السلام، ووقعها بالفعل في ١٧٩/٣/٢٦.
- أدخل مصر عصر الانفتاح الاقتصادي منذ منتصف السبعينيات.

والمتأمل لكل هذه القرارات والمبادرات، يستطيع بسهولة تصور ما يُمكن أن تُحدِثه من لغط، حول شخصية الرئيس السادات، ومن ثم يلحظ تأثيرها على الصورة المنطبعة عنه؛ نتيجة لتناقضها مع الكثير من الثوابت، التي كان لها معتنقوها ومؤيدوها حتى ذلك الحين.. وكان هو نفسه يُبدي إيمانًا بها قولا وممارسة، وهي ليست قضيتنا على أي حال.. إلا في إطار ما أحدثته من نقاش حول مدى أصالته، وقدرته على التلوُّن، وتمسكُّنه إلى حين التمكُّن من الأمور، والقبض على كل الخيوط في يده - كأي سياسي محنك، أو فلاح داهية - ثم انقلابه على سلفه، وتناقضه التام مع كل معتقداته السياسية والاقتصادية.. لا بل والاجتماعية، التي أبدى اقتناعه وإيمانه بها على مدى ١٨ عامًا، وهدمُه لكل ما بناه سلفه دون هوادة، الأمر الذي ألَّب عليه الكثيرين، وحيَّر الناس في أمره.. فحتى مؤيدوه وصفوه بتأدب قائلين: إنه "مشاغب محترف"، فقد فُصِل من الجيش؛ بسبب نشاطه المناوئ للحلفاء، وأبعِد إلى نقطة الجراولة بالصحراء الغربية، واعتقل فترة ... ثم هرب واختفى لمدة عام كامل، حتى سقطت الأحكام العرفية، في سبتمبر ١٩٤٥، "وخلال هذا العام اشترك في تنظيم جمعية الاغتيالات"[١]، ومن العجب أن نرى فيما بعد اغتيال الرئيس،

---

(١) الملف الصحفي للرئيس السادات بأرشيف جريدة الأهرام.

الذي بدأ كفاحه بالانضمام لمثل هذا النوع من الأنشطة السياسية، التي يسميها العالم الآن بالإرهابية!!، وعلى يد من؟ من استنصر بهم؛ لضرب التيار الناصري!!

هذا وتؤكد هذه السمة شهادة شريك السادات في مكتب المقاولات، الذي أسساه معًا، بعد هروبه من مستشفى السجن، قائلا بأن تفكيرهما معًا قد استقر على إجراء "تعديل لم يكن واردًا، وهو أن الطريقة الفعالة لتحقيق أهدافنا هي القضاء على الزعماء المصريين المتعاونين مع الإنجليز، وأننا إذا تمكَّنا من اغتيال عدد منهم.. فسيأتي اليوم الذي لن يجد فيه الإنجليز مصريًا واحدًا يتعاون معهم في حكم البلاد"[1]، ومن هذه الشهادة، أو هذا التصريح من الشريك والصديق يمكننا الوقوف على منهج تفكير السادات، في تصفية من يحكم هو عليهم بنفسه، أنهم يستحقون القتل أو الاغتيال.. ولنقارن هذا النمط من التفكير والسلوك، بما ادعاه فيما بعد، من ملامح تتسم بعشق الحرية والليبرالية له وللجميع، الأمر الذي جعل غالبية الشعب المصري، لا يصدقون هذا الملمح بالذات في صورته!

هذا واستكمالا لصورة " المشاغب المحترف " التي يُركز عليها مؤيدو الرئيس السادات؛ بوصفها ملمحًا محببًا.. قد يخلق له صورة مرغوبة في الأوساط الشعبية بالذات، التي تُقدِّس الرجل الفهلوي، الذي "يلعب بالبيضة والحجر"، على حد التعبير الذي وصفوا به السادات، وورد في نفس البحث أو المقال الطويل المؤيد له، والذي يعتبره من العظماء.

ذلك بالإضافة إلى ما تقوله المعلومات التي ضمها ملف الرئيس السادات، من أنه في شهر يوليو ١٩٤٨، بعد الإفراج عنه من سجن

(١) تامر سمير عبد العزيز – بحث بعنوان " لمحات من حياة أنور السادات " – متداول على شبكة الإنترنت –ص ٢ .

قرة ميدان، عمل كمحرر في مجلة المصور، ثم استقال، وعمل بالمقاولات، وفي ستة شهور أنجز مقاولة عملية مياه صغرى (طلمبات وخزانات وحنفيات للشرب) في ٥٣ قرية بالشرقية، حتى آخر عام ١٩٤٩، وهذه تعد أيضًا في المنظور الشعبي شطارة، أن يعمل الرجل في أي شيء، وكل شيء.. دون خجل، أو تعالٍ على أي نوع من العمل.

هذا وإن كان الملمح الأخير بالذات قد يراه البعض تناقضًا بيِّنًا في شخصية السادات صاحب القلم، والمقاول في نفس الفترة، فقد ترك الصحافة إلى المقاولات.. وشتان ما بين المهنتين!! ويتركها بعد أن نشر مذكراته في المصور، بوصفه أهم متهم في قضية مقتل أمين عثمان، أو كما جاء في التقديم لها " أقوى المتهمين شخصية، وأكثرهم ثقافة وتجربة "، وقد صدرت بعد ذلك في كتاب بعنوان " ٣٠ شهرًا في السجن "، وصف حسنين هيكل صفحاته بأنها: " تلقي أضواء بالغة الأهمية على شخصية السادات، ولذلك فإن النصوص الحرفية لأجزاء من هذه المذكرات متعة إنسانية وسياسية قبل أي شيء آخر؛ لفرط بساطتها وصراحتها"[(١)].. وبالفعل تابع الناس على مدى أسابيع، مذكرات السادات حتى قبل أن يُصبح رئيسًا، أو حتى شخصية مرموقة كشريك في الثورة، تابعوه إنسانًا ومتمردًا، ومشاغبًا، وسجينًا، وهاربًا، فيما يُشبه المغامرات المثيرة، ويُحدثنا تاريخ السادات أنه عاد للعمل بالصحافة فيما بعد، عندما تولى منصب مدير عام جريدة الجمهورية، في الفترة من ١٩٥٣ - ١٩٥٦ .

هذا ويقودنا ما سبق إلى ملمح ثقافي آخر، وهو السادات الكاتب والأديب، الذي يُحدثنا عنه خيري شلبي قائلا: "عرفنا السادات يخوض الحرب، ويُبرم معاهدة السلام.. ولكننا لم نكتشف فيه استعداده الأدبي.. هل تصدقون أنه كتب القصة القصيرة، وقصائد

---

(١) تامر سمير عبد العزيز - لمحات من حياة السادات - ص٤ .

الشعر؟! لقد كتب قصة بعنوان "ليلة خسرها الشيطان"، تتميز بالبناء الدرامي الذي يستخدم لغة الرمز والوصف.. بدلا من التقرير والتصريح، ولغة الحكي، وتحمل عناصر التشويق والإثارة والتوقع، مما يدفع القارئ إلى الاستطراد في القراءة دون ملل، كما يضم كتابه قصة الوحدة العربية قصيدة سياسية، بعنوان "في الشرق" كتبها عقب تأميم القناة، وحرص مصر على فتحها، ويُخاطب من خلالها شعوب الشرق ويُفسر بها حكاية القناة، ودوافع تأميمها، وعن أدب السادات يوضح شلبي أن السادات فيه من التراث الأدبي لسعد زغلول.. ولكن القاموس الأدبي الذي استخدمه في خطاباته السياسية كان القاموس الذي زرعه فيه صديقه زكريا الحجاوي، الذي عرفه في مراحل نضاله الأولى حيث تأثر به بشدة"[1].

وغني عن البيان.. أن السادات كان بالفعل مُفوَّهًا، ومُتمكنًا من اللغة العربية، بدليل اختيار رفاقه له دائمًا لإلقاء البيانات المهمة نيابة عنهم، بدءًا من البيان الأول للثورة، إلى إعلان وفاة عبد الناصر، ويؤكد ذلك أيضًا تراثه الخطابي، الذي يعكس هذا الملمح، من قدرة على الخطابة، واختيار واع للعبارات المقنِعة، وقدرة على التلوين في الصوت بشكل مؤثر، الأمرِ الذي دعا إلى القول بأنه " كان في كل الحالات مختلفًا ومميزًا، ويستولي على سامعيه ومشاهديه، وأنه كان متحدثًا ومتكلمًا له حضور مؤثر و" كاريزما تلفت الانتباه "، وفي هذا الصدد بالذات قيل: " إن السادات الذي كان يتحدث أمام الملايين وعلى الهواء مباشرة.. ليس هو نفسه السادات الذي يتحدث في اجتماع مغلق مع وزرائه مثلا، أو مع رئيس تحرير، والسادات الذي يتحدث تليفزيونيًا بالساعات.. ليس هو السادات الذي يتحدث

---

(١) الأهرام الأدبي - تحقيق بعنوان " هؤلاء الساسة الأدباء " مبدعون ضلوا طريقهم.. أم متطفلون على مائدة الأدب؟ - ١٦ / ٩ / ٢٠٠٣ - ص ٢٧ .

تليفونيًا وبالساعات أيضًا، ففي حوارات السادات التليفونية يتحدث على راحته تمامًا، فلا أضواء ولا تصفيق، ولا عيون الملايين تتابعه، وترصد إيماءاته ولفتاته، أو كلمة أو جملة ربما تفلت منه، فتقيم الدنيا ولا تقعدها"[1]، وهذا يعني أنه كان يدرك بفطرته خطورة البث المباشر، وما قد يجره من هفوات وفلتات لسان، يقع فيها الكثير من الرؤساء في العالم، ويدفعون ثمنها غاليًا، ويعكس أيضًا وعيه التام بما قد يصدر عن لسانه، وقد يُحسِّن أو يُشوِّه صورته المرغوبة، كما يعكس قدرته على التلوُّن، في صور متعددة، ومن حسن الحظ.. كما يقول محمد حسنين هيكل: "إن الذين كانت في يدهم مفاتيح القوة والسلطة كانوا يضعون تليفون السادات تحت المراقبة: كوسيلة من وسائل مراقبة الرئيس أنور السادات نفسه"[2]، ومن هذه المكالمات المسجلة، أو النصوص التليفونية كان بالإمكان الوقوف على لغة الرجل، بعيدًا عن السياسة والكلام الكبير.. على حد التعبير الشعبي الدارج الآن.

هذا ومن المعروف على المستوى الثقافي، أن السادات قد ألف أربعة كتب، كان أشهرها على الإطلاق "يا ولدي هذا عمك جمال"، السالف الإشارة إلي أنه كال فيه المديح لعبد الناصر، بشكل قد لا يُتصوَّر معه أنه سينقلب عليه يومًا ما!! وبزاوية مائة وثمانين درجة!! وأيضًا كتابه " البحث عن الذات "، الذي يُعتبر مذكرات شخصية، أو سيرة ذاتية بقلم صاحبها، وفيها قلل أيضًا من شأن سلفه بشكل واضح، ومنح نفسه أدوارًا أكبر من التصوُّر، أو أكبر من حجم دوره الحقيقي.. لكنها النفس البشرية، ورؤية كل إنسان لنفسه!! ولدوره في الحياة!! الذي ضخَّمه السادات بذكاء شديد؛ من خلال الحديث

---

(١) تامر سمير عبد العزيز - مرجع سابق - ص ٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

بشكل غير مباشر، وبتواضع شديد عن حاله في الطفولة والشباب، وما آل إليه حاله وهو رئيس أكبر دولة عربية، وزعيم يُشار له بالبنان، إذ لم يُنكر السادات أنه عاش طفولة بائسة، وأن سنوات شبابه اتسمت بالشدة، والقسوة، والحرمان، كما لم يخجل وهو يصف نفسه بقوله: " كنت أسير خلف جدتي صبيًا أسمر ضئيل الجسم، حافي القدمين، يرتدي جلبابًا تحته قميص من البفتة "، كما لم يخجل أن يصف كيف كان يأخذ البهائم إلى الترعة لتشرب، أو قوله: "زملائي في الفصل كانت ملابسهم أفضل بكثير من ملابسي.. ولكن هذا لم يصبني بأي عقدة"[1].. وقد يرى بعض صُناع صورة السادات أو من أشاروا عليه بكتابة ونشر هذه العبارات - أو ربما رأى هو نفسه - أن ذلك يعكس سمات مثل البساطة والصراحة، وهي على أية حال سمات محببة لدى الشعب المصري.. لكن هذه الحكايات قد استُغلت فيما بعد في تحليل شخصيته بعد وفاته، والقول بأن هذا الحرمان هو ما جعله يحرص على مظاهر الأبهة والعظمة، والعيش كالملوك، وإعادة صياغة مؤسسة الرئاسة، بحيث تضم ديوانًا، ورئيس ديوان، كما كان الحال في عهد أسرة محمد علي، وما تعاقب علينا في هذا العهد من خديو، وسلاطين، وملوك! ولعل ارتداءه لكل بذلات الأسلحة العسكرية، في كل مناسبة أو احتفالية بما يُناسبها، إلى جانب ارتدائه في صورته الرسمية -التي كانت تزين المكاتب الحكومية - بدلة التشريفة، وحمله لعصا أحمس الشهيرة، والتي كان المصريون الظرفاء يتفكهون عليها قائلين بأنه "لابس مزيكة"، أو إطلاقهم للنكات التي تسخر كعادتهم من انقلاب الحال بالقول: "والله وانكتبت لك يا خيشا!! " أقول لعل ذلك كله يعكس للقارئ ملامح وسمات نفسية في شخصية السادات، انعكست في صورته المنطبعة لدى الناس.

(١) رشاد كامل - مرجع سابق - ص ١٥ .

هذا ورغم ولع السادات بمظاهر العظمة والأبهة.. إلا أنه كان يحاول أحيانًا أن يبدو بسيطًا ومتواضعًا؛ ليُقرِّب صورته من قلوب المصريين، وكأنه كان يبحث عن ذاته بين الصورتين المتناقضتين، ويحكى أنه كان يتعمد أن تلتقط له صور وهو " يجلس على الأرض كعادة الفلاحين يأكل مع أفراد أسرته من طبق واحد، فوق الطبلية، صحيح أنهم كانوا يجلسون فوق موكيت بلجيكي فاخر، وأن الأمر كله كان للتصوير، وأن المدام رفضت الاشتراك في هذا التهريج.. إلا أن الموقف يكشف لكم حقيقة ميوله وتوجهاته"[(1)].

هذا ولم ينعكس ولع السادات الشخصي بالمظاهر، فقط على سلوكه ومظهره.. وإنما انعكس أيضًا على ما يُشاع هنا وهناك، أو ما كان يُطلق من أخبار، تشير إلى أنه من أكثر ثلاثة رجال أناقة في العالم، لم يكن جديدًا تمامًا على شخصيته، إذ إنه قد بدأ ذلك مبكرًا جدًا، كما يشهد بهذا رفيق صباه وشبابه " صلاح الشاهد "، كبير الأمناء بالقصر الملكي، وفي القصر الرئاسي أيام عبد الناصر، ثم أيام السادات، إذ يقول: "وبعد قيام الثورة كان أنور السادات هو القائم مقام الوحيد بين ضباط الثورة، فاخترع بذلة برقبة مخالفة للزي العسكري"[(2)]، وقد استكملت ملامح الرغبة في التمييز والاختلاف، والشعور بالعظمة في الصورة الذهنية المرسومة للرئيس السادات: بتغيير ملابس حرس الشرف، أو الحرس الجمهوري في عصره، واختيار خطوة ألمانية لهم.. أشبه بخطوة الإوزة أو البجعة؛ كملمح آخر من ملامح الأبهة الرئاسية.

هذا ولم تكن مظاهر العظمة فقط، هي ما يُريد السادات أن يُثبِّته في صورته المنطبعة في أذهان الناس من خلال التصرفات سالفة

---

(1) صنع الله إبراهيم - شرف - روايات الهلال - ص ٣٤٩ .

(2) تامر سمير عبد العزيز - مرجع سابق - ص ٣ .

الذكر.. لا بل إن راسمي أو مُشكّلي صورته الذهنية، من الصحفيين المحبين له والمروجين لهذه الصورة، قد حرصوا على أن يذكروا له وعنه ملامح أخرى مثل: الذكاء، والمهابة، وحسن التدبير، وحسن الإصغاء، والتصميم، وتتضح ملامح وسمات هذه الصورة أو البورتريه مما قاله عنه موسى صبري، الصحفي الأثير والأقرب له - كما هيكل بالنسبة لعبد الناصر - وهو من كان يُشاع بأنه كاتب خطبه، إذ قال في وصفه للسادات أيام كان سجينًا في معتقل الزيتون: "لفت نظري شاب أسمر اللون هادئ الحركة، كثير التأمل، يُفضّل الوحدة كثيرًا والجلوس في الحديقة متأملا، سارحًا ببصره في الخيال، وكنت أراه معظم الوقت، مع جلال الحمامصي، وكان له بين الجميع توقير خاص، ومهابة.. رغم مظهره المتواضع، وسمعت همسًا كثيرًا عن السادات، وروايات عديدة عنه، إنه بطل وطني وهو خطير، لقد فصلوه من الجيش، وكان برتبة اليوزباشي، وله قصة لا أحد يعرف سرها وحقيقتها، لقد دبر عملا ضخمًا للاتصال بهتلر، وكان يعاونه شاب اسمه حسن جعفر، وهو معتقل أيضًا.. ووجدتني أسعى إلى التعرُّف على هذا الضابط الأسمر المفصول أنور السادات.. إنه مستمع جيد، كلامه قليل.. وأمضيت في المعتقل على هذا النحو حوالي ستة أشهر، وكنت أتلقى الرسائل من أسرتي.. ولكن ابتكر السادات وسائل عديدة لتهريب الرسائل، أهمها حلاق المعتقل، وذات يوم وضع السادات خطة للهروب من المعتقل، وهو الذي سيحدد موعد الهرب، وتمت خطة الهروب بالفعل"[1].

من كل ما سبق تتضح لنا بعض الملامح، التي كان يُروِّج لها حواريو السادات ومريدوه، أو صُنَّاع صورته الذهنية، ونضيف إليها أيضًا ملمحًا آخر حرص هو نفسه على تأكيده.. رغم ما جره عليه من

(١) المرجع السابق نفسه ..

سخرية، واتهامات، وهو عشقه للفن عمومًا، وفن التمثيل، والسينما بالذات، الذي قاده ليلة الثورة لدخول السينما عرض مستمر؛ لمشاهدة ثلاثة أفلام في برنامج واحد، متعللا بحبه للسينما، الأمر الذي جعل الناس تُشكك في وطنيته، وتتهمه بالدهاء والجبن؛ إذ ذكرت بعض الكتابات أنه هرب ليلتها؛ حتى إذا ما فشل الانقلاب العسكري، يمكنه أن يُثبت أنه كان بعيدًا عن الأحداث، ولم يُشارك فيها.. بل كان في دار السينما مع زوجته، وما زال محتفظًا بالتذاكر في جيبه، وقد دافع السادات عن نفسه بالنسبة لهذه الواقعة في كتابه "البحث عن الذات"، قائلا: " لقد كنت في رفح، وعندما وصلني الأمر من جمال بالعودة عدت مباشرة.. ولكني لم أكن أظن أن الحركة مدبرة في الليلة نفسها.. ولعل القراء يدهشون؛ إذ أروي لهم أني جئت من السفر، وتوجهت مباشرة إلى إحدى دور السينما، وعندما عدت لمنزلي وجدت إشارة التنفيذ، وتوجهت فورًا للقيادة، وهناك أصبحت نكته في فم الكل".

وأستميح القارئ عذرًا في فقرة اعتراضيه، توضح ملمحًا آخر في شخصية الرئيس السادات، يشير إليها مرجع آخر يؤكد أن الرئيس السادات كان دائمًا موضع سخرية رجال الثورة، ومداعباتهم الثقيلة، إذ يصف فتحي رضوان، ما رآه في أحد اجتماعات مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٢، من موقف بعض رجالها من السادات، وهو الوحيد الذي يعرفه منهم.. إذ كان قد ترافع عنه في قضية مقتل أمين عثمان، وحصل له على البراءة، يقول في ذلك فتحي رضوان: " في هذا الاجتماع حدث شيء يجب أن يُسجل؛ لأنه أصبح ذا دلالة في قابل الأيام، فقد داعب أكثر الحاضرين، ولا سيما كمال الدين حسين، وصلاح سالم، زميلهم أنور السادات، مداعبات ثقيلة، وعجبت أن أنور السادات قد احتملها في حضوري، فلم يَبدُ عليه غضب ولا احتجاج،

ولم يتوقفوا عن هذا المسلك غير المفهوم، حتى شغلهم الكلام الذي تبادلناه"[1].

بعد هذه الفقرة الاعتراضية أعود مرة أخرى إلى الحديث عن عشق السادات للفن، لأقول إنه لم يُخفِ أسرار عشقه للسينما، وأنها كانت متعته الحقيقية، إذ أشار في "البحث عن الذات"، إلى أنه قبل حرب أكتوبر شاهد جميع الأفلام الأجنبية، التي صدرت عن الحرب العالمية الثانية، وكان يُراجع الحقائق التاريخية العسكرية في هذه الأفلام مع الكتب التي وصفت المعارك؛ ولذلك كانت لديه خبرة ضخمة عن فنون القتال وأشهر المعارك رؤية العين.. وليس من القراءة وحسب كخبرة نظرية.. وهو استغلال طيب لهوايته، والاستفادة منها في عمله العسكري، وبالطبع كان لنشر مثل هذه القصص عن السادات أثر طيب في نفوس البعض.

ذلك إلى جانب ما شاع عن السادات، من أنه تقدَّم يومًا لأحد مكاتب توريد الكومبارس، أو الممثلين الثانويين (ريجيسير)؛ للعمل في السينما، الأمر الذي لم يُفد في تحسين صورته لدى الجماهير.. بل لعله أساء إليها وشوهها، إذ لم يُكسبه احترامًا.. بل جعل البعض يتندَّرون عليه، ويصفونه بأنه ممثل قدير، خاصة حينما كان يُبدِّل ويُغيِّر في "البدلات" العسكرية، ويظهر - كنجوم السينما - في كل مناسبة بمظهر جديد، أو كما يسميه الشباب الآن "New Look"، وذلك لا شك كان يعكس رغبته في لفت الأنظار، وميله للاستعراض.. رغم أنه رحمه الله لم يكن يتميز بقدر كبير من الوسامة!!

هنا تجدر الإشارة إلى الفارق بين نظرة الغرب والشرق للرؤساء.. فقد قبل الشعب الأمريكي مثلا، أن يكون رئيسه يومًا ما، الرئيس الراحل رونالد ريجان الممثل نصف المشهور نصف المغمور.. لكن

(١) ٧٢ شهرًا مع عبد الناصر - ص ١٦ .

الشعب المصري رغم تقديره للفن والفنانين، أكثر من أي شعب عربي آخر، لم يُقدِّر كثيرًا أن رئيسه كان يُريد أو حاول - مجرد محاولة - أن يصبح ممثلا، وأطلق عليه تسمية " ممثل قدير " من باب السخرية والتفكه!!

وبما أن الشيء بالشيء يذكر نورد هنا ما نشرته مجلة فصول عن رؤية السادات لذاته، وتقديره لإمكاناته، إذ بعث بعدة سطور يُقدم بها نفسه للعمل في السينما، تعكس زهوه وثقته الزائدة في هذه الإمكانات، وجاء فيها نصًا: " أنا شاب متقدم للبكالوريا هذا العام، طويل، وسطي رفيع جدًا، وصدري مناسب، وسيقاني قوية مناسبة، لوني ليس كما في صورتي؛ لأني أغمق من الصورة قليلا، أنا متحكم في صوتي بمعنى الكلمة، فتارة تجدني أقلد صوت يوسف وهبي، وتارة تجدني أقلد صوت أم كلثوم، وهذه خاصية أظنها نادرة"[1].. وهذا الإعجاب - بالذات بالسيقان- قد ظهر جليًا فيما بعد عندما أراد السادات أن يقدم نفسه للمصريين وللعالم من خلال كتاب مصور يستعرض حياته اليومية! كما سيأتي بيانه في حينه.

هذا وقد كانت شخصية السادات - كما سبق القول - جد محيرة، وبالتالي أثر ذلك على صورته لدى الجماهير، التي اهتزت أو تأرجحت نظرتها له ما بين السلب والإيجاب، ولم تثبُت على حال، وكان كل فرد يُترجم تصرفاته وسلوكه حسبما اتفق؛ كل وفقًا لأهوائه وميوله تجاهه، إذ لم تكن ثمة ثوابت يمكن أن يجتمع عليها الكل حيال السادات، ويُفسرون على أساسها تصرفاته بمنطق معتدل، متوازن، وموضوعي، وكان هذا حال صورته كسياسي، وكإنسان، وكرئيس، إذ قيل إن الرئيس السادات قد "ابتكر أسلوبًا سياسيًا انفرد وتميز به، طوال سنوات حكمه، وكان من مفردات هذا الأسلوب الساداتي:

---

(١) رشاد كامل - مرجع سابق - ص ٨٧ .

المفاجأة، والصدمة، الدهشة، المباغتة، المكر، الدهاء، المناورة! وكان السادات بحق وكما وصفه خبراء السياسة الدولية: رجل الصدمات الكهربائية، والمفاجآت السياسية!! "، وهذا رأي أحد المتحمسين له، الذين يرون في هذه السمات سمات السياسي المحنك، الذي لا يعرف أحد - حتى المقربون منه - ما يدور في رأسه، أو ما ينتوي.

هذا ولا شك أن عنصر الصدمة، والقرارات المفاجئة كانت تصدم بعض فئات الجمهور، وتأثَّر في تصورهم الذهني له، وقد تفاوت هذا التأثير من فئة لأخرى، فغالبًا ما كان حكم الصفوة المثقفة في غير صالحه؛ إذ كانوا يحللون مباغتاته على أنه لا يستشير أحدًا، ويفهمون منها أنهم محكومون بمزاج شخصي.. وليس من خلال مؤسسات.. في حين أن العامة من الناس كانوا يُعجبون بقراراته، ويعتبرونها " ضربة معلم "، ويرون أنه داهية، و" ولد جدع "، أو كما يقول المثل الشعبي "زعقته من نفوخه "!

أما عن استغلال الصور الفوتوغرافية في رسم صورة ذهنية للرئيس السادات، وهو أسلوب يُتَّبع بالنسبة لكل الرؤساء في العالم - كما سبقت الإشارة - فإن الرئيس السادات قد بالغ في نشر صور فوتوغرافية له، قدَّر - لا أقول خطأ أو صوابًا - أن من شأنها تحسين صورته الذهنية لدى الجماهير، وإكسابه شعبية كبيرة، وقد تقرِّبه من الناس، فسمح لبعض أو لأحد أهم المصورين الصحفيين[1] باختراق حياته الخاصة، والتقاط صور له في أوضاع لم يعتد المواطن المصري أن يرى رئيسه فيها، وقد سُرِّبت بعض هذه الصور للصحف في البداية؛ كجس نبض، أو قياس لمدى أثرها، قبل أن يضمها كتاب خاص

(١) فاروق إبراهيم كان أحدهم أو أهمهم، وكان بصدد عمل كتاب يضم صورًا للسادات تؤرخ ليومياته، ولكل اهتماماته وحياته الخاصة .. وقد أصدر مركز الأهرام للترجمة والنشر في مايو ١٩٩٨ مجلدًا يضم ٢١٤ صفحة يعد سجلا تاريخيًا يضم ٤٠٠ صورة لحياة الرئيس السادات .. ولكن بعد وفاته .

يستعرض يومًا في حياة الرئيس، وهو أمر بالغ الحساسية، وفكرة تعد بحق متحررة جدًا، وبتعبير أدق "حركة أمريكاني".. كان يجب أن تتفذ بحرص شديد، فما يصلح في رسم صورة الرئيس في الغرب.. قد لا يلقى نفس القبول، أو يُحدِث نفس الأثر في العالم العربي، خاصة بعد فترة عقدين تعوَّد فيهما الشعب المصري ألا يرى من رئيسيه السابقين: نجيب وناصر إلا الجانب الرسمي، ولا يرى من الجانب الإنساني في حياتهما وشخصيتهما.. إلا بقدر محسوب، وكصورة رسمية أيضًا.. حتى لو كانت تضم أفراد أسرتيهما، وفي إطار مناسبة رسمية: استقبال للرئيس وزوجته في إحدى الدول، أو قران أحد الأبناء، أو ما إلى ذلك.. لكن الرئيس السادات - كما هي عادته - مارس هوايته المعهودة في استخدام أسلوب الصدمة، فنشرت له صور وهو بالشورت الساخن، أو وهو يداعب كلبه، كما يفعل سكان البيت الأبيض الأمريكي، أمام كاميرات المصورين، الأمر الذي قد يكون صدم مشاعر بعض المصريين، ففسروا الأمر وفقًا لأهوائهم: فمن أنزلت لديهم مثل هذه الصور الرئيس من عليائه؛ ليستشعروه إنسانًا عاديًا مثلنا تمامًا، وهو أمر لم يعتد عليه المصريون، والشرقيون، والعرب والمسلمون بوجه عام، فهم يضعون الرؤساء والملوك في منزلة أعلى، ولا يتصورون أنهم يمارسون حياة عادية ككل البشر، يلهون فيها ويلعبون، ويروِّحون عن أنفسهم.

هذا ولعل الرئيس السادات قد بالغ كعادته في نوعية الصور التي سُمح بأن تنشر عنه، ومن يريد أن يتذكر هذه الصور، التي لم يُقدَّر لها أثناء حياته أن تصدر في كتاب خاص به وحده، عليه أن يُطالع كتاب " صور وأسرار من حياة الكبار "، الذي يحمل غلافه صورة للسادات بملابسه الداخلية، والصابون على وجهه وهو يحلق ذقنه، ناهيك عما ضمه الكتاب من صور له وهو يقص شاربه، أو وهو في

السرير يطالع الصحف، أو يتمرجح، أو يتريَّض بالشورت، أو وهو يركب الدراجة مع حفيده، أو يسبح، أو يستلقي على الأرض لممارسة اليوجا، أو وهو يداعب كلبه الولف، أو يُقبِّل أم كلثوم[1].

ويقول الأستاذ صلاح منتصر، وهو من أشد المتحمسين للرئيس السادات، والمؤيدين لسياساته، والمدافعين عن شخصه: "إن الصورة هي تعبير لحظة قد تكون خاطفة.. ولكن أخطر ما فيها عندما تسجلها الكاميرا أنها تحتفظ بها، كما تم تسجيلها في لحظتها دون إضافات، أو محسنات، أو مشوهات، وقد يختلف انطباع الناس في النظر إليها.. ولكن يبقى أنها في النهاية جزء من الحقيقة، التي ستبقى كما هي عبر السنين، ومن بين صور السجل صور للسادات وهو بالملابس الداخلية، وملابس البحر، وملابس الميدان، وملابس القرية"[2]، وهذا يؤكد ما ذهبت إليه بشأن ما كان يُنشر للسادات من صور، وكثرة تبديله وتغييره في الملابس والأزياء، والمطالع لهذا السجل المصور، وللكتاب السالف الإشارة إليه يستطيع أن يقوِّم الانطباع الذي يمكن أن تتركه مثل هذه الصور الفوتوغرافية في النفوس، وما يمكن أن تكرسه في ملامح الصورة الذهنية المنطبعة عن الرئيس السادات، حتى بعد وفاته.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فلا بد من الإشارة إلى حقيقة أن الرئيس السادات ليس الرئيس العربي الوحيد، الذي كان يُكثر من التغيير، والتبديل في الأزياء.. لكن الرئيس الليبي معمر القذافي يكاد أن يباريه في هذا الصدد، أو يتفوق عليه، ولعل كثرة ما يرتديه، واختلاف طرزه ما بين أزياء شعبية أفريقية، وأزياء مدنية، أو عسكرية

---

(١) أمير الزهار وفاروق إبراهيم - مطابع أخبار اليوم - ص ٥ - ٤٦ .

(٢) حياة السادات بالصور - عمود مجرد رأي - الأهرام - ١٠ / ٥ / ١٩٩٨ - ص ١١. في إشارة لإصدار مجلد مصور عن السادات تصوير ١٧ مصورًا، أبرزهم فاروق إبراهيم، تقديم إبراهيم نافع، وتعليق الصور والإخراج لماهر الدهبي .

مثار جدل أيضًا، ويعد ملمحًا غير محبب في صورته الذهنية، وفيما ينطبع عنه لدى الجماهير العربية.

ونعود لنقول إننا لو نظرنا كمثال لما كان مسموحًا بنشره عن الحياة الخاصة والشخصية للرئيس عبد الناصر، وما يقابله بالنسبة للرئيس السادات.. سنجد أن المساحة المتاحة في الحالتين كانت مرتبطة أصلا بشخصية كل منهما.. وليست مرتبطة بطبيعة الشعب المصري، التي كانت تتميز بالمحافظة آنذاك، أقول: لو عقدنا مثل هذه المقارنة لتبادر إلى أذهاننا سؤال مؤداه: هل أفادت هذه المساحة كلا منهما؟ أم أضرت بصورته الذهنية المراد أن تنطبع لدى الناس؟ أو لنقل: هل قرَّبت مساحة النشر الواسعة عن حياة السادات - قرينته - أكثر إلى قلوب المصريين؟ وأكثر هنا تعني بالنسبة له أو لصورته السابقة، أو أكثر من عبد الناصر، كما يتبادر للذهن أيضًا سؤال مؤداه: هل أضاف ظهور زوجتي الرئيسين لصورة كل منهما بُعدًا إيجابيًا.. أم سلبيًا؟! بالطبع سيكون لهذه الأسئلة إجابات متباينة مع أو ضد أحدهما.. لكني أتصوَّر أن غالبية الإجابات يمكن أن تحسم الأمر لصالح صورة عبد الناصر.

هذا ويجرنا الحديث عن مساحة النشر عن الحياة الخاصة للرؤساء، وما يمكن أن يُشاع عنهم، أو للمقارنة بين ما يُشاع عن الرؤساء عمومًا، وما يمكن أن يُتهموا به في الغرب كمثال، بما يُشيع عن رؤسائنا في العالم العربي من شائعات الحب والزواج، وكيف تقابل الزوجات في العالم العربي مثل هذه الشائعات بالصمت؛ فطالما أن الأمر مجرد همس وشائعات، لم تتطاول الصحف إلى حد نشرها، أو حتى الإشارة إليه تلميحًا.. فلا داعي للوقوف عندها.. فرغم أن مثل هذه الشائعات في العالم العربي تؤثر في صورة أي رئيس، وفي مدى شعبيته؛ نظرًا لأن القيم المتصلة بصورة أو سمات القيادات عندنا لا

تسمح بحال أن يتسم الرئيس بأنه زير نساء أو "دون جوان".. ذلك أن النظرة له دائمًا تكون في إطار من التقديس، التي تشبه النظرة للأب المهموم دائمًا بشئون أبناء شعبه، والذي لا يجد متسعًا من الوقت حتى لرعاية أسرته الخاصة، فكيف بالله يكون لديه وقت للالتفات إلى مُتعِه الخاصة؟! وفي هذا الصدد أيضًا سنلاحظ أن الرئيس عبد الناصر لم تحم حوله أية شائعة على المستوى الشخصي، في حين حامت حول السادات بعض شائعات الزواج من إحدى المذيعات، التي كان يناديها بابنته، وقيل وقتها: إن ذلك كان على سبيل التمويه!!

وكلنا يعرف أن النظرة إلى الرئيس في الغرب تختلف عنها في الشرق العربي، ولذلك فإن أية شائعة تحوم حول الرؤساء العرب، فيما يتعلق بالعلاقات النسائية خارج نطاق الأسرة الرسمية المعلنة، تنتقص من صورة الرئيس وتشوهها.. حتى لو كانت في إطار ممارسة حق شرعي، أو زواج ثانٍ.. وليس في إطار المغامرات غير المحسوبة - لا سمح الله - التي تخلق في الشرق نظرة احتقار وازدراء، تعكس ازدواجية عربية مشهودًا بها، فكم من الأمور تمارس سرًا، ويعلمها البعض.. أو حتى الكثيرون، دون أن يُسأل صاحبها أو يُلام.. لكن الإفصاح عنها أو الكشف عنها يُعد فضيحة، تستدعي احتقار الآخرين!! الأمر الذي يستوجب العمل بمبدأ: " إذا بُليتم فاستتروا "!

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى الإشارة إلى أن الرئيس السادات قد استعان بخبراء صورة أمريكيين، فأشاروا عليه - فيما أشاروا -بأن تظهر زوجته كزوجات الرؤساء الأمريكيين في المحافل العامة، وأن تلقَّب بسيدة مصر الأولى، وأن يُربي كلبًا؛ كي يبدو رفيقًا بالحيوانات الأليفة - وهو أمر يمثل قيمة في المجتمع الأمريكي - وأن يكشف عن بعض جوانب حياته الخاصة، وأن يرتدي كالملوك الزي العسكري لكل سلاح يزوره من أسلحة الجيش، وأن يرتدي في صورته الرسمية، التي

تعلق في المصالح الحكومية بدلة التشريفة[1]، وهي الصورة التي سبقت الإشارة إلى تفكه المصريين عليها بنكتة تقول: إنه لم يبق إلا أن يرتدي برباتوز في عيد الطفولة، إذ لاحظ العامة أنه حينما يذهب إلى قريته ميت أبو الكوم، كان يرتدي العباءة، ويجلس جلسة شبيهة بجلسة الشيخ الشعرواي، وهذه اللقطة الأخيرة بالذات كانت بالطبع خارج النص الأمريكي المرسوم له، الأمر الذي أربك الكثيرين في تحديد ملامح شخصيته المتعددة الوجوه، أو صوره المتناقضة، مما أضر بصورته الذهنية لدى الناس، وبالطبع لم يكن خبراء الصورة الأمريكان مخطئين، أو يريدون الإضرار به.. لكن خبراء الصورة لا بد وأن يكونوا ممن يعرفون تمامًا طبائع الشعوب التي يتوجَّهون إليها ببرامجهم؛ ليُروِّجوا صور عملائهم لديها، ولعلهم كانوا يرون أن الرئيس السادات لم يكن بالوسامة الكافية؛ ليكسب محبة الشعب المصري.. خاصة وأنه جاء بعد زعيم صاحب كاريزما، مثل عبد الناصر، فأرادوا أن يركزوا على الملابس.. إذ كان من غير المعقول أن يغيروا من هيئته بالكامل، أو يخضعوه لعمليات تجميل جراحية، أو تغيير "Style"؛ لاكتساب ما يُسمى الآن في مجال صناعة النجوم بالـ"New Look"، فاكتفوا - كما سبق القول - بتسريب بعض الأخبار، التي تفيد أنه من أكثر ثلاثة رجال أناقة في العالم؛ متصوِّرين أن ذلك قد يُقرِّبه من القلوب، غير مدركين أن ذلك أضر بصورته؛ نظرًا لاختلاف النظرة للرئيس في كلا العالمين العربي والغربي.

وليسمح لي القارئ ببعض الاستطراد أو الاستشهاد الخارج عن

---

(١) أشار دكتور ناصر الأنصاري في كتابة "موسوعة حكام مصر" في هامش الصفحة ١٢٨، إلى أن الرئيس انور السادات قد أصدر القرار الجمهوري رقم ٤٦٩ لسنة ١٩٧٧ في ١٥أكتوبر ١٩٧٧، والذي ينص على أن : "يرتدي رئيس الجمهورية في الحفلات الرسمية والوطنية وشاح القضاء، مع زي القائد الأعلى للقوات المسلحة رمزاً للحق والقوة ." ومنذ وفاته في أكتوبر ١٩٨١ لم يعمل بهذا القرار .

عنوان هذا المبحث.. ولكن الشيء بالشيء يذكر.. إذ لم يكن الرئيس السادات فقط هو من وقع في هذا الفخ.. لكن الملك الحسن الثاني ملك المغرب كان أيضًا ممن يُشاع عنهم أنهم من المعدودين في الأناقة بين رجال العالم وساسته، بالمنطق الأوروبي، وأنه عاشق للفن خاصة فن الغناء وكان حفيًا بالمطربين.. لكنه أيضًا كان يحرص على أن يُلقى أحاديث دينية كل رمضان، تسمى "الدروس الحسنية"، وكان يتخذ فيها أيضًا جلسة الشيخ الشعراوي على أريكة خشبية شبيهة، وكان التليفزيون المغربي يذيعها سنويًا، كما كان يحرص على ارتداء الزي المغربي التقليدي، ويمتطي صهوة جواد صبيحة يوم العيد: بوصفه أمير المؤمنين، ويحرص المهنئون على تقبيل يده، والانحناء أمامه للتحية حين المثول بين يديه، أو الانسحاب من حضرته بشكل تقليدي يتناقض مع ملامح الصورة الأوروبية المتحضرة التي يشير بها عليه خبراء تحسين صورته!!

هذا ولعل عدم الالتزام التام بمشورة خبراء الصورة هو ما هز صورة الرئيس السادات.. إذ نفَّذ تعليماتهم، فيما يختص بصورته العصرية، التي يُمكن أن تمكِّن له في قلوب الغربيين.. ولكنه أضاف إليها من عندياته الصلاة في مسجد ميت أبو الكوم، وإبداء الخشوع والتبتل، وإضاءة كاميرات التليفزيون مسلطة عليه[1]، ناهيك عن ارتدائه العباءة والجلابية، والجلوس على الدِكة الشهيرة.. إلى آخر ملامح الصورة التي رسمها بنفسه لنفسه؛ بوصفه الرئيس المؤمن مرة،

(١) أسر إلي رئيس سابق لقطاع الأخبار بالتليفزيون - لا يرغب في ذكر اسمه - أن الرئيس السادات كان يلومه على أنه لم ينقل كل ركعات صلاته في قريته، إذ كان يكتفي باستعراض صور للمسجد من الخارج والداخل، ويركز على ركعة واحدة تعكس خشوع الرئيس وهو يصلي، فكان السادات يؤنبه على ذلك، فيعتذر وهو يداري تعجبه، متعللا بأن الركعتين صورتا .. ولكن في المونتاج اكتفى مخرج التنفيذ بواحدة، لأنهما في الحقيقة شيء واحد، أو متشابهتان .. لكن السادات كان يؤكد له أنهما مختلفتان .. وربما هو أدرى بجوهر هذا الاختلاف .. فلعله في درجة الاندماج في التمثيل .

وكبير أو رب العائلة المصرية مرة أخرى، وغيرها من مسميات راجت عنه؛ وذلك كي يحظى بشعبية يُقدرها هو لدى البسطاء والعامة من المصريين، فتناقضت الصورتان.. بل وتضاربتا في الأذهان، وكان أن سخرت منه الغالبية العظمى من الشعب المصري الذكي بالفطرة.. رغم ما يبدو علي هذا الشعب من بساطة.. قد لا يقدُرها غير الخبراء بنفسية وشخصية هذا الشعب العظيم.

المهم أن صورة الرئيس السادات قد مرت أيضًا بمراحل مختلفة، كسابقيه من الرؤساء، ففي بداية توليه السلطة، كانت عملية رسم صورة شعبية له أمرًا غاية في الصعوبة، بعد وفاة الرئيس عبد الناصر بما كان له من شعبية كاسحة.. لكن صورة الرئيس السادات قد اكتسبت شعبية إلى حد كبير بعد انتصاره في حرب أكتوبر، حتى إن الناصريين أنفسهم كانوا يغبطونه على هذا النصر، ويتمنون لو أنه قد وقع في عصر سلفه، الذي كان في رأيهم.. أو كان بالفعل قد أسهم بقدر في تحقيق هذا النصر؛ بإعادة بناء الجيش المصري، وما تحقق خلال حرب الاستنزاف من انتصارات محدودة، كان من شأنها أن أعادت بعض الثقة، في نفوس أفراد الجيش والشعب معًا.. لكن صورة الرئيس السادات ما لبثت أن مرت بمنعطف حاد بعد زيارته للقدس، وتوقيعه لاتفاقية كامب دافيد، التي لم يعتبرها الكثيرون استثمارًا جيدًا للنصر العظيم.. بل إهدارًا وتسليمًا لا مبرر له؛ ولذا اختلفت الآراء حوله، واكتسب سخطًا عربيًا كاسحًا، وقوطعت مصر عربيًا بسبب هذه الاتفاقية، أو بسبب تصرفات الرئيس السادات نفسه.. إلى آخر التداعيات المعروفة لهذه الاتفاقية.

كما كانت آثار الانفتاح الاقتصادي الاستهلاكي المصري قد بدأت تبدو للعيان؛ متمثلة في فوضى الثراء الفاحش، وطفو طبقة طفيلية على سطح الحياة المصرية، وقد كان اتضاح أو افتضاح تحوّل السادات

الحاد عن الخط السياسي والاقتصادي، الذي ساد طوال عهد عبد الناصر، بكل ما كان قد حققه لفئات عريضة من العمال والفلاحين، وأبناء الطبقة المتوسطة التي طحِنت، وفقدت كل مكتسباتها.. لا بل وانقلابه على شخص الرئيس عبد الناصر نفسه، ومحاولاته، ومَن حوله تشويه صورته، والنيل من حقبته وكل قراراته.. حتى الصائب منها، وكل إنجازاته.. حتى التي لا يختلف عليها اثنان.. كالسد العالي مثلا الذي هوجم في عهد السادات بشدة، وأثبتت السنوات والعقود بعد ذلك خطأ كل ما طرح كتشكيك في جدواه، كل ذلك قد بدأ يتضح بشكل سافر، الأمر الذي أثار حفيظة الكثيرين، كما أن تشجيع السادات للتيار الديني؛ ضربًا لذكرى عبد الناصر، وتحطيما له كرمز، يمكن أن ينمو حوله تيار سياسي، أقول حتى التيار الديني الذي قويت شوكته بدعم من السادات بدأ ينقلب عليه ويقلقه، مضافًا إلى ذلك كله رفض البعض لمظاهر الأبهة والعظمة، التي أحاط الرئيس السادات نفسه بها، وضيق الشعب المصري بتنامي نفوذ زوجته أو سيدة مصر الأولى، وهيمنتها على الكثير من الأمور[1]، كل ذلك جعل الشعب المصري يضيق بالأحوال، ويبدأ كدأبه وعادته في إطلاق النكات اللذعة على الرئيس وزوجته، وكان أن ضاق السادات بموجة الاعتراض العاتية، التي أهمته بشدة، فعصف بكل الرموز من: الكتّاب، والمفكرين، والصحفيين، من كل التوجهات، وكل التيارات.. بل وحتى رجال الدين الإسلامي والمسيحي، أساء إليهم الرئيس السادات لفظًا وعملا، فيما أسماه محمد حسنين هيكل "خريف الغضب"، فكانت نهايته المأساوية المعروفة، وكانت جنازته خير دليل على ما كان يُكنه له الشعب المصري من مشاعر، وما ينطبع عنه من ملامح

(١) أطلق المصريون الكثير من النكات على السيدة جيهان السادات، كما تفكهوا على كتابها المعنون " امرأة من مصر " قائلين : امرأة تحكم مصر، وأشاعوا الكثير عما استولت عليه من متجمدات أرصدة لمصر في أمريكا : لإنشاء مشروع ينسب لها .

وسمات.. رغم ما حاوله طوال أحد عشر عامًا من تحسين صورته، ورسم ملامح طيبة لها.

هذا ولعل من يريد أن يصل إلى رسم بورتريه يضم كل ملامح وسمات صورة الرئيس السادات بدقة، كما انطبعت عند الناس يمكنه استخلاصها من صورته المنطبعة لدى الصفوة ممن أدلوا بدلوهم في تحديد هذه السمات، متأثرين بمواقف كانت لهم معه، وباقترابهم منه شخصيًا، وفقًا لمدى حماسهم أو معارضتهم له - ولكل منهم دوافعه بالطبع - وقد تناقضت هذه الملامح حتى ليكاد المطالع لكل ما كتبوا عن السادات وشخصيته يتحير مَن هو مِن بين كل هؤلاء الذين انبرت هذه الكوكبة لوصفهم، وكأنهم ليسوا شخصًا واحدًا!! وإذا كان كل من اقتربوا من السادات وعرفوه عن قرب قد اختلفوا حول شخصيته كل هذا الاختلاف، فما بالنا بالصورة الذهنية التي تتكون عن بعد متأثرة بكل هذه الأقوال والرؤى؟! ومتأثرة بكل ملابسات حقبة حكمه.

الحقيقة أنه كي نخلص إلى ملامح هذه الصورة لا بد وأن نرجع إلى الشهادات التي أوردها رشاد كامل في " كتابه زيارة جديدة للسادات "، والتي ضمت شهادات عدد من الوزراء، والساسة، والكتاب، والصحفيين، ورفاق السادات، ومنهم نذكر على سبيل المثال لا الحصر: أحمد بهاء الدين، وأنيس منصور، وعبد الستار الطويلة، وعبد الله إمام، ولطفي الخولي، ومحمد حسنين هيكل، وموسى صبري، وإسماعيل فهمي، وأحمد كامل، ومحمد إبراهيم كامل، وعلي لطفي، وجلال الدين الحمامصي، وإحسان عبد القدوس، وبطرس غالي، وخالد محيي الدين، ورفعت السعيد، وسيد مرعي، وعثمان أحمد عثمان، وعبد السلام الزيات، وعبد اللطيف البغدادي، ومحمود الجيار، ومحمود فوزي، وصلاح الشاهد، والرئيس محمد نجيب وغيرهم كثيرين من مختلف الأهواء والمشارب، وقد وصفوا

السادات بصفات يمكن إجمالها في أنه كان:

"شديد الاعتزاز بنفسه، وشديد الحساسية لكرامته، وحريص على هندامه، ونظيف، يحب التغيير ويحب أن يبدو مختلفًا، واستعراضي، وشغوف بالطعام، وصريح وبسيط، وطيب القلب، وهادئ، بل بارد في مواجهة الأزمات، يحب الوحدة والتأمل، ريفي فطري ومتواضع، ومحب للفن، وعاشق للسينما والتمثيل، فهو ممثل قدير، ووطني متحمس.. لكنه غير قومي، جاد، وفي نفس الوقت يتمتع بروح الدعابة، ومتحدث لبق، وخطيب مفوه، وله إرادة حديدية، وذكي بل خطير.. لكنه يحاول أن يُخفي دهاءه، ويعرف كيف يُخفي مشاعره، وهو حريص، ويقظ دائمًا، وذاكرته قوية ومرتبة، وشديد الملاحظة، وماكر، يلعب بالبيضة والحجر، ومحيِّر ومخادع، فيه خبث الفلاحين، وهو قوي الشخصية، وكتوم إلى درجة توحي لأصدقائه بالثقة وتوحي لأعدائه بالحذر، وموضع شك وشبهة، وهو يسمع أكثر مما يتكلم ولا يُظهر مشاعر أو ينطق إلا بما يريد أن يقوله فقط، وله مطامح.. لكنه يخفيها ويحققها بالصبر، فهو صبور، لا يثور ولا ينفعل كثيرًا .. لكنه إذا انفعل فهو انفعال بركان لا يتوقف، مؤمن شديد الارتباط بربه، غيور، ومقلد للآخرين، فهو استعراضي يميل للرفاهية والأبهة (مثله الأعلى كما يقول شاه إيران)، وهو مدَّعٍ، ويهرب من المواقف، وظل طوال حكم عبد الناصر مرعوسًا تابعًا رغم أنه مشاغب محترف، يؤمن بالمبادئ النازية وفاشستي التكوين، وإرهابي، وغير ديمقراطي، وينفرد بالرأي، وله حضور مؤثر وكاريزما تلفت الانتباه، وله ملامح ابن بلد، فهو يُبسِّط الأمور بطرافة، ويحب التعبيرات الشعبية، ولا يقرأ كثيرًا حتى ما يتحتم عليه أن يقرأه، ولا يملك جلدًا كبيرًا على العمل، ولا يستقر في مكان،، يمارس الرياضة وخاصة المشي، لا يغرق في التفاصيل، غول سياسي في قراراته، أستاذ في فن التعامل مع

الواقع، وإنسان في جوهر تصرفاته، وشخصية مركبة بالغة التعقيد ليس من السهل فهمها، نظرته حادة وقلقة وغير مريحة، رجل الصدمات الكهربائية والمفاجآت السياسية، أسلوبه صادم، مناور، له قدرة على الإغراء والتأثير، يؤمن بالغيبيات، مزهو فخور ومغرور، الأنا لديه عالية (خاصة بعد نصر أكتوبر)، انتهازي، يستهين بالآخرين، لم يكن يسمح بالرأي الآخر (من خلال قانون العيب ومحكمة القيم)، ويحب نفسه ويدللها، كريم ومجامل، وودود، غير متعصب، يحب قريته ومرتبط بها " كل هذا وأكثر منه بكل ما ينطوي عليه من تناقض أورده رشاد كامل معضدًا بالأسانيد والقصص التي تؤكده وتدل عليه، فكيف كانت شخصية السادات بالفعل التي تركت كل هذه الصور الذهنية، يقول ملخصًا السادات كحالة فريدة: "كان سادات هيكل شريرًا وكان سادات موسى ملاكًا أما سادات بهاء فقد كان شيئًا وسطًا بين الاثنين"[1].

خلاصة القول في صورة السادات أن أهم العوامل والوسائل التي ساهمت في رسمها كانت:

* تصرفاته الشخصية، ورؤيته الذاتية لنفسه وللصورة التي يريد أن ترتسم في الأذهان عنه، والكتب التي دبجها وأصدرها عن تجاربه الإنسانية[2].
* برامج الصورة التي وضعها له الخبراء الأمريكيون، الذين استعان بخبرتهم ومشورتهم رغم عدم التزامه بها حرفيًا.
* الأكاديميون والصحفيون والمصورون المحيطون به، والمقربون منه، بما نشروه في الصحف، وما أصدروا عنه من كتب[3].

---

(١) رشاد كامل – مرجع سابق – ص ١٩٩ .

(٢) يا ولدي هذا عمك جمال، والبحث عن الذات، ووصيتي، وقصة الثورة .

(٣) كمثال : د. نبيل راغب – " أنور السادات رائد للتأصيل الفكري "، و"صور وأسرار من حياة الكبار – لأمير الزهار .. وغيرها كثير .

* وسائل الاتصال المتاحة في عصره من صحافة، وإذاعة، وتليفزيون، وسينما.
* الأحداث الجسام التي وقعت في عهده، وأبرزها حرب أكتوبر ١٩٧٣. ثم زيارته للقدس ومعاهدة السلام مع إسرائيل.
* انعكاس قراراته على المواطنين المصريين التي تركت لديهم انطباعات متباينة.. بل حادة التباين.

أما عن ملخص ملامح وسمات صورة الرئيس السادات الذهنية لدى العامة - بعد استعراض سمات شخصيته لدى الخاصة - فقد تباينت بين كونه: خطيبًا مفوهًا، وذكيًا فهلويًا، يُحسن التدبير، وسياسيًا محنكًا، أو داهية صاحب حيلة، أو مناورًا داهية وخطيرًا، لديه قدرة على المباغتة فهو صاحب سلوك صادم، وبين كونه هادئًا، متدينًا، يُحسن الإصغاء، ولا يكشف عن نواياه لأحد، وكونه أنيقًا، ومُهابًا، ذا عزم وتصميم، وبطلا وطنيًا، وقائدًا منتصرًا، وعاشقًا للفن (السينما والتمثيل بالذات).

نماذج عراقية:

ذكرنا سلفًا جانبًا من طبيعة العلاقة بين الحاكم والرعية في بلاد ما بين النهرين، أو بلاد الرافدين، وتحدثنا عن الطاعة البابلية المطلقة، وتأثر العراق بطبيعة العلاقة بين الحُكام والمحكومين في بلاد فارس؛ بحكم الجوار، ثم تعرضنا لألقاب الخلفاء العباسيين، وما تعكسه من تمجيد وتفخيم للحاكم؛ كي تترك انطباعًا معينًا عنه لدى الناس، الأمر الذي استمر عليه الخلفاء العباسيون.. حتى بعد انتقال الخلافة العباسية إلى مصر، ومدى تأثر حكام مصر من الطولونيين، والإخشيديين، والأيوبيين؛ بما ورثوه عن خلفاء بنى العباس في هذا الصدد بالذات.

و لعل ما يجب الإشارة إليه هنا قبل البدء في التعريف بأساليب رسم صورة الرؤساء المحدثين في العراق، وتأثرها بطبيعة هذا الشعب - الذي لا أدعي أني أعرف سماته على وجه الدقة واليقين - لكني عرفت عنه الكثير من القراءة والاطلاع، ومن زيارتين قصيرتين للعاصمة العراقية بغداد.. الأمر الذي لم يُتح لي فرصة الاحتكاك الفعلي الطويل بهذا الشعب العريق، بشكل يسمح لي بالتفسير الدقيق لأفعاله أو ردود أفعاله، كما هو الحال بالنسبة للشعب المصري مثلا، أو ببعض دول الخليج التي عشت فيها طوال عقود السبعينيات والثمانينيات، وترددت على كل دوله وإماراته، وأجريت دراستين مطولتين عن ظواهره الإعلامية[1].. ولكني استقيت معلوماتي عن العراق وشعبه مما تحدثنا به كتب التاريخ ورواياته المختلفة، التي تصف هذا الشعب الذكي المثقف والفنان، وصاحب الحضارات

---

(١) كانت رسالتي لنيل درجة الماجستير عن " الصحافة في دول الخليج العربي في الفترة من ١٩٢٨- ١٩٨٠"، والدكتوراه عن " صورة عرب مجلس التعاون الخليجي في الصحافة البريطانية في الفترة من ١٩٧٢ - ١٩٨٧" .

العظيمة، التي تضارع الحضارة المصرية القديمة، كما ألمت ببعض سمات هذا الشعب الصارم الطباع، والحاد المزاج في نفس الوقت، وكيف يتعامل مع حكامه، والمستبدين منهم على وجه الخصوص؟ وكيف يصبر عليهم وعلى ظلمهم له؟! بشكل يتناقض مع قدرته على الاحتجاج والثورة، وإدراكه الواعي للأمور، ولعل أبرز مثال على استكانة العراقيين للحكام قديمًا وحديثًا، نموذجان بارزان هما: الحجاج ابن يوسف الثقفي، وعبد الكريم قاسم، ويمكن أن نضيف إليهما أخيرًا صدام حسين!!

هذا ولعل طبيعة علاقة العراقيين بحكامهم، كانت ومنذ قرون محل تعجُّب؛ إذ يُقال إن الخليفة الأموي قد جلس مهمومًا بين حاشيته، يفكر بصوت مسموع، قائلا: "ما بال أهل العراق إذا وليت عليهم القوي فجَّروه (أي جعلوه فاجرًا)، وإذا وليت عليهم التقي قتلوه!" فرد عليه أحد المستشارين الطامعين في ولاية العراق قائلا: "يا أمير المؤمنين.. إن القوي الفاجر لك قوته، وعليه فجوره، أما التقي الضعيف فله تقواه وعليك ضعفه! " فابتسم الخليفة، وهو يعلم سريرته، وقال له: " قم فاحكم العراق أيها القوي الفاجر! "، فذهب الحجاج بن يوسف الثقفي وهو أكثر الشخصيات العربية بطشًا، وقسوة، وفجورًا - فهو الذي ضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق، وتاريخه معروف - ليتولى العراق، وكان أول ما فعله أن خطب في الناس قائلا: " أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه، من استطال أجله فعليَّ أن أعجِّله، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن لم تسعه السلامة، لم تضق عنه الهلكة، والله لأخرمنكم خرم السلمة وأضربنكم ضرب غرائب الإبل ... إنني أنذر ثم لا أنظر، وأتوعد ثم لا أعفو... " وكلنا يعرف أنه قتل الآلاف، ودمر البيوت، وأحرق الزرع والضرع مثل كل الطغاة الجبارين، وهو أيضًا الشاهد على نفسه

بقولته الشهيرة: " إني أرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني والله لها! ".. لا بل وأكثر من ذلك أنه كان يطلب الطاعة البابلية التاريخية. كطاعة عمياء لا نقاش فيها، بدليل مقولته: " والله لا آمر أحدًا أن يخرج من باب من أبواب المسجد، فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه!".

هذا وبالطبع لا أستطيع تقديم إجابة علمية دقيقة عن السؤال: لماذا احتمل العراقيون، وما زالوا يحتملون - وهم من هم كشعب عظيم - أمثال هذا الطاغية، عبر التاريخ القديم والحديث؟!! وهو سؤال لا إجابة له عندي.. لكنني أهديه كمدخل لدراسة مستفيضة قد يُقدِم عليها باحثون آخرون متخصصون في التاريخ الاجتماعي والسياسي.

نموذج عبد الكريم قاسم:

كلنا يعرف أن حول كل رئيس الآن حاشية تقوم نيابة عنه برسم صورته، والترويج لها، والإيحاء بصورة يراد تثبيتها في الأذهان.. لكن أن يقوم الرئيس نفسه بمدح نفسه علنًا، وعبر خُطبه المذاعة من الراديو، على كل أنحاء الدنيا، فهذا أمر قد تفرَّد به - على حد علمي- الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم، تشبُّهًا بجده الأكبر الخليفة الثاني المنصور، مادحًا نفسه كإبليس، إذ كنا نستمع لخطبه عبر الأثير من الإذاعة العراقية " صوت الجماهير "، وهو يمتدح نفسه، ويُلقّبها بالوحدانية، ويستجدي الهتاف والتصفيق من الشعب قائلا: " إني.. إني الزعيم الأوحد.. هتاف.. تصفيق "، وكانت الرعية تستجيب لدعوته؛ مهللة ومصفقة.. لكنها ما لبثت بعد سنوات من الصبر الجميل والطويل أن ثارت عليه، وبعنف لا تعرفه كثير من الشعوب العربية الأخرى -المصريون كمثال - إذ قتلوه ومثلوا به وسحلوه في الشوارع، ولم يكتفوا بذلك بل طبعوا صور جثته، وحولوها إلى بطاقات بريدية (كارت بوستال) يبادلونها ويرسلونها إلى أصدقائهم في الخارج، وقد كنت شاهد عيان على ذلك إذ كنت آنذاك في الصفوف الإعدادية، وكانت هواية المراسلة وتبادل الصور من الهوايات المحببة لأبناء جيلي، ووصلتني عدة صور غاية في البشاعة، للرئيس عبد الكريم قاسم بعد الإطاحة به، والشعب العراقي يتشفى فيه، وينتقم من كل ما فعله به، بأسلوبه الخاص بعد طول صبر على ظلمه لهم، وكذلك فعلوا مع نموذج آخر هو الرئيس صدام حسين.. بعد هروبه فحطموا تماثيله، ومزقوا وضربوا صوره بالأحذية، ودمروا الجداريات التي تحمل صوره بالحجارة وبالأعيرة النارية!!.. وإن

كنت أشك أحيانًا في أن ذلك قد تم فقط أمام عدسات التليفزيون: بإيحاء من قوات الاحتلال الأمريكية استكمالا لسيناريو الإيهام بأن الشعب العراقي يرحب بالقوات الغازية التي خلصته من هذا الطاغية.. وكلنا يعرف مدى نفاذ وقوة الإعلام الأمريكي وقدرته على الإيهام.

نموذج صدام حسين:

يعتبر نموذج الرئيس العراقي صدام حسين نموذجًا عربيًا فريدًا، للرئيس الذي يوهم الجميع بالقوة التي يتميز بها، وبالعدل بين مواطنيه والوافدين إلى بلده من العرب، وما يُروِّج لهذه الصورة، التي تسميها الأدبيات السياسية " الدكتاتور العادل "، في حين كان الغرب - وخاصة أمريكا - يتغاضى عن ممارساته تجاه شعبه، ويتجاهلون استخدامه لأكثر أساليب التعذيب وحشية ضد معارضيه، حينما كان حليفًا لهم - ولو بشكل غير معلن - في حين بدءوا يصفونه في الغرب بعد أن وقعت الواقعة بينه وبين أمريكا بأنه "وحش بغداد" على حد تعبير الكاتب الصحفي البريطاني روبرت فيسك[1].

هذا وقد تختلف الصورة، التي حاول المؤيدون أن يروجوها لرئيسهم، عن تلك التي تنطبع عنه في الخارج، ويرسمها الكُتَّاب أو الصحفيون؛ وفقًا لأهوائهم، أو رؤاهم الخاصة.. وقد حظي الرئيس صدام حسين باهتمام بالغ من الغرب؛ إذ صدرت عدة كتب عن شخصيته، وعوامل تكوينها، وتربيته وتاريخه، بشكل يعكس صورته لدى الآخر، ولعل أهم هذه الكتب هو "بورتريه كامل لصدام"[2] الذي وضعه الصحفيان: " جورج مالبرونت "، و"كريستيان شيسنو"، المتخصصان في شئون الشرق الأوسط، واللذان قدما فيه لوحة حية ليست انطباعية؛ لأنها جاءت موثقة بدقة، تعطي بانوراما كاملة للأوضاع في العراق منذ بداية الخمسينيات، إلى أن تولى الرئيس صدام حسين الحكم وانفرد به، ولعل أهم ما يهمنا في هذا الكتاب، هو الوصف الذي ورد به على مدى ثمانية فصول، تشكل ٢٧٢ صفحة

---

(١) الإندبندنت البريطانية - مقال بعنوان " صدام.. هل يتحول الآن إلى بطل في الشارع العربي ؟ - في ٢ / ٤ / ٢٠٠٣ - موقع الصحيفة على شبكة الإنترنت ..

(٢) SADDAM HUSSEIN PORTARIT TOTAL.

من الكتاب، متأملين لما أسماه المؤلفان: " كاريزما شخصية صدام، والهالات التي يتم تصويره في إطارها "، ورؤيتهما له في إطار الأوضاع في المنطقة ككل، وفي العراق بشكل خاص، أو ما أسمياه: "الألاعيب في الشرق الأوسط "، إذ استعرضا مشوار الرئيس العراقي: بدءًا من تربيته البدوية، وجفاف سنوات عمره الأولى، ثم كيفية نمو علاقته بحزب البعث، تحت شعار: الوحدة، والحرية، والاشتراكية، والحيز الذي احتلته الأفكار الماركسية في خريطة أفكاره، وتناول العلاقة بينه وبين الأمريكيين، على المستويين: الشخصي، والرسمي، وتوثيق هذه العلاقات أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وصعود نجمه، إلى أن انقلبت عليه أمريكا وانقلب عليها، وتحوله بين الدعاوى العلمانية والتوجهات الدينية.

هذا ويقدم الكاتبان شهودًا على هذه التحولات، ويقولان عنه نصًا: " إنه يميل إلى توظيف التكتيك.. شكاك.. وقلق "؛ بدليل السياج الأمني الصارم حول قصوره الرئاسية، وتوزيعه للسلطة داخل أسرته، ومقدار الاطمئنان أو الشعور بالأمان الذي يشعر به، إزاء كل من يحيطون به، وأساليبهم المختلفة لكسب ثقته.

و الحقيقة أن الأسلوب الذي كان يُتَّبع في رسم صورة الرئيس صدام حسين، من قِبل المحيطين به، قد لاحظته بنفسي خلال زيارتين قمت بهما للعراق، في فترات متباعدة ما بين ١٩٧٣، و١٩٨٢، كانت إحدى الزيارتين خاصة، على سبيل العبور، لمدة أيام، في رحلة برية من البحرين إلى القاهرة، والأخرى كانت زيارة رسمية للعاصمة بغداد؛ لإنجاز كتاب عن "تاريخ الصحافة في دول الخليج العربية" في ضيافة مركز التوثيق الإعلامي التابع لمجلس التعاون الخليجي، وكان مقره آنذاك في بغداد، وفي كلتا الزيارتين لاحظت الفارق في التزيُّد، والمبالغة في وضع صور الرئيس صدام حسين، في كل مكان وبشكل

لافت، وعمل جداريات ضخمة له، أكبر من الحجم الآدمي، وهو يرتدي ملابس مختلفة: عسكرية، وإفرنجية، وبدوية، ذكرتني بما يرتديه، ويبدله الرئيس القذافي كمثال، أو ما كان يرتديه الرئيس السادات، في كل مناسبة بما يلائمها، بدءًا بالعباءة والجلابية الفلاحي، وانتهاءً ببذلة التشريفة، وهو يحمل عصا أحمس طارد الهكسوس.. لكن والحق يُقال، إن صور صدام كانت تفوق كثيرًا صور أي رئيس عربي شاهدتها، في أية مدينة أو عاصمة عربية، من حيث الكثرة، والحجم، والأماكن المختارة لوضع هذه الصور، ناهيك عن زوايا التصوير، والأوضاع المتباينة، أو ما نسميه "بوزات التصوير"، ولعل هذا الأمر اللافت لنظر أي زائر لبغداد، هو ما جعلني أسأل مرافقتي العراقية بعد مرور عدة أيام من الزيارة، وبعد أن كُنا قد تصادقنا - أو هكذا تصورت - أسألها سؤالا ندمت على طرحه بعد ذلك.. لكن الدافع كان وجود صورة كبيرة جداً، أقرب إلى الجدارية للرئيس صدام، في صدر مسجد الكاظمية، فلم أتمالك نفسي وسألتها: " ألهذه الدرجة تحبون الرئيس صدام؟!! "، فلم تجبني بنعم أو لا، ولم تنطق ببنت شفة كما يقولون!! ومن يومها أدركت مقدار الحس الأمني العالي لدى العراقيين، الذي يجعلهم يعجزون حتى عن الرد على سؤال كهذا.. يتطوع المصريون - كمثال - للرد عليه.. حتى لو لم يسألهم أحد؛ معبرين عن مشاعرهم الحقيقية تجاه رئيسهم.. أيًا من كان.

و على العكس من ذلك تمامًا، كان المصريون المقيمون في العراق كأفراد، يُروِّجون لقصص عن عدالة الرئيس صدام، وحبه للمصريين، ومحاباته لهم.. حتى ضد العراقيين أنفسهم.. حتى في الوقت الذي كانت الصحف المصرية تنشر فيه صور النعوش العائدة بجثث المصريين المقيمين هناك.. الأمر الذي جعل ملامح الصورة تتضارب

أمامي - رغم ادعائي أني ملمة بكل أساليب رسم الصور الدهنية - فما عدت أستطيع التفريق بين حقيقة الشخصية. والصورة المنطبعة عنها!! أو التفريق بين السمات الصادقة والمبرمجة في صورة الرئيس صدام حسين.

هذا وللحقيقة فإن صدام لم يرسم صورته بتماثيله وصوره ووصاياه المحفورة على الجداريات الضخمة، وعلى القصور والمنشآت العامة فقط.. ولكن " بالدعاية التي لم تترك مساحة دينية أو فكرية أو ثقافية أو عسكرية أو أخلاقية أو أدبية إلا وحط نفسه مركتزًا لها، فهو مصدر المعرفة بكافة صنوفها ومصدر تأويلها في الحياة العراقية، وبالنسبة لها فهو العراق.. والعراق هو"[1]. وقد ادعى انتسابه لآل البيت.. وأن والده كان يسمى الحسين الصغير، وبنى لوالده ضريحًا فخمًا في مقبرة تكريت التاريخية التي دفن فيها حسب المصادر الحكومية ٤٠ صحابيًا.

هذا ولا يمكن حصر الألقاب التي أطلقت على صدام تأكيدًا لصورته المهيبة، سواء التي أطلقها هو بنفسه على نفسه أو التي ابتدعتها الصحف العراقية وظلت ترددها كبوق دعاية طوال سنوات حكمه، فقد كانت هذه الألقاب تخلع على صدام حسين كل سمات العظمة والخلود الدينية والتاريخية، ويمكن فقط أن نشير إلى بعضها مثل: "الرئيس المهيب، الفارس، الرفيق المغوار، المناضل، بطل التحرير، المجاهد، القدوة، باني العراق، صانع النصر، بطل السلام"[2] والمهيب الركن، وقد دوَّن صدام في سيرته الذاتية ذكريات طفولته وتاريخ أسرته وكأنه مبعوث إلهي ولد ليكون رئيسًا ملهمًا وقائدًا منصورًا.

و لم يكتف صدام بإطلاق الألقاب على نفسه فقط بل كان له

---

(١) طارق حسن - الأهرام - سيرة حياته كما رواها بنفسه، صدام حسين دولة التماثيل والأمن والدعاية. ١٥ / ١٢ / ٢٠٠٣ - ص ٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

قاموسه الخاص، الذي يصف به كل الأحداث والمعارك التي خاضها، فسمى حرب الخليج الأولى " قادسية صدام "، ومنح حرب الخليج الثانية لقب " أم المعارك "، وحرب الخليج الأخيرة " معركة الحواسم "، ولا شك أن مثل هذه المسميات كانت تنطلي تأثيراتها اللغوية على العامة والدهماء، وتؤتي ثمارها في تبرير كل حرب يخوضها.. رغم أنها تخرِّب الاقتصاد العراقي وتدمره، وتدمر علاقات العراق العربية، وعلاقته بكل جيرانه، وتعزل العراق عن محيطه وعن العالم.

و يشير أحد الكتاب إلى أن صدام لم يألُ جهدًا في سبيل تحقيق صورة مرغوبة ومحبوبة من العراقيين.. حتى لو كلفه هذا الأمر الاستعانة بأحد السحرة والمشعوذين " ليصنع له أحجبه القبول والمحبة"[1].. وإن كان من الواجب عدم أخذ مثل هذه الأخبار على محمل الجد بشكل كامل: إذ إن مصدرها كما أشار الكاتب عادل حمودة كان مراسلة وكالة الأسوشيتدبرس الأمريكية " تيكو برايس "، الأمر الذي يجعلنا ندخِل هذه الإشارة في إطار الدعاية الأمريكية المستمرة، والمضادة لصدام حتى بعد سقوطه.

و لعل صدام والقائمين على رسم صوره لم يكتفوا بالتركيز عليه وحده.. بلا سعوا لرسم صورة لنجليه عدي وقُصي، في إطار الترويج لفكرة خلافة أحدهما لوالده، فصوروهما وكأنهما فارسان يتميزان بكل ملامح الفروسية والنبل، إذ كان من المزمع أن يُعين " أحد ابنيه مساعدًا له: تمهيدًا لتسليمه مقاليد الأمور.. بيد أن القدر لم يمهله لتحقيق حلمه هذا"[2]، وهذا الأمر لم يكن قاصرًا على العراق وحده.. لكنه شكل ظاهرة كادت تجتاح عددًا من دول العالم العربي، وبعض الدول النامية الأخرى، ونجحت في أزربيجان كمثال آسيوي، وفي

(١) عادل حمودة - صباح السبت - حكام من برج النحس! - الأهرام - ٢٠٠٣/٨/٢٣ ص١٣.

(٢) خليل العناني - مقال بعنوان " الخلافة السياسية في العالم العربي .. رؤية نقدية " موقع الجزيرة دوت نت على شبكة الإنترنت - ص ٢ .

سوريا كمثال عربي، وكان بالإمكان أن تنجح في بغداد، لولا تتابع الأحداث على غير ما كان يرسم ويخطط صدام حسين، ومريدوه.

هذا ومن الغريب حقًا، أن الرئيس صدام حسين حتى بعد أن تم خلعه أو هروبه، ظل لشهور يحاول أن يُبقي على ملامح الصورة البطولية التي رسمها لنفسه، والتي كان يحرص فيها على مخاطبة الشعب العراقي، موحيًا له بأنه هو الشعب البطل، فما كان يخاطبهم إلا بالأشاوس والنشامى، مغازلا بهذه المسميات إحساس هذا الشعب العظيم فعلا بالبطولة، ونجده بعد عزله واختفائه، يرسل عبر بث قناة الجزيرة الفضائية القطرية تسجيلا صوتيًا[1]، يقول فيه إنه ما زال على قيد الحياة ويعيش بين صفوف المواطنين العراقيين، ويُعرب لهم عن شوقه إليهم!! كيف وهو يعيش بينهم؟! إنه استكمال لأساليب الإيهام، التي تعودها معهم!، واستمراءً لهذا الأسلوب، ظل يحاول أن يوهم بأن ما يجري من مقاومة على أرض العراق، إنما هو من تدبيره، إذ كان يُشير إلى فرق المقاومة التي تشكلت، ويُطالب المواطنين بحماية أفرادها، ويُحذرهم من تقديم " أي مساعدة للمحتلين الأمريكيين الكفرة الخاسئين، أو إعطائهم أي معلومات عن الأشاوس النشامى المقاومين " ويختم حديث الشوق إليهم بالعبارة التي من شأنها أن تدغدغ مشاعر أي عربي مسلم، وتلعب على الوتر الحساس للدين والتديُّن: " الله أكبر وليخسأ الكافرون".

كل ذلك كمحاولة لخلق دور له في مرحلة قادمة يتوهم أنه سيكون له مكان فيها؛ محاولا تحسين صورته الشعبية بوصفه أسطورة لا تقهر، وبطلا مغوارًا، كانت الجماهير تهتف لفدائه بالروح والدم، بعد أن دمر هذه الصورة اختفاؤه، وتخليه المفاجئ عن مسرح الأحداث لتسقط بغداد سقوطًا مروعًا لا يتناسب مع منعتها كعاصمة، يسكنها

(١) أذيع يوم الأحد الموافق ٥ / ٧ / ٢٠٠٣ .

شعب عظيم لا يُستهان به، وتحكمه قيادة كانت صورتها الذهنية المنطبعة لدى العالم أجمع أنها قوية، وتحتمي بقوة عسكرية خارقة، لا يُستهان بها أيضًا، وهي التي تواصل المقاومة الشعبية حتى الآن: بدون قيادة صدام كشخص.. ولكن ربما بوحي من المبادئ التي بعثها في نفوس الناس، والملامح الشخصية التي ما فتئ يُكرسها فيهم، هو ووزير إعلامه الذي لا يُنسى " الصحاف ".. فهل أفلحت محاولات الإيهام بالقوة والمنعة في الإبقاء على الصورة الذهنية لصدام في العراق وخارجه!! بالطبع لا!! فما إن تم القبض عليه مختبئًا كالجرذان، بالطريقة المهينة التي استعرض بها الإعلام الأمريكي عملية القبض عليه وفحصه، وهو مستسلم لمصيره التعس.. حتى تهاوت الصورة، وتباينت المشاعر المرتبطة بصدام ما بين إشفاق، وتشفٍ!!

و الأدهى والأمر الصورة التي حاول صدام الظهور بها إبان محاكمته، من محاولة التماسك، وإبداء الشجاعة، والتمسك بأنه ما زال رئيسًا للعراق، وعلى أية حال ما زالت الأيام لم تسفر عن كثير من ملامح شخصية صدام، وصورته أيضًا، فهذه الشخصية لعبت دورًا في حياة الشعب العراقي، وفي منطقة الخليج، وأثرت في العلاقات العربية.. ومهما اختلفت الآراء حولها، فهي ما زلت تحتاج إلى مزيد من الدراسات المتأنية؛ لشرح جوانبها الخفية بدقة، فهو ليس مجرد رئيس حكم لفترة، لكنه شكل حزمة من الأفكار والمبادئ، التي تشبَّع بها الشعب العراقي لعقود ثلاثة ويزيد.. ومن غير المُتصوَّر أن تتمحي هذه الصورة من الأذهان بسهولة.. حتى لو كان السبب حدثًا جسيمًا كالحرب العراقية الدائرة بين المقاومة العراقية والأمريكيين المعتدين والمحتلين.

هذا وقبل أن ننتقل من صورة صدام وولديه إلى صور عربية أخرى، لا بد من الإشارة إلى أثر تشكيل الصورة في أذهان الجماهير

ونفوسها، وأثرها على سلوكها حيال حكامها خاصة في العراق التي يُعد شعبها شعبًا له سماته المميزة، والتي لا يُعتبر الخنوع والاستكانة إحدى سماته بأي حال.. ومع ذلك نجحت سياسة القمع والترهيب التي اتبعت ضده في تقليل فرص ظهور أية قوى مناوئة لسياسة صدام في إظهار أية معارضة سياسية له.. اللهم إلا خارج العراق، أما الداخل فكان يعيش - مثل معظم الدول العربية الأخرى- في ظل تصوُّر بأن الدنيا قد خلت إلا من الرئيس الحالي، وتصوُّر أنه لا وجود لبديل حقيقي للحكم القائم " أو وجوده ولكن دون وجود الأدوات التي قد تمكنه من تولي مقاليد الأمور... وهي قد تكون عملية مقصودة تفننت النظم القائمة في بلورتها وتأكيدها بطريقة أفقدت الشعوب العربية الثقة في كل ما هو بديل لما هو قائم، وجعلت زيدًا مثل عبيد"[١].

الخلاصة أن ملامح أو سمات صورة صدام هذا الوحش الذي كشفت الأيام عن مذابحه لبعض فئات وطوائف شعبه كانت تركز من خلال الصورة والكلمة على جانبين أو كانت تظهره وكأنه له وجهان، فبالنسبة لشعبه كان التركيز على الجوانب الإنسانية -كما هي العادة العربية في رسم صورة الرؤساء - فدائمًا كانت الصور تجمعه بالأطفال يحملهم، وينزل وسط الجموع يصافحهم، ويحتفل معهم بعيد ميلاده وسط الورود في احتفالات طفولية مرحة، ويتفقد المشروعات والإنجازات، ويتم التركيز من خلال زوايا التصوير على مدى وجاهة الرئيس صدام، والتركيز على أنه يعيش حياة عادية وبسيطة وسط أفراد أسرته قريبًا من أفراد شعبه، مع الإشارة إلى أنه عانى في طفولته وصباه وأنه جاء من بيئة معدمة، ولذلك فهو يشعر بالفقراء،

---

(١) خليل العناني - مقال بعنوان الخلافة السياسية في العالم العربي .. رؤية نقدية - موقع الجزيرة دوت نت - ص١ .

ولذا يتم التأكيد على سمات بعينها توضح كم هو كريم متواضع، ويسيطر عليه الطابع الريفي، وهو مستمع جيد لمن يلتقيه، وهو مثقف.. ومع ذلك فهو بالنسبة للأعداء يتصدى ولا يستسلم بسهولة، وله قدرة على الإمساك بزمام الأمور، فهو شجاع وله هيبة أو يشيع الهيبة والرهبة والرعب في أعدائه، وله قدرة على التخطيط أمنيًا وعسكريًا واستراتيجيًا، ولم يكتف الرئيس صدام بالدعاية الداخلية فحسب.. بل سعى إلى استقطاب الكثير من الصحفيين الكتاب العرب وأجزل لهم العطاء ماديًا ومعنويًا ليكتبوا عنه محبذين.. ومن منا ينسى السيارات المرسيدس التي ركبها رؤساء تحرير بعض الصحف العربية من إهداء الرئيس العراقي، ومن ينسى الصحف العربية المهاجرة إلى لندن وباريس منذ السبعينيات والتي كانت تمول من قبل النظام العراقي، لتتبنى توجهاته، وتعكس آراءه.. حتى في النظم العربية الأخرى لتتهمها بالعمالة، وبالمقابل تمجد في شخص الرئيس صدام وعروبيته ونزعاته الوحدوية، وقوميته!!

نموذج عرفات:

رغم أن الرئيس ياسر عرفات لم يُصبح بعد رئيسًا لدولة لها مقوماتها السياسية الكلاسيكية، لكنه مناضل قديم، ورئيس منظمة تحرير، ثم رئيس سلطة تصبو إلى إعلان دولتها.. إلا أنه نموذج من النماذج العربية للرؤساء العرب الذين يُحاطون - سواء بأنفسهم وبتصرفاتهم، أو بجهود من يحيطون بهم - يُحاطون بهالة من السمات، التي تكاد أن تلتصق بصورهم الذهنية لدى الجماهير، في العالمين العربي والغربي، فياسر عرفات يعتبر جزءًا أساسيًا لا يتجزأ عن القضية الفلسطينية، بل لعله من زعمائها المخضرمين، الذين ارتبطوا بالقضية الفلسطينية، سواء كان هذا الارتباط نضالاً مسلحًا، أو تفاوضًا سلميًا، أي في كل مراحلها، حتى أصبح رمزًا من الرموز المرتبطة بفلسطين، كالعلم، والنشيد الوطني، وأطفال انتفاضة الحجارة، والعمليات الاستشهادية، فهو ما زال رغم كبر سنه، ووهنه البادي، يُجسِّد العمق التاريخي للقضية الفلسطينية، كما يُجسِّد الآمال المستقبلية للشعب الفلسطيني، فهو رمز برغم كل ما قدم من تنازلات.

هذا ولعل من أهم السمات الشائعة عن الرئيس عرفات، ما لخصه الكاتب الصحفي عادل حمودة، في إحدى مقالاته الأسبوعية بالأهرام، قائلا: " لقد ارتبطت القضية الفلسطينية عنفا وسلامًا بهذا الرجل، الذي يُصر على ارتداء ثياب عسكرية خشنة، وترتعش شفتاه إذا ما اشتد انفعاله، ويملك قدرة مذهلة على البكاء والغضب بمحض إرادته، خلال ثوان خاطفة، ويحظى في موسوعة الأرقام القياسية، بلقب الأكثر تقبيلاً.. والأكثر مناورة.. والأكثر قدرة على البقاء.. والأكثر موهبة في الاستمرار"[١]، والحقيقة أن استمرار عرفات لم يكن بفضل

(١) مقال بعنوان " عرفات : هل هي النهاية ؟ - صباح السبت - ٧ / ٦ / ٢٠٠٣ ص ١٣ .

خبراء في صناعة الصورة.. بقدر كونه صناعة الظرف التاريخي الذي عاشه، وما زال يعيشه ؛ بوصفه قائد ثورة أو حركة تحرير لقضية لعلها الأطول بين قضايا التحرر العالمي، بل لعل فلسطين هي الأرض الوحيدة التي ما زالت مستعمرة بشكل استيطاني، من بقايا الاستعمار التقليدي في القارتين الآسيوية والأفريقية، حتى باتت قضية مزمنة، ومعضلة سياسية صعبة الحل.

وعرفات.. كما ترى إسرائيل أحد العناصر الباقية من "جيل الزعماء القدامى" أمثال:

جمال عبد الناصر، وفيدل كاسترو، وماوتسي تونج، وشارل ديجول"[1]؛ ولذلك لا يجب أن يُعامل بالعنف ؛ حتى لا تستمر صورته الشعبية كمناضل عنيد، أو بمعنى آخر " كان رأي الأمريكيين أن العنف في التعامل معه سيعيد إليه حيويته، وقدراته الوطنية، وموهبته الفائقة في استقطاب التعاطف والضوء "و قد نجحوا في ذلك إلى الحد الذي هبط بشعبيته " لتصل إلى ٣٠٪.... وهز صورته النضالية، التي كانت مطبوعة في أذهان الناس.. لم يعد برقًا أو رعدًا، يُعرف متى يظهر، ومتى يختفي؟.. لم يعُد شمسًا تعرف كيف تكسر رأس إسرائيل" .

ويستمر عادل حمودة في تقييم ملامح صورة عرفات، واهتزاز صورته الشعبية، مشيرًا إلى أن الشيء الوحيد الذي أعاد إلى هذه الصورة بريقها، وأنقذ عرفات، هو معجزة انطلاق الانتفاضة الثانية، المعروفة بانتفاضة الأقصى، إذن لم يتدخَّل هنا خبراء لتشكيل الصورة أو تحسينها.. بل كان الظرف التاريخي، أو الظروف التاريخية هي التي خدمت الرئيس عرفات، وأعادت له اعتباره بين شعبه، وفي العالم العربي.. ليس كمفاوض.. ولكن كمناضل ؛ ليصبح مرة أخرى رمزًا للمقاومة، كبقية أمثاله من المناضلين القدامى، وكفت شفتاه عن

---

(١) المرجع السابق نفسه .

الارتعاش بعد حصاره في مقر السلطة برام الله، وراح يهدر بعبارته الشهيرة: "شهيدًا .. شهيدًا .. شهيدًا "، وعاد وكأنه شاب من جديد، يقود " شعبًا من الجبارين.. ويا جبل ما يهزك ريح " على حد قوله.

من كل ما سبق قوله، في حق الرئيس عرفات، لا أستطيع القول، بأن صورته لم تمر بفترات تشويه، من جراء ما يُشاع هنا أو هناك، عن البلهنية التي كان يعيش فيها المحيطون بالرجل، والتي كانت تتناقلها الصحف، بقدر من المبالغة، خاصة في فترة الثمانينيات وبداية التسعينيات، التي عاشتها المقاومة الفلسطينية ما بين بيروت وتونس، وما كانت تتناقله الصحف عن الترف والبذخ، اللذين يرفل فيهما رجال المقاومة، والإنفاق بسفه، على مكاتب المنظمة، في كل أنحاء العالم، والمبالغ الطائلة التي كان الفلسطينيون يحصلون عليها من الدول العربية وأوجه إنفاقها، الأمر الذي أثر ولا شك، على صورة رجال المقاومة ككل، وصورة الرئيس عرفات، على وجه الخصوص، وأخرجهم من تلك الصورة الرمزية لرجال وهبوا حياتهم للنضال، إلى صورة مُدَّعي النضال الذين يستفيدون ويتكسبون من رفع لوائه.. رغم المظهر المتقشف الذي كان وما زال يظهر به الرئيس عرفات في زيه العسكري، وحطته الفلسطينية التي أصبحت أيضًا رمزًا للنضال، بين معظم الشباب الثوري في العالم بأسره.. وليس في العالم العربي فحسب.

هذا وعلى ذكر المظهر الخارجي، وتأثيره في صورة الرؤساء، والذي قد يكون البعض لاحظه بالنسبة للرئيس عرفات أنه رغم عدم تغييره لنمط ملابسه، إلا أننا قد لاحظنا تخليه عن النظارة السوداء، التي كان حريصًا على وضعها على عينيه، في الستينيات وبدايات السبعينيات، والتي كانت لا تُظهر شيئاً من عينيه، أو تحدد اتجاه نظراته، والتي كانت تمنحه لمسة غموض لم تكن محببة على أية حال، إذ كان إطارها وعدساتها السوداوان تقربانه من رجال العصابات أكثر

مما ترسم به صورة رئيس جبهة تحرير وطنية، ولعلها كانت مقصودة آنذاك!! إلى جانب ذقنه غير الحليق الذي كان أيضًا يميزه عمن سواه - حيث لم يكن الذقن غير الحليق قد أصبح موضة بعد - إلا من المناضل تشي جيفارا، ولا شك أن تخليه عن إحدى ملامحه المميزة وهي النظارة، وكشفه عن عينيه، قد قربه أكثر من الناس، ومنحه مع التقدم في السن مسحة من الطيبة المحببة، تتسق مع المرحلة التي تخلى فيها عن النظارة، وهي بداية الاعتراف بالمنظمة ؛ كممثل وحيد للفلسطينيين، وبداية رحلة المهادنة السياسية، ثم الاتصالات السرية فالمفاوضات الرسمية.

هذا وقد قدِّر لي أن ألتقي بالرئيس عرفات، في تونس ربيع عام ١٩٩٠، قبيل مؤتمر القمة العربية المنعقد في بغداد مباشرة، وأن أتناول الغداء معه على مائدة فاروق قدومي، ثم على مائدة حكم بلعاوي، الذي كان آنذاك سفيرًا لفلسطين في تونس، وكان ضمن الحضور بعض رجال المقاومة في الداخل الفلسطيني، وأحد أطفال الحجارة، الذي بادره الرئيس عرفات ؛ بتقبيل يده التي تحمل الحجر وتقاوم، وللحق أقول: إن الاقتراب من الرئيس عرفات في لقاءات شخصية، وحوارات صحفية، يجعل صورته التي تكونت عن بعد من خلال وسائل الإعلام المرئية والصور الصحفية تختلف تمامًا، فالاتصال الشخصي له تأثيره الفاعل ؛ إذ يجعل المرء يتعرَّف على الشخصية الحقيقية، ويقارن بينها وبين الصورة الذهنية، وتتكون لديه صورة جديدة هي مزيج بين الاثنتين، وفي حالة الرئيس ياسر عرفات أعترف بأن الصورة الذهنية المكونة عنه قد تحسنت إلى حد كبير بالاقتراب منه، ومحاورته وقد كان لي معه حوار طويل، امتد بنا أكثر مما كان يسمح به الوقت المتاح له في تونس ؛ حيث كان يستعد للسفر إلى بغداد، عشية مؤتمر القمة، فكان أن صحبته في سيارته الخاصة

المصفحة إلى المطار، لنكمل الحديث، ولم أتركه إلا أسفل الطائرة التي أقلته إلى بغداد.

وقد يتساءل البعض عن كيفية تغيُّر الصورة أو تحسُّنها بالاتصال الشخصي، في حالة الرئيس عرفات بالذات، فأقول إنه عملًا بالحكمة القائلة، " تحدث حتى أراك "، أني حينما أدرت الحوار مع الرئيس ياسر عرفات في الوجهات التي أريدها، بعيدًا عن الخطب والبيانات، وحينما التقيت به عدة مرات في تلك الأيام، حيث كنا ننزل كوفد في ضيافة المنظمة - التي لم تكن سلطة رسمية آنذاك - شعرت به كإنسان، لا ينال من الحياة أية متعة.. فلا بيت ثابت له، ولا حياة أسرية حقيقية، وإجراءات أمن مشددة، ولقاءات لا تنتهي، وسعي دءوب من أجل القضية، ولمسات حانية كأب على كتف كل من حوله، واحتضان كامل لكل الكوادر.. خاصة أبناء وبنات الشهداء الذين يُقرِّبهم منه ويعملون معه ؛ لاستكمال مسيرة ذويهم، إلى جانب ملاحظة أن كفيه يكادان أن يكونا عاجزين حتى عن المصافحة بشدة، من كثرة آثار الجروح من العمليات الفدائية التي قام بها، وهو لذلك يُقدِّر كف الطفل الذي يحمل الحجر، ويلقيه على العدو.

هذا ومن خلال الحوار الطويل تبينت أن لديه حلولا ناجعة للقضية.. لكن كلها تحتاج مساندة عربية، وموقفًا حاسمًا لا يستطيع ممارسة ضغط أكثر من ذلك لتحقيقه.. لكنه يقرع الأجراس منبهًا ومحذرًا، من أن الغول آت لا محالة، وهو يستشرف السيناريوهات المستقبلية، ويقيِّم اقتصاديات الانتفاضة الأولى، وما كبَّدته للعدو من خسائر بدقة، ويتحسَّب من النتائج، ويستشرف مستقبل الانتفاضة، ويعبر عن هذه البانوراما بطلاقة ووضوح[1]، كل ذلك محا من ذاكرتي

---

(١) حوار نشر في الأنباء الكويتية - ٢٨ / ٥ / ١٩٩٠ - إشارة على الصفحة الأولى، وكاملا ص ١٨، كما نشر في الأهرام القاهرة مختصرًا ملخصًا.

الصورة الذهنية التي كانت قد تركتها وسائل الإعلام عنه كشخص غامض غير مريح لا يكشف عن عينيه، ولا يستطيع أحد أن يحدد موضع نظرته أو اتجاهها.. إلى صورة توحي بالطيبة، وكأنه حمامة سلام، أكثر منه محارب أو مناضل!

ولكن مما يؤخذ على القيادة الفلسطينية، أنها كانت تتصرف وكأنها دولة، بل ودولة غنية كدول الخليج النفطية.. وليست مجرد ثورة تعيش على المعونات من الدول الأخرى، وكانت أنباء البذخ والهدايا التي تمنح للصحفيين والإعلاميين تصل أصداؤها للناس، وتنشرها الصحف أحيانًا، فتضعِف من ملامح الثورة وقيادتها، وتشوه نضالها، وتضفي ظلالا تقلل من بريق صورة زعيمها ياسر عرفات بدلا من أن تحسن صورته.

هذا وما زالت الأحداث هي التي تشوه أو تظلل أو تحسن صورة الرئيس عرفات، أكثر مما تؤثر فيها حملات الدعاية المصنوعة، أو برامج الصورة المخطط لها سلفًا. فالأحداث هي التي تصنع صورة عرفات فتصعد بها وتحسنها أحيانًا، وتشوهها في كثير من الأحيان.

الرئيس الأسد:

لن نورد تتبعًا تاريخيًا بالنسبة لصورة الرئيس في سوريا ؛ ذلك أن ما حدث مؤخرًا من توريث الرئاسة لابن الرئيس حافظ الأسد برضا ومباركة وسائل الإعلام السورية كان سابقة خطيرة، عكست بوضوح مدى هيمنة هذه الوسائل، وتمكنها من التأثير في صناعة صورة الأسد الأب، ثم الترويج لصورة الأسد الابن بين فئات الشعب السوري.

وتلخيصًا للسمات التي كانت تروّج لها وسائل الإعلام السورية بالنسبة لصورة الرئيس حافظ الأسد نورد الألقاب التي كانت تطلق عليه، والتي يمكن أن نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - ما يلي: "الزعيم، وقائد المسيرة، والرئيس، والبطل المغوار، والمحارب الباسل، والمفاوض الحكيم والعنيد، واسع الأفق بعيد النظر، والسياسي المحنك، والشجاع، والعظيم.. رغم أنه يبدو طيبًا، والنزيه الذي لم يبحث يومًا عن الثروة، وهو رمز للصلابة والصمود والتحدي، والحكيم، الهادئ قليل الكلام، والمستمع الجيد، والصارم في نفس الوقت، وهو القومي الوطني الوحدوي، والمحترم الشامخ مرفوع الرأس، الذي يتحمل الصعاب دون أن يركع يومًا، فهو المعتز بنفسه، والذكي المراوغ ".. لا بل وكانت سوريا تنتسب إليه وليس هو من ينتسب إليها، فقد كانت الصحف تقول: سوريا الأسد، وتشير إلى أنه طراز لا يتكرر بين القادة، وأنه رمز الاستقرار في سوريا.

وهذه السمات في مجملها لا تختلف كثيرًا عما كانت وما زالت تطلقه وسائل الإعلام العربية على أي رئيس تدين له بالولاء، وتعد أبواق دعاية له.. لكن اللافت للنظر حقًا في شأن الإعلام السوري هو الأسلوب الذي بدأت تروّج به لصورة الخلف بشار الأسد!! فهل يُعقل

أن يحاول الإعلام السوري إسباغ نفس السمات على الرئيس الجديد؟؟ رغم اختلاف الملابسات والظروف التاريخية، ورغم أن هذا الخليفة قد أتي ببدعة جديدة في النظم الجمهورية، وهي توريث الحكم للابن. الأمر الذي أثار الكثير من اللغط لا أقول عربيًا فقط.. بل وعالميًا أيضًا.. لكن الإعلام السوري كان ذكياً في الترويج لصورة الشاب بشار الذي لا بد أن تتناسب سمات صورته مع العصر الذي أتى فيه، فكانت سمات صورته تقدمه بوصفه: "الرجل المتطور صاحب النظرة الحداثية للأمور؛ لتحسين اقتصاد سوريا المتدهور... وهو من أشد المتحمسين للإنترنت وهو من أدخل المحمول إلى سوريا"[1].

ناهيك عما كانت تقوله عنه بعض الصحف العربية، وما تورده من سمات مثل القول بأن: " بشار الأسد شاب عروبي، يمتلك رؤية فكرية وحسًا قوميًا عاليًا، وإيمانًا حقيقيًا بهذه الأمة"[2].

كما لا يغيب عن المطالع المتفحص لما كانت تنشره الصحف السورية حتى قبل وفاة الأسد الكبير وتولي ابنه من أخبار تمهِّد لبشار كرئيس، وتكسبه شعبية بين الناس تمهيدًا لتوليه، إذ توحي بأنه ضد الفساد، وأنه كان وراء طرد محمود الزعبي من حزب البعث واتهامه بتشويه صورة الدولة، ومصادرة أملاكه وأرصدته، واتهام أبنائه بالفساد، وكان ذلك كما أشارت الصحف العالمية " الطلقة الأولى في الحرب التي شنها بشار على الفساد، وأثارت إعجاب أكابر البلاد، كما صنعت له شعبية وجماهيرية كبيرة"[3]، إذ كان حتى قبل وفاة والده هو الحاكم الحقيقي لسوريا بسبب المتاعب الصحية

---

(١) دكتور إسماعيل إبراهيم – فن المقال الصحفي – دار الفجر للنشر والتوزيع – الطبعة الثانية – ٢٠٠٣ – ص١٢٥ نقلا عن :

The Times, Monday June 12. 2000.

(٢) د. إسماعيل إبراهيم – المرجع السابق – ص ١١٣ – نقلا عن جريدة الأسبوع في ١٢ يونيو ٢٠٠٠ .

(٣) The Times, Monday June 12. 2000.

والذهنية للرئيس حافظ الأسد التي أبقيت سرّا لفترة طويلة، وفي هذه الأثناء التي حكم فيها بشار من وراء ستار جرت عمليات تطهير على مستوى محدود داخل أروقة النظام السوري، فنفي رفعت الأسد الطامح إلى السلطة، وجرت عمليات تطهير على المستوى العام تمهيدًا لقبول الرئيس الجديد.

هذا ولا يجدر بنا هنا أن ننساق وراء تتبع ظاهرة أو بدعة توريث السلطة التي بدأت بالنظام السوري.. رغم الإغراء الذي توحي به لكل متحدث عن صور الرئاسات العربية الحالية، التي يسعى معظمها إلى ممارسة هذه البدعة التي يرى المحللون السياسيون أنها "ليست خاصة بالمنطقة العربية فحسب أو أنها بدعة عربية بحتة، بل تشاطرها في ذلك بعض الدول النامية الأخرى، وذلك على غرار ما حدث في أذربيجان وتولي الرئيس الحالي إلهام عاليف مقاليد الحكم خلفًا لوالده حيدر عالييف، وما شاب الانتخابات من عمليات تزوير لمصلحة توريث الابن"[1]، الأمر الذي أصبح يهدد بأن تسود هذه الظاهرة وتصبح من سمات العرب في القرن الحادي والعشرين لو ظل هذا الصمت الشعبي الممل عن المطالبة بالتغيير.

وقد تناولت الكثير من الكتابات الصحفية موضوع توريث الرئاسة في العالم العربي، وناقشته كثير من دوائر الحوار التليفزيونية على الفضائيات العربية، ونوقش في منتديات الحوار على شبكة الإنترنت العالمية، وورد فيما قيل في هذا الصدد أن "في مصر يتواتر الحديث ويتزايد يوميًا حول احتمالات حصول السيد جمال مبارك - النجل الأصغر للرئيس مبارك - على مبايعة شعبية خلفًا لوالده، وفي ليبيا ترددت وتناثرت أحاديث حول رغبة العقيد معمر القذافي في تمهيد

(٢) خليل العناني - مقال بعنوان " الخلافة السياسية في العالم العربي .. رؤية نقدية " - منشور على موقع الجزيرة دوت نت .

الطريق لابنه سيف الإسلام القذافي لحصد منصب الرئيس مستقبلا.. بل والأكثر من ذلك فهناك من يبرر التقارب الليبي مع الغرب باعتباره يأتي في إطار صفقة سياسية تسهل تحقيق رغبة القذافي في توريث الحكم لابنه، كذلك كان الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين على وشك تعيين أحد ابنيه عدي أو قصي مساعدًا له تمهيدًا لتسليمه مقاليد الأمور، بيد أن القدر لم يمهله لتحقيق حلمه"[1].

هذا ويراقب الكثيرون في النظم الجمهورية على امتداد العالم العربي تجربة توريث السلطة في سوريا، كسابقة أولى يمكن أن تتلوها تجارب أخرى قد تفرض في بعض الدول، ويرصدون التجربة التي تقول حتى الآن أن الحرس القديم ما زالوا يحكمون من خلف ستار، وأن الرئيس الشاب مجرد واجهة، ومن يحكمون ويحركون الأمور ما زالوا هم نفس الوجوه القديمة.. وهو ما لا أتصور أن شعوب عربية أخرى يمكن أن تقبل به؛ بعد أن ملت الوجوه التي تحتل أرفع المناصب الوزارية منذ عقود وتتوق إلى تنحيتها واستبدالها ؛ لأنها ببساطة قد ارتبطت بكل مظاهر الفساد السياسي، والتدهور الاقتصادي، والجمود المطبق على حياتها، وتطمح للتخلص منه، والخروج من عتمته.

وانسحابًا من الاستطراد في الحديث عن توريث الحكم في العالم العربي رغم ما يحمله من مؤشرات أن يبقى كل حاكم عربي في سدة الحكم مدى الحياة أو إلى حين وفاته ليتسلم ابنه من بعده ؛ ليحكم على نفس خطى والده.. ورغم ما أشرنا إليه سلفًا من تنبه خبراء الصورة والإعلاميين في العالم العربي إلى ضرورة الابتكار في أسلوب تقديم الرؤساء الجدد بما يتلاءم والعصر، ورغم نفي بعض الرؤساء العرب الحاليين لتوافر هذه النية لديهم،

(١) المرجع السابق نفسه – ص ١ .

وإشاراتهم الدائمة إلى أنهم لا يسعون للبقاء في سدة الحكم إلى نهاية العمر.. ورغم ذلك نجدهم يسعون إلى تغيير الدساتير لضمان التجديد لهم لفترات رئاسية أخرى، كما حدث في تونس على سبيل المثال، إذ تم تعديل الدستور لضمان التمديد للرئيس زين العابدين بن علي لفترة رئاسية رابعة.. والحبل على الجرار بالنسبة لنظم عربية أخرى.

نماذج خليجية:

ظل الاتصال الشخصي الشفهي هو الأداة الأولى لرسم صورة شيوخ الخليج لفترة طويلة، وذلك في فترة الحياة القبلية، قبل نشأة وسائل الإعلام الحديثة كمكمل لعناصر قيام هذه الدول، والحق يقال إنهم أحسنوا استخدامها فيما بعد في رسم الصور المرغوبة لهم ليس داخل إماراتهم أو مشيخاتهم فحسب.. ولكن خارجها أيضًا، وكان يقوم بهذه المهمة الكثير من الأتباع والمطارزية المحيطون بكل حاكم أو شيخ، وبشكل عفوي غير مرتب.. ولكن بوحي من ارتباطهم النفسي والمصلحي بهم، وبقدر ما هم مستفيدون من عطايا وهبات هؤلاء الشيوخ.

ذلك إلى أن عرفت معظم دول الخليج وسائل الإعلام الحديثة، وقد عرفتها مؤخرًا جدًا قياسًا بدول عربية أخرى، إذ إن الكويت والبحرين هما فقط الدول التي عرفت الصحافة في النصف الأول من القرن الماضي، و(تحديدًا عام ١٩٢٨ في الكويت، وعام ١٩٣٩ في البحرين) لكن دول الخليج الأخرى تعتبر حديثة نسبيًا في معرفة وسائل الاتصال الحديثة، وقد كان لحكام الخليج قصة مع نشأة هذه الوسائل، تعكس ضرورة تبني هذه الوسائل لفكرة رسم صورة محببة لهؤلاء الحكام، كما تعكس إدراك الحكام لأهمية هذه الوسائل - وفي مقدمتها الصحافة - في تدعيم أركان حكمهم من خلال ما تنشره عنهم، ومن خلال إعلان ولائها للحاكم ؛ تسديدًا لفاتورة دعم الصحف التي كان يمنحها الشيوخ للصحف الخاصة والأهلية بشكل شخصي.

هذا وقد كان لوزارات الإعلام أو إدارات العلاقات العامة والإعلام منذ نشأتها - في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضي - دور في إصدار صحف ومجلات، وفي دعم الصحف الأهلية

أو الصادرة عن مؤسسات خاصة لضمان التزامها بالخط العام لهذه الدول الوليدة، ناهيك عن دعم الصحافة الخارجية وتشجيعها على الكتابة عن الحكام وما أنجزوه، ورصد مخصصات مالية لإصدار الملاحق المدفوعة الأجر عن دول الخليج في مناسبات أعياد جلوس الحكام، تعدد فيها مآثرهم وصفاتهم بشكل يرسم الصورة الذهنية المرغوبة لهم، وقد أخذ هذا الدعم عدة أشكال منها: رصد مخصصات مالية للصحف في شكل منح أو إعلانات، أو عمل اشتراكات بمئات النسخ، أو استضافة صحفيين عرب وأجانب في زيارات خاطفة لدول الخليج، وبذل المنح المالية والعطايا لهم : كي يُحسِنوا الكتابة عما يشاهدون من منجزات، وعن انطباعاتهم عن كرم وأريحية حكام الخليج[1].

هذا وعدا الصحافة والكتب كوسائل مطبوعة كان للإذاعة والتليفزيون كوسيلتين مستحدثتين أيضًا في دول الخليج - ومملوكتان للحكومات فيها - دور أساسي في رسم صورة الحكام بالشكل المُرضي والمطلوب، وقد ساهم في هذه الحملات الدعائية عدد من الإعلاميين العرب الوافدين إلى هذه الدول للعمل والإقامة، أو في زيارات خاطفة؛ كل وفقًا لمنطقه أو منهجه الإعلامي القادم به من موطنه الأصلي سواء كان مصريًا أو لبنانيًا أو فلسطينيًا.

وقد كان لهذه السياسة الإعلامية الخارجية سلبياتها وإيجابياتها.. لكن أبرز ما كان يؤخذ عليها أنها شجعت ولفترة طويلة على عادة صحفية سيئة وهي عدم كتابة أي موضوع أو نشر أية أخبار عن دول الخليج في الخارج بشكل إيجابي ما لم تكن مدفوعة الثمن.. لا بل والأنكى من ذلك أن بعض هؤلاء الصحفيين المأجورين كانوا يقبضون

---

(١) للمزيد من التفاصيل في هذا الصدد راجع "الصحافة في دول الخليج العربي" رسالة ماجستير للمؤلفة - ص ١٠٢ - ١٠٣ .

ثم يشتمون، فيسيئون للصورة المرغوبة، بل وكان معظمهم من المرتزقة ومندوبي الإعلانات الذين يدّعون أنهم صحفيون، والأمثلة على ذلك كثيرة[1].

وقد أشار الصحفي سليم اللوزي إلى تركيز الإعلام الخليجي على أشخاص الحكام دون القضايا العامة، بالإضافة إلى أن ما يكتبون كان "مبنيًا على المبالغة والتضخيم وإظهار أن كل شيء يسير على أحسن ما يرام.... دون أن يعكس الإعلام آراء الناس واعتراضاتهم على بعض التصرفات"[2]، وهي آفة عربية معهودة في كل البلدان العربية في رسم صورة حكامهم وليس بدعة خليجية على أي حال، فالحق يقال إن ذلك كان يتم بوحي وبدافع من الصحفيين العرب الوافدين للمنطقة - سواء كانوا مقيمين أو زائرين - إذ كانوا ميَّالين إلى هذه المبالغة في تفخيم وتأليه الحكام.. في حين كان حكام الخليج ميالين بطبعهم للبساطة والبداوة والتواضع وعدم المغالاة.

إذن استُغلت وسائل الاتصال الحديثة في رسم صور شيوخ وحكام الخليج بالشكل المرغوب، وبالطبع دون إبداء أي نقد لهم.. أو حتى لأفراد أسرهم الذين يحتلون المناصب الوزارية والعليا في هذه الدول، بل دأبت وسائل الإعلام على إسباغ هالة من التفخيم والتعظيم على الحكام من خلال الألقاب، حتى بات التحرير الصحفي أو الصياغة الصحفية تتأثر بشكل لا يُناسب العصر بحال من الأحوال، وكمثال لذلك حرص إعلام بعض الدول الخليجية على أن يسبق اسم الحاكم كم من الألفاظ والألقاب التي لا بد من إيرادها كديباجة في كل خبر كلما تكرر اسم الحاكم، وصلت في بعض الأحوال إلى ١٣ كلمة أو

(١) كمثال مجلة " جون أفريك " الفرنسية - مقال بعنوان " الهدايا " - ١٩/٣/١٩٨٠ ص ٣٨ - يتضمن سخرية من الهدايا التي منحت من قبل حاكم أبو ظبي لعدد ١٣٨ صحفيًا كانوا مرافقين للرئيس جيسكار ديستان في زيارته لدولة الإمارات العربية المتحدة .

(٢) مجلة الحوادث - مقال بعنوان " رجل مناسب وجد في وقت مناسب " عدد خاص عن دولة الإمارات بمناسبة العيد الوطني ٢ / ١٢ / ١٩٧٢- ص ١٩ .

يزيد. فكمثال في البحرين كان اسم الحاكم يُكتب في العناوين وفي صلب الأخبار ملقبًا منسبًا ممدوحًا في صدر كل خبر مهما تكررت الأخبار. وكانت صياغته تقول: "حضرة صاحب العظمة الشيخ عيسى ابن سلمان آل خليفة حاكم البحرين وتوابعها المفدى.. أو حفظه الله في حله وترحاله" وفقًا للمناسبة أو لطبيعة الخبر!!

ذلك في حين كان الصحفيون المصريون الذين بدءوا رحلة تأسيس الصحافة الإماراتية يكتبون الأخبار مُجرِّدين الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان من الألقاب والمسميات، قائلين مباشرة: "زايد يُصرِّح.. أو يفتتح.. أو يتفقد" أو على الأكثر يكتفون بالقول: "سمو الشيخ زايد، أو الشيخ زايد فقط"، وقد أتى هذا الأسلوب ثماره، ولعله قرَّب صورة الشيخ زايد حاكم الإمارات من قلوب الناس أكثر.. ليس المواطنين من رعيته فحسب.. لا بل وأيضًا الوافدين المقيمين على أرض دولة الإمارات بكل جنسياتهم كانوا وما زالوا يكنون له الحب والاحترام، فهذه البساطة في التقديم خدمت صورة الشيخ زايد وخلقت له شعبية كاسحة بالإضافة طبعًا لإنجازاته الملموسة على أرض الواقع، والتي استشعر آثارها ونعم بها كل المقيمين في دولته من مواطنين أو وافدين.

هذا ناهيك عن أن أخبار الحكام الخليجيين كان لها الصدارة دائمًا على ما عداها من أخبار مهما كانت خطورتها، بما يوحي بالأهمية، فحِل وترحال الشيوخ وأسفارهم إلى البر، أو برقياتهم الجوابية أو تهانيهم ومجاملاتهم كانت تقدم على كل ما عداها من أخبار عربية أو عالمية أو حتى محلية لها مردودها المباشر على المواطنين، مما يجعلها تهمهم أكثر من أي خبر عن شيخ سافر أو عاد أو أرسل وتلقى برقية[1].. وإن كان الأمر قد اختلف الآن كثيرًا عن ذي

(١) المزيد من التفاصيل والأمثلة راجع الصحافة في دول الخليج العربي - ص ١١٣ - ١١٤

قبل بفضل السماوات المفتوحة، وشبكة المعلومات والنهضة الاتصالية التي تعيشها منطقة الخليج منذ سنوات والتي تقدمت فيها بل وسبقت إليها كثيرًا من الدول العربية الأخرى الأكثر تقدمًا.

وبالطبع لا تختلف السمات التي يتم التركيز عليها بالنسبة لصورة حُكام الخليج عما يركزون عليه في الدول العربية الأخرى، اللهم إلا تركيزهم على الجوانب الإنسانية بالذات، وعلى الكرم الحاتمي المرتبط بالثراء والعطايا والهبات التي يمنحها شيوخ الخليج لرعاياهم، وتقديمهم للحلول الجذرية لمشاكل الشباب، وإحسانهم إلى الفقراء والمحتاجين كسمة محببة في الشخصية العربية على وجه العموم، مع التركيز بالنسبة لبعض الحكام على سمات أخرى ذات بُعد سياسي، كسمة متعاون ووحدوي، ويسعى في الخير وللصلح وتنقية الأجواء العربية دائمًا بالنسبة للشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم الإمارات بالذات الذي يتمتع بصورة ذهنية طيبة لدى العرب جميعًا، كصورة تحققت بفضل وسائل الإعلام وساهمت فيها السمات الشخصية للشيخ زايد، التي أكسبت الصورة المرسومة من قبل وسائل الإعلام مصداقية.

هذا وعِوضًا عن الاستطراد في رصد ملامح الصورة الذهنية لحكام الخليج في الخارج، وهو ما يُمثل بالنسبة لي تكرارًا لما رصدته بنفسي في مؤلف سابق، يمكن لفت نظر القارئ إلى كتاب سيجد فيه نماذج عديدة لما تقوله الكتب الصادرة في الغرب، وما تنشره الصحف العربية والأجنبية عن حكام الخليج بما يرسم لهم صورة تتناقض في بعض أوجهها مع ما يريدون أن يروج عنهم، وهو كتاب " صورة العرب في الغرب"[1].

---

(١) للمزيد راجع الكتاب المشار إليه والصادر عام ١٩٩٧م، وطبعته الثانية المنقحة والصادرة بعنوان: "صورة العرب والمسلمين في العالم" - الصادر عن مركز الحضارة العربية - في ٢٠٠٣م.

الرئيس القذافي:

لا يستقيم الحال إذا ما ختمنا الحديث عن الصورة الذهنية للرؤساء العرب: في مصر، والمشرق العربي، ومنطقة الخليج.. دون أن نشير إلى صورة رئيس يُعد بكل المقاييس ظاهرة أثارت الكثير من الجدل عربيًا وعالميًا، سواء بالحديث عنه شخصيًا أو عن قراراته التي تشير إلى أنه طراز وحده بين الرؤساء العرب، وأنه جد مختلف عنهم كشخص، وبالتالي جاءت صورته الذهنية أيضًا جد مختلفة، فما يحاول صانعو صورته إسباغه عليه من سمات أيضًا مختلف عما دأب العرب على الترويج له في تشكيل صور رؤسائهم.. ولكن كيف؟!

الحقيقة أن الرئيس معمر القذافي - كرئيس لدولة من دول المغرب العربي - قد جاءت ألقابه وسماته لتقدمه ومنذ البداية بوصفه قائد ثورة أو قائدًا روحيًا للثورة الليبية أو ثورة الفاتح من سبتمبر، ولم يُلقب يومًا بفخامة الرئيس، أو رئيس الجمهورية أو الجماهيرية كما تسمى ليبيا.. لكنه لُقّب دائمًا "بالأخ قائد الثورة" أو "الأخ العقيد" أو "أمين الأمة"، أو "أمين القومية"، أو "القائد والزعيم". فهو يُقدَّم بوصفه مُنظّرًا للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ليبيا، وبوصفه مفكرًا وواضع نظرية في الحكم تسمى النظرية العالمية الثالثة، التي هي لا رأسمالية ولا شيوعية، والتي تعتبر أن الديمقراطية الغربية أو التمثيل النيابي الغربي الذي تأخذ به الكثير من الدول في العالم، وتأخذ به - ولو اسمًا - كثير من الدول العربية، تعتبر مجرد خداع للجماهير؛ لذا يُأخذ في ليبيا بمفهوم الديمقراطية المباشرة بعيدًا عن التمثيل الذي يعتبره التنظير القذافي "تدجيلا"، ويُقدّم بديلا عنه نموذجًا معاصرًا كتطبيق عملي للشورى الجماهيرية الشعبية التي تفصل الثورة عن السلطة، وذلك يتم

بالممارسة الواقعية للسلطة من خلال المؤتمرات الشعبية الأساسية، وهي نظرية جديدة وضعها الرئيس القذافي، بعد أن طُرِح كقائد روحي للثورة ومفكر سياسي صاحب رسالة، وقد ضمنها كتابه الأخضر، وشروحه التي تفوق حجمه ثلاث مرات، ويُروَّج لهذه النظرية في العالم العربي ودول أفريقيا بالاتصال الشخصي والمواجهي من خلال الندوات والمؤتمرات المتعددة التي تقام في ليبيا أو خارجها بالتنسيق مع بعض الجهات والجامعات العربية، كما بدأ الترويج لها مؤخرًا في أوروبا من خلال شخص الرئيس نفسه، ومن خلال ما يصدر من كتب ومؤلفات بعدة لغات، توزع مجانًا على طالبيها وغير طالبيها لنشر النظرية.. ولِمَ لا؟! ولماذا نستكثر على رئيس عربي أن يكون واضع نظرية قد تسود يومًا ما، أو هكذا يُراد لها، أو يُريد القذافي لها.. المهم أن تُقرأ بعناية ودون أحكام مسبقة على محتواها أو واضعها.

وهنا مربط الفرس فالأهم من النظرية أن يقتنع الناس بصاحبها كي يؤمنوا بما يطرح من فكر، وهذا ما كان يجب السعي له والتخطيط له بأسلوب علمي مدروس بدقة حتى يتحقق المراد والمرجو لنشر النظرية وقبولها.. ولكن كيف والقذافي كقائد يدعم معظم حركات التحرر العالمية المناوئة لمعظم الحكام أو لنظم الحكم في كل أنحاء العالم، بدءًا بالدول المحيطة به في أفريقيا وامتدادًا لآسيا وأمريكا اللاتينية.. لا بل وأوروبا نفسها معقل الفكر الاستعماري، كيف وكل هذه الحركات التحرُرية في ألمانيا وإيطاليا وأيرلندا، وبيرو وأورجواي والفلبين واليابان يصمها الغرب بصفة الإرهاب، وبذلك يرونه راعيًا للإرهاب الدولي!! إنها معضلة بالفعل أن يُقبل فكر من يُتهم بدعم الإرهاب.. مهما كانت قيمة هذا الفكر!!

فالرئيس القذافي يُقدَّم محليًا من داخل ليبيا -لليبيين وللعرب

وللعالم أجمع - على اعتبار أن له تصورات واقعية لشتى القضايا وحلولا لها، اجتماعيًا: من خلال النظرية العالمية الثالثة، واقتصاديًا: يرى الحل في الاشتراكية وسياسيًا: بتطبيق سلطة الشعب أو الجماهير - كما سبق القول - كما تُطرح صورته بوصفه واضع وراسم السياسة المستقبلية للحركات الإسلامية في العالم(١)، في حين أن صورة الإسلام أو الحركات الإسلامية تحديدًا مشوهة إلى حد كبير.. ليس في العالم الغربي وحسب.. بل إن حولها علامات استفهام كثيرة وتحسبات حذرة حتى في العالمين العربي والإسلامي.. لا بل وللرئيس القذافي موقفًا في نظريته العالمية الثالثة من المؤسسات العسكرية، فهو يؤمن بفكرة الشعب المسلح(٢)، وهو أمر يتناقض أيضًا مع السائد من قناعات عربيًا وعالميًا، وبذلك يبدو تفكيره مختلفًا، وبالتالي هو أيضًا جد مختلف، وهذا ما صعب من دور الإعلام الليبي، الذي كان وما زال يركز على الترويج لفكر القذافي أكثر من الترويج لصورته، إلى جانب السعي لتربية كوادر محلية وعربية وأفريقية من الشباب المؤمن بهذا الفكر، أو الذي يمكن إقناعهم بالنظرية العالمية الثالثة ؛ للتبشير بها في كل أنحاء العالم، وتجنيد واستقطاب الكثير من الكتاب العرب والأجانب لوضع كتب تتناول فكر القذافي، وتحليل مواقفه، والدفاع عنه ضد الحملات الرامية إلى تشويه صورته، وأيضًا كشف أسرار العداء الغربي السافر له(٣)، ووضع هذا العداء في موضعه من سلسلة السيناريوهات التي استهدفت القذافي وليبيا من قِبل واضعي الاستراتيجية الأمريكية/الصهيونية، التي تستهدف

---

(١) راجع سمير الهضيبي - " الأخ القائد معمر القذافي يرسم السياسة المستقبلية للحركات الإسلامية - صادر بثلاث لغات عام ١٩٩٤م .

(٢) راجع محمد الشحات - "موقف النظرية العالمية الثالثة من المؤسسة العسكرية " - المركز العلمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر - ١٩٩٦م .

(٣) كمثال راجع مصطفى بكري - " عملية الخيمة الخضراء :أسرار المؤامرة الأمريكية على ليبيا " - مركز الفكر العربي للدراسات و النشر - القاهرة - ١٩٩١م .

القضاء على آخر القلاع العربية المنادية بالتحرر، بعد ما حدث من البداية من حصار العراق توطئة لذبحه، وما كان من مؤامرة مدريد.

هذا ولعل آخر ما طُرح من حلول ورؤى للرئيس القذافي وأثار جدلا حادًا وعنيفًا.. لا بل وقوبل من قِبل البعض بكثير من الاستخفاف والرفض فكرة حل المشكلة الفلسطينية بإنشاء ما أسماه "دولة إسراطين" وضمنها الكتاب الأبيض الذي يُتداول على شبكة الإنترنت من خلال موقعه الشخصي[1]، وأيًا ما كان الطرح فإن الرئيس القذافي عُرِف بوصفه رجل الصدمات والمفاجآت والطروحات الغريبة.. لا بل وحتى المعقول منها أو الذي يقبل المناقشة والتحليل ليُقبل أو ليُرفض بدءًا بتغييره لمسميات المخترعات الحديثة بأسماء عربية، وهو أمر جد مقبول وتقوم به بدأب المجامع اللغوية العربية، وانتهاءً بتغييره لمسميات الشهور الميلادية.. لا بل ولبدء التقويم الميلادي نفسه!! كل أطروحاته هذه وبكل أنواعها وموضوعاته كانت وما زالت تؤخذ بحذر أحيانًا، وباستخفاف أو رفض في كثير من الأحيان من قبل العرب قبل الغربيين!!

لكل ما سبق يُنظر إلى الرئيس القذافي بوصفه ظاهرة فريدة، ويبدو أن الإعلام الليبي لا يستنكر هذه النظرة، حتى لو جاءت من مصدر غربي، ولذلك تبنى المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ترجمة وطباعة كتاب عنوانه: "الغرب والظاهرة القذافية"[2] يضم دراسة ومعالجة غربية للمشروع الثوري الليبي ككل، وتعنى بتحليل مواقف وآراء الحكام ورجال الإعلام الغربيين وطبيعة وأبعاد معاداة الغرب " للقذافية "، والدوافع المحركة لهذه المعاداة، ويرى

---

(١) www.algathfi.com - و الكتاب الأبيض الصادر بعدة لغات عن الإدارة العامة للإعلام الخارجي بمناسبة العيد ٢٥ للثورة الليبية .

(٢) روبير شارفان، وجاك فينيه - زانس، ترجمة د. محمد مجذوب - الطبعة الثانية ١٩٩٠م - طرابلس - الجماهيرية .

واضعا الكتاب أن العالم الثالث ممثلا في ليبيا قد بدأ الاعتماد على النظريات الفكرية النابعة من داخله، ويندهشان لموقف الغرب القلِق والمتعالي والمشدوه حيال ظاهرة القذافي الفكرية، ويرى الباحثان أن الغرب يعاديها ويتجاهل منجزاتها متعمدًا، ويريان أن هذا الموقف الغربي ظاهرة مَرضيَّة في حد ذاتها يعاني منها الغرب.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى جانب من الرؤية الغربية للقذافي التي تضمنها هذا الكتاب بدءًا بأولى صفحاته قائلا: " كثيرًا ما يُطلِق الغرب على معمَّر القذافي صفات متباينة مثل: "متخيل"، "ملهم"، "مثير للريبة أكثر من الخميني"، "متزمت قاس".. وهكذا فإن قائد الثورة الليبية يُنعت - ربما كان هذا تكريمًا - بصفات تشبه إلى حد بعيد تلك التي أعطيت في وقت مضى للينين، وماوتسي تونج، وكاسترو، وعبد الناصر"[١] ولعل القذافي والقائمين على تشكيل صورته أو كما سبق القول القائمين على الترويج لفكره سعداء بأنه يوضع في مصاف العظام من القادة والساسة العالميين العظام من أصحاب النظريات والاتجاهات الفكرية ممن أثاروا الجدل في العالم، وما زالت سيرتهم تثير الكثير من الجدل حول دورهم في تاريخ أممهم وفي تاريخ البشرية!!

واستكمالا لصورة المُفكر يُقدَّم القذافي بوصفه مُبدعًا وكاتبًا وقاصًا، له قدرة على التحليل بعمق، وقدرة على سبر أغوار النفس البشرية، فهو كما يقول الكاتب الليبي الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه "حالم كبير، له حس عملي ووعي تاريخي وجملة من المعارف والخبرات المكتسبة، جعلته يُقدِّم إبداعًا جديدًا ذا صياغة متميزة، يمتلئ بشحنات انفعالية غاضبة، ذات صياغة متميزة قادرة على

(٢) المرجع السابق ص ٥ - نقلا عن كتاب دومينيك لابير - لاري كولنز : "الفارس الخامس"، دار نشر روبير لافون - ١٩٨٠ .

تفجير اللغة، وإعادة ترتيب الواقع، وتوظيف التقنية الفنية توظيفًا بارعًا من أجل الوصول إلى معالجة قصصية تشحن الوجدان ... فهو قبل أن يكون مفكرًا وقائدًا ورجل ثورة هو كاتب بارع مبدع له القدرة على تطويع ملكاته التعبيرية ... وبمثل ما هو قائد ثوري يمتلئ بهاجس تحطيم القوالب القديمة وتجاوز الأطروحات التقليدية في الفكر والممارسة، فهو أيضًا كاتب مسكون بهاجس الابتكار والتجديد والبحث عن بدائل جديدة للصياغات الفنية العتيقة"[1]، وقد ورد هذا المقتطف في نهاية المجموعة القصصية التي صدرت للرئيس القذافي كنقد ملحق بها، وقد تبرع القذافي بمردود بيع مجموعته القصصية المادي -و هو كثير لصدور أكثر من طبعة منها - لصالح صندوق الضمان الاجتماعي. وهي لمسة إنسانية منه تشي بالكرم والتعطف والإحسان كسمات عربية محببة في صورة أي رجل عربي.. فما بالنا لو كان هذا الرجل هو الرئيس أو قائد الثورة، وزعيمها الروحي.

هذا ورغم أن الرئيس القذافي - كما يُشاع عنه - يكره الألقاب والمسميات، ولا يتحمس كثيرًا لإطلاق الألقاب عليه من قبيل " فخامة الرئيس"، وما إليها من مسميات رسمية.. إلا أن المحيطين به يتطوعون عن حب وقناعة.. أو عن تملق ونفاق إلى إسباغ صفات وسمات كثيرة على شخصه، واصفين له بأنه من علّمهم الكرامة والصمود، وهذه الأخيرة قد تصدق كثيرًا خاصة في الحقبة التي حوصرت فيها ليبيا وقوطعت اقتصاديًا، وصمد فيها الليبيون صمود الأبطال ملتفين حول زعيمهم، إلى جانب تطوعهم برسم صور ضخمة للقذافي في أوضاع وأزياء كثيرة، يبدو فيها شابًا فتيًا، ووضعها على جداريات عملاقة تملأ المدن الليبية، وتحمل الشعارات المقتبسة من

---

(١) معمر القذافي - القرية القرية الأرض الأرض وانتحار رائد الفضاء - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - بتاريخ مدون علي طبعتها الثانية ١٤٤٢ ميلادية - سيرت ليبيا - ص ١٨١ - ١٨٢ .

أقواله وخطبه يرفعونها على أقواس النصر التي تعترض معظم الشوارع في ليبيا في المناسبات وبغير مناسبة، وفي قاعات الاحتفال في أي موقع في ليبيا يستطيع الزائر أن يتعرَّف على فكر القذافي، وتعريفه للكثير من الأمور، ورؤيته وتحليله لكل القضايا بشكل مختلف عما هو معتاد ومتعارف عليه في العالم العربي.

فليبيا دونًا عن كل الدول العربية التي تحررت من ربقة الاستعمار وأُسقِطت فيها الملكيات، أُعلِنت "جمهورية"، وليبيا " جماهيرية "، ومسماها يطول عن غيرها، فهو ليس مجرد مسمى لدولة بقدر كونه تعريفًا لنظامها السياسي والاقتصادي، وتعظيمًا لشأنها بين دول العالم بوصفها " العظمى" بشكل مطلق!! واللافت للنظر أيضًا أن زوايا التصوير الفوتوغرافي واللوحات المرسومة للرئيس القذافي تعكس هذه السمة بشدة، ففيها شموخ وأنفة -لا أتصور أنها غير متعمدة- لتأكيد هذه السمة في صورة الرئيس ؛ لتطابق ما اتسمت به الدولة الليبية، وتضطلع الإدارة العامة للإعلام الخارجي في ليبيا بالترويج لفكر الرئيس القذافي بعدة لغات وفي طبعات أنيقة مدعمة بصوَرِه الفوتوغرافية، التي تعكس هذا التوجه دون تصريح واضح.. أو حتى تلميح برغبتها في تقديمه بوصفه "زعيمًا ومفكرًا عظيمًا"[1].

هذا ورغم كل الجهود المبذولة محليًا وخارجيًا للترويج للفكر القذافي، ولملامح صورته كزعيم ومفكر عظيم، فإن صورته في خارج ليبيا قد أصابها الكثير من التشويه والتظليل المتعمَّد من قِبل جميع النظم العربية، والقوى الغربية الرافضة لوجود أي زعامة في الوطن العربي تناوئ الغرب وترفض هيمنته.. لكنني وللحق قد تأثرت كثيرًا ولفترة طويلة بما يُشاع عن الرئيس القذافي خارج ليبيا، وبالتحديد

(١) اجع كمثال كتاب " كلمة الأخ قائد الثورة بمناسبة العيد ٢٥ لإعلان قيام سلطة الشعب وتصوره الواقعي لحل قضية فلسطين " الكتاب الأبيض .

في مصر في حقبة السبعينيات، التي دأبت فيها الصحف المصرية على تشويه صورة الرئيس القذافي[١] بشكل أثر في الكثيرين، حتى بت أتوق بشدة لسبر غور هذه الشخصية، ومعرفة السمات الحقيقية لها، وهل هي كما يُقدِّمها الإعلام الليبي؟ أم كما يُقدِّمها الإعلام المصري، أو تحديدًا الصحافة المصرية، وما أوجه الصدق والكذب في كلا التقديمين، خاصة إذا ما تناقض كلاهما مع الصورة التي انطبعت في الأذهان كطرح للرئيس القذافي في نهاية الستينيات، وتحديدًا إبان قيام ثورة الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩م، والترويج له بوصفه الشاب الذي قاد الثورة على نظام ملكي وحرر بلاده من الاستعمار، وأن الرئيس جمال عبد الناصر قد قال إنه يذكره بشبابه، وهي المقولة التي أحسن الإعلام الليبي استغلالها بنجاح في تكريس سمات بعينها في صورة الرئيس القذافي بوصفه الشاب الثائر النظير الليبي لعبد الناصر القائد القومي العربي، وبوصفه الوحدوي الوطني العروبي، مع عدم إغفال ما كان لمثل هذه السمات من بريق آنذاك.

والزائر لليبيا لا تخطئ عينه صورة فوتوغرافية التقطت من زاوية عبقرية، يجدها منتشرة في مواقع كثيرة تضم الرئيسين عبد الناصر والقذافي وكأنه يخرج من خلفه كظل أو خليفة له، أو كما يُقال يخرج من عباءته، مع تذكير بما قاله عنه عبد الناصر، مع تبنٍّ واضح لكل أقواله مصاغة في شعارات قومية داعية للوحدة العربية، ناهيك عن وصفه بأنه " أمين القومية "، و"أمين الأمة العربية ".

هذا وقد قُدِّر لي - لحسن الحظ - أن أزور ليبيا (ثلاث مرات) فاستطعت أن أقف بنفسي على ملامح شخصية القذافي، كما يُقدم نفسه بنفسه، ولأعرف أي الصور أصدق وأقرب إلى الواقع

(٢) راجع كمثال صحف دار أخبار اليوم القاهرية، ورسوم الكاريكاتير المبالغ فيه التي كان يرسمها مصطفى حسين ويصوغها أحمد رجب، للوقوف على حجم الهجمة الشرسة المشوِّهة لصورة الرئيس القذافي آنذاك.

والحقيقة؟ هل هو الشاب الثائر مفجر الثورة، الذي يُقلق العالم كل يوم بمفاجأة جديدة تصدمه، كما يفعل الشباب المتمرد بالأجيال الأكبر صاحبة الفكر التقليدي؟ أم أنه "مجنون ليبيا" كما كانت تقدمه الصحافة المصرية وحملات الكاريكاتير الساخرة في السبعينيات؟! أم هو المفكر العظيم صاحب النظرية العالمية الثالثة، والحكيم الذي يتأمل طويلا، ثم يخرُج علينا بحلول لأشد المعضلات العربية صعوبة واستعصاءً على الحل ببساطة متناهية ومعجزة؟! والذي نادرًا ما نتفق مع طروحاته، وكثيرًا ما نختلف حولها ونرفضها.. واحترت أين القذافي من هذه الصور الثلاث؟! ومن هو فيهم؟ وكيف يُقدم هو نفسه بنفسه؟! وخرجت بأن الإعلام الليبي، والرئيس القذافي نفسه يحاولون تكريس جانب من الصورة الأولى أو الانطباع الأولي الذي تركه القذافي لدى الرئيس عبد الناصر، مضافًا إليه صورة القذافي المفكر، فحينما قُدِّر لي اللقاء بالرئيس القذافي والاستماع إلى خطبتين طويلتين وهادئتين جدًا ألقاهما في جمع من أساتذة وطلاب الجامعات، وعدد من الكتاب والمثقفين قدِموا للقائه وقطعوا طريقًا طويلا، وتكبدوا صعابًا جمة في سبيل هذا اللقاء[1]، أدركت من هذين اللقاءين أن الرئيس القذافي أكثر حرصًا على صورته كمفكر ومتأمل لما يُحيط بالأمة العربية ؛ بوصفه أمينها والقادر على إقالتها من عثراتها، والمستشرف لما يُراد بها، ومن يدق ناقوس الخطر، ويبث الروح في أمة تتهاوى تحت ضغوط ومؤامرات تحاك لها بليل، وأعترف بأن صورة الرئيس القذافي التي كانت منطبعة لدي والتي كانت تتراوح بين صورة الشاب الثائر، والشاب الموتور المتهور الذي

(١) حيث كانت ليبيا آنذاك تقع تحت الحصار، وكان الوصول إليها يحتاج إلى استخدام وسائط متعددة ما بين بحرية وبرية وجوية داخلية، وإجراءات أمن مشددة للوصول إليها .. ناهيك عن المعاناة في الوصول إلى مكان اللقاء بالرئيس القافي في خيمة في مكان نائي ومحاط بسياج أمني صارم بكل ما يتطلبه ذلك من جهد ووقت .

يُفاجئ الكبار بتصرفات رعناء لا يقبلونها قد تبدلت تمامًا من خلال الاتصال المواجهي بالرئيس القذافي، فلم أجد فيه ذلك الثائر الأرعن، كما أعترف بأني قد عجزت في البداية عن فهم كل الأطروحات التي يُنظِّر لها المفكر، وإن كنت أراها بدائل تحتمل الدرس والتحليل من قبل المتخصصين، وتبنّي ما يقبل منها التطبيق.. بدلا من الرفض المسبق لها إجمالا وتفصيلا.

هذا وللحق فإن التنظير القذافي قد طال الكثير من الأمور التي تحتاج من العرب إلى نظريات خاصة تجعلهم مصدرًا مشاركًا في الفكر الإنساني، والتنظير السياسي والاقتصادي والاجتماعي، يمكن أن يُضيف إلى هذا الفكر الإنساني ولو سطرًا في كتاب الحضارة الإنسانية.. بدلا من قبوعنا لقرون مجرد متلقين للفكر الغربي.. خاصة بعد أن كشف الغرب عن كذب وادعاء الكثير من أفكاره المطروحة وتعريفاته السائدة لمعان إنسانية كثيرة، بتنا نعاني منها نحن العرب والمسلمين كمفاهيم يُفترض أن تكيل لكل البشر بمكيال واحد، مثل معنى حقوق الإنسان[1]، والفرق بين معاني الإرهاب والمقاومة، ومفهوم الديمقراطية والإصلاح الذي سيُفرض على المنطقة العربية[2]، وحدود التدخل في المنطقة وإعادة تخطيطها بالقضاء على هويتها القومية أو إذابتها في قوميات أخرى، وتمزيق دول أو تقسيمها بين عروق وقوميات وديانات متعددة.. إلى آخر ما يُخطط لنا، ونتلقاه تلقيًا سلبيًا دون أن نملك رفضه برمته.. حتى لو كان لا يناسب قيمنا وثوابتنا القومية وعقيدتنا بحال.. إذ نكتفي فقط بمحاولة فهمه، وإبداء آراء

(١) راجع الوثيقة الخضراء الكبرى لحقوق الإنسان في عصر الجماهير - المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر - طرابلس ليبيا .

(٢) للوقوف على الفرق بينها وبين ما يطرحه القذافي ويتبناه بعض المفكرين العرب راجع كتاب " ندوة الفكر السياسي المعاصر، الديمقراطية : المفهوم والممارسة " منشورات المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر - جامعة الخرطوم - شعبة العلوم السياسية ١٩٩٦م.

متواضعة تمس تعديلا طفيفًا فيه هنا أو هناك.. بعد أن كنا أمة تعلّم العالم وتضيف له فكرًا وفلسفة ومعارف إنسانية.

هذا وما زالت صورة الرئيس القذافي تُطرح حتى الآن بأساليب مختلفة.. ولكن مع الحفاظ على صورته كمفكر، وما زالت شخصيته حتى الآن تثير الجدل، كما تتراوح ردود الفعل على أطروحاته الفكرية ومواقفه التي يرى فيها البعض قدرًا من الصدمة، وملمحًا من ملامح الاختلاف، الذي يحقق لصاحبها أن يُعرف، وكأن الهدف هو فقط أن يُعرف، من منطلق العمل بالقول الشائع: " خالف تعرف "!! ولذلك تُقابل أطروحات القذافي أحيانًا كثيرة في العالم العربي بقدر من التجاهل أو الاستخفاف، وكأنه تفويت على صاحبها فرصة أن يبرُز بين هذا الكم من الرؤساء العرب المستسلمين لأقدارهم، وأقدار أممهم التي يُخطط لها في الغرب.

هذا وفي حين نجد أن هؤلاء الحكام العرب يجتهدون في تطوير أساليب طرح ذواتهم بما يتناسب ومفاهيم الغربيين وفكرهم، نجد الرئيس القذافي متمسكًا بثوابت صورته، وطروحاته الفكرية.. ونجد أن بعض الكتاب الصحفيين السياسيين لا يتجاهلون هذه الطروحات القذافية.. بل يحللونها أحيانًا تحليلات قد تبدو للبعض أشد غرابة من تصرفات الرئيس القذافي نفسه، أو لعلها تتواءم مع غرابتها، فمن يرصدها كحدث يتقاطع مع حدث عالمي آخر مواز وعلى نفس الأرض (أوروبا)، فيرى في سلوك القذافي المعتاد "حركة مسرحية جديدة " الهدف منها البقاء في السلطة، ومن يراها " بريسترويكا قذافية " ومحاولة لطرح صورة جديدة للرئيس القذافي!!

ولا بأس هنا من استعراض النموذجين معًا للرؤية العربية - أو تحديدًا المصرية - لصورة الرئيس القذافي، إذ يقول سلامة أحمد سلامة واصفًا تواجده وحضوره لاجتماع الاتحاد الأوروبي الموسع في

بلجيكا قائلا بالنص: " الأمير الأسطوري القادم من أجواء الشرق بخيمته البدوية الفاخرة، تنتصب في حديقة قصر الضيافة ببروكسل، مصحوبًا بطائرتين عبثت إحداهما بالجميلات من الحرس النسائي الخاص، والأخرى بسيارته المرسيدس البيضاء : ليلتقي بزعماء أوروبا وقادتها بعد سنوات من القطيعة.. كان يُنظر إليه خلالها كرمز من رموز الشر والإرهاب، وقد عاد الأمير الآن إلى أحضان أوروبا كما يعود الابن الضال بعد غياب، معتذرًا عن سنوات من التمرد والعصيان ؛ لأنه كان يقود حركة تحرر وطني ضد الاستعمار، وقد انتهى التحرر وانتهى الاستعمار!! ... والنظرة الغرائبية إلى نموذج من الزعامات القادمة من جزء من العالم لا يتغير وكأن حركة الزمن توقفت به، أكدتها تصريحات الأمير القادم من الشرق، حين أعلن استهجانه للديمقراطية والتمثيل البرلماني الذي يُعد خداعًا للجماهير.. وحين يستقبل دهاقنة السياسة الأوروبية أمير الشرق الأسطورة بنصف ابتسامة علامة الرضا فهم يدركون أنه دفع الثمن، وأن مفاتيح الكنز باتت في أيديهم، بعد أن تخلص من أسلحة الشر، ولا يهم بعد ذلك إن كان من الضروري أن يجني الشعب صاحب المصلحة ثمار هذه التحولات الخارقة الجارفة أم لا، ولا يمكن للأوروبيين في إطار هذه التجربة الغنية إلا أن ينظروا إلى المنطقة العربية وكأنها قطعة من أرض العجائب بدرجات متفاوتة.. ولكنها تظل خارج منظور الحضارة الأوروبية عصية على الفهم"[1].

مما سبق نستطيع أن نتبين أن عدم الابتكار في تقديم الصورة وإخراج المواقف، وعدم مراعاة البعد المتعلق بالجمهور المتلقي غير مأخوذ في الاعتبار من الجانب الليبي، القائم على رسم صورة الرئيس القذافي، أو لعل تمسكه الشخصي بثوابته التي تبدو للكثيرين

(١) الأهرام - عمود " من قريب : أحداث متقاطعة " - ١٠ / ٥ / ٢٠٠٤م - ص ١٠ .

حتى في العالم العربي غريبة أمر جدير بالملاحظة في رسم صور الرؤساء العرب والترويج لها، فلو أن القذافي حمل أطروحاته الغريبة والمرفوضة من الغربيين، وهو في غير هذه الهيئة الغريبة عليهم لربما قُبل بعضٌ مما يروج له من أفكار، إذا ما قُبِل كشخص يمثل قيادة تحكم في الألفية الثالثة، وقد يكون ذلك مجديًا له ولنا كعرب ؛ لأن صورته قد انسحبت على صورة الزعامات العربية الأخرى إلى حد ما.. ولم يكن ليضيره في شيء لو تخلى هذه المرة وفي هذه المناسبة الأوروبية عن بعض هذه المظاهر الكرنفالية التي يُحيط نفسه بها، وما خاب من استشار في صدد الصورة الذهنية وأساليب تشكيلها، وضرورة التخطيط لها وتقديمها كرسالة اتصالية يجب أن يؤخذ في الاعتبار طبيعة وثقافة الجمهور الموجهة إليه.. خاصة إذا ما كان الحدث يدور على أرض أجنبية - ووسط جمهور قد لا يتفهَّم - أو بالقطع لن يتفهَّم - ما يمارسه القذافي بوصفه تمسكًا بتقاليد عربية.. في حين ستراه استعراضًا أسطورياً غريبًا، أو طقوسًا احتفالية كرنفالية لا مجال لها في مثل هذا الحدث!!

أما عن النظرة إلى التوجه الجديد للرئيس القذافي بوصفه حركة تصحيح لصورته كما يراه الكاتب محمد سيد أحمد، ويرصده ضمن المعضلات العصرية فخلاصته أن " القذافي يتطلّع الآن إلى قيادة حركة سلام على اتساع العالم كله، ذلك أن ليبيا أصبحت على حد قوله نموذجًا لطريق ثالث جديرًا بأن يُحتذى.. إنه يطالب جميع الدول في العالم بالتخلي عن أسلحة الدمار الشامل، بما في ذلك الولايات المتحدة والصين، وأن تستبدل بها ما سماه " أسلحة للبناء الشامل"! إنه بات يخاطب سوريا وإيران وكوريا الشمالية ويطالبها بأن تتخلى هي الأخرى عن أسلحتها للدمار الشامل"[1]، ورغم ما ينطوي عليه

(١) الأهرام - مقال بعنوان "معضلات عصرية: بريسترويكا القذافي" ٢٠٠٤/٥/٦م - ص١٣.

هذا التوجه من مثالية يوتوباوية.. إلا أنه اقتراح لا يخلو من براءة، لا أدري كيف فاتت على من يشكلون صورة الرئيس الجديدة، أو عليه شخصيًا، خاصة إذا كانت موجهة كنداء عالمي لدول كانت تنظر للرئيس القذافي بوصفه راعيًا للإرهاب، ومن غير المعقول أن ينقلب فجأة إلى داعية سلام، والرد عليها قد يُذكّرنا بالصورة الشعرية التي صاغها أمير الشعراء أحمد شوقي قائلا: "**برز الثعلب يومًا في ثياب الناسكين.. ومشى في الأرض يهدي ويسب الماكرين**"، مع الاعتذار عن هذا التشبيه.. لكنها حقيقة غابت عن المخططين لهذه الصورة الجديدة، كما أن دعواه هذه تنطوي على عدم وعي أو إدراك لطبيعة المرحلة التي تحكم فيها القوة الغاشمة مقدرات العالم، فهل يتصوَّر القذافي أو المخططون لهذا الطرح أن الولايات المتحدة - مثالا - ستستجيب لهذه الدعوة التي من شأنها أن تضعف هيمنتها على العالم كقوة منفردة؟!! وهل إذا أراد القذافي أن يطرح هذه الدعوة ويكتسب لها أنصارًا أن يبدأ باتهام سوريا وإيران كدولتين إحداهما عربية والأخرى إسلامية تنكران تواجد أسلحة دمار شامل على أراضيهما، وهما المهددتان بالتفتيش الدولي على أراضيهما، وبفرض عقوبات عليهما، فبدلا من أن يستقطبهما يستعديهما؟! إنها حقًا معضلة عصية على الفهم!!

هذا وكما يستفسر محمد سيد أحمد أستفسر بدوري هل ما حدث هو تكتيك مؤقت من إدارة القذافي؟ أم تحول فعلي في المواقف؟ من شأنه أن يقلب ملامح الصورة ويُحسِّنها في الغرب، وهو الأمر الذي أهتم به هنا أكثر من غيره، أم تراه تغيرًا سياسيًا اقتضته المتغيرات التي بدأت تهدد مصائر الرؤساء العرب؟ وتجعلهم يتحسبون مما حدث للرئيس صدام حسين.

هذا ويحاول محمد سيد أحمد تفسير حركة التصحيح القذافية،

واستعراض التكهنات المحيطة بها والمبررة لها، وأهم ما يهمنا هنا ونحن بصدد الحديث عن الصور وما تصنعه فيها المواقف، وما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من مقارنات ومقاربات قفزت إلى ذهني حتى قبل أن أقرأ سطور سيد أحمد القائلة: "إن القذافي لا ينظر إلى نفسه على أنه مجرد رئيس دولة.. بل صاحب رسالة.. وقد شاءت الأقدار ألا تكون ليبيا من أكثر الدول العربية ملاءمة لإنجاح رسالته.. كان عبد الناصر مثله الأعلى، لكن الظروف غير المناسبة إنما تلزمه الآن بما يبدو صفقات برع فيها السادات أكثر من عبد الناصر ... وخيرًا فعل القذافي بتسليمه علنًا بأن جرائم قد ارتكبت بمقتضى الاستراتيجية التي اتبعت وقد سمحت بارتكاب أعمال إرهابية بدعوى خوض معارك تحرير"[١].

كما يتساءل محمد سيد أحمد إذا ما كان ذهاب القذافي في هذا الصدد إلى الاعتراف بما ارتكب يدخل في إطار النقد الذاتي والمصارحة أو المكاشفة إلى حد الشفافية؟؟.. لكني أرى أن هذه الخطوة الأخيرة بالذات تعد من أفضل الأساليب التي يتغلب بها الرؤساء الغربيون والأمريكيون بالذات على المآزق التي تحيق بصورهم الذهنية وتشويهها، وغالبًا ما ينجحون بها في امتصاص الغضب والاحتقار الذي يحيط بهم أو بصورهم، ولعل أبرز مثال معاصر على ذلك اعتراف الرئيس بيل كلينتون بمخازيه الجنسية علنًا ؛ كسبًا لمعركته حول صورته، وقد نجح فيها بجدارة، واستمر في سدة الحكم لنهاية فترته الرئاسية، وكلنا يعرف أن الاعتراف في المنطق المسيحي الغربي مُسوِّغ للغفران، والسماح والعفو عما سلف، وها هي بوادر العفو الغربي عن ممارسات الرئيس القذافي التي كان الغرب يعتبرها لونًا من الإرهاب، قد بدأت تؤتي ثمارها المرجوة في مجال تحسين

(١) المرجع السابق نفسه .

صورته، وتقبل العالم له.. بعد أن ظلت صورته الذهنية دافعًا لاستبعاده أو نبذه ومحاربته على مدى ربع قرن.

الخلاصة إذن بشأن صورة الرئيس القذافي أنها رُسِمت وتشكلت بالأساليب العربية التقليدية، الخطب والمنتديات والمؤتمرات الشعبية، أي بالاتصال المواجهي، وبالوسائل المكتوبة من صحف وكتب، وباستخدام الرسم والتصوير الفوتوغرافي وزواياه المؤثرة، وبالتكبير والتضخيم لهذه الصور والرسوم على الجداريات وأقواس النصر، مصحوبة برفع الشعارات.. ولكن سمات الصورة كانت جد مختلفة عما كان يُشاع عن الرؤساء العرب الآخرين ليُكرَّس كسمات محببة ومرغوبة لدى الشعوب العربية بوجه عام كالكرم والتواضع وما سبقت الإشارة إليه.

هذا وقد رأينا في هذا المبحث أن السمة الأساسية التي تم التركيز عليها في صورة الرئيس القذافي كانت صورة المفكر والمنظر صاحب الرسالة العالمية، والكاتب المبدع المتأمل، والقادر على حل المعضلات، بما له من صفاء ذهني وذهن متقد، يختلف عن غيره من الرؤساء العرب.. وهنا لا بد من الاعتراف بأن القائمين على رسم هذه الصورة قد نجحوا إلى حد كبير داخل ليبيا وبعض الدول الأفريقية بالإعلام وبالمنح المادية والمعنوية.. لكنهم لم يُحققوا نجاحًا يُذكر خارج ليبيا في العالمين العربي والغربي، وإن كان الطرح الأخير والتكتيك الذي اتبع مؤخرًا قد يؤتي ثماره كما ستثبت ذلك أو تدحضه الأيام المقبلة.

***

بهذا نكون في هذا الفصل قد غطينا -إلى حد ما- ملامح صورة عدد من الرؤساء العرب، وأساليب رسمها أو تشكيلها، ويبقى أن ننتقل إلى فصل الختام.. ولا أقول الخاتمة، حيث سأضمنه تفصيلا لبعض النقاط التي قد أكون قد مررت عليها مرور الكرام في الفصول الثلاثة

السابقة ؛ تجنبًا للاستطراد المخل.. لكني سألتزم باتباع ما هو سائد في مثل هذه الدراسات من تلخيص لأهم النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة، والتوصية ببعض الدراسات التي قد تتمم أوجه النقص فيما أنجزته، وأتمنى أن يغطي جهدي هذا جانبًا من القضية المطروحة وهي "صورة الرئيس" ويكون حافزًا لغيري من الباحثين على استكمال نقاط لم أتناولها، كل وفقًا لتخصصه الدقيق.

فصل الختام

أعتقد أنه قد اتضح من كل ما سبق من مباحث وفصول هذا الكتاب ارتباط موضوعه "صورة الرئيس" بقضايا آنية مطروحة على الساحتين العالمية والعربية، ألا وهي : قضية " **تطبيق الديمقراطية**"، أو فرضها على دول العالم العربي من الخارج، وفقًا للمنظور أو النمط الأمريكي، أو ما سُمي بالإصلاح السياسي، وارتباطه بقضية "**الخلافة السياسية**"، في النظم الجمهورية في العالم العربي، التي بدأت تأخذ منحى غريبًا على النظم الجمهورية.. ألا وهو توريث الحكم لأبناء رؤساء الجمهوريات، الذي بدأته سوريا بتنصيب الأسد الابن أو الشبل، مكان والده الأسد الراحل حافظ الأسد، وتغيير الدستور السوري على وجه السرعة، تحقيقًا لهذا التوريث الجمهوري، الذي يُعد من السوابق في العالم العربي، وهو الأمر الذي قد يفتح الأبواب لتكرار مثل هذه الإجراءات، في بعض الدول العربية الأخرى، وبدء الحديث عن الخلافة السياسية الوراثية، بعد أن أصبح نظام التوريث أمرًا واقعًا في سوريا؛ بطرح إمكانية تكرار التجربة في كل من مصر وليبيا، كما كان مطروحًا في العراق.. لولا سقوط الرئيس صدام حسين، وقتل نجليه عدي وقصي، اللذين كان يُعدهما لخلافته على حكم العراق.

هذا كما اقتضى الحديث عن الخلافة السياسية لأبناء الرؤساء العرب، بروز ظاهرة أخرى، وهي تولي الرؤساء مدى الحياة، أو حتى

وفاتهم.. وإن أنكر بعضهم هذا علنًا، لكن الملابسات تؤكد انعقاد النية على ذلك، وأبرز مثال لهذا ما حدث في تونس: " إذ نجح الرئيس زين العابدين بن علي في تعديل الدستور؛ لضمان التمديد له لفترة رئاسية رابعة، وهو الذي كان ينفي دائمًا أن يُصبح رئيسًا مدى الحياة"[1]، والحبل على الجرار بالنسبة لنظم الحكم العربية الأخرى، بدليل أن الأمر نفسه قد تكرر بالنسبة لرئيس مصر الذي أكد مرارًا أنه لن يُجدد لمرحلة حكم أخرى، كما نفى علنًا في حديث إذاعي، نقلته وكالات الأنباء، وتداولته وسائل الإعلام، نفى فيه وجود نية لتوريث السلطة في مصر لابنه الأصغر.. لكن بعض الملابسات تشير إلى إمكانية حدوث ذلك؛ فالتلميع الإعلامي لجمال مبارك يشير إلى توافر هذه النية.

و لا يأتي هذا الحديث من فراغ؛ ذلك أن المفترض نظريًا أن ينطوي مفهوم الخلافة السياسية على وجود كوادر وقيادات سياسية مؤهلة تستطيع تولي دفة الأمور في حالات التغيير السياسي، ولا سيما الحالات السلمية منها، وهو الأمر الذي يُعَد له إعدادًا جيدًا في النظم الملكية، والأميرية، والسلطانية، والإمبراطورية - أيًا كان المسمى - بإعداد أولياء العهد، ومن يتلوهم في الأحقية في الحكم، إعدادًا سياسيًا وعسكريًا لتولي زمام الأمور، أو اعتلاء العرش.. لكن ما يلاحظ هذه الأيام، أن أبناء رؤساء الجمهوريات يتم إعدادهم بنفس الأسلوب، من خلال توليهم مناصب سياسية، شعبية أو حزبية يتمرَّسون من خلالها على العمل السياسي، كما يتم بالتدريج تسويق صورتهم للشعوب، بوصفهم رؤساء المستقبل، بأسلوب ذكي يمكن تمريره على الشعوب المطحونة، المهمومة بحياتها الخاصة، وسعيها على لقمة العيش، عن متابعة ما يُحاك لها بليل.

(١) خليل العناني - الخلافة السياسية في العالم العربي .. رؤية نقدية - موقع الجزيرة دوت· نت - السنة الرابعة - ١٤ / ٣ / ٢٠٠٤ - ص٢.

هذا وقد يتبادر للذهن أسئلة حيرى، مؤداها : هل يقبل الناس فكرة الجمهورية الوراثية كفكرة مجردة؟! ثم هل يقبلون فرضها عليهم؟! ولماذا يستسلمون ويخضعون لتطبيقها؟! وهل نحن في العالم العربي والإسلامي أصبحت لدينا بالفعل قابلية للتخلف والتهاوي، والاستسلام لما يُفرض علينا؟! أسئلة يمكن تلخيص الإجابة عليها في أن هناك فجوة بين النظم العربية الحاكمة وبين الإنسان الفرد المحكوم من قِبلهم؛ نظرًا لغياب الحرية في معظم هذه النظم، الأمر الذي يجعل السواد الأعظم من الناس مستسلمين لما يُجريه الحكام عليهم.. ولكن يبقى الأمل في الصفوة المتعلمة أو المثقفة والمستنيرة، التي لم ينجح الحكام في تدميرها والقضاء عليها تمامًا.. وإن كانوا قد نجحوا إلى حد ما في استقطاب بعض عناصرها، وإكساب بعضها الآخر نوعًا من السلبية واللامبالاة، لو تغلبت عليها، ونفضتها عن كاهلها، وساهمت بجد في تنوير العامة من الناس لتغير الحال.

هذا كما يمكن أن نلاحظ في النظم التقليدية الوراثية بالذات حرص كل حاكم جديد على صورة سلفه، أما في النظم الجمهورية فالأمر جد مختلف، إذ تبدأ حملات التشويه للسلف لحساب الخلف الذي غالبًا ما يكون لا يمت له بصلة، ولعل ذلك ما حدا بالرؤساء العرب المخضرمين إلى السعي لتوريث الحكم؛ ضمانًا لعدم المساس بسمعتهم، أو تشويه صورتهم حتى بعد موتهم، وذلك بأن يكون الخلف هو ابن رئيس الجمهورية نفسه؛ ذلك أن تصفية الحسابات بعد فوات الأوان آفة عربية تُمارس دائمًا، في غير حياة الرؤساء، أي بعد رحيلهم أو تنحيتهم إذا أمكن تحقيق ذلك وهم على قيد الحياة، وهو ما لا يحدث الآن بحال، أو لنقل حدث في القليل النادر من الأحوال، وفي حقب سابقة لا يمكن القياس عليها الآن، فنحن نعيش في حقبة يتولى فيها أبناء الرؤساء الحكم بعد آبائهم، الأمر الذي يجعل الحكم

وكأنه ممتد.. مع تغيير الوجوه فقط بوجوه أخرى شبيهة بأبيها، وفي العادة كان من يقومون بمهمة نبش قبور الرؤساء السابقين، هم من كانوا أقرب المقربين من الرئيس السابق، أو من كانوا من أعوانه وانقلب عليهم في حياته، فخرجوا من مخابئهم بعد مماته للتمثيل بجثته معنويًا.. ولكن الآن لن يَسمح لهم ابنه بحال أن يلوكوا سمعة أبيه بسوء. لا بل ولن يسمح لهم أصلا بالخروج من مخابئهم: ليطلقوا ألسنتهم بما كانوا يعرفون، وكانوا شهود عيان عليه!!

و لعل النموذج السوري هو خير مثال على ذلك، فمن من معاوني الرئيس حافظ الأسد ممن انقلب عليهم واستبعدهم، من أمثال رفعت الأسد الذي نُفي، أو محمود الزعبي - حليف حافظ الأسد منذ انقلاب ١٩٧٠، ورئيس وزرائه منذ عام ١٩٨٧ - الذي أطيح به، أو غيرهم، وهم كُثر، من منهم يستطيع أن يخرج من مكمنه الآن في ظل حكم بشار. ليُقلّب في الأوراق القديمة، ويشير دون أدنى ادعاء إلى ما اقترفه حافظ الأسد خلال سنوات حكمه، مثل تدمير قرية كاملة في حماة، أثناء قضائه على الإخوان المسلمين، أو ما مارسه حيال أي من معارضيه؟! وهل سيسمح الأسد الابن، أو شبل الأسد أن يتفوَّه أحد ببنت شفة في حق والده أو سلفه؟؟!

هذا ومن الملاحظ أن ستر الفضائح الرئاسية في العالم العربي - والمالية والجنسية منها على وجه الخصوص - يُعد طول سترها أو إخفائها مما يراه أي حاكم عربي من الأمور التي تدخل في إطار مراعاة مصلحة عامة للدولة ذاتها، وصيانة هيبتها.. أما الكذب على الشعب، فيما يجب أن يعرف من حقائق تتعلق بما يجب أن يُحاسب عليه الحاكم أمام شعبه، خاصة ما يتعلق منها بما يُعرِّض الدولة أو يورطها فيما يمكن أن يُهدد استقلالها مستقبلا، أو ما يتعلق بممتلكات أي رئيس الخاصة، أو بمصادر أمواله، وكيف؟ ومن أين تجيء؟ وكيف

أنفقت؟! وما مدى الانضباط والمصداقية في هذا وذاك؟ فهنا يَعتبر الرؤساء العرب الكذب واجبًا ونافعًا.. رغم أن المحاسبة علي كل ذلك حتمية، والعقاب عليه يجب أن يكون فوريًا لا يحتمل التأجيل.. كما يحدث في الغرب، والأمثلة كثيرة بدءًا من نيكسون ومحاسبته على التصنُّت خلال أزمة واتر جيت، إلى كلينتون ومحاسبته على فضيحة مونيكا جيت.. لكن أمر الصدق والشفافية، وحرية نشر المعلومات المتعلقة بالرئاسات جد مختلفة بين الشرق والغرب!!

هذا ولا يقتصر أمر المواربة وإخفاء بعض الأمور في الشرق العربي على الأمور السياسية والاقتصادية ناهيك عن الأمور العسكرية فحسب.. لكنه يمتد ليشمل بعض الأمور الشخصية المتعلقة بالرؤساء وتابعيهم، وكأمثلة عربية نسوق ما شاع عن المشير عبدالحكيم عامر ومن بعده المشير عبد الحليم أبو غزالة، كوزراء دفاع، وما شاع عن كثير من الرؤساء والملوك العرب، ولم تستطع الجماهير العربية إثبات حرف واحد منه طوال حياتهم، إلى أن تتاح الفرصة بعد تنحيتهم أو وفاتهم لكشف كل مستور. ولعل ما جاءت به طيبة الذكر اعتماد خورشيد في كتابها الشهير الذي فضحت فيه العديد من الشخصيات العامة التي لم تجرؤ -أو بمعنى أصح لم يُسمح لها- أن تذكر أسماءهم صريحة.. فاكتفت بذكر الحروف الأولى من كل اسم، وذكر بعض الصفات، بما يكفي للإشارة إليه تحديدًا، أو استنتاج شخصه، وهذا المثال بالذات يُعد نموذجًا صارخًا لما يُحاط به الوزراء والتابعون من تعتيم على كل ما يشينهم - بوصفهم ضمن هيئة الرئاسة - إلى أن يحين الحين!! ناهيك عما يُطلق حول بعض الرؤساء، والحكام العرب.. والخليجيين بالذات من شائعات الزواج الثاني، التي تقابلها زوجاتهم بالصمت التام، ولا يُشار إليه في أية وسيلة إعلام عربية بحال من الأحوال.. حتى على سبيل التكذيب

والنفي!! وإن كان لهذا النمط من الحكم الأميري أو الملكي منطق مختلف في النظر لمثل هذه الأمور يختلف عما هو سائد في النظم الجمهورية.

هذا ومن اللافت للنظر أيضًا ما يُحاط به الرؤساء في العالم العربي من تمجيد يصل إلى حد التقديس والتأليه، وكأنهم معصومون من الخطأ.. لا بل محاولة تنسيبهم إلى آل بيت النبوة، وإسباغ مسحة دينية على ولايتهم، ومن الأمثلة الصارخة لذلك أن الأمر كان يصل في مصر وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية أحيانًا إلى حد الإفتاء من قِبل رجال الدين بتسيب ملك أو أمير إلى الرسول (ﷺ)، كما حدث بالنسبة للملك فاروق في مصر، والملك الحسن في المغرب، والملك حسين في الأردن على سبيل المثال لا الحصر، أو الإفتاء بأن حاكمًا ما من الممكن أن يحكم دون أن يُسأل!! أو أن يتولى الحكم طيلة حياته!! ويحدثنا التاريخ عن الكثيرين ممن أفتى رجال الدين في شأنهم بهذا الخصوص، كما أننا شهدنا بأم أعيننا في عصرنا الحديث أن إمام الدعاة المعاصرين قد أقر للرئيس السادات بمثل ذلك.. ولا أدري هل كان هذا من باب المجاملة أم الإفتاء؟! المهم أن هذا الكلام قد ترك أثرًا ما في نفس السادات جعله يزداد صلفًا وغرورًا، وربما أكسبه شعبية أكبر لدى الناس، الذين يثقون فيما يقوله هذا الداعية - بالذات - ثقة عمياء!!

هذا ولعل تأليه الحكام في الشرق العربي له جذور تاريخية، ربما تعود إلى عصر هبوط الرسالات في هذه البقعة من الأرض بالذات، والتي يميل سكانها بفطرتهم إلى تأليه كل من يحبون، أو يتبعون، وأبرز مثال على ذلك ما كان من المسيحيين حينما قالوا : إن المسيح عليه السلام هو ابن الله، ومغالاة بعض المسلمين كمثال في كتاب "

دلائل النبوة "، فيما رووه عن النبي صلى الله عليه وسلم من قصص مبالغ فيها، تدور حول أمور نبّه الرسول بنفسه لها قبل وفاته: حينما حسم أمر بشريّته في حديث صحيح يقول : " إنما أنا بشرٌ مثلكم.. أسير في الأسواق وأتزوج النساء "؛ تجنبًا لأن يدَّعي له أحد بالألوهية، وأكدها الخليفة الأول أبو بكر الصديق، حينما توفي رسول الله (ﷺ) فقال معلنًا ذلك للعامة، ومؤكدًا الطبيعة البشرية للنبي (ﷺ) في قوله: " من كان منكم يعبُد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ".. ورغم ذلك نجد في شرقنا العربي من لا زالوا يؤلهون حكامهم ويقدسونهم وينزهونهم عن الهوى وكأنهم أنبياء بتسيبهم إلى هؤلاء الأنبياء والمعصومين!!

و يستتبع هذه العصمة بالضرورة أن الرئيس الملهم لا يُخطئ مطلقًا، وبالتالي يجب أن يحكم أبد الدهر أو إلى نهاية أجله، وكثرة ترديد هذه المقولات من المنافقين والتابعين المتملقين وما أكثرهم الآن من كتاب وصحفيين وإعلاميين، ينجحون غالبًا في إيهام الحكام بهذه العصمة ويصيبونهم بالغرور، فيصدقون الكذبة ويعيشونها بكل حواسهم، ولذلك لم تعرف مصر - على سبيل المثال - حاكمًا تنازل عن الحكم طواعية، أو عن طريق تداول السلطة.. لا بل كان السبب في تغيير الحاكم غالبًا الموت غيلة، أو بالموت الطبيعي، إذ يصبح نفاذ أمر الله دائمًا هو المنقذ للشعب المصري من حُكامه.. الذين كرههم وسخر منهم قديمًا في أمثاله ونوادره الشعبية، ثم سخر منهم حديثاً فيما يُطلِقه عليهم من نكات سياسية، وقد رُصِدت هذه الظاهرة في عدة مؤلفات قديمة وحديثة[1]، يمكن الرجوع إليها للوقوف على حجم

---

(١) راجع جون لويس بوركهارت- العادات و التقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي - ترجمة د. إبراهيم شعلان ، و عادل حمودة- النكتة السياسية كيف يسخر المصريون من حكامهم ؟.

السخرية المصرية من الحُكام عبر العصور، وأيضًا لمعرفة كم التملق والنفاق الذي يمارسه المصريون حيال حكامهم؛ خوفًا ورهبة، منذ بدأت الدولة المصرية.. وهي قديمة قدم الدهر؛ فمصر - كما هو معروف - أولى بلدان الدنيا معرفة بنظام الدولة ومؤسساتها الحاكمة.

هذا ونجد أيضًا أن معظم الحكام في الدول العربية - والخليجية بالذات - التي يُعتبر نظام الحكم فيها وراثيًا لم يتنازلوا عن الإمارة أو المشيخة أو المُلك إلا بالموت الطبيعي، أو باستعجال الموت من قبل أحد أفراد الأسرة الحاكمة، بالانقلاب عليهم، وممن؟! من أقرب المقربين للحاكم -الأخ أو الابن - ويتم ذلك أحيانًا بالقتل، كما حدث مع الملك فيصل بن سعود الذي اغتيل.. وليس بمجرد الانقلاب السلمي الذي يُجبر الحاكم على الرحيل أو النفي خارج البلاد - كما حدث بالنسبة للملك سعود بن عبد العزيز، الذي نفي إلى مصر في الخمسينيات - وأقرب مثال على تغيير السلطة بالانقلاب على الحاكم ما حدث خلال العقود الخمسة الماضية في دولة قطر، وفي سلطنة عُمان، وإمارة الشارقة، وإمارة أبو ظبي.. وغيرها كثير.

و العجيب حقًا أن الشرقيين بالذات من عرب وعجم هم الموصومون بالخنوع، والخضوع للحكام لفترات طويلة.. قبل أن يثوروا على حاكم ليخلعوه، أو يطيحوا به، ويعجب " البستاني " من أن الناس يمكن أن تتقبل الطغيان بغير شكوى أو تذمر، وهي الصفة التي ألصقها أرسطو بالشرقيين، إذ كان يرى أنهم "يحملون طبيعة العبيد"؛ ولهذا السبب لا يتذمرون من حكم الطاغية!؛ ولذا كان يرى في نظريته السياسية أن الحكم المستبد أو الطغيان يتمثل " بمعناه الدقيق في الطغيان الشرقي، حيث نجد لدى الشعوب الآسيوية على خلاف الشعوب الأوروبية طبيعة العبيد،

وهي لهذا تتحمل حكم الطغاة بغير شكوى أو تدمر!(١).

هذا وقد يُقيِّم البعض هذه الآراء على أنها آراء غربية في مجملها، الهدف منها الحط من شأن الشرقيين، وهي سمة غربية كانت وما زالت مستمرة، فكل قوم يسعون إلى الإعلاء من شأن أنفسهم بالترويج لأقوال على شاكلة : " ألمانيا فوق الجميع "، التي أطلقها هتلر، أو القول بأن : " اليهود شعب الله المختار "، كشكل من أشكال التعصب الشوفيني الذي بات الآن مستهجنًا.. لكني أورد هنا كل الآراء مهما كانت قسوتها؛ حتى يتسنى لنا كعرب الخلوص إلى حكم صحيح على أنفسنا.. دون مغالاة في تقدير الذات، وكي نستطيع الإجابة على السؤال الذي ما زال يُحير الكثيرين وأنا أولهم : لماذا يؤلِّه الشرقيون حكامهم؟!

و قد لاحظنا أيضًا في إطار تقديس الحكام أو الإيهام بهذه القدسية والإلهام الإلهي أن الشرقيين والعرب منهم على وجه الخصوص كانوا مولعين بإطلاق الألقاب والمسميات المتضمنة لسمات موحية على حكامهم عبر تاريخهم الطويل وحتى الآن. وقد تراوحت هذه المسميات بين : المنصور، والمهدي، والرشيد، والمعتصم، والحاكم بأمر الله، والمعز لدين الله، وغيرها كثير، ثم تطورت قليلا من حيث المعنى، لتصبح الزعيم الملهم، والرئيس المناضل، والأخ العقيد، والوالد الشيخ، والمجاهد الأول، والقائد المهيب، والرئيس المؤمن، والمهيب الركن، والزعيم الخالد، والأمير المفدى، أو الملك المعظم، والقائد البطل، وطويل العمر، إلى آخر هذه المسميات التي ملها الناس وبدأت تفقد المغزى من إطلاقها.

و يؤكد الكواكبي في رصده لطبائع الاستبداد مسئولية الشعوب عن تحكم الطغاة فيهم؛ بوصفهم هم من حكَّموهم عليهم، فيقول : "إن

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام – مرجع سابق – ص١٢٧ .

الله جلت حِكمته قد جعل الأمم مسئولة عن أعمال من حكَّمته عليها، وهذا حق فإذا لم تُحسِن أمة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها، كما تفعل الشرائع بإقامة القيِّم على القاصر أو السفيه، وهذه حكمته، ومتى بلغت أمة رشدها استرجعت عزها، وهذا عدل، وهكذا، إن الله لا يظلِم الناس شيئًا .. ولكن الناس أنفسهم يظلمون"[1]، ولعل هذا القول يصدق أكثر ما يصدق على حال العراق الآن بعد طول صبر من شعبه على صدام، كما يصدُق على كثير من الدول العربية التي رضيت شعوبها بولاية من يورطهم في شتى أشكال التبعية توطئة للاستعمار بكل أشكاله المستحدثة، الأمر الذي يجب أن تنتبه إليه الشعوب العربية مبكرًا فلا تولّي إلا من يُصلح، ولا ترضى باستمرار حكم إلا من يعزها ويصون استقلالها ولا يقودها إلى حتفها وذلها .

و يوصِّف دكتور عبد الغفار مكاوي حالنا في الشرق حيال المستبدين من حكامنا قديمًا وحديثًا، ويشير إلى أن ما نعانيه اليوم من مشكلات حادة مثل : التعصب والتطرف، والتي قد لا تبدو متصلة بشكل مباشر بنوعية الرئيس أو الحاكم الذي وليناه واخترناه أو تساهلنا في اختياره، وخضعنا لسلطته غير مدركين لخطر ذلك على شعوبنا إنما هو أمر يتصل بنوعية الحاكم مباشرة، ويصوغ دكتور مكاوي هذا المعنى قائلا بالنص : "إننا لم نسيطر بعد على مشكلة الطاغية ومأساة الطغيان في تاريخنا القديم والحديث والمعاصر، ولم نستطع بعد أن نقبض عليها بالفكر - إذا جاز هذا التعبير - ولم نسلط عليها أضواء البحث العلمي الجاد في كل أبعادها ... ومع أن مفهوم الطغيان يرتبط بمفاهيم أخرى عديدة تنتمي إلى عائلته المشئومة كالاستبداد والتسلط والتحكم الفردي المطلق والدكتاتورية

---

(١) "طبائع الاستبداد : المواجهة - التنوير" - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣م - ص١٠١ .

والشمولية ... إلخ، ومع أنه لا يقتصر على حاكم أو نظام بعينه، وإنما يمد ظلال لعنته الكئيبة على مختلف وجوه حياتنا وتفكيرنا وسلوكنا وتعليمنا وإرادتنا.. إلخ، ويثمر ثماره المسمومة في ألوان التعصب والتطرف وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة التي نشقى اليوم بقصصها، ونتوجس خيفة من أخطارها.. بل وفي ردود الفعل المتشنجة عند الكثيرين ممن يتصدون لها"[1]، ويؤكد ذلك ما أدعو له من ضرورة التقليل من تفخيم وتضخيم ذوات الرؤساء، وتحويلهم من خلال وسائل الإعلام إلى طغاة، لنعود بعد ذلك إلى الشكوى من تأليههم لذواتهم، والحقيقة أننا قد ساهمنا في هذا التأليه فرادى وجماعات.. كيف؟ بالدعاية الكاذبة أولا، ثم بالصمت على هذه الدعاية وتلقّيها بسلبية.. دون أدنى محاولة لتفنيدها أو الرد عليها.

هذا ومن الأمور الأخرى التي تحتمل المقارنة والمقاربة بين صورة الرؤساء في الغرب وفي العالم العربي رصد المظهر الشاب كقيمة حاكمة ومرغوبة في صورة الرؤساء، وهو أمر - كما سبق القول - يختلف فيه الشرق عن الغرب بشكل واضح، فالشباب لا يُعتبر قيمة لها اعتبارها في صورة الرئيس العربي، ومع ذلك نجد أن رؤساءنا قد بدءوا يقلدون الرؤساء الغربيين في هذا التوجه، فمعظمهم يصبغون شعورهم ولحاهم بشكل يتناقض مع قسمات وجوههم التي تنضح بالكبر من كثرة ما يرتسم عليها من تجاعيد، وينسحب أمر التصابي وصبغ الشعر على معظمهم.. اللهم إلا الملك حسين بن طلال ملك الأردن الراحل، الذي كان يتمتع حتى قبل سنوات من وفاته بمظهر شاب، أتاحته له نحافته وجسمه الرياضي أو لياقته البدنية كطيار، ولعله ثقته بنفسه كملك منسب إلى البيت الهاشمي، لم يكتسب عرشه

---

(١) "جذور الاستبداد: قراءة في أدب قديم" - عالم المعرفة ١٩٢ - ١٩٩٤م - الكويت ص١٠، ١١.

بالقوة العسكرية.. بل إن قوة عرشه، وشرعية حكمه مستمدة - في تصوره - من نسبه للنبي، لعل ذلك ما جعله لم يشعر بأنه في حاجة إلى التصابي والشباب كقيمة في رسم صورته.. حتى بعد أن أصابه المرض وغير عيئته تمامًا.. وإن كانت مشاركته في سباقات السيارات وقيادته لطائرته الخاصة بنفسه، ومساهماته بالرعاية لكل الأنشطة الرياضية والشبابية، كانت ترسم له صورة شابة، تقربه أكثر من شعبه، بالإضافة طبعًا لاتباعه للأساليب المعتادة من الملوك من رعاية الأعمال الخيرية، ورعايته لأنشطة الرعاية الصحية والاجتماعية للأيتام هو وزوجاته، وأميرات وأمراء الأسرة الحاكمة، التي كانت تعد ملمحًا إنسانيًا يجد صدى طيبًا لدى الناس، ويُحسِّن صورته لديهم، هو وأسرته، وولي عهده، وهو أسلوب تقليدي معتاد بالنسبة للملوك والأباطرة والسلاطين في كل العصور.. وقد نشطت وسائل الإعلام الأردنية والعربية حتى بعد وفاته وبدأت حملة جديدة للتركيز على الجوانب الخيرة في حياته، تبنتها معظم التليفزيونات العربية، ومهدت لقبول ابنه الشاب الملك عبد الله الثاني.

هذا وقد أكد الكاتب الصحفي أحمد بهجت ما أذهب إليه من " أن الفلسفة الغربية المعتمدة على الشباب كقيمة غير قائمة في الشرق؛ حيث يتقدم الشعر الأبيض عادة، ويعتبر الناس أن الحكمة قرينة الشيخوخة، وأن الشباب هو الرعونة والاندفاع، وهذا يُقلل من فرصة الشباب في قيادة الحياة وتغييرها، ويقف عقبة في الغالب أمام نمو الأفكار الجديدة"(1)، والحقيقة أن الكلام الأخير بالذات كان من الممكن أن يصدق حتى مطلع الخمسينيات، حينما اختار رجال الثورة المصرية الرئيس محمد نجيب؛ لكبر سنه حيث يستطيع أن يُقنع الشعب بأنه قائد ثورة ورئيس دولة، بينما كانوا جميعًا من الشباب،

(1) الأهرام - عمود " صندوق الدنيا " - 10 / 10 / 1998م - ص2.

وحتى في نهاية الستينيات حينما كسا الشعر الأبيض فودي الرئيس جمال عبد الناصر ازداد ارتباط الشعب به؛ بوصفه أبًا للجميع، وزادت شعبيته، لكن ما يحدث على الساحة العربية الآن من تمسك الرؤساء العرب المخضرمين بمظاهر الشباب، وتولي بعض الملوك والرؤساء الشبان سدة الحكم، يعكس بشكل أو بآخر مدى تأثرنا بالقيم الغربية في هذا المجال.

هذا ويرتبط بالمظهر الشاب ممارسة الرياضة، والاعتناء بالملبس والأناقة بالنسبة للرؤساء في الغرب، ويشرف على هذا الأمر - كما سبق القول - خبراء متخصصون في هذه المهمة، يُعلن عن أسمائهم وهم معروفون ويستعين بهم أيضًا رؤساء الوزارات وبعض الشخصيات العامة.. ولكن تعالوا نفترض أن أحد الرؤساء العرب قد أعلن، أو سمح بتسريب بعض المعلومات عن مصادر انتقاء ملابسه، أو أوقات تريُّضه أو ممارسة هواياته -كما فعل الرئيس السادات كمثال - حتى لو كانت كل هذه الأمور يَعتني بها ويُمارسها بنفسه.. وليس لديه أي معاونين أو خبراء لمساعدته في تنظيم مثل هذه المهام.. فهل كان الجمهور المصري سيستوعب ذلك؟! بالطبع لا، وألف لا.. فرغم أن وجود مثل هؤلاء الخبراء قد أصبح ضرورة، بالنسبة لأي إنسان مشغول كالنجوم والفنانين، أو من لديهم مهام جسام عليهم إنجازها بأنفسهم، كرؤساء الدول ورؤساء الوزارات، الأمر الذي يستوجب ضرورة وجود مساعدين للعناية بالأمور الأقل أهمية.. حتى لو تقاضوا مبالغ طائلة.. لأن وجودهم في هذه الحالات قد بات ضروريًا في حياة أي نجم أو مسئول أو رئيس.. لكن الشعوب العربية ستجد مئات بل آلاف الثغرات لتنفذ منها؛ لانتقاد الرئيس الذي يستعين بمن يساعده على قضاء احتياجاته الشخصية؛ كي يظهر بالمظهر اللائق به كرئيس تتسلط عليه الأضواء، بوصفه لا يُمثل

نفسه فقط أمام العالم.. بل يمثل شعبه ودولته.

هذا وعلى أي حال تتفاوت النظرة إلى الشباب، أو التشبب كقيمة من شعب عربي لآخر، فقد يُسمح مثلا بالتصابي، وصبغ الشعر واللحى في دول الخليج دون حرج، ليس بالنسبة للحكام فحسب، ولكن بالنسبة للوزراء والحاشية، كما أن ارتداء أفخر الثياب، وتسرُّب بعض الشائعات عن زيجة ثانية وثالثة، أو حتى رابعة قد يكون مقبولا في الجزيرة والخليج، أو في الدول الغنية.. لكن النظرة للأمر تختلف في بعض الدول العربية، التي تعاني شعوبها اقتصاديًا، وتنظر لمثل هذه الأمور بوصفها ترفًا لا مجال له في حكم شعوب تطحنها الأزمات.

و لعل التمسك بالشباب كقوة دافعة نحو التغيير، في أمريكا بالذات، وفي الغرب بوجه عام هو الحافز الذي جعل بعض الدول العربية تسعى أيضًا إلى وضع القيادات الشابة في الصدارة؛ ربما تقليدًا لأمريكا، وربما لأسباب أخرى، قد يكون في مقدمتها أن بعضهم قد صعد إلى السلطة أو الرئاسة بحكم الوراثة، وبأمر من ملاك الموت، في هذا السن المبكر بالذات، كما حدث في الأردن بعد وفاة الملك حسين بن طلال، وفي المغرب بعد وفاة الملك الحسن الثاني، وفي سوريا أيضًا بعد وفاة الرئيس الأسد -مع الفارق - إذ كان تولي الملك الشاب عبد الله الثاني، والملك الشاب محمد السادس أمرًا حتمته الوراثة الملكية، في حين كان تولي الشاب بشار الأسد الرئاسة في هذه السن الصغيرة، وتخطيه لشيوخ السياسة السورية وأساطينها. أمرًا مثيرًا للجدل، ويبدو غير مبررًا على الإطلاق!! خاصة بعد السعي لتغيير الدستور السوري على وجه السرعة لتولي الشاب بشار!! والحبل على الجرار في تولي الشباب مناصب الرؤساء، والملوك في العالم العربي!! حيث إن العمر الافتراضي معظم

الرؤساء والملوك الحاليين قد تجاوز السبعين أو يزيد، المهم أن هؤلاء الشباب القادمين سيتولون دون خبرة سياسية حقيقية مارسوها وسط جماهير الأحزاب الحاكمة!! أو لعل خبراء الصورة الذهنية والشخصيات المحيطة بهم يحاولون تأهيلهم سياسيًا: كتمهيد لتوليهم سدة الحكم.

و هنا يجدر أن نعيد التذكير بما تواتر من تلميحات تفيد باحتمال تولي جمال مبارك ابن الرئيس المصري حسني مبارك الرئاسة، وقد تداولت هذا الطرح مقالات على شبكة الإنترنت، الأمر الذي حدا بالرئيس مبارك إلى أن ينفي علنًا هذه النية، أو هذا التوجه نفيًا قاطعًا، قائلا ما معناه : إن مصر ليست سوريا،، فمصر دولة مؤسسات، ملمحًا إلى تغيير الدستور السوري على عجل؛ لحساب الشاب بشَّار الأسد، وهو أمر يصعب حدوثه في مصر لحساب أي من كان؛ خاصة وأن الأحزاب تنادي منذ أمد بعيد بتغيير الدستور، وتتلكأ الحكومة في تحقيق ذلك ولا ترى مبررًا له، ومن غير المعقول أن يتم تعديل الدستور على نفس النهج السوري ويسلم الشعب المصري بذلك.. ورغم هذا النفي وهذه التكهنات يلاحظ أصحاب الوعي في مصر، ممارسة أساليب أمريكية الصنع لتمرير مبارك الابن كشاب واعد يتولى أمانة السياسات في الحزب الوطني الحاكم، ويجالس أساطين السياسة المصريين رأسًا برأس.. لا بل ورأسه يعلو رءوسهم بهامته الفارعة المنتصبة، وتحاول زوايا التصوير الصحفي والتليفزيوني أن تظهره وهو يجاور أمين عام الحزب، وكل المجتمعين وهم يقلّبون في أوراق أمامهم، وهو ممثلا لعصره تمامًا - عصر التكنولوجيا والمعلومات - ينظر في شاشة كومبيوتر محمول (Lap top)، ناهيك عن الإعلان الدائم عن تبنّيه لقضايا الشباب المصري المتعلقة بالتأهل للعمل والقضاء على البطالة من خلال جمعية شباب

المستقبل، ومحاولته الاقتراب من الشباب بوصفه مرشحهم، أو رئيسهم القادم.

هذا ولعل كثرة الحكام العرب من الشباب كانت من الأمور التي جعلت المخضرمين من الرؤساء العرب يتمسكون أكثر بالظهور بمظهر الشباب؛ حتى يجاروا نظراءهم الجدد من الشباب الحقيقيين، وحتى لا يبدو مظهرهم نشازًا إلى جانب من يلعبون معهم أو أمامهم لعبة الرئاسة، ولو من حيث الصورة الفوتوغرافية التي تعكسها كاميرات الصحف والتليفزيون.. ولا أقول من حيث الصورة الذهنية المنطبعة فحسب.

بعد هذه النقطة ننتقل إلى مقارنة أخرى بين ما يحدث في الغرب وما يحدث في الشرق العربي حول أمر هام في رسم صورة الرؤساء هنا وهناك، وهو تقديم الرؤساء لأنفسهم بأنفسهم؛ نتيجة لما يصدر عنهم من تصرفات، أو ما يصدر منهم من هفوات أو زالات لسان، يسعى الغربيون إلى تلافيها على وجه السرعة، في حين يهملها المحيطون بالرؤساء العرب.. رغم ما تحدثه من تشويه لصورة هؤلاء الرؤساء، بشكل يدعو للتهكم عليهم شخصيًا.. لا بل وقد يسيء إلى الصورة العربية بوجه عام، ويشوه ملامحها بشكل يصعب معه بعد ذلك محو الأثر الذي قد تتركه مثل هذه الهفوات التي لا يلتفت إليها المحيطون بالرؤساء العرب من الصحفيين والمتخصصين في الإعلام.. لا بل إنهم قد يتركونها عامدين؛ متصورين أنها قد تقرّب الرئيس أكثر إلى عامة الناس، أو تؤكد ملمحًا محببًا، يريدون أن يظهر الرئيس به أمام شعبه، بشكل يعكس بساطته وتلقائيته.. غير متحسبين لما قد تتركه من أثر معاكس، أو ما قد تتركه من أثر لدى الشعوب الأخرى؛ فالعالم قد أصبح صغيرًا إلى حد لا يمكن تجاهله، والمفروض أن يُعمل حساب لكل كلمة ترد على لسان أي

رئيس عربي، في أي مناسبة، وفي أي مجال.

و النماذج على هفوات الرؤساء العرب كثيرة، نذكر منها هنا أن أحد الرؤساء قد استوقف وزير نفطه، أثناء افتتاح آبار بترولية جديدة؛ ليسأله سؤالا قطع استرسال الوزير وهو يشرح بأسلوب علمي مبسط، فإذا بالرئيس يسأله سؤالا غاية في السذاجة والجهل! الذي لا يمكن أن يصدر عن رئيس دولة، وخجل الوزير أن يلفت نظره إلى أن ما يقوله خاطئ، واسترسل في الشرح، ولم يكلف القائمون على إذاعة هذا اللقاء تليفزيونيًا خاطرهم بحذف هذا السؤال من التغطية الخبرية.. رغم ما يمارسونه عادة من عملية مونتاج باتر لكثير مما يدور في اللقاءات الجماهيرية للرؤساء، ولعل من أكثر هذه الهفوات فجاجة، ما ورد من تهديد على لسان الرئيس السادات في إحدى خطبه من أن من يخالفه سيفرُمه - على حد تعبيره - أو وصفه لأحد رجال الدين بأنه كلب إبان خريف الغضب عام ١٩٨١م، والنماذج في هذا الصدد أكثر من أن تحصى، وهي من الأمور الواجب الالتفات إليها من قبل من يتصدون لتشكيل صور الرؤساء العرب وتحسينها.

هذا وقبل أن ننتقل إلى عرض تلخيص لأهم ما خلصت إليه هذه الدراسة لا بد من الإشارة إلى أن صورة الرؤساء لا يقتصر معناها فقط على من يتولون رئاسة الدول فحسب.. ولكنها تنسحب أيضًا على القيادات الثورية، والزعامات الشعبية التي تلتف حولها الجماهير، وتطلق عليها المسميات الداعمة لشعبيتها، من نوعية ما كان يطلق على سعد باشا زغلول كمثال من أنه " نبي الوطنية ".. سواء جاءت هذه التسمية من جماهير الشعب أو من مُريديه والسياسيين المحيطين به، والذين كانوا يشاركون في صنع صورته، ويدعمون شعبيته ويؤكدونها، ثم لا يستطيعون السيطرة على ما صنعته أيديهم، وهو أمر متكرر مع معظم القيادات الثورية ذات

الشعبية الكاسحة التي قد تُفسِدها هذه الجماهيرية.

و هنا تجدر الإشارة كنموذج لذلك إلى التباين الذي أحاط شخصية وصورة الزعيم سعد زغلول. إذ تشير بعض المراجع إلى أنه كانت له شخصية طاغية لو وقع الناخب تحت تأثيرها فإن تصويته يكون باطلا: لأنه لن يُصبح اختيارًا حرًا، وتؤكد ذلك عفاف لطفي السيد -التي تنتمي إلى المدرسة الليبرالية وحكم الصفوة - إذ تشير إلى أن سعد باشا في آخر أيامه كان ككل الرؤساء الذين تفسدهم الشعبية الكاسحة، وما تطلقه عليهم الجماهير من ألقاب، مما يجعلهم يتحولون إلى الاستبداد.. رغم أنهم في الأصل زعماء شعبيون، إذ تقول عن الزعيم الشعبي سعد زغلول : " لقد صار يعتبر نفسه خلاصة تجسيد مصر، ويعتبر أن واجب الأعضاء الآخرين اتباعه، وتحوَّل من خادم للبريطانيين ليصبح رمزًا لمطامح المستقبل "، وتقول : " اكتشف فيه زملاؤه أنه مثل فرانكشتين خلقوه ولم يعودوا قادرين على إيقافه عند حده ... وساعد مرضه وشيخوخته على تقوية استبداداته، وجعله ملولا لا يقبل المعارضة والمجادلة " و" وكان فلاحًا بأعمق أحاسيسه، يتصرف بمفرده ويرتاب في الآخرين ويتشكك في مواقفهم ". وكان وحشًا سياسيًا لو استدعى الأمر لحارب مستخدمًا أدنى الوسائل، وإذا واتته فرصة قلّما يؤنبه ضميره عن طعن شركائه في ظهورهم! "، وتظهر دهشتها البالغة من المكانة التي احتلها سعد.. رغم أنه لم يكن أدهى رجل سياسي في مصر: فقد كان ذلك وقفًا على إسماعيل صدقي، ولم يكن أعظم مفكر إذ كان ذلك الدور هو دور أحمد لطفي السيد، ولم يكن أكثر الساسة نشاطًا، إذ كانت هذه صفة مصطفى النحاس ... إن سلوك سعد معيب بدرجة لا يمكن تصديقها! "[1]، وبعيدًا عن الحملة التي تعرضت لها صورة سعد من

(١) مصطفى نبيل - خفايا و ملامح شخصية - مكتبة الأسرة ٢٠٠١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ص ١٢٥ .

المحيطين به وانفصالهم عنه، أرى أن ما أذكره هنا كفيل بتصوير ما تفعله المبالغة في تقديس وتنزيه أي زعيم إلى حد تحويله إلى دكتاتور، يتسلط على شعبه وعلى صانعيه، وهو أمر شائع الحدوث في عالمنا العربي الذي نفسد فيه رؤساءنا بما ننفخه فيهم، وفي صورهم الذهنية المبالغ فيها.

و كما تفسد الجماهير صانعة الصورة بعض الزعامات الثورية بمبالغاتها، نجدها وبنفس القدر تشوه وتحطم صورة الزعامات التي فشلت ثوراتها بشكل يُسيء إليهم ويدمر صورهم الذهنية، وكنموذج لذلك نشير إلى ما قيل عن الزعيم الوطني أحمد عرابي كمثال وسجّله عبد الله النديم كظواهر أعقبت الهزيمة العرابية، إذ يقول: "أرى الذين طاروا خلفنا بأجنحة الأغراض الذاتية وملئوا البلاد مدحًا وثناء عادوا لمكاتبة الجرائد بالذم والأهاجي شأن عبدة الأوهام، وحكاة صد المنادي من غير فهم معناه"، ويرسل لعرابي من مخبئه قائلا : " لا تثق بصاحب أو صديق؛ فإن الناس تغيرت أحوالهم، وأصبح يذمكم من كان يمدحكم... وعندما عاد من المنفى لم يجد أحدًا يذكره إلا بسوء، واستقبله شوقي الذي يعمل في قصر الخديو بقصيدته:

صغار في الذهاب وفي الإياب   أهذا كل شأنك يا عرابي"[1]

لكننا نرى أن الأيام قد امتدت بعرابي ليدافع عن نفسه، ويصحح صورته إلى حد ما في مذكراته وبمبالغة في تصوير مواقفه الوطنية، كما نرى أن الوجدان الشعبي الصادق قد لخص فهمه لموقف عرابي في مثل شعبي ما زال متواترًا على الألسنة يقول : " الوَلس قتل عرابي"؛ تبرئة لساحته، ناهيك عما هو سائد بين العامة، وتسجله بعض الكتب المدرسية من إشارة إلى بطولة عرابي وشجاعته الأدبية في لقائه بالخديوي ومواجهته وهو يمتطي صهوة جواده، ومقولته

(١) المرجع السابق – ص ١٣١ .

الشـهيـرة المتداولة بين العـامـة، التـي تضـيـف إليـه ملمـحًـا بطوليًـا أسطوريًا وهو يقول : " متى استعبدتمونا وقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا؟! ووالله لن نورث أو نستعبـد بعـد اليـوم ".. ورغم مـا يؤكـده المؤرخـون والأكاديميون من أساتذة التاريخ من عدم صدق هذه الواقعة، أو عدم حدوثها وفقًا لهذه الملابسات، وعدم دقة هذه المقولة أو إمكانية أن تصدر عن عرابي.. إلا أن الوجدان الشعبي المصري آلى على نفسه إلا أن يُنصِف بطله الشعبي، ويُحسِّن صورته، ويضيف إليها من عنده ملامح بطولة خارقة!!.. لماذا؟! إنه المزاج الشعبي المصري الميَّال إلى صناعة البطل وتوهمه.. حتى لو لم يجده.

أما سعد زغلول فقد نال أيضًا نصيبًا من التشويه من بعد فشل الثورة، وملابسات ما تلاها من أحداث، فبعد أن كان نبي الوطنية، "لم يسلم من الاتهامات التي تحسب عليه مناوراته مع الاحتلال، وتقسو عليه وتتهمه بالانتهازية تارة، وبالتطرف في الوطنية تارة أخرى"[1]، فاتُّهِم من بين ما اتهم به من قِبل الإنجليز ومن قِبل زعماء مصريين آخرين بأنه متشدد ومضلل، يستطيع تهييج الجماهير.. لكنه تعوزه الحكمة والشجاعة للسيطرة عليها، وأنه ضيق الأفق وشكاك، وليست لديه موهبة الأخذ والعطاء ولا موهبة التفاوض، وأنه مستسلم للغوغاء، وأنه مُتسلِّط، وميَّال بطبعه لفرض رأيه على غيره وإلزامه به، ولا يُقيم وزنًا إلا لرأيه، ولا يحسب لأحد غيره حسابًا، وكأنه هو كل شيء في البلاد، وهذه كانت خلاصة آراء المرشال الإنجليزي ويفل، ومحمد حسنين هيكل وعبد العزيز فهمي وغيرهم في سعد زغلول الزعيم الوطني وقائد ثورة ١٩١٩.

و لا يفوتنا هنا إعادة التذكير بما تعرضت له صورة الرئيس جمال عبد الناصر من تشويه بعد نكسة يونيو ١٩٦٧م، التي اتُّخِذت كذريعة

(١) المرجع السابق – ص ١٢٤ .

أو سند للنيل من صورته بعد وفاته، على يد الرئيس أنور السادات، وحوارييه من الكتاب الصحفيين والسياسيين على حد سواء.. لكن التاريخ في قادم الأيام قد يقول كلمته ويصحح ما أصاب هذه الصورة من تشويه وتظليل، كما حدث بالنسبة للزعماء الثوريين الآخرين سعد وعرابي.

أما عن خلاصة هذه الدراسة كما يمكن أن نجملها في نقاط محددة فهي كالتالي :

* إن صناعة الصورة في العالم العربي لم تتغير كثيرًا.. رغم تطور وتعدد وسائل رسمها، فالمحتوى والمضمون يكاد أن يكون واحدًا مع اختلاف الأسلوب فقط، والتركيز على سمات بعينها باختلافات طفيفة.
* يحرصون في الغرب على قياس دوري لشعبية الرؤساء، والرأي العام السائد بشأنهم.. في حين لا يوجد قياس دائم للرأي العام حول صور الرؤساء العرب؛ لتصحيح برامج الصورة - إن وجدت هذه البرامج العلمية أصلا - ولا يُعلن أي شيء عن تدني شعبية أي رئيس عربي.. بل يظلون يتغنون بأن عصره أزهى العصور.. رغم معاناة معظم فئات الشعب في ظل حكمه.
* صُنَّاع الصورة كانوا موجودين دائمًا عبر التاريخ في الشرق والغرب.. ولكن تحت مسميات أخرى مختلفة (شعراء البلاط، رجال الحاشية، العاملون في الديوان ... إلخ).
* عنصر المبالغة كان وما زال هو السائد في وصف الحكام العرب، حتى وصل إلى حد التأليه وكأن الحاكم نبي لا ينطق عن الهوى! وغالبًا ما كانوا يُنسِّبون الحكام والملوك إلى النبي (ﷺ).. في حين حاولوا في أمريكا مثلا تنسيب بوش إلى أصول ملكية.

* إن الجذور التاريخية (الفرعونية، والبابلية، والفارسية) كان لها تأثيرها في تأليهنا للحكام في الشرق وخضوعنا لهم.
* إن الأحداث الجسام تؤثر عادة في صناعة صور الرؤساء، وأبرزها الحروب والثورات، وتتراوح صورة قادتها عادة بين البطل للمنتصر أو الدكتاتور للمهزوم.
* كان الحكام دائمًا موضع كراهية من المحكومين، وأحيانًا موضع سخرية وتفكه الشعوب (خاصة في مصر على يد شعبها الساخر دائمًا)
* هناك اختلاف لغوي ومُصطلحي لمعنى السلطة والرئاسة بين اللغتين العربية والإنجليزية.
* السلطة في العالم العربي تشريف وسيادة وامتيازات، يتكالب عليها الناس، ويسعون لها، ويتمسكون بها إذا نالوها.
* هناك فرق بين القيم التي تُبنى عليها صورة الرؤساء في الشرق وفي الغرب، فالصورة لا بد أن تستمد قيمها من واقع المجتمع نفسه الذي يُروَّج لها فيه.. ورغم وجود اختلاف بين القيم في الشرق والغرب بدأت البلاد العربية تتأثر بالقيم الغربية في تقديم الصورة.
* من أهم القيم التي تُبنى عليها صورة الرؤساء في الغرب الشباب بكل ما يعنيه من : رومانسية وإظهار للمشاعر المتأججة، وممارسة للرياضة والرقص، والقوة الجسدية واللياقة البدنية أو الفتوة، وروح الدعابة والمرح، والاهتمام بالمظهر الأنيق، والفكر الجديد المتحرر، واستخدام المستحدثات العلمية الحديثة.
* الصدق قيمة مهمة في الغرب، ولا يُقبل من الرئيس أي نوع من الكذب بحال من الأحوال، فالمطلوب هو الشفافية الكاملة.. في حين قد يُقبل من الرئيس هناك رذائل أخرى-بمنطقتنا الشرقي-

يمكن أن يتقبل المجتمع الغربي الاعتراف بها، والاعتذار عنها.

* الكذب آفة متفشية بين معظم الرؤساء العرب دون ضابط، ولا يملك أحد في العالم العربي أن يقول للغولة عينك حمرة!!

* الرؤساء العرب دون غيرهم لا يملكون شجاعة الاعتراف بالخطأ؛ لأن الشعوب قد لا تغفر لهم خطاياهم، وغالبًا لا يُكشف النقاب عن كذب الرؤساء العرب إلا بعد أن يكونوا في ذمة التاريخ.

* لا يملك أحد في العالم العربي مساءلة الرؤساء وهم في سدة الحكم، وأقصى ما يمكن في أكثر الدول العربية ادعاءً لممارسة الديمقراطية أن يُساءل الوزراء أو رؤساء الوزارات.

* الرأفة والرفق بالحيوان ملمح أو قيمة هامة في صورة الرئيس الغربي، يحرص المخططون لصناعة الصورة على تأكيدها كسمة أساسية فيه.. ولكن ليس لها نفس الأثر في العالم العربي، أمَّا التبسُّط والحنو على الأطفال فيُعد قيمة إنسانية لا فرق فيها بين شرق وغرب؛ لذا يحرص الرؤساء العرب على إظهار حنوهم على الأطفال، وتواضعهم مع البسطاء من الناس، وتقديرهم لآلامهم ومعاناتهم.

* لم يكن التدين يعد قيمة تشكَّل على أساسها صورة الرؤساء في الغرب حتى ثلاثة عقود مضت.. لكنه بدأ يعمل له حساب في رسم الصورة بعد تنامي المد الديني في العالم كله.. وإن كان ليس بالمفهوم الشرقي كممارسة عبادات وطقوس.. وإنما كفكر يربط بين المسيحية واليهودية؛ كسبًا لأصوات اليهود المتشددين، ويأخذ شكل التبرع للجهات الدينية الخيرية، والاستشهاد في الخطب بالإنجيل وأقوال السيد المسيح؛ لكسب أصوات المتدينين أو الإنجيليين الجدد.

* لصناعة صورة الرؤساء في الغرب أساليب ووسائل علمية تبنى على أساسها، وهي قائمة على الاستفادة من التجارب السابقة لتكرار الإيجابي منها، وتنحية السلبي، وهناك كتب أمريكية كثيرة عكف مؤلفوها على رصد أساليب ونتائج الحملات الانتخابية السابقة بدقة للاستفادة منها.
* من يفوز في الانتخابات في الغرب غالبًا هو الرئيس الأكثر قدرة على الإنفاق على حملته الانتخابية أي على برامج صناعة صورته، والقادر على ترتيب وعوده الانتخابية للشعب وفقًا لأولويات أجندة الناخبين أو الجمهور، أي وفقًا لنظرية الـ Agen-da Setting، سواء موَّل الحملة من ماله الخاص أو بتمويل من حزبه، ويلي ذلك المرشح القادر على أن يُمالئ جماعات الضغط أو اللوبيات في الأروقة السياسية، وأهمها اللوبي الصهيوني.
* لا ينساق المرشح للرئاسة في الغرب للوعد بما لا يستطيع؛ لأن شعبيته وصورته تقاس بمدى تعاطيه مع القضايا ذات الأولوية في الاهتمام لدى الجماهير، (والتي تتحصر أساسًا في أمريكا كمثال في : البطالة والاقتصاد، والسياسة الخارجية).
* يستخدمون في الغرب كل أساليب الترويج التجاري في مجال السياسة؛ لتسويق صورة الرؤساء أو المرشحين للرئاسة، ولذلك فخبراء الصورة الأمريكيون بالذات لديهم القدرة على الإقناع بأي مرشح.. حتى لو لم يكن له قدرات سياسية أو أي قبول شعبي عن طريق التكرار والإلحاح كأساليب الإعلان عن السلع.
* يُستخدم عنصر الإيهام كثيرًا في صناعة صورة الرؤساء في أمريكا، وفي مقدمتها الإيهام بالشعبية الكاسحة؛ من خلال نشر بيانات وأرقام مبالغ فيها عن التفاف الجماهير حول الرئيس المرشح.

* يستخدمون في الغرب أحيانًا حيلا قذرة، وألاعيب انتخابية يخترعونها، وأسلحة دعائية يُتقِنونها؛ بوصفهم من المحترفين في مجالات صناعة النجم!
* غالبًا ما تنجح حيل وألاعيب خبراء صناعة الصورة في الغرب، فتأتي أحيانًا إلى سُدة الحكم بمن لا يستحق شغل هذا المنصب، وتنسحب آثار ذلك سلبًا على كل دول العالم الذي أصبح كالأواني المستطرقة، خاصة بعد أن أصبح الرئيس الأمريكي عمدة العالم، والحاكم بأمره فيه.
* خبراء وصُنّاع الصورة لا بد وأن يكونوا من نفس المجتمع، أو دارسين متعمقين له؛ حتى يعرفوا ما يريده الناس، ويقدموه لهم فيتقبلوه (كمثال يعكس أهمية ذلك تجربة خبراء الصورة الأمريكان مع السادات).
* يجب ألا يُكتفي بأن يضم فريق العمل حول أي رئيس خبراء إعلام وعلاقات عامة فحسب.. ولكن لا بد وأن ينضم لهم خبراء في السياسة والاقتصاد وعلم النفس الاجتماعي والسياسي، والاجتماع القانوني وحقوق الإنسان، ورجال دين؛ حتى يُلِمّوا بكل ما يتعلق بحياة الناس، وطباع الشعب وحراكه الاجتماعي ورغباته.
* لابد وأن يخضع الرئيس أو المرشح للرئاسة لمشورات خبراء الصورة خضوعًا تامًا، وأن يُنفّذ تعليماته بدقة بالغة، ويتدرَّب على كل ذلك تدريبًا صارمًا؛ ليمثل الدور المطلوب منه بإتقان يحقق بغيته.
* للمرأة دور هام في الغرب في رسم الصورة، وللإعلان عن جوانب من الحياة الخاصة إيجابياته في تقريب الرؤساء واكتسابهم شعبية، بعكس الحال في العالم العربي إذ قد يُسيء

التكثيف الإعلامي حول زوجة الرئيس أو حياته الخاصة إلى صورته ولا يُشكّل إضافة إيجابية لها.

* عادة تبدأ الحملات الدعائية للرؤساء في الغرب مبكرًا جدًا؛ حتى تبدو تلقائية وعفوية؛ لأن الجماهير لا تحب الدعاية المباشرة ولا تتأثر بها.

* لا تُترك أي أمور للمصادفة في الحملات الدعائية لتقديم الرؤساء.. بل توضع برامج لمواجهة أي حملات دعاية مضادة، ويحرص مخططو الحملة الدعائية على تفنيدها والرد عليها على وجه السرعة؛ حتى لا يتأثر بها الناس.. في حين نتباطأ في العالم العربي عن الرد على أية شائعة ونتجاهلها إلى أن يصبح لها دوي وأثر سلبي على صورة الرئيس.

* للخطب السياسية التي تتحدث بنبل عن القيم وتُلقى بحماس تأثير إيجابي في صناعة صورة الرؤساء، ويحرصون على اختيار محرريها بعناية بالغة، وينطبق ذلك على الرؤساء الغربيين والعرب على حد سواء.

* تستخدم في عمليات رسم الصورة المرغوبة للرؤساء أساليب لغوية تعتمد على علم الكلام السياسي أو التلاعب بالكلمات، وقول نصف الحقيقة للتهرب من الاتهامات، وتبرير الأخطاء.. ناهيك عن المراوغة والتورية، والإسقاط، وغيرها من الأساليب اللغوية المؤثرة.

* تؤثر زلات اللسان وهفوات الرؤساء في صورهم الذهنية لدى الجمهور، ويستوي في ذلك الشرق والغرب؛ ولذا يحرص الجميع على وجود من يُحسِن صياغة الخطب السياسية.. لكن الرؤساء أنفسهم قد يفسدون ما كُتب لهم لو أضافوا من عندهم ما يمكن أن يشوه صورهم عن غير قصد.

* كانت السمات الشخصية للمرشح للرئاسة تعتبر الأوراق الرابحة له كسياسي؛ من خلال الاتصال الشخصي والمواجهي، وذلك قبل عصر التليفزيون أما الآن فيمكنه أن يُقدم شخصيته للناخبين ويعرض وجهات نظره من خلال برامج التليفزيون السياسية.
* تعد أخبار المساء في التليفزيون من أفضل الوسائل الإعلامية في رسم صورة الرؤساء الغربيين.. برغم ما للصحافة من دور فريد - لا يستطيع التليفزيون تحقيقه - ألا وهو زيادة حصيلة المعلومات عن الرئيس.
* فرَّقت البحوث الغربية حول صناعة صورة الرؤساء بين المهارات الجيدة للقائمين بالحملة والمهارات السياسية الجيدة للمرشح، وبالمقابل المهارات السيئة والسمات السيئة والدعاية السيئة.
* يقيَّم المرشح للرئاسة في أمريكا بما لديه من السمات القوية للقيادة، وظهوره في التليفزيون بصورة المنتصر، وبمظهر الواثق، وبما لديه من القدرة على الاتصال الجيد.
* تُحسب مرات ظهور المرشح في التليفزيون بنسبة دقيقة ومحسوبة علميًا، ويُحبَّذ ظهوره وسط زحام شديد ليمثل أعلى نسب ظهوره على الشاشة، حيث إن للظهور المنفرد مدلولا معينًا، وللظهور في حشد كبير من الناس مدلولا أكثر تأثيرًا؛ لذا يتم التركيز عليه والإكثار منه لما يعطيه له من ملامح شعبية.
* لتوقيت ظهور المرشح للرئاسة أهميته أيضًا في التخطيط للحملات الانتخابية وتحقيق الصورة المرغوبة وفقًا لأهم أوقات العرض أو ذروة المشاهدة لدى جمهور التليفزيون.. حيث لا يُترك شيء للصدفة والمقادير كما يحدث في عالمنا العربي.
* يحيط صُنَّاع الصورة في أمريكا المرشحين عن عمد بمؤثرات

سمعية وبصرية لتصاحب أحاديثهم المذاعة، فهي جزء من إخراج المشهد الدعائي؛ كي يُحدِث التأثير الموحي بالحميمية ودفء المشاعر، كما يتعمدون تمرير ملامح الصورة المرغوبة في جو من المرح والتلقائية وسط الزحام.

* للصورة الفوتوغرافية دور هام في صياغة وتشكيل الصورة الذهنية، من حيث اللقطات أو زوايا التصوير، والحركة والملامح واللفتات وحجم الصورة، والتفاف الجماهير حول الرئيس واستعلاؤه وحركة يده والتحامه بالجماهير وإنصاته لهم؛ لأنها تعكس بساطته وقربه من الناس، مع الربط بين المرشح للرئاسة والرموز كالأعلام والمشاهير من النجوم والآثار، كذلك علاقته بفريق حملته وإظهار مدى تفانيهم في خدمته.

* تتحول الحملات الدعائية إلى مهرجانات تجارية واحتفالات كرنفالية؛ نتيجة لما يُبتكر باسم المرشح للرئاسة من هدايا : شارات، وتي شيرتات، وكابات تحمل اسمه وصورته.

* تختلف وسائل وأساليب رسم الصورة في الغرب من مجتمع لآخر؛ متأثرة بتراث وتقاليد كل شعب، وما يتفق وميوله ورغباته، فلكل شعب خصائصه المميزة له عن غيره من الشعوب الغربية الأخرى.

* يُطوِّر خبراء الصورة في الغرب أساليبهم وفقًا لإدراكهم لتبدُّل رغبات الناخبين وأهوائهم من حقبة زمنية لأخرى، ولاطلاعهم على كل جديد ومفيد في البحوث العلمية الأنثروبولوجية، وآخر المستجدات على كل صعيد.

* يستفيد صُنّاع الصورة في الغرب من البحوث الأكاديمية والعلمية في وضع برامجهم.. في حين توجد فجوة في العالم العربي بين المنظِّرين من الأكاديميين والعاملين في الحقل

الإعلامي أو الدعائي، إذ يرون أن ما تضمه البحوث الأكاديمية مجرد تقعير وتنظير غير قابل للتطبيق.

* تعتبر المناظرات العلنية من أبرز الملامح المميزة للحملات الانتخابية في أمريكا بالذات، إذ تتم على الشاشات التليفزيونية وليس في مؤتمرات انتخابية حزبية خاصة.. ناهيك عن إلقاء البيانات في التليفزيون دون مناقشة لها .. ولكن كمرحلة تمهيدية في الولايات قبل بدء المناظرات العامة والعلنية.

* هناك نزعة في الشرق لتأليه الحاكم وعدم ذكر مثالبه بأية حال.. حتى لو كانت مثار همس ويلوكها الجميع، إذ يميل الشرقيون إلى المبالغة في وصف الحاكم، خاصة فيما يتعلق بقوته وحزمه وحكمته، فهم يُنطقون بما لم يتفوه به، كدليل على الشجاعة الأدبية، والحكمة، والبطولة الخارقة، ورجاحة العقل.

* توارث العرب فكرة تأليه الحاكم من أهل الحضارات الشرقية القديمة (الفرعونية والبابلية والأشورية والفارسية) حيث كان الحاكم يؤله نفسه بنفسه أو بوحي من كهنته.

* من صفات الألوهية في مصر الفرعونية أن الحاكم يتمتع بعلم إلهي، فهو عليم لا يخفى عليه شيء، وهو حكيم مُلِم بكل المعارف، وكل ما يتفوه به واجب التنفيذ، فمشيئته قانون، ولها قوة العقيدة الدينية، وهو لا يُخطئ أبدًا؛ ولذلك كان هو المُشرِّع والمُنفِّذ، وهو المرجع الأعلى، وللأسف ما زالت بعض هذه السمات تلتصق بالحكام المصريين.

* السلطة في بلاد الرافدين كانت تستند إلى مصدر إلهي، فالحاكم هو نائب الآلهة أو مندوبها وظلها على الأرض؛ ولذا قد دأبوا على إطلاق اسم ملكي لكل حاكم، وظل هذا الطقس البابلي ملمحًا أساسيًا حتى العصر الإسلامي في الدولة

العباسية، هذا وقد كانت فكرة الطاعة البابلية المطلقة أو التامة فضيلة كبرى وسمة أساسية في العلاقة بين الحاكم والمحكومين في بلاد الرافدين عبر العصور.

* تميزت فكرة تقديس الحاكم في الحضارة الفارسية بطقوس السجود له، وتتويجه بتاج وإجلاسه على عرش، وهذه الطقوس تناقلتها الحضارات الأخرى حتى الغربية، وأول من اقتبسها كان الإسكندر الأكبر، وقد رأى بعض المؤرخين أن آسيا هي أصل ومنبع الاستبداد في كل الفلسفة السياسية في أوروبا، وقد ظلت بعض ملامح التقديس الفارسي إلى عصر آخر أباطرة بلاد فارس محمد رضا بهلوي.

* لكل بلد طابعها المميز في تعاملها مع حكامها، وقد كان لمصر طابع خاص في هذا الصدد؛ نظرًا لتقلب الحكام عليها من كل حدب صوب، ومن كل ألوان البشر وجنسياتهم ومللهم ونحلهم وأجناسهم ما بين رجال ونساء وخصيان! وقد صبر المصريون طويلا على الكثيرين منهم صبرًا غير مبرر وغير مفهوم، إذ كانوا يكتفون بالسخط والتذمر والكراهية والسخرية وإطلاق النكات.. دون الثورة العارمة التي يمكن أن تطيح بهؤلاء الحكام، الأمر الذي يتطلب المزيد من الدراسات التاريخية والسياسية لسبر غوره وتفنيد أسبابه.

* في العصر الإسلامي كان القصص الديني وسيلة إعلامية لرسم صورة الخلفاء والولاة، وذلك منذ تسييس الإسلام إبان العصر الأموي، وقد لعب الخيال المشبوب دوره في كل ما ورد في هذا القصص من مبالغات، واستمر حتى العصر العباسي متأثرًا بالتراث الفارسي حتى أصبح مروجوه من أصحاب الصنائع الفاسدة الواجب تعقبهم، وهم قياسًا من نسميهم الآن بصُنّاع الصورة.

* كان استخدام الألقاب الموحية وسيلة أخرى من وسائل تشكيل ورسم الصورة المرغوبة للحكام العرب وقد بدأ ذلك أيضًا من قِبل الخلفاء الأمويين بوجه عام وفي الأندلس على وجه الخصوص، وقد تطورت هذه الألقاب من مجرد سمة محببة إلى نسبة للدولة، إلى أن تطورت لتنسب إلى الله وإلى الدين في العصر العباسي في بغداد؛ امتدادًا للطاعة البابلية وتأليه الحكام منذ مولدهم أو ولايتهم للعهد، كتمهيد مبكر لرسم صورتهم كحكام.
* كان من أساليب رسم الصورة أيضًا استخدام الخطباء والشعراء والمادحين والمغنين وبذل العطاء لهم، كذلك التلويح بالقوة والبطش لمن لا يتقبل حلو الكلام عن الحاكم، أو للرافضين للصورة المطروحة عليهم، أو من يرفضون البيعة لهم.
* كانت رموز الدولة وأختام الحكام العرب وشعاراتهم من مظاهر رسم الهيبة للحاكم، ولكل المحيطين به من رؤساء أقل مكانة كل وفقًا لمنصبه، وبالطبع كان يُعظّم من قدر هذه الشعارات والرنوك والأختام ما فيها من زركشة وتصميم مركب واستخدام للألوان.. لكنهم لم يصوروا أنفسهم رسمًا أو نحتًا.. بل اكتفوا بالزخارف الخطية على جدران القصور والمكتبات والمسكوكات من العملات المعدنية.. ناهيك عن الطغراء (التوقيع السلطاني) الذي يصعب تقليده، والخاص بالحكام العثمانيين بالذات كرمز للسلطة.
* أنشئت مؤسسات تابعة للحكام في عصر محمد علي وأسرته، كانت تقوم كجزء من عملها بتشكيل صورة هؤلاء الحكام، كما بدأت وسائل الاتصال الجماهيري في الظهور والقيام بدورها، بدءًا بالصحافة، ثم الإذاعة، فالجريدة السينمائية الناطقة، كما

كان لهؤلاء الحكام أنشطة إنسانية خيرية وكشفية تقرّبهم من الرعيّة بأسلوب عصري.

* في العصر الجمهوري حُكِمت مصر لأول مرة منذ حكم الإسكندر الأكبر من قِبل أبنائها من المصريين، وكانت أساليب تشكيل صورهم متباينة؛ وفقًا للسمات المرغوبة في كل صورة، كما كان لظهور التليفزيون في مطلع الستينيات أثره الفاعل في تشكيل صورة الحاكم، وتقريبه من الجماهير.

* تطابقت ملامح الصورة الذهنية للرئيس محمد نجيب مع ملامحه وسماته الشخصية فاكتسبت مصداقية، والتفَّت حوله قلوب المصريين، خاصة الأطفال، وكان لبشاشته وتواضعه الجم أثرهما في تشكيل هذه الصورة المحببة، وقد اكتسب شعبية كاسحة جعلت الكثير من المصريين يحزنون لخلعه، الأمر الذي صعَّب - في أول الأمر - على خلفِه مهمة رسم صورة له يمكن أن تحل محل صورة نجيب.

* كانت عملية تشكيل الصورة المرغوبة لعبد الناصر جد صعبة بعد ما حظيت به صورة الرئيس نجيب من شعبية.. لكن صور عبد الناصر تشكلت من خلال الظروف التاريخية المصاحبة لتوليه، ووعي مؤسسة الرئاسة بضرورة وجود سكرتير صحفي للرئيس، ثم استحداث منصب وزير شئون رئاسة الجمهورية.. ناهيك عن الكاريزما الخاصة بعبد الناصر نفسه، من حيث الهيبة، ومن حيث ما شاع عن شجاعته بعد حادث المنشية، ثم دأب وسائل الإعلام المتاحة آنذاك في الترويج له، ولمبادئ الثورة كدعاية سياسية خدمت صورة عبد الناصر في إطار طرحها لمبادئ الثورة التي تلاقت ومصالح الجماهير.

* تطابقت سمات صورة عبد الناصر مع سمات شخصيته، الأمر

الذي دعم مصداقية الصورة الذهنية التي انطبعت عنه لدى الجماهير العربية، وقد كان لبثه الأمل في نفوس الجماهير، وإشعارهم بقوتهم، وتعزيز إحساسهم بالكرامة، وتحقيق مطامحهم في التحرر أثرها كعوامل دعمت صورته أيضًا.

* كان الغناء وسيلة دعاية فاعلة في رسم صورة عبد الناصر كما كان للتصوير الصحفي - كأداة في تشكيل الصورة - أثره البالغ في تشكيل صورته كزعيم.

* استعان الرئيس السادات بخبراء في صناعة الصورة من أمريكا.. لكنه لم يلتزم بدقة بمشورتهم، فكان عدم التزامه بنصائحهم وإدخال ملامح أخرى من عندياته على الصورة المطروحة أثره الذي أضر بها فلم تصدَّق، كما أن خبراء الصورة لم يكونوا على دراية كافية بنفسية الشعب المصري، الذي يتوجهون إليه ببرامجهم فبنوا صورة السادات على أساس من القيم الغربية في تشكيل صور الرؤساء.

* في العراق تأثرت صور الحكام عبر التاريخ بالطاعة البابلية والتقديس الفارسي.. لكن الشعب العراقي مهما صبر على حكامه فإنه حينما ينقلب عليهم يُنكل بهم، ولذلك اعتمدت أساليب رسم صور الرؤساء في العراق على عنصر الإيهام بالقوة والمهابة أكثر من السمات الطيبة المتعارف عليها في باقي دول العالم العربي.

* كان الرئيس عبد الكريم قاسم نموذجًا فريدًا، إذ كان يُمجِّد نفسه بنفسه، ويستخدم الصحافة والخطابة من خلال الإذاعة، لتكريس فكرة أنه الزعيم الأوحد، الذي تهتف باسمه الجماهير، وتصفق له إعجابًا بناء على طلبه كالحواة!! إلى أن انقلبوا عليه فمثَّلوا بجثته في الشوارع.

* ارتسمت صورة صدام حسين بوصفه الدكتاتور العادل، الذي تميز بحس أمني عالٍ جعله قلقه وشكه فيمن حوله لا يطمئن لأحد، ويحيط نفسه بأهل الثقة من عشيرته، وقد استخدم أساليب متعددة في رسم وتشكيل صورته، تمثلت في الجداريات الضخمة التي تحمل صوره، والموضوعة في كل مكان حتى داخل المساجد، واعتمدت عنصر المبالغة والتضخيم في الصور والتماثيل، ورفع الشعارات النبيلة المنادية بالوحدة العربية، كما استخدم كل أساليب الدعاية المستحدثة، مع الإيهام بأنه مركز كل المعارف والأمجاد، وكأنه هو العراق ورمزها، ناهيك عن تلقيبه بألقاب تمنحه تعظيمًا وتخليدًا ومهابة.

الخلاصة أنهم في العالم العربي يصنعون الرئيس أو الزعيم، ويبالغون في إسباغ سمات ومسميات عظيمة عليه، حتى تتضخم ذاته، ثم لا يستطيعون السيطرة على المارد المتعملق الذي صنعوه بما اقترفته أيديهم.. حتى لو كان مجرد كذبة أطلقوها بأنفسهم، وحاكوا خيوطها، ثم صدَّقوها، وعاشوا فيها، وباتوا لا يتصورون العيش بدونها.

و الغريب حقًا أنه رغم إدراك الصفوة في المجتمعات العربية لخطورة ما يحاك للدول بليل في قضية الرئاسة، ومحاولة فرض أنماط معينة عليها من خلال التوريث الجمهوري كبدعة.. إلا أنهم ومن ورائهم الملايين من الجماهير يستسلمون لما يُمارس عليهم من أساليب التجديد والتمديد للحكام الحاليين، ولأبنائهم من بعدهم، خاصة وأنه من الملاحظ أن ملاك الموت قد زار عددًا غير قليل من الرؤساء والملوك العرب المخضرمين خلال الأعوام الثلاثة الماضية وقضى بالتغيير الإلهي للقيادات، فآثرت معظم النظم العربية السلامة، وسلمت بالتوريث.. سواء كان النظام ملكيًا أو جمهوريًا.. فيما عدا لبنان النظام العربي الديمقراطي ذا الطابع المميز،

والجزائر التي تخطو نحو الديمقراطية.. ولكن بحسابات أهمها ألا يركب الإسلاميون الموجة تمامًا، وهو هاجس يؤرق معظم النظم العربية، على مستوى الصفوة وعلى مستوى الجماهير.

هذا ولعل التسليم بمبدأ التوريث كامتداد لسلطات حكمت على امتداد سنوات طويلة.. لا بل وعقود.. حتى قتلت لدى الجماهير إمكانيات التخيُّل، لوضع سيناريوهات تخرج فيها هذه السلطات من الصورة أو الكدر، ولا تستطيع استيعاب التغيير الجذري للوجوه المعروفة، فتستسلم تحت التأثير المعجز لوسائل الإعلام لأقدار تحاك لها، وتصوَّر لها أن فكرة التوريث هي البديل الأفضل عما يُمكن أن يحدث من فوضى، لو اختفت هذه الوجوه عن الساحة!! والأمر أولا وأخيرًا أساليب إعلامية لرسم وتشكيل الصور، ومحاولات لتمرير وجوه جديدة تحل محل وجوه رحلت لتكون امتدادًا لها، وتكريسًا لثوابتها التي لا تخدم بحال صالح الجماهير المغرر بها.. فهل نفيق وندرك أبعاد المؤامرة، وخطوطها التي تحاك في مراكز صنع القرار الأمريكي، وتستعين بخبراء وصناع صورة الرؤساء الأمريكيين؟!

المراجع

الكتب العربية:

- أ. أجارييشيف، ناصر، ترجمة د. سلوى أبو سعدة وأحمد شرف، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٧م.
- إبراهيم بيضون، الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
- إسماعيل إبراهيم، فن المقال الصحفي، دار الفجر للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.
- إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية : دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، العدد ١٨٣ .
- أمير الزهار وفاروق إبراهيم، صور وأسرار من حياة الكبار، مطابع أخبار اليوم.
- أنور السادات، البحث عن الذات .
- أنور السادات، وصيتي، المكتب المصري الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.
- أنور السادات، يا ولدي هذا عمك جمال، سلسلة كتب قومية، العدد ٣١٢، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥م.
- البحوث الإعلامية في الوطن العربي، إعداد الزبير سيف الإسلام، مطبوعات المركزالعربي للدراسات الإعلامية، ١٩٨١م.
- الميثاق (قدمه الرئيس جمال عبد الناصر للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية)، منشورات وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات، ٢١مايو ١٩٦٢م.
- الوثيقة الخضراء الكبرى لحقوق الإنسان، في عصر الجماهير، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ليبيا، ١٩٨٨م.

- بطرس غـالي، المدخل فـي علم السيـاسـة، مكتبـة الأنجلو المصـرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٠ م.
- بول فندلي، من يجـرؤ على الكلام : اللوبي الصـهـيـوني وسـيـاسـات أمـريكا الداخليـة والخـارجيـة، شـركـة المطبوعـات للتـوزيع والنشـر، بيروت، ١٩٨٨م.
- بول كروجمان، " حل اللغز الكبير "، ٢٠٠٣م.
- بيل كلينتـون وآل جـور، رؤية لتـغـيـيـر أمـريكا : الاهتـمـام بالناس أولا، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- تاريخ الحـركة القـوميـة وتطور نظام الحكم في مـصـر، الجـزء الثاني، الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠.
- تاريخ الحضارات العـام، إشراف موريس كورواز ية، ترجمـة فـريد آخـر وفؤاد أبو ريحان، المجلد الأول .
- تامر سمير عبد العزيز، بحث بعنوان لمحات من حياة السادات متداول على شبكة الإنترنت .
- جون لويس بوركهارت، العـادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشـعبية في عهد محـمد علي، ترجمـة د. إبراهيم شعلان، الألف كتـاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م.
- حـيـاة السـادات بالصـور، مـجلد صـدر عن مـركـز الأهـرام للتـرجـمـة والنشر في مايو ١٩٩٨م.
- رشاد كامل، زيارة جديدة للسادات، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م، الأعمال الخاصة.
- روبيـر شـارفـان، وجـاك فـينيـه - زانس، الغـرب والظاهـرة القـذافـيـة: دراسـة حـول المشروع الثوري الليبي المعالجة الغربيـة، ترجـمـة محـمـد مجذوب، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م، طرابلس الجماهيرية .
- رءوف عبـاس (ترجمـة) - مصـر للمصـريين - منشـورات عـين - الطبعـة الثانيـة.
- رؤية لتغيير أمريكا : الاهتمام بالناس -منشورات مركز الأهرام- ١٩٩٢م.

- سجل عبد الناصر بالصور، منشورات مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، مجلد الوثائق ١٩٦٩- ١٩٧٠م.
- سمير الهضيبي، الأخ القائد معمر القذافي يرسم السياسة المستقبلية للحركات الإسلامية، القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، ١٩٩٤م .
- سيد خميس، القصص الديني بين التراث والتاريخ، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م، سلسلة الأعمال الخاصة .
- صنع الله إبراهيم، شرف، روايات الهلال، الطبعة الثانية، العدد ٥٧٩، مارس ١٩٩٧م.
- عادل حمودة، النكتة السياسية : كيف يسخر المصريون من حكامهم.
- عبد الرحمن الأبنودي، السيرة الهلالية، مطبوعات أخبار اليوم، ١٩٨٨م.
- عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، الجزء الأول، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.
- عبد الرحمن الرافعي، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو، مكتبة الأسرة ١٩٩٧، العمال الفكرية .
- عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل .
- عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد : المواجهة - التنوير، الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٣م.
- عبد الخالق لاشين - سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية، منشورات مدبولي .
- عبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية .
- عبد الغفار مكاوي - جذور الاستبداد، قراءة في أدب قديم، عالم المعرفة، العدد ١٩٢، الكويت ١٩٩٤م.
- عزة عزت، الصحافة في دول الخليج العربي، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٨١م.
- عزة عزت، صورة العرب والمسلمين في العالم، مركز الحضارة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.
- عزة عزت، صورة عرب مجلس التعاون الخليجي في الصحافة

البريطانية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٨٨م.
- فتحي رضوان، ٧٢ شهرًا مع عبد الناصر، كتاب الحرية ٢، دار الحرية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
- محمد السعيد عبد المؤمن، العمامة والعباءة في السياسة والحكم، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- محمد الشحات، موقف النظرية العالمية الثالثة من المؤسسة العسكرية، المركز العلمي لدراسات الكتاب الأخضر، ١٩٩٦م.
- محمد حسنين هيكل، ٦٧- الانفجار .
- محمد حسنين هيكل، عبد الناصر والعالم، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٢م.
- محمد سلماوي، الصورة الجماهيرية لجمال عبد الناصر، قضايا قومية العدد ٤، دار الموقف العربي .
- محمد عودة، كيف سقطت الملكية في مصر : فاروق بدايته ونهايته، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م، الأعمال الفكرية .
- محمد نجيب، كنت رئيسًا لمصر، منشورات المكتب المصري الحديث، ١٩٨٤م.
- محمود السعدني، عودة الحمار، كتاب اليوم، دار أخبار اليوم.
- محمود السعدني، أمريكا يا ويكا، كتاب الهلال، العدد ٤٧٣، مايو ١٩٩٠م.
- معمر القذافي، الكتاب الأبيض : دولة إسراطين، الإدارة العامة للإعلام الخارجي، ١٩٩٤م.
- معمر القذافي، الكتاب الأخضر، الطبعة ٢٦، ١٩٩٩م، طرابلس ليبيا .
- معمر القذافي، القرية القرية الأرض الأرض (مجموعة قصصية)، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الثانية، ١٤٤٢م (كذا).
- مصطفى بكري، عملية الخيمة الخضراء : أسرار المؤامرة الأمريكية على ليبيا، مركزالفكر العربي للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩١م.
- مصطفى بيومي - جمال عبد الناصر في عيون الأدب العربي، منشورات دار الهدى للنشر، ١٩٩٨م.

- مصطفى نبيل، خفايا وملامح شخصية، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- نادية سالم، صورة العرب والإسرائيليين في الولايات المتحدة الأمريكية، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة. ١٩٧٨م.
- ناصر الأنصاري، موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم. دار الشروق، الطبعة الثالثة ١٩٩٨م.
- ناعوم تشومسكي، السيطرة على الإعلام : الإنجازات الهائلة للبروباجندا، ترجمة أميمة عبد الفتاح، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢م.
- نبيل راغب، أنور السادات رائدًا للتأصيل الفكري. دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م.
- ندوة الفكر السياسي المعاصر : الديمقراطية المفهوم والممارسة، منشورات المركز العالمي لدراسات الكتاب الأخضر، جامعة الخرطوم، ١٩٩٦م.
- يوسف إدريس، البحث عن السادات، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، الطبعة الثانية خاصة بالمغرب العربي، ١٩٨٤م.

القواميس:

- أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المصباح المنير، تحقيق عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ابن منظور، لسان العرب المحيط، المجلد ١، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، دار لسان العرب، بيروت.
- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، طبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٩٩م.
- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة ٢٩ .
- كرم شلبي، معجم المصطلحات الإعلامية إنجليزي / عربي، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الكتب العربية، بيروت .

موسوعات :

- شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب، الطبعة الثانية.

الصحف العربية :

- إبراهيم نافع، عمود "حقائق"، ١٨ / ١٠ / ١٩٩٧م.
- إبراهيم نافع، عمود "حقائق"، ٢٩ / ٨ / ١٩٩٩م.
- إبراهيم نافع، عمود حقائق، الأهرام، ١٨ / ٨ / ١٩٩٩م
- أحمد إبراهيم الفقيه، زاوية كل خميس، ٥ / ٢ / ١٩٩٨م.
- أحمد الصاوي محمد، الأهرام، ٢ /١٢ / ١٩٥٢م.
- أحمد بهجت، صندوق الدنيا، ١٠ /١٠ / ١٩٩٨م.
- أحمد يوسف، تحقيقات وتقارير خارجية، الأهرام، ٢٠٠٢/٣/١٦م.
- أحمد يوسف، من باريس، الأهرام، ٢٩ / ٤ / ٢٠٠٢م.
- أنيس منصور، مواقف، ١٧ / ٦ / ٢٠٠٣م.
- أنيس منصور، مواقف، ٢٠ / ٧ / ١٩٩٩م.
- أنيس منصور، مواقف، ٢٨ / ٩ / ١٩٩٨م.
- أنيس منصور، مواقف، الأهرام، ١ / ٩ / ١٩٩٩م.
- أنيس منصور، مواقف، الأهرام، ٢٩٩ / ٤ / ٢٠٠٤م.
- أنيس منصور، مواقف، الأهرام، ٢٩ / ٦ / ٢٠٠٣م.
- أنيس منصور، مواقف، الأهرام، ٢٩ / ٦ / ٢٠٠٣م.
- الأخبار، ٢٦ / ٣ / ١٩٩٦م.
- الأهرام، ١٠ / ١٠ / ١٩٩٨م.
- الأهرام، ٢٢ / ٩ / ١٩٩٨م.
- الأهرام، ٩ / ٩ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، أخبار العالم، ١٥ / ٣ / ٢٠٠٤م.
- الأهرام، تحقيقات وتقارير خارجية، ٧ / ٦ / ٢٠٠٣م.
- الأهرام، رسالة واشنطن، إعادة صياغة حزب ٢٠٠٠/٨/٩م.
- الأهرام، نقلا عن الديلي ميل البريطانية، ١١ / ٤ / ٢٠٠٢م.

- الأهرام، نقلا عن فرانس برس، ١٩ / ٣ / ٢٠٠٣م.
- الأهرام، ٢٩ / ٨ / ١٩٩٥م.
- الأهرام، ٤ / ١٢ / ١٩٥٢م.
-الأهرام، ٢ / ٢ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٥ / ١٠ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، ٤ / ٥ / ١٩٩٩م.
- الأهرام، ٨ / ١٢ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، ٧ / ٦ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٣ / ٩ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، ٢٥ / ٩ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، ٦ / ١٠ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، ٢٥ / ١٠ / ١٩٥٢م.
-الأهرام، ٢١ / ٩ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، ١٥ / ٢ / ١٩٥٣م.
-الأهرام، ١ / ٣ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٤ / ٦ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١٢ / ٢ / ١٩٥٣م
- الأهرام، ٢٠ / ١ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١٣ / ١ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١ / ٧ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١٣ / ١١ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، ٧ / ١٢ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، ١٥ / ٤ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١٦ / ٩ / ٢٠٠٣م.
- الأهرام، ١٦ / ٢ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١ / ١ / ١٩٥٣م.

- الأهرام، ١٨ / ١ / ٢٠٠٠م.
- الأهرام، ١٩ / ١١ / ١٩٥٢م.
-الأهرام، ٢ / ٧ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١٣ / ٤ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢ / ٨ / ٢٠٠٣م.
-الأهرام، ٥ / ٧ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٢ / ٦ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٩ / ١١ / ٢٠٠٣م.
- الأهرام، ٢٣ / ٧ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٧ / ١١ / ١٩٥٢.
- الأهرام، ٢٤ / ٣ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٥ / ٣ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٣ / ٢ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٥ / ٧ / ١٩٩٩م.
- الأهرام، ٣٠ / ٩ / ١٩٥٢م.
- الأهرام، ٣ / ٦ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٧ / ٦ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٩ / ٤ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٨ / ٥ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢١ / ٣ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٩ / ١ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٢٠ / ٥ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١٣ / ٤ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١٤ / ٤ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ٣٠ / ٤ / ١٩٥٣م.
- الأهرام، ١١ / ٤ / ٢٠٠٢م.

- الأهرام، ١٩ / ١ / ٢٠٠١م.
- الأهرام، ٧ / ٦ / ٢٠٠٣م، تحقيقات وتقارير خارجية .
- الأهرام ١١ / ٤ / ٢٠٠٢م، نقلا عن الديلي ميل البريطانية .
- الأهرام، ٢ / ٨ / ٢٠٠٣م.
- مجلة الهلال يونيو ٢٠٠٤م .
- الجمهورية، ملحق نهاية الأسبوع، ٣٠ / ٧ / ١٩٩٨م.
- المصري، ٢٤ / ٧ / ١٩٥٢م.
- سلامة أحمد سلامة، عمود من قريب "نتائج متواضعة"، الأهرام، ٢٠٠٣/٦/٧م.
- سلامة أحمد سلامة، عمود من قريب "أحداث متقاطعة"، ٢٠٠٤/٥/١٠م.
- سليم اللوزي، الحوادث عدد خاص عن دولة الإمارات العربية المتحدة، مقال "رجل مناسب وجد في وقت مناسب"، ١٩٧٢/١٢/٢م.
- طارق الشيخ، الأهرام، ٢٨ / ٨ / ٢٠٠٣م.
- طارق حسن، الأهرام، " مسيرة حياته كما رواها بنفسه: صدام حسين دولة التماثيل والأمن والدعاية "، ١٥ / ١٢ / ٢٠٠٣م.
- عادل الشرقاوي، تحقيقات وتقارير خارجية، الأهرام، ٢٠٠٣/٥/١٢م.
- عادل حمودة، مقال صباح السبت "النوم مع العدو"، الأهرام، ١٩٩٨/٨/٢٦م.
- عادل حمودة، مقال صباح السبت "عرفات : هل هي النهاية؟" ٢٠٠٣/٦/٧م.
- عادل حمودة، مقال صباح السبت: حزب الله الأمريكي، الأهرام، ٢٠٠١/١١/٣م.
- عادل حمودة، الأهرام، مقال صباح السبت: حفر منفرد على الماء، ٢٠٠٣/٨/٢م.
- عادل حمودة، الأهرام، صباح السبت: حكام من برج النحس، ٢٠٠٣/٨/٢٣م.
- عادل حمودة، الأهرام، صباح السبت : مدينة على جبل، مايو ٢٠٠٤م.
- عبد الملك خليل، " في ذكرى ميلاده الـ ٧٥ جيفارا ما زال ملهمًا للملايين، رسالة موسكو، الأهرام، ٥ / ٧ / ٢٠٠٣م.
- عبد الملك خليل، الأهرام، ١٥ / ٣ / ٢٠٠٤م.
- عبد العظيم رمضان " قصة وزارتين ٤ "، الأهرام. ١٩٩٨/٨/٢٩م.

- عـزت السـعـدني، تحـقـيق السبت "عندمـا يكتب الزعـمـاء"، الأهـرام، ٢٠٠٣/٨/٢٣م.
- عزة سامي، الأهرام، تحقيقات خارجية.
- عـزة عـزت، حـديث مع الرئيس عـرفـات، الأنبـاء الكويتـيـة، ١٩٩٠/٥/٢٨م.
- عمرو مبروك، مقال "ذكرى رحيل ملك ونهاية أسرة"، الأهرام.
- غادة الشرقاوي، الأهرام، ١٢ / ٥ / ٢٠٠٣م.
- فهمي هويدي " في زمن السكسوقراطية"، الأهرام، ١٩٩٩/٩/٢٩م.
- كلام الناس، العدد، ٥٠٤، ١٠ / ١ / ٢٠٠٣م.
- لطفي الخولي، عمود اجتهادات، الأهرام، ٢٢ / ٩ / ١٩٩٨م.
- مـصطفى عـبـد الله، خـواطر مـراسل من رومـا، تحـقـيـقـات وتقـارير خارجية. الأهرام، ٢٤ / ١ / ٢٠٠٤م.
- محمد إبراهيم الشوش، زاوية كل سبت، الأهرام، ١٩٩٨/٩/١٩م.
- محمد السماك، زاوية كل أربعاء، الأهرام، ١٦ / ٧ / ٢٠٠٣م.
- محـمد السـمـاك، عمود كل أربعـاء "ليس دفاعًا عـن كلينتون "، الأهـرام، ٣٠ / ٩ / ١٩٩٨م.
- محـمد حسنين هيكل، " فن صناعة البـطل "، ملحق صوت الأمـة، نقلا عن الأهرام ١٩٦٢/٥/٢٥م.
- محمد حسنين هيكل، صوت الأمة، ٥ / ٥ / ٢٠٠٣م.
- محمد حسنين هيكل، ملحق صوت الأمة، ٢١ / ٧ / ٢٠٠٣م، نقلا عن الأهرام في ١٩٧٦/٣/٨م.
- مـحـمد سيد أحـمد، الأهرام، مقـال "مـعضـلات عـصرية: بـروسـترويكا القذافي، ٦/ ٥ / ٢٠٠٤م.
- محمود صلاح، "أطول حديث مع أنيس منصور"، آخر ساعة، ١٩٩٩/٤/٧.
- مـحـيي الدين عـمـيـمـور، زاوية كل اثنين انطبـاعـات عـابرة، الأهـرام، ٢٠٠٠/٨/١٤م.

- مصطفى محمود، مقال "الورطة "، الأهرام، ٢ / ٨ / ٢٠٠٣م.
- نصف الدنيا، نصيحة لكل مرشح، ترجمة أميمة إبراهيم، العدد ٥٥٨، ٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٠م.
- هشام الحديدي، عمود أسبوعيات "كاريزما الزعامات، الأهرام، ملحق الجمعة، ٣٠ / ٦ / ٢٠٠٠م.
- هناء دكروري، الأهرام، ٧ / ٧ / ٢٠٠٤م.
- يونان لبيب رزق، مقال " مؤسسة الرئاسة قراءة تاريخية، ١٩٩٩/٥/٤م.

برامج إذاعية وتليفزيونية:

- حديث لصدام حسين في قناة الجزيرة القطرية الفضائية، أذيع بتاريخ ٥ / ٧ / ٢٠٠٣م.
- خليل فاضل استشاري الطب النفسي السياسي، برنامج على القهوة، قناة دريم، أذيع بتاريخ ٢٠٠٣/٩/٤م.

أفلام تسجيلية:

- "الملفات السرية لأحداث الشرق الأوسط "، فيلم من جزءين، مقتنيات قصر السينما بالقاهرة .

محاضرات عامة:

- أحمد فراج، محاضرة عامة في إطار الموسم الثقافي لجامعة المنيا، الاثنين ٢٦ / ١٢ / ١٩٩٥م.

مواقع إليكترونية:

- النسخة الإليكترونية من مجلة " وجهات نظر " على شبكة الإنترنت عدد مايو ٢٠٠٣م.
- النسخة الإليكترونية من جريدة الإندبندنت البريطانية، مقال بعنوان: "صدام هل يتحول الآن إلى بطل في الشارع العربي "،٢٠٠٠/٤/٢٠م.
- موقع الجزيرة على الشبكة، مقال لخليل العناني " الخلافة السياسية في العالم : رؤية نقدية ".

- موقع ناصر على الشبكة www.nasser.org
- موقع القذافي على الشبكة، www.algathfi.com
- موقع الصن اللندنية على الشبكة، ٢٧/ ٨ / ١٩٩٩م.
- موقع الإيكونوميست، ١٤ / ٨ / ٢٠٠٠م.
- موقع نيويورك تايمز، ٢٢ / ١ / ٢٠٠٤م.
- موقع agawad@aol.com
- موقع واشنطن بوست، الأحد ١٥ / ١٠ / ١٩٩٧م.
- موقع صانداي تيليجراف، ٢٤ / ٨ / ٢٠٠٣م.
- موقع هيرالد تربيون، ٧ / ١٠ / ٢٠٠٣م.
- موقع إكسبريس ماجازين، ٢ / ٣ / ٢٠٠٣م.

المراجع الأجنبية:

- Chat Huntley,Daved Brinki and the staff of N.B.C. news, Acandid portrait of the 1964 presidential election, somehow it works.
- Hellary Klinton _ Living History _
- john Orman _Comparing Presidential Behavior.
- Gorge Malpront & Christian Chesto, Saddam Hussein Portarit Total .
- Kay Lehman _Election in America _
- Perry Anderson: Lineage, of the Absolutist State _ Verson, London 1989.
- Publicans and Press _ 1984,s Uneasy Partners. U.S. News world Report, October 8, 1984
- Robert San John, The Boss.
- Maksim _ Roodnston, Israel and the Arabs.
- Unseeing eye-

Dictionaries :

- The New Oxford Illustrated Dictionary, Volume 1& 2

Newspapers :

- Express Magazine _2,March, 2003
- Herald Tribune, 7, October, 2003
- Sunday Telegraph _ London _ 29, August, 1999.
- The Economist _ 14, August, 2000.
- The Time _ 22, Julay, 2000.
- The Time, 12. June, 2000
- John Africe, Les Cadou, 19, Mars, 1980.

Internet Sites :

- Yahoo web site search.
- Sunday Telegraph electronic issue at the Internet 29, August, 1999.
- The Sun at the web, 27, August, 1999.
- New York Times @ web site, 23, January 2004.
- W.W.W. Algawad at aol.com.
- Washington Post on the web, 15, October, 1997.
- News week on the web, 29, December, 1997.
- Encyclopedia of World History, Anwar Sadat Shocks His Neighbors, Zooba Leader.com.
- The Independent, 2, April, 2003.

المحتويات

المؤلف

د. عزة على عزت

● مدرس التحرير الصحفي - جامعة القاهرة.

● كاتبة صحفية فى عدد من الصحف العربية.

من مؤلفاتها:

* بقعة الدم الهاربة (مجموعة قصصية).
* صعيدى صُح (مجموعة قصصية).
* الصحافة فى دول الخليج العربية.
* لغة الشارع: الشخصية المصرية فى الأمثال الشعبية.
* صورة العرب والمسلمين فى العالم.
* التحولات فى الشخصية المصرية.
* صورة الرئيس.